نحو آفاق أوسع ـ ٤

المراحل التطورية للإنسان

الدين في شبه الجزيرة العربية

أبكار السقاف



أبكار السقاف

نحو آفاق أوسع ـ ٤

المراحل التطورية للإنسان

الدين في شبه الجزيرة العربية



Arab Diffusion Company

نحو آفاق أوسع ـ ٤

المراحل التطورية للإنسان

الدين في شبه الجزيرة العربية

أبكار السقاف



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المحتويات

الدين في شبه الجزيرة العربية

الدين في شبه الجزيرة العربية

الدين في هذا الجانب المُتضوِّع بشذى الإرهاف، والسابق بأرج الحرية والطلاقة، والمُحتضن شمالاً بادية الشام، والمحتضن بالمياه من جهات ثلاث، شرقاً بالخليج الفارسي وبحر عمان، وجنوباً بالمحيط الهندي، وغرباً بالبحر الأحمر، روايةٌ ترويها للزمن أنفاس راويةً:

إن للدين تاريخاً بدأ على هذه الناحية من الدنيا مذ بدأ العقل الإنساني يحفر بين تهم تهامة وأنجاد نجد وسهوب الجنوب وسهول الشمال خطاه متمثّلاً بالعنصر العائد بأصله إلى سام بن نوح، والعائد بسكنه شبه الجزيرة إلى آباء قبليين دفعهم إلى هذه الفدافد والفيافي للفرات في «جنات عدن» هدير «الطوفان»[1] ونشرهم مرور الزمن على هذه الأرجاء قبائل تجمع العمائر، وعمائر تجمع البطون، وبطوناً تجمع الأفخاذ، وأفخاذاً تجمع الفصائل، فعلى صفحة «اليمامة» انتشرت القبائل من أبناء جديس وطسم وفي «الأحقاف» سكنت القبيلة التي تفرعت من أبناء عاد وفي «الحجر» و«وادي القرى»، فيما بين الحجاز والشام، ترابطت الفروع التي انحدرت من أبناء ثمود، وأما في الشمال الغربي، بين تهامة ونجد، فمرحت في استعلاء قبائل تعود بأبوتها إلى مالق بن لاوذ وهم من نعرفهم في سجلات التاريخ القديم بالعمالقة غداة أضيفت كلمة «عم» العبرية وهي تؤدي معنى أمة إلى أبناء مالق، بينما راحت قبائل أخرى من نفس العنصر تذرع البوادي وتجوب السباسب من جنبات هذه الرمال وكل منها تحمل اسم أبيها القبلي وتُضفي بدورها اسم هذا الأب على ما قد اختارته من مكانٍ في فسحات هذه الأرجاء.. ومن هؤلاء كان أبناء عُبيل وكانت ديارهم «بالجحفة» بين مكة ويثرب، كما أن من هؤلاء أيضاً كان أبناء أميم ومدين وثابر وجاسم وحضوراء وحضرموت.

---

(١) **الدين عند الكلدان**، من هذه السلسلة.

ولكن! يد الزمن التي امتدت، والتاريخ ليلاً، فدفعت من وادي الرافدين هؤلاء الآباء القبليين، وعلى هذه الأرجاء، نشرت منهم هذه الفروع إنما كانت كأنها قد اختطّت خُطة وحددت هدفاً وكأنما في مخيلة الزمن كانت حاضرة وبدقة مرسومة أحداث الآتي! فهي بينما كانت تنشر وتطوي هذه القبائل، ليعرفهم التاريخ من بعد «بالعرب البائدة» كانت تُلقي بهم في تربة الآتي بذور «العرب الباقية» من «عرب عاربة» و«عرب مستعربة» مختارة، من بين كل هؤلاء الآباء القبليين العائدين بنسبهم إلى سام بن نوح، قحطان بن عابر، وعابر هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، فليس إلاّ من قحطان قد انداح الليل عن هذه الناحية من الدنيا غداة أشرق التاريخ بابنيه:

يَعرب... مؤسس مملكة اليمن، حيث سطعت على الدنيا حضارة بعد حضارة توالت وولت بتوالي الدولة المعينية فالسبائية فالحميرية، ومن أضفى اسمه على شبه الجزيرة فأصبحت تُعرف ببلاد العرب.

وجُرهم مؤسس مملكة الحجاز حيث في هذا الوادي المحجوز بجبال خندمة شرقاً والمُعلّى شمالاً والحجون غرباً ومنحنيات أبي قبيس جنوباً، أسس ملكاً حجبته العمالقة بظلالها لفترة انتهت برواحهم عن هذا وانتشارهم في أرجاء الشرق القديم، فمنهم كان «الجبابرة» في الشام المعروفين باسم الكنعانيين، ومنهم كان الملوك الرعاة الذين عرفناهم في التاريخ المصري القديم باسم «الهكسوس»، هذا بينما راحت يد الزمن تدفع مرة أخرى جُرْهم أو هذه القبيلة القحطانية التي ما لبثت أن هبّت ومن جديد احتلّت هذا الوادي، ومن ثم كان التفريق التاريخي بين جُرهم الأولى وجُرهم هذه الآخرة التي نعرفها في التاريخ السياسي العربي القديم بجُرهم الثانية.

وبجُرهم عَمَر من أودية شبه الجزيرة هذا الوادي الحاجز بين تهامة ونجد، والحائل بين اليمن والعروض فصيغت بهذه القبيلة القحطانية حلقة وصلت الشام بالمحيط الهندي عن طريق سلسلة من القوافل التجارية، فالمركز الجغرافي للوادي قد جعل منه، منذ حلكة التاريخ، طريقاً مطروقاً للتجارة، لأنه لما كانت القوافل في تسيارها بالقادمين من اليمن إلى فلسطين، وبالصادرين من فلسطين إلى حضرموت تسير في محاذاة البحر الأحمر متجنّبة هضبات نجد ولوافح هجيرها تجنّبها لصخور الشاطىء ووعورة مسلكه كان الوادي ـ بما كان يتخلله من الآبار، وبما كانت متفجرة فيه من العيون ـ المهبط الطبيعي الذي اجتذب إليه هذه القوافل التي اتخذته بادئاً ذي بدء للراحة مناخاً، ثم سوقاً للتجارة يقع فيه التبادل بين الصاعدين من الجنوب والمنحدرين من الشمال.

الشأن كان شأن هذا الوادي في العهد الجرهمي الآخر.. العهد الذي لا نسلّط عليه للتاريخ الديني أضواء إلاّ وعلى هدي «القلم المسند» والنقوش البابلية في الألف الثالث ق.م التي ذكرت الدولة المعينية، نرى رشاشاً قد أصاب هذه القبيلة القحطانية من طوفان ذلك الارتحال «العراقي ـ السوري» الذي اشتد إبان النهضة السامرية بين الرافدين وفي أعقابها وبالتحديد في غضون القرن التاسع عشر ق.م.. فنحن لا نُسلّط الأضواء على هذه القبيلة القحطانية التي اتخذت من هذا الوادي القائم في ملتقى طرق القوافل التجارية المتلاقية من الشمال والجنوب مسكناً إلاّ وتُناولنا يدُ الزمن سجلات محفوفة بالقدسية وعليها جلياً نرى أن بين هذه القبيلة قد هبط إبراهيم بإسماعيل وله من العمر ثلاثة عشر عاماً مقبلاً به من تلك البقاع التي إليها كان قد نزح في أعقاب النهضة السامرية وعهد «أورنامو»[1] غداة ترك إبراهيم «أور» وطناً وإلى تلك الأرض التي بلغ فيها منشود الثراء المادي وأصبح مرهوب الجانب ومخطوب الود بين الآباء القبليين ارتحل، فليس إلاّ على هذه السجلات المغلفة بالقدسية نرى أن لهذا الوادي قد اختار إبراهيم ليقيم لإسماعيل مُلكاً وُضع منه الأساس لحظة انعقدت صلة إسماعيل بجرهم عن طريق ابنة سيد جرهم، وأما الصرح من هذا المُلك فقد قام فيما بعد عقْد هذه الرابطة بفترة من الزمن سجلتها تلك اللحظة التي وقف فيها إبراهيم على أنقاض معالم قديمة لمعبد عتيق[2] يُرسل الصوت في الأرجاء الجرهمية ليروح بينها أصداء تُدوي بأن إليه قد صدر الأمر الإلهي ليقيم للإله بيتاً.. ومن ثم كان قيام هذا «البيت» الذي حتمت لغة بانيه أن يُطلق عليه اسماً بابلياً ـ ولما كانت الكلمة البابلية للبيت هي «مكة» فقد عُرف الوادي نسبة إلى «البيت» بالاسم البابلي للبيت ـ الذي بنشأته كبيت قدسي بدأت من حوله تقترب الفلول الجرهمية لتستقر بجانبه به متبركة ولتبدأ في تاريخ المدن مدينة تحمل اسم...

«مكة»

من أنفاس الماضي يأتينا الدليل بأن مكة لم تقم كبيت، وبالتالي كمدينة، إلاّ غداة عاد إبراهيم لإسماعيل زائراً بعد أن صار لإسماعيل من جُرهم أولاد، إذ ليس إلا بقيام مكة قد بُني لإسماعيل، بين من بينهم كان قد أصحر ولهم قد صاهر ومنهم قد انسل مُلكاً... فقد أصبح إسماعيل ببناء «البيت» لا فحسب زعيماً للعرب الحجازيين وإنما مؤسس ملك ما لبث أن أصبح وراثياً، فقد ولى الجراهمة بعد إسماعيل، أكبر أبنائه ملكاً عليهم ليظل هذا الملك

---

(١) **الدين عند الكلدان**، من هذه السلسلة.

(٢) **الملل والنحل**، للشهرستاني، جـ٣، ص ٢٥٢.

وقفاً على أبناء إسماعيل حتى انتهى إلى «نابِت»... بيد أن لينتهي بنابت لنسل إسماعيل مُلكاً فقد انتزع هذا الملك من نابت أخواله بنو جرهم، وبذلك راح القحطانيون يتوارثون مُلك الحجاز... هذا بينما كان النسب من إسماعيل يسير باثني عشر سبطاً حتى «أد» و«أدد» ويسترسل منهما حلقات حتى «عدنان» لتتشعب الفروع من عدنان قبائل وشعوباً ورهوطاً وعمائر وبطوناً وأفخاذاً، وليتكوّن بذلك، بجانب القحطانيين، العدنانيون، ولتمرح على هذه الصفحة من الدنيا، بجانب العرب العاربة، العرب المستعربة التي بإشراقها على صفحة التاريخ تفجّر فجر غاضب لتفجره سحرٌ في غضونه كانت يد الزمن تُسطِّر رواية:

التفكير الديني في العصر الجرهمي الآخر

من السِّجلات الدينية للتاريخ القديم يأتينا عن لون التفكير الديني في هذا العصر اليقين بأن اللّه إنما اسم فيه رجع الصدى لاسم إله السماء الذي كان معروفاً بين الرافدين تحت اسم إيل أو الإله... فعلى هذه السجلات نرى أن بقيام مكة في هذا الوادي للّه معبداً لم تنشأ عبادة جديدة محورها «اللّه» وإنما تركزت عبادة قديمة محورها «اللّه».. فليس إلاّ غداة امتزج الدم الجرهمي بالدم الكلداني وأثمر هذا المزج المزيج من أصول عدنان التي امتزج بها اللسان البابلي باللسان القحطاني كان أن تحوّل، في تحوير طفيف النطق من «إيل» إلى إله وبالتالي إلى اللّه!

«اللّه» إنما محور التفكير الديني في العصر الجُرهمي الآخر ففي (اللّه)، كواحد إليه بأسبابها تعود الأسباب ومقاليد الكون وأمر الكائنات، انحصر في العهود العربية التفكير الإلهي وانحصرت العقيدة الدينية التي سجّلت ما قد كان للعرب الأوّل خلال هذا العصر من شريعة انبجست أصولها من ينبوع هذا التفكير الذي جاء بدين يحمل اسم:

الدين الحنيف

كوّن المعتقد الإلهي لجرهم الثانية هذا الدين الذي جاء كنتيجة حتمية للعقيدة الإلهية التي رفّت على العصر وانحصرت في الاعتقاد بأن اللّه إنما واحد لا شريك له ولا معين ولا ظهير... مُتَّصف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والإرادة والعلم... موصوف بصفات العلم من السمع والبصر لا تشبه ذاته الذوات ولا تضاهي صفاته الصفات... ليس كمثله شيء منزّه هو عن كل ما يلحق به من صفات الأجسام وحوادث الأعيان وهو، والنور إنما أطهر العناصر، نور.. وهو، وهو الواحد الذي لا شريك له، المتفرّد بملك ملكوت السماء والأرض تفرّداً به إليه تعود أسباب الضر والنفع والمنح والمحن عودة تعود بأسبابها إلى امتلاكه لغير هذه الخاصيات من خواص الألوهية.

عن هذه العقيدة الإلهية للعصر الجرهمي الثاني تتنفس صدور الكتب الإسلامية[1] مؤكدة بأن العقل البشري تحت صبغته العربية خلال هذا العصر كان مدركاً بأنه لا معبود بحق في الوجود سوى اللّه... وأنه الإله الواحد... الملتجأ إليه في جميع الأمور... المتوكّل عليه في جميع الشؤون... وأنه، ولئن كان متفرّداً بملك الضر والنفع، يستحيل وصفه بالظلم إذ هو المالك المقسط بالعدل... ولا يجب عليه شيء... بل هو المتفضِّل على خلقه وله الفضل عن كل شبيه ومعارض... عالٍ على عرشه... دانٍ بعلمه من خلقه، أحاط بالأمور، وأنفذ في خلقه سابق المقدور... يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور... دافعاً خلق الخلق بمشيئته من غير حاجة كانت به وأمره نافذ فيهم فلا ينجيهم حذر... بآجالهم ميتون... وبعد الضغطة في القبور مسؤولون، وبعد الردى منشورون... ويوم القيامة إليه، لحسابٍ بعده الجزاء من ثواب أو عقاب، يُحشرون!

لا ثمة شك في أن معتقداً إلهياً ينحصر في الاعتراف بألوهية إله ماهيته الماهية كان حتماً أن يكون نتيجته هذا الدين الذي سجّل للعقل الإنساني استقامة في عهدٍ باكر من تاريخ حداثته.

ولكن! لئن سجّل العقل الإنساني لنفسه في هذا العهد الباكر من تاريخ حداثته استقامة فليس لا ليسجّل في نفس الوقت على نفسه كبوة كباها في هذه الحداثة التي ليست إلاّ رضوخاً لها واستجابة لإملاءاتها كان أن توهّجت منه العاطفة، عارباً ومستعرباً، بلهب ما قد قدحته المخيلة الفجة منه في أرجاء فكره من شرر الخيال فقد انطلق منه الشعور فياضاً تحت فيض من الانفعالات النفسية يحفّ الإله، وهو الذي كان قد آمن بأن مسكنه السماء وعالي عرشه، بحاشية نحوها كان حتماً أن تجنح منه المخيلة وتعود إليه بأطياف مجنحة حاكها من مادة الوهم!.. بل في وهمه تمادى فامتد يقول بأنها، وهي حاشية الإله النوراني الطبيعة، نورانية العنصر ومن ثم اختلجت منه الشفاه تسميها بالأملاك وبالتالي: **الملائكة**.

وأما أين مسكن هذه الكائنات النورانية التي لها قد خلق الإله؟ فسؤال أسهر المُقلة العربية وأرسلها تجوب ليلاً الآفاق مستشفة أي النواحي من كل هذه الأرجاء هو المسكن لهذه الكائنات التي تقف في مرتبة أدنى من مرتبة الإله.

وبالأنجم في إطار الفضاء علقت من العقل، ليلاً، الأهداب، وإليها راح في آفاق صحرائه يصبو ويطّلع على أسس ما قد كان له بها من سابق علم، فقد كان له بالأجرام العلوية علم وكان له بحركة هذه الأجرام اشتغال لاشتغاله بالرصد فيما يتعلق به غرضه الذي أدّى إلى

(١) **الملل والنحل**، للشهرستاني، جـ٣، ص ٢٧٨.

معرفته بأقسام فصول السنة والأبراج الاثني عشر التي كان قد اعتبر الأضواء منها شاهدة على أن للكون سيداً واحداً علياً مسكنه السماء هو من تناديه شفتاه!... اللّه! ولكن! خفق الأضواء قد ألقى في الوجدان العربي وجداً! وجاوب خفقها للجوانب من هذا الوجدان خفقاً فازدادت المخيلة من العقل العربي نحو هذه الأجرام المتلألئة في آفاق صحرائه جنوحاً وراحت، في الجنوب والشمال تحت فيض هذه الانفعالات، تتخيّل أن من قد اقتنعت بوجودهم من الملائكة إنما في هذه الأنجم تسكن؛ تماماً كما تسكن الروح الجسم وبما خالته المخيلة راح العقل العربي مقتنعاً فآمن بأن الملائكة إنما تقف في خدمة الإله مكلفة بمراقبة الكائن وحكم الكون، وعند هذا الحد من الاقتناع توقف من العقل المنطق وبه وقف فهو إلى الأنجم بالعبادة، حنيفاً، لم يتجه ذلك الاتجاه الذي سجّله على نفسه بناحية من العقلية العربية أخرى غداة إلى هذه الأجرام السماوية، في ليل البيد، صبا الخيال منه صبياً فسجلت صبوته:

الدين الصابئي

بداية من هنا إلى «صابي» بن شيت بن نوح، وصابي اسم يعني بالبابلية «النجم» يعود بأسباب نشأته هذا الدين الذي جرى بجانب الدين الحنيف غير مختلف عنه في الجوهر الأساسي من المعتقد الإلهي إلاّ من صور التعبّد وإلاّ من شكليات العبادة، فبينما كانت قد رجّحت في الدين الحنيف على الناحية العاطفية الناحية العقلية كانت الناحية العاطفية في هذا الدين، الدين الصابئي، قد تغلبت على دعائم منطق استمدّ من الينبوع العاطفي مدده فجرى قائلاً:

إن اللّه، الإله الساكن السماء، إنما ذو كينونة سامية... ومن ثم تعالى المتعالي عن أن يتصل بالكون وبالكائنات إلاّ **بواسطة وسطاء** تقف في المرتبة وسطاً بين الألوهية والبشرية وعلى ذلك يكون من المحال الاتصال بالإله إلاّ عن طريق من قد خلق من الملائكة.

ليس إلاّ بدافع من هذا المنطق كان أن اتجهت المُقلة العربية إلى «الشعرى اليمنية» وعلى جناح الرجاء إليها ارتفعت ليظل هذا التعلّق من بعد متوارثاً في بعض قبائل لخم وقيس وخزاعة التي لردح من الزمن ظلّت تتخذها واسطة إلى اللّه.

ليس إلاّ بدافع من هذا المنطق كان أن ارتفعت هذه المقلة إلى «سهيل» لينحصر، من بعد هذا الاتجاه في قبائل طيىء ولتتوارث طيىء لأجيال اتخاذه زُلفى إلى اللّه!..

وليس إلاّ بدافع من هذا المنطق كان أن علقت هذه المقلة بالثريا لتظل هذه المقلة بها عالقة حتى رسخت لأجيال في بعض قبائل طيىء عقيدة اتخاذها زلفى إلى اللّه.

إلى نجم بعد نجم وإلى كوكبة بعد كوكبة صابئياً صبا العقل العربي صبياً في نفس الوقت الذي اتجه فيه إلى كوكب بعد كوكب يتخذ الواحد بعد الآخر شفيعاً له إلى اللّه.

إلى «عطارد» اتجه ليظل هذا الاتجاه من بعد محصوراً في قبيلة أسد التي، لأجيالٍ، اتخذته زُلفى إلى اللّه.

وإلى «المشتري» اتجه ليظل من بعد هذا الاتجاه محصوراً في قبائل لخم التي، لأجيالٍ اتخذته أيضاً زلفى إلى اللّه.

وإلى «زحل» اتجه ليظل هذا الاتجاه لأجيالٍ، في أم القُرى متوارثاً ولينعقد الإيمان على أنه أيضاً شفيع إلى اللّه!

إلى كوكب بعد كوكب وكوكبة بعد كوكبة ونجم بعد نجم اتجه العقل العربي صبياً في الجنوب والشمال من شبه الجزيرة العربية اتجاهه فيهما إلى القمر وإلى الشمس في غير انحراف عن الاعتقاد بأن الشمس إنما، كالملائكة، مَلك له نفس وعقل، وأنه لمّا كان له وحده مُلك النهار فهو بالتعظيم طيلة النهار جدير، وأن القمر أيضاً ملك له نفس وعقل وهو وإن كان غير مُتفرّد بحكم الليل إلاّ أنه له في ليالي التمام مُلك الليل ومن ثم فهو بالتعظيم أيضاً جدير... فمن «القلم المسند» لآثار معين وسبأ ومن النقوش الحميرية يأتينا الدليل على أن الاتجاه إليهما قد رفّ على أرجاء شبه الجزيرة خاصة الجنوب الذي اتخذهما وسيطين إلى اللّه إلى جانب اتخاذه قُوى مُؤلّهة أخرى تحمل أسماء: مالك وعزيز ورحيم ورحمن!

إلى الأجرام الكونية في إطار الفضاء صبا العقل العربي صابئياً على أسس ما قد سكن في مخيلته من الاعتقاد بأن للملائكة مساكن وعلى أسس ما قد انعقد في طواياه من استحالة الاقتراب من اللّه إلاّ بواسطة الوسطاء ومن ثم راح يتّجه إليهم في صلاته إلى اللّه بهم له مُتشفعاً ولمّا كان لا بدّ للصلاة من نقطة عندها تلتقي وجوه المصلين فقد اتخذت «القطبية» في الصلاة إلى اللّه قِبْلة!

كلا! ما شذّ العقل الإنساني صبياً على هذه البقعة من الأرض عنه في أية بقعة من بقاع العالم عندما راح يتخذ الملائكة إلى اللّه زُلفى وبها إليه يتشفّع... فمنه الشعور بعظمة سيد الكون قد اشتد حتى عمق عمقاً وجد نفسه تحت تأثيره غير جدير حتى بلفظ اسمه كما وجد نفسه أمام هيبته هيّاباً لا يستطيع منه الاقتراب إلاّ بواسطة من يحفّ به من حاشية... ومن ثم كان اتجاهه إليها يتخذها إليه زُلفى ويرسل إليها تضرعاته بها إليه متوسلاً، لا يعبدها لذاتها وإنما يتعبّد بها إلهاً عبادة ما انحرف بها عن الإيمان بالوحدانية إذ راح ينعتها بنعتٍ هو صورة لفظية أخرى للمعنى من كلمة «سادة» تفرقة منه بين المعنى الدّال على السادة من

الناس والمعنى الدّال على السادة من هذه الكائنات التي تقف موقفاً وسطاً بين الألوهية والبشرية، ولما كانت كلمة الأرباب هي هذه الصورة الأخرى لكلمة سادة ناداها:

الأرباب..

وباتخاذ «الأرباب» شفعاء والاتجاه إليهم في الصلاة إلى اللّه واعتبار اللّه لهؤلاء الأرباب أيضاً رباً، ومن هنا كان تعريفه بأنه رب الأرباب جرى، بجانب الدين الحنيف، الدين الصابئي ليغتمر العصر الجرهمي الآخر دينان لا يختلفان في أسس العبادة الجوهرية من الالتقاء عند عقيدة واحدة تنحصر في الاعتراف بألوهية «اللّه» إلهاً مسكنه السماء، محفوفاً بهذه الحاشية من الملائكة التي خلقها من نفس عنصره النوريّ.. ولكن.. عند رأيين جريا في تعارض جوهري يتعارضان، يفترق الدينان، فبينما كان الدين الصابئي يرى بأنه لا بد من وسطاء في الاتجاه إلى اللّه كان الدين الحنيف معرضاً عن اتخاذ الملائكة شفعاء وزلفى إلى اللّه لاغياً بينه وبين اللّه وساطة أي وسيط إلاّ خلجات النفس ومواجد القلب!

هذا هو الفرق الجوهري بين الدين الحنيفي والدين الصابئي اللذين لم يختلفا في الماهية كتعبيرين ظاهرين في الخارج لما يجيش في الداخل من إحساس فطريّ بوجود قوة حكيمة تُهيمن على الكون والكائنات واللذين حفرا في سجلّ التاريخ الديني لهما تاريخاً غداة انحسر الزمن عن بناء:

مكة، كعبة الدين الحنيف والدين الصابئي

من حول مكة أو «البيت»، كعبة تلاقى في غير تنافر الدينان بالفروع التي التفت في تشابك من قحطان، وبالأصول التي امتدت لتكوّن من بعد عدنان غداة امتلكت قبضة أبناء إسماعيل الأمر من أمر هذا «البيت» الذي لصلته بالساكن السماء غدا يُعرف باسم: **«بيت اللّه»**

لا ثمة شك في أن بامتلاك «البيت» امتلك أبناء إسماعيل الحكم السياسي لهذا الوادي الذي لم يستقم لهم إلاّ على أسس المعتقد الديني الذي رفّ على الأرجاء الجرهمية بأنهم وُلاة هذا «البيت» الذي راح من حوله منهم الصوت للأجيال يُحدث بقصة إليها نصغي فنسمع:

إن «بيت اللّه» إنما بيت على الأرض يقوم شبيهاً ببيتٍ آخر للإله في السماء... بل إن في نفس الموقع من بيته في السماء يقع بيته على الأرض... وإن لبنائه كان سبباً هو: «إنه حين طرد الإله أبوي البشر من الجنة هبط كل منهما في مكان مختلف عن الآخر، آدم على قمة جزيرة سردنيس «سيلون»... وحواء على ضفة البحر في جدة... ولقرنين من الزمن ظلّ

كلاهما في تيه الأرض عن الآخر تائهاً حتى نالا الغفران فتلاقيا على جبل «عرفة» حيث من أعماقٍ تملّكها شجن الحزن ومن أغوار استبدّ بها تبكيت الندم رفع آدم بيديه إلى السماء ضارعاً إلى اللّه ومتضرّعاً إليه أن يهديه بيتاً شبيهاً بذلك الواقع في السماء السابعة والمسمى «الضرّاح»... فهو «البيت المعمور» الذي كان آدم نفسه من حوله يطوف في «جنة عدن» وتطواف الملائكة في مواكب تعددية من حوله سبعاً كان في تقليد لصورة هذا التعبّد الملائكي يطوف متعبداً من حوله سبعاً..

وتسترسل القصة فتحدّث:

واستُجيبت دعوة آدم وإجابة لمطلبه أنزل الإله من السماء، محمولاً على أجنحة الملائكة، بيتاً مبنياً من النور شبيهاً تمام الشبه «بالبيت المعمور» ووضعت الملائكة هذا «البيت» في المكان الذي يقع تماماً تحت ذلك القائم في السماء.

واطمأن فؤاد آدم وبدأ نحو هذا «البيت النوري» يتجه في الصلاة كما بدأ يطوف يومياً من حول هذا «البيت» سبع مرات في تقليد لشعائر وطقوس التعبد الملائكي لدين ملائكي هو:

الدين الحنيف

ثم.. ثم إن بوفاة آدم رفع هذا «البيت» المبني من النور فما نزل إلاّ خصيصاً لآدم!.. بيد أن ليقوم مكانه «بيت» آخر به شبيه وعلى نفس الهيئة والشكل ولكن من جبلة الأرض ومادتها... فمن الحجر والطين وعلى نفس المثل والشكل بنى «شيث» للإله بيتاً ومن حوله قام مواظباً على أداء شعائر دين اللّه... وتوارث رعاية «البيت» من بعد شيث ابنه «صابي» الذي إليه يعود بنشأته الدين الصابئي... ولكن هذا «البيت» أيضاً قد دُرس بمجيء «الطوفان» الذي لم يترك إلا منه معالم ظلّت قائمة على هذا الأكمة الحمراء التي لا تعلوها السيول والتي كان الناس قبل إبراهيم يعلمون أن موقع «البيت» عليها يقع... فقد كان إلى ما قد تبقى من معالم هذا «البيت العتيق» يأتي المظلوم والمتعوذ وعند أطلاله كان يدعو المكروب... ولم يزل «البيت» أمره الأمر حتى جاء إسماعيل وأصْحر بين جرهم الآخرة ولسيدها صاهر... فلم يقم على أساس «البيت العتيق» بيتاً جديداً إلاّ غداة أطلق إبراهيم الصوت في الأرجاء الجرهمية منادياً إن الأمر الإلهي إليه قد صدر ببناء مكة[1]!

بهذه القصة تتنفس صدور الكتب الإسلامية وترويها نقلاً عن شفاه العدنانيين من أبناء

---

(١) **الملل والنحل**، للشهرستاني، ج ٣، ص ٢٥٠، ٢٥١.

إسماعيل ولكن.. عند هذا الحد من القصة لا يقف أبناء إسماعيل، وإنما هم يسترسلون فيروون رواية لها ينبغي أن ينصت، أيضاً، منا المسمع ولها يجب أن يتنبّه منا الذهن فروايتهم إنما قصة هي إذ تحدثنا بأن بناء «البيت» قد حدث بعد أن أصحر إسماعيل بين قبيلة جرهم الثانية ولها صاهر وصار له منها أولاد تعلموا العربية من قحطان العاربة وأصبحوا «العرب المستعربة» فليس إلاّ لتسترسل وفي شرح سارد تقول: بأن غداة جاء إبراهيم إلى هذا الوادي زائراً إسماعيل وله قال إن اللّه أمرني أن أبني له بيتاً قام إسماعيل يساعد إبراهيم في بناء هذا «البيت» الذي قام على أنقاض ذاك البيت العتيق وأنهما لما فرغا من البناء نادى إبراهيم في جُرهم:

«أيها الناس إن اللّه كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق!».. ثم «خرج إبراهيم بإسماعيل ومن ورائهم الناس يُعلِّم شعائر الحج إلى التروية فنزل ومن معه من المسلمين «منى» فصلّى بهم **الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة** ثم بات حتى أصبح فصلّى بهم الفجر... ثم سار إلى «عرفة» فقام بهم هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر... ثم راح بهم إلى الموقف من «عرفة» الذي يقف عليه الإمام... فلما انحدرت الشمس دفع من معه حتى أتى «المزدلفة» فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات ومن معه حتى إذا طلع الفجر وصلى الغداة وقف على قزح حتى إذا أسفر دفع بإسماعيل ومن معه يُريه ويعلمه كيف يصنع حتى رمى الجمرات وأراه المنحر ثم نحر وحلق وطوّف ثم عاد به إلى «منى» حتى فرغ من الحج[1]...»

لا ثمة شك في أن هذه الرواية التي يرويها أبناء إسماعيل عن إبراهيم إنما رواية لا يذكرها «العهد القديم»، المرجع الأول عن إبراهيم، ولكن الشيء الذي يهمنا في هذا الصدد هو ما تطالعنا به طيات الكتب الإسلامية[2] التي تذكر أن اللّه كإله واحد كان معروفاً في العصر الجرهمي وأن «البيت العتيق» قد جُدد بناؤه في العصر نفسه وعرف باسم «بيت اللّه» وأن العرب من عاربة ومستعربة وصابئة وأحناف على سواء كانت تحج إليه في مراعاة لجميع المناسبات الدينية وفي التزام لشعائر المناسك واستمساك بمشاعر الحج من طواف ونحر ورمي جمرات إلى جانب القيام بهذه الصلوات الخمس.

وتسترسل المصادر الإسلامية وعن التفكير الديني في هذا العصر تحدثنا، فهذه المصادر لا تقف عند القول بأن العرب من فروع قحطان وأصول عدنان كانت في معتقدها الديني

(١) ابن الأثير، جـ١، ص ٤٧٠.

(٢) الملل والنحل، جـ٣، ص ٢٧٨.

تؤمن بوجود اللّه كإله واحد وأحد ولا فحسب بأنها كانت تلتزم بما يفرضه هذا الإيمان من أصول التعبد وأحكام العبادة فتؤدي الحج والصلاة ولا فحسب بأن العربي الصابئي كان يؤدي هذه الصلوات الخمس[1].. وإنما هذه المصادر تعرّج بناء على ناحية أخرى دقيقة من مظاهر التعبد التي تطالعنا بقيام هذا «البيت» وهي تحوّل القِبْلَة الصابئية من «القطبية» إلى هذا «البيت» الذي إليه راح الوجه الحنيفي والصابئي على سواء يتخذه في صلاته إلى اللّه: **قِبْلة**

في الصلاة إلى اللّه غدا «البيت» قِبلة فغدا كعبةً من حولها يلتف بأصحابه الدين الحنيف وبأصحاب الدين الصابئي وهذه إنما حقيقة تتنفس عنها صدور الكتب الإسلامية التي تعرّج بنا أيضاً على الناحية الإنسانية التي تميزت بالإرهاف، وعلى الناحية الخلقية التي تسامت إلى السمت من قمم القيم الأخلاقية، اللّتين ولّدهما في النفس العربية الشعور بأن صاحبها يجاور «بيت اللّه» هذا البيت الذي أضفى قدسيته على ما حوله من أرض حتى عرفت مكة بأنها: **بلد حرام**

يقيناً.. لقد كان حتماً في «البلد الحرام» أن تنمو الحاسة الأخلاقية وأن تتخذ مظهرها الواضح في صورة الاتجاه نحو الفضيلة.. كما كان حتماً أن ينبثق الشعور بالواجب... نحو النفس ونحو الغير، وأن يتخذ مظهره الواضح في صورة الاتجاه نحو الخير... ففي «البلد الحرام» كان حتماً أن يبطل الظلم ويقوم الحق وفي «البلد الحرام» كان حتماً أن تحارب النفس الغرائز وأن تعلو عليها بسلطانها، ولهذا كان التاريخ الأخلاقي في هذا العصر تاريخ وصل الأرحام والعون على نوائب الحق وإكرام الضيف إلى غير هذه المبادىء مما يحتويه قاموس القيم الأخلاقية من مبادىء... كما أن الناحية الإنسانية قد برزت بروزاً واضحاً كان من أبسط معالمها عدم إيذاء... أي كائن حيٍّ... حتى الوحش والحيوان إذا كان «بالبيت» يلوذ وللسبب رفّت على الوادي هدأة من الطمأنينة وضحت آثارها غداة استعادت جرهم الحكم للوادي ومحل نابت من أبناء إسماعيل حل مضاض بن عمرو الجرهمي الذي قد ولي «البيت» وهو يقول:

ونحن ولّينا البيتُ بعد نابت ... نطوف بذلك البيت والخير حاضرُ

الحال كان حال الوادي غداة استعادت جرهم الحكم السياسي فيه وقبضت قبضةُ قحطان على مفتاح «البيت» فللبيت في العهد الجرهمي الآخر قد أصبح مفتاحاً وعنه توارث العرب الرواية القائلة بأن «تُبعاً»، أحد ملوك اليمن، قدم مكة فطاف بالبيت وأقام أياماً ينحر فيها للناس ويطعم أهل مكة ويسقيهم «العسل المصفى» وأنه قبل أن يعود إلى بلاده كسا

---

(١) **العالم الإسلامي**، للأستاذ رضا كحالة، ص ٧١.

البيت بالملاء والوصائل، أي البرود اليمنية، وفي ذلك يروون له شعراً يقول:

وكسونا البيت الذي حرّم اللّه ... مُلاءً منضداً وبرودا

فأقمنا به من الشهر عشراً ... وجعلنا لبابه إقليدا

وتسترسل القصة وتقول بأن «تُبّعاً» أوصى «بالبيت» ولاته من جُرهم وأمرهم بتطهيره وألاّ يقربوه دماً ولا ميلاثاً وجعل لبابه مفتاحاً هو هذا الذي ما امتلكته جُرهم إلا ودان تماماً لجرهم ملك مكة بينما كانت يد الزمن تنثر أبناء إسماعيل في أرجاء البوادي وتكوّنهم قبائل وتسطّر بهم في السجّل الديني لوناً من التفكير جديداً سجلّ:

نشأة الأوثان

إلى أبناء إسماعيل تعود بأسبابها نشأة الأوثان غداة انتزع منهم أخوالهم الجراهمة ملك مكة وأقصوهم عنها إلى حيث راحوا يتفسحون في فسحات البوادي سعياً وراء العيش... فإنه لما كان قد علق في أذهانهم من أن إلى أرومتهم يعود بناء «بيت اللّه» كان لا يرتحل منهم عن مكة مرتحل إلاّ واحتمل معه حجراً من حجارة الحرم... صبابة بمكة وتذكرة له بها! وحيثما حلّ في مكان من أرجاء شبه الجزيرة وطاب له فيه الاستقرار وضع هذا الحجر وتمثّل فيه الكعبة وعكف على الطواف به كطوافه بالبيت فالعدناني الذي كان قد فارق مكة إنما كان قد فارقها مُجبراً والقلب منه مولع بحب بيت يرى فيه الرابطة التي تربط الفروع من إسماعيل بوحدة نسبية هو عليها من الضياع أو التفكك جد ضنين، وليس إلاّ تحت ضغطٍ من هذا الدافع كان احتماله لهذا الحجر في ترحالاته في أرجاء منفاه ولكن!.. ليؤدي ذلك والأيام تقتطع من عمر الزمن أجيالاً إلى توارث الاتجاه إلى هذه الحجارة واتخاذها قبلة لا في الصلاة لذاتها وإنما وسيلة في عبادة اللّه!

هذا هو في سجلّ التاريخ الديني لهذا العصر تاريخ نشأة الأوثان فليس إلاّ تحت هذا اللون من ألوان العبادة والصبابة بمكة، كما تسجّل هذه الحقيقة السجلات الإسلامية، كان الاتجاه إلى هذه الأحجار التي قطّ لم تتخذ في عبادتها لذاتها وإنما اتخذت قبلة في الصلاة إلى اللّه لأن فيها تتمثّل الكعبة! فليس إلاّ تبعاً لقدسية الكعبة اعتُبرت هذه الأحجار مقدسة فليست إلاّ تلك الأحجار التي كان يأخذها العربي العدناني معه في ترحالاته من البناء المقدس هي ما نعرفه بالأوثان!

وهكذا تتجلّى لنا الحقيقة المطوية في صدور التاريخ، فنعلم بأنه ليس إلاّ تمثلاً بالكعبة التي كان العدناني قد فارقها مجبراً وليس إلاّ بسبب تعظيمه لبيتٍ عنه كان قد أُبعد اتخذ هذه الأحجار التي حملها منه وسيلة نحوها في صلاته إلى اللّه كان طيلة العام يتجه لا يكف

عن ذلك إلاّ حين يقدم ليؤدي شعائر ومناسك الحج كل عام في مكة.. فليس إلاّ لعبادة من في السماء والصلاة إليه من خلالها اتخذت الأوثان، أو على الأصح قولاً اتخذت هذه الأحجار المكية وسيلة فليس هناك في أرجاء شبه الجزيرة من وثنٍ اتخذ في ذاته للعبادة إليه وإنما وسيلة في الصلاة إلى اللّه!

والآن.. الآن وقد علمنا بأنه قطّ لم تنشأ الأوثان إلاّ بسبب تقديس مَن في السماء فليس إلاّ لنعلم بالتالي بأنه ليس إلاّ للسبب نفسه قد سجّل التاريخ الديني:

نشأة الأنصاب

إلى المخيلة العربية في طور حداثتها تعود بأسبابها نشأة الأنصاب؛ فإن المُقلة العربية التي كانت قد علقت بالفضاء إنما إليه كانت قد جنحت على جناح هذه المخيلة فتخيلتها سماء صلبة، وليس هذا فحسب وإنما راحت مؤمنة بها تسرب إليها من الخارج فقالت بأنها متكونة من طباق سبع أعلاها مكاناً لعرشٍ عليه الإله قد استوى محفوفاً بمن يعج به ملكوته من كائنات مجنّحة خلقها من نفس عنصره النوري ومن ثم علقت الأهداب بهذه السماء لها مقدسة.. ومن ثم اعتبرت كل ما يتساقط من الأعالي مقدساً! ليس إلاّ بعامل هذا الإيمان كان أن تخيل العقل العربي الأحجار النيازكية الهاوية من الشهب أحجاراً من أرض السماء قد تساقطت ومن ثم مقدسة وليس إلاّ بدافع هذا الإيمان كان أن نشأت الأنصاب.. قط ليس إلاّ بسبب التقديس المرهف للسماء أضفى العقل العربي على هذه الأحجار قدسية وطوف من حولها بها متبركاً لها يتحسس وبها يتمسّح بل يدفعه سعير الحب بمن في السماء إلى أن يهوي عليها لها لاثماً!

ولكن.. كالأوثان لم تُتّخذ الأنصاب في الصلاة إلى اللّه وسيلة وإنما للتبرك وليس إلاّ قصد التبرّك أقبل المؤمنون عليها، صابئة وأحنافاً، مؤمنين بأنها من أرض السماء قد سقطت إلى الأرض ومن ثم فإيداعها الحرم ومن ثم فتطواف الزمن من حولها يزيدها في قلوب المؤمنين قدسية قبل أن تمتد يده فتنثرها وتطويها في طيات الماضي ولكن في احتفاظ بحجر واحد كان الأهم من بين هذه الأحجار والأعظم.. هو هذا الذي يحف به من التاريخ الديني صوت يعرفه حجراً من السماء وينعته «بالأسعد».. الحجر القائم حتى عصرنا الحاضر في فناء «البيت» حاملاً اسم: **الحجر الأسود**

التفكير الديني كان التفكير والأيام تقتطع من عمر الزمن للعصر الجرهمي الآخر عهوداً حتى آن، تبعاً لسنة الكون المحتومة، آن مغرب الحكم الجرهمي بمقدم تلك القبيلة التي أقبلت من جنوب شبه الجزيرة، بعد سيل العرم، مع قبيلتين تحملان اسمي الخزرج والأوس والتي،

بينما كانت الأوس والخزرج قد واصلتا ترحالهما وحلتا في يثرب، كانت قد احتلت مكة وعرفت أرجاء شبه الجزيرة أن مُلك مكة قد دان لهذه القبيلة التي تحمل اسم خُزاعة.. هذه التي سجل بها التاريخ السياسي في شمال الجزيرة إشراقاً لعصر جديد في غضونه يطالعنا:

التفكير الديني في العصر الخزاعي (٢٠٧ ـ ٤٤٠م)

استهل التفكير الديني في هذا العصر تاريخه بعمرو بن لُحي غداة تغلبت قبضته على قبضة جُرهم فانتزعت منها «مفتاح البيت» وبالتالي ملك مكة الذي تبدّد من يد عمرو بن مضاض الجرهمي مَن قد فارق مكة، منفياً، يطلق في مسمع الزمن صيحة تفجرت بها مشاعره عن شعر فيه الدليل الأوفى على ما قد كانت عليه مكانة مكة في العصر الجرهمي كما أن فيه أيضاً الدليل على الناحية الإنسانية التي ولدها الشعور بأن صاحبها يجاور «بيت اللّه»:

فسحّت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم آمن وفيها المشاعِر وتبكي لبيت ليس يُؤذى حمامه تظل به أمنا وفيه العصافير وفيه الوحوش لا تزال أبيّة إذا أُخرجت منه فليست تغادر!

وإلى جانب الناحية الإنسانية التي كانت عليها مكة في العصر الجرهمي والتي تطلع علينا جلية من ثنايا هذا الشعر فإنما أيضاً تبرز الناحية الأخلاقية من خلال صيحة أخرى لمضاض في عمرو وهو يترك له مكة حتى ليتجلّى واضحاً الأثر الأخلاقي الذي كانت عليه مكة في العصر الجرهمي: **«يا عمرو. لا تظلم بمكة!»**

وفي «البلد الحرام» بدأ في تيار الزمن مسير الحكم الخزاعي ليسجّل أن الزمن قد ازداد إمعاناً في نشره أبناء إسماعيل على صفحة الصحراء قبائل سارت بها الأيام وهي في غير تَيْهٍ تمرح في متاهات هذه الأرجاء وحيثما كان من هذه الفسحات مكانها فهي أبداً تتجه نحو «بيت اللّه» وله تُعظّم وعن عقيدتها في الوحدانية لا تحيد، فهي لا تحيد عن الاعتراف بأن الإله الواحد هو اللّه وشأنها في هذا الإيمان كان أيضاً شأن خزاعة، فسجلات التاريخ العربي إنما تسجل بأن المعتقد الديني الخزاعي قد انحصر في الاعتراف بأُلوهية اللّه، ويقيناً إن الاعتراف بألوهية «اللّه» إنما طابع قد طبع العصر الخزاعي كما من قبل قد طبع العصر الجرهمي وشأنه في العصر الجرهمي كان شأنه في هذا العصر عقيدة جوهرية وقط لها لم تنل بخدش ما قد استجدت خلال هذا العصر من صور التقرّب في العبادة إلى اللّه التي سجلت:

نشأة الأصنام أو التماثيل

إلى عمرو بن لُحي الخزاعي، سيد مكة، تعود بأسبابها نشأة الأصنام أو التماثيل على هذه الناحية من الدنيا غداة عاد مرة من البلقاء في الشام يحمل تمثالاً منحوتاً من العقيق الأحمر

ويمثل شيخاً كثّ اللحية وضعه في «بيت اللّه» ووقف بجانبه يُعلّم الناس أن صاحبه إنما صورة مجسمة من الشفيع إلى اللّه في طلب الغيث وأن اسمه: **هُبَل**

ومن حول الشفيع إلى اللّه في طلب الغيث كان حتماً أن تشرئب الحناجر الظمأى إلى الماء في بلدة عطشى إلى الارتواء!.. ومن ثم كان حتماً أن تروح هذه الحناجر الصادية ترتشف من ينبوع الوهم ومنه تنهل وترتوي بترديد اسم:

هبل

وهبل؟! إن هبل إنما اسم لا اشتقاق له في العربية من معناه فهو اسم عبري الأصل شُطّر بمداد كلداني بحت فإن أصله إنما «هبعل» أو بالأصح «هـ+ بعل» ومعنى بعل إنما «السيد» وأما «الهاء» فهي أداة التعريف في العبرية وبإضافة هذه الأداة إلى «بعل» يريدون «رب المدينة».. أما «العين الزائدة» فسهل إهمالها بالتخفيف، ثم ضياعها بالاستعمال خصوصاً في لفظ «بعل» لأن الكلدان كانت تلفظها «بل» بإهمال «العين» ولا تعني بها الإله المعروف لديها تحت اسم «إيل» وإنما تعني بها رباً يقف بينها والإله وسيطاً!

هذا هو «هبل» في ضوء التاريخ الديني، والأصل من «هبل» كان الأصل، والاتجاه إليه في العصر الخزاعي كان الاتجاه، قط لم يتخذ إلهاً وإنما اتخذ رباً ووسيطاً إلى اللّه. وليس إلاّ تحت هذه الصفة التي أحضره بها عمرو بن لُحي عُبِد «هبل» في هذه الناحية من الأرض كوسيط إلى اللّه في طلب الغيث وكشفيع إلى اللّه لنيل الغفران!

ولكن! كان لهذا التمثال عميق أثره في العقلية العربية! فقد بهر هذه العقلية أن ترى بأن لِمَن يُتخذ إلى اللّه شفيعاً وينادى بالرب أو السيد، صورة مجسّمة تدنيه منها إلى الأذهان.. ومن ثم سرت عبادة «هبل» من خزاعة إلى عدنان ومن ثم بدأت القبائل العدنانية المتفرقة في أرجاء شبه الجزيرة تنحت، من الخشب ومن الحجر، لمن كانت قد اتخذتهم من شفعاء إلى اللّه تماثيل تطابق ما في مخيلتها كانت قد ارتسمت لهم من صور حتى إذا ما نفضت يدها من العمل حملت هذه التماثيل ووضعتها في رِحَاب «بيت اللّه»!

وهكذا غدا حرم «بيت اللّه» هذا البيت الذي كانت تلتف من حوله ثلاثمائة وستون قبيلة والذي كان قد غدا محوراً ورمزاً لمجد هذا العدد من القبائل المتفرقة من عدنان، معرضاً لتماثيل الشفعاء إلى اللّه!.. بيْد أن في احتفاظ «لهبل» بالمقام الأعلى رضوخاً للحكم الخزاعي فالسيادة المكية إنما لخزاعة في هذا العصر معقودة، ومن ثم وقف «هبل» كبيراً للأرباب أو إذا حرصنا على الدقة التاريخية قلنا بأنه قد غدا كبير الشفعاء إلى اللّه!

ولكن!.. «بيت اللّه» ولئن كان قد غدا معرضاً لتماثيل الأرباب أو الشفعاء إلى اللّه فإن

عن تمثيل الإله بتمثال قد تراجع العقل العربي!.. وليس هذا فحسب وإنما لم يطف بالمخيلة العربية من هذا الخاطر طائف فإنما عن الإحاطة بصورة للإله قد اعترفت بقصورها هذه المخيلة ومن ثم نزهته عن التصوير مكتفية بهذه التماثيل التي حشدت بها «بيته» بينما راحت بها إليه تتوسل وتتزلّف وتتشفّع!

من ثنايا القِدَم المطوي عن الأذهان ومن طيات صحف التاريخ وطواياه ينبعث الصوت العربي من أعماق هذا الماضي البعيد هامساً في مسمع الأجيال بقولٍ راح صداه في مصدر العقيدة الإسلامية من بعد يتردّد ومُنبّهاً يعلن:

ما جعلنا الأصنام إلاّ قِبْلَةً لنا في عبادتنا اللّه!

وما كان تضرعنا إليها إلاّ تشفّعاً بها إلى اللّه!

من ثم يقيناً إن العقل الإنساني، عربياً، بتصويره شفعائه وإحلاله تماثيلهم في «بيت اللّه» لم يشذ عن قانون المنطق لهذه المرحلة الحدثة من حياته الفكرية، فإن في الإنسان قوتين: قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالة متصرفة في عالم الأجسام، وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها، فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلي مجرد وجب أن يضع له صورة خيالية يجسّمها حتى تكون له تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعاني العقلية... تماماً كالمهندس فإنه إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقاييس وضع له صورة معينة وشكلاً معيناً ليصير الجسم والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلي..

الصنو كان صنو العرب في العصر الخزاعي، فليس إلاّ بدافع من هذا المنطق كان أن نحتت للشفعاء إلى اللّه تماثيل وأسكنتهم «بيت اللّه» بل ليسترسل بها هذا المنطق مداه فتبدأ في هذا العصر بنحت التماثيل للشخصيات التي تركت تأثيرها في العقلية العربية وإيداعها أيضاً حول الكعبة في حرم «بيت اللّه»... فلإبراهيم قد نُحت في هذا العصر تمثال كما نُحت آخر لإسماعيل وفي هذا العصر أيضاً، كأثر لانسياب المسيحية إلى هنا، نُحت تمثال لمريم وآخر لعيسى ابن مريم، وأُودعت كل هذه التماثيل في «بيت اللّه»!..

ومن هنا تتجلّى لنا حقيقة مطوية في مصدر التاريخ الديني وهي أن التماثيل التي كانت قائمة في بيت اللّه لا تمثّل إلاّ الشفعاء إلى اللّه سواء منها ممّا حاكته المخيلة العربية من كائنات إلهية أو قدسته من كائنات بشرية، فقد كان العرب في مبدأ أمرهم أنه متى ثوى منهم من يعتقد فيه بأنه مجاب الدعوة عند اللّه اتخذوا صنماً، أو على الأصح تمثالاً، على صورته التي يتخيلونها ويقدسونه على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون زُلفى لهم في قضاء

حوائجهم في رحلة الحياة ويكون لهم شفيعاً عند الله يوم القيامة، ومن هؤلاء كان: أساف ابن يعلى الجرهمي ونائلة بنت زيد الجرهمية فقد عظمتهما العرب وبهما إلى الله كانت، أيضاً، تتوسل[1].

بهذا اللون من التفكير الديني بدأت الأيام بالعصر الخزاعي تسير وقد طلعت الرموز في صورة الأصنام والأوثان والأنصاب ومن ثم قام إلى جانب وثن وثن وإلى جانب نصب نصب وإلى جانب تمثال تمثال. وبهذه المظاهر بدأ يرسخ في العقل العربي هذا اللون من ألوان المعتقد الديني الذي رغم اعترافه بالوحدانية فإنه قد أقام بينه وبين الله هؤلاء الوسطاء الذين عرفهم بالسادة وناداهم «الأرباب» فهو بينما قد احتفظ لله بالوحدانية الخالصة فإنه قد جعل الأرباب كثرة ومن ثم طبع العصر الخزاعي طابع اتخاذ «الأرباب» شفعاء إلى الله!

ولكن... لئن كان إلى العصر الخزاعي يعود الأثر في إرساخ فكرة تعظيم الشفعاء في العقلية العربية والأثر أيضاً في نحت الأصنام أو التماثيل لهؤلاء الوسطاء فإن إلى ما قبل هذا العصر يعود لون من التفكير الديني آخر خضب العقلية العربية كافة وامتد تأثيره طويلاً من بعد على الأجيال.. فهناك كان مدّ عقيدي يزحف من الخارج متوغلاً في أرجاء شبه الجزيرة العربية عن طريق ذلك الاتصال الاقتصادي الذي كان للعرب منذ القِدَم بالأمم التي تجاورهم وعلى الأخص الكلدانيين والمصريين، فإنه لما كان من الطبيعي أن يتأثر العرب، بواسطة التجارة والترحال، بما قد كان وراء عالمهم منتشراً من ألوان العبادات كان حتماً أن تنساب بهم هذه الألوان ويتوالى دخولها إلى هذه الأرجاء شيئاً فشيئاً لتسري عدواها في القبائل واحدة بعد واحدة وفيها تتفشى حتى عمت القبائل برمتها.. وأبرز الأمثلة على توغل هذه العبادات الدخيلة على العقلية العربية ثلاث شغف القلب العربي بهن وولع حتى المدى الذي سكن فيما وراء الشغاف من هذا القلب لهن حب أبى إلاّ نعتهن: «بنات الله»!..

مُناة، واللاّت، والعُزى

مُناة؟.. مُناة ربة دخيلة دخلت بادية الحجاز وفيها لم تولد، فإن من اسمها ما يحمل نفس معنى ما ورد في التفكير الديني الكلداني حيث نشأت بين الرافدين لها ربوبة، فإن في الدين البابلي كانت هناك ربة عُرفت بأنها ربة المنيّة ومن ثم نُعتت باسم «ما مناتو» قبل أن ترجعها أصداء أرجاء ثمود وقبل أن تسجلها أقدم النقوش النبطية تحت اسم «مناوة» وقبل أن ينساب الصدى إلى «أم القُرى» وتتحول فيها من «ما مناتو» و«مناوة» إلى: «مُناة».

---

(١) **الملل والنحل**، للشهرستاني، ج٢، ص ٢٥٤.

واللاّت؟.. اللاّت، أيضاً، ربة دخيلة دخلت بادية الحجاز وفيها لم تولد، فإن في اسمها من رجْع الصدى المصري والبابلي أصداء!.. ففي اسمها ما يحمل نفس اللّفظ الذي ورد في سجلات التفكير الديني المصري القديم حيث نشأت على ضفاف النيل لها ربوبة عرفت بها تحت هذا الاسم لأن من معناه لغة الرضاعة، فإن ربة الحصاد والنمو كانت تعرف في مصر القديمة تحت اسم «اللاّت»!.

بيْدَ أن وإن تجلّت اللاّت العربية مرآة انعكست عليها اللاّت المصرية فإن في هذه المرآة أيضاً ينعكس إلى جانب الأصل المصري الأصل الكلداني، لا فحسب بلون العبادة التي عبدتها تحتها ثمود وعبدها النبطيون وإنما لأن في الدين البابلي قد عُرفت ربة القضاء تحت اسم «اللاّتو»!

والعُزى؟ العُزى مصرية صرفة!.. عن «العُزى» تنفضّ أردية التاريخ فتتجلّى هي هي تلك التي عرفتها مصر القديمة باسم إيزي أو إيزيس!.. فليس إلاّ إلى هنا في خضم امتداد تياراتها في أرجاء الشرق القديم كانت قد زحفت بعبادتها إيزيس، وليس إلاّ بامتداد هذا المدّ كان قد امتد مدّها الهادر إلى هنا فكان صداه على الشفاه العربية؛ «العُزى»!.

تحت أضواء التاريخ السياسي ومن مساند التاريخ الديني والأدبي[1] ينحسر الأصل من هؤلاء الرَّبات الثلاث اللّواتي عن الشرق القديم توارثهن القلب العربي وتعلّق بهن منه الرجاء يرتجي شفاعتهن إلى اللّه!.. فليس إلاّ تحت شعاع من ضوء هذا التاريخ وليس إلاّ في استناد إلى هذه المساند نتبع زحف مُناة فاللاّت فالعُزى إلى هذه الناحية من الدنيا وحلولهن الواحدة بعد الأخرى بألوان عبادتهن في أرجاء القلب العربي لينحسر لهن تاريخ عن رسوخهن فيه بينما كان العصر الخزاعي يتهاوى نحو الغروب..

بيد أن أي لون من ألوان التعبّد وأي صور من الشعائر الدينية وأي نسك كان يُؤدى خلال هذا العصر؟.. سؤال، الجواب عنه يأتي بالإيجاب من جوانب هذا الوادي الساكن بين أنجاد نجد وتهم تهامة وسهوب الجنوب وسباسب الشمال، وكالأرض الغور الراكد من ريحها الريح ليس بغور تاريخ الدين فيه وغير راكد من ريحه الريح والأيام بالعصور الأولى تسير ورياح الزمن تسفي على العصر الخزاعي رمالها فتسفي على ما قد حفرت الخطى الدينية على هذه الرمال من آثار، كلا!. وإنما واضحة وجلية تبرز هذه الآثار في ضوء التاريخ السياسي والديني والأدبي غداة طوت الأيام لخزاعة عصراً ونشرت آخر بذلك البطن من بطون كنانة المسمى قريشاً الذي كوّنته بعض الأسر من فِهْر، والذي عُرف والذي عبره يطالعنا:

---

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، للأستاذين خفاجة والجيار.

التفكير الديني في العصر القريشي (٤٤٠م ـ ٦١٨م) أو سنة الفتح المحمدي لمكة

الدين في العصر القريشي، والأيام تتجمع بانفراطها إلى قرابة قرنين من الزمن لتؤلف لقريش عصراً، له في سجل التاريخ الديني أهمية خاصة لأنه يُمثّل الفترة السباقة على الإسلام ولأنه المهد الذي ولد فيه الإسلام ولأن الإسلام في أحضانه نشأ وبأدبه غُذي وتغذى...

عن هذا العصر، الذي استهل مشرقه بزيد بن كلاب المعروف بقُصيّ وبلغ مغربه بالحفيد الخامس محمد، ينحسر الزمن منذ اللحظة التي أقصى قُصيٌّ فيها خزاعة عن «بيت اللّه» بسبب استيلائه على «مفتاح» الكعبة.. كلا. ليس الصدد بصدد التحدث عن الوسائل التي اتخذها قُصيّ إلى بلوغ غايته المنحصرة في سيادةٍ هي حقاً شرعياً للقبضة الممتلكة مفتاح «بيت اللّه» فإنما هذا حديث ترويه أنفاس التاريخ الإسلامي وعلى صفحات سجلاته في شرح منتشر وإن كنا نستطيع أن نوجزه باقتضاب وهو أن قُصياً قد أمضه أن يرى قومه العدنانيين من سلالة إسماعيل، تحت سلطان الأجانب من خزاعة فكان أن عوّل مصمماً على أن ينزع الأمر منهم ولمّا كان انتزاع الحكم من خزاعة إنما محصور في الاستيلاء على «مفتاح البيت» بدأ قصي يرسم الخطة ولخطته بدأ ينفّذ بالتدريج ومن ثم دأب على السعي والتجارة حتى كثر ماله وهيأه هذا المال لأن يكون أهلاً لمصاهرة ملك مكة حُليل بن حبشية الخزاعي... وتزوج قُصي من حُبيّ ابنة حُليل أملاً في أن يرث عن حُليل امتيازاته... ثم إنه قد حدث أن حُليلاً عرض على حُبيّ ولاية البيت من بعده فتنحت عن تسلّم «المفتاح» وكأن حُليلاً لم يتنبّه أو أنه كان قد تغاضى عن المرمى من وراء هذا التخلّي فلم يسلم المفتاح لقصي وإنما سلمه لأبي غيشان الخزاعي وهنا ابتدأ قصي يحتال على أبي غيشان حتى صابح مكة يوماً وفي يده هذا المفتاح والصوت منه يعلن خزاعة أنه قد اشتراه من أبي عيشان!

ودهشة هبَّت خزاعة ومهتاجة انطلقت تصيح: إن مفتاح الكعبة لم يُبع وإنما كان ما قد حدث بطريق الرهن.

ولكن... قُصيّ كان يعلم ما سيكون ولم يُؤخذ على غرة. فقد كان قد اتخذ لهذه الحرب عدتها بأن استعد لها من قبل وجمع قومه من نواحٍ متعددة وجاء بهم إلى مكة، ومن أجل ذلك سُمي «المجمع»، وقام فيهم يوم الجمعة، ولذلكَ اتخذ يوم الجمعة من كل أسبوع يوماً مرعياً، أجاب صيحة خزاعة الفزعة بصيحة الحرب ومن ثم بدأ بين العدنانيين والخزاعيين على ملك مكة قتال صمد له قصي ومن ورائه عدنان حتى تمكّن من إجلاء خزاعة عن مكة

وبذلك استقر في يده هذا المفتاح الذي به انتقلت السيادة من خزاعة إلى هذا البطن من بطون كنانة أو هذا البيت الذي جُمعت به القبائل من «فهر» التي عرفت باسم قريش، وبذلك دان لقصي مُلك مكة!

وأقام قصيّ نفسه ملكاً لمملكةٍ كانت من نوع الممالك المنتشرة على صفحات التاريخ السياسي عهد ذاك في أنحاء شبه الجزيرة العربية، ومن مظاهر هذا الملك أنه جدّد بناء الكعبة وشيّد «دار الندوة» فضم إلى الحكم الديني الحكم الزمني الذي تولاّه بمهارة عجيبة؛ فإن من المرجح بل والثابت أن قُصياً كان قد استفاد من ترحالاته التجارية التي حتمت عليه أن يضرب في جنبات الأرض ويستفيد من الأنظمة الاجتماعية والسياسية التي وجد عليها الفُرس وخاصةً الروم، فليست «دار الندوة» إلاّ مرآة عليها انعكست تلك الصورة التي كانت عليها مجامع الروم الدينية والمدنية! فلم يشيّد قُصي هذه الدار التي جعل بابها يؤدي إلى الكعبة إلاّ على نمط وغرار المجالس الرومية عهد ذاك والتي لا بد أن يكون قد شاهدها في تردّده على الممالك المتحضرة كفارس ومصر وحينما كان الظلال الروماني يمتد فهو لم ينشىء «دار الندوة» إلاّ ليجمع الرؤساء ويعقدوا فيها مجالسهم تحت رياسة كانت له وحده في هذه الدار التي وإن كان لم يحكم فيها إلاّ من بلغ الأربعين من العمر فإنما قد فتحت أبوابها لكل حكيم مفوه ولو لم يبلغ الأربعين من العمر واستقبلت كل نابغة محنّك واستهدفت قوة الشخصية والنضج الفكري، ويقيناً إن هذه إنما ظاهرة من ظواهر الرقي الاجتماعي الذي حققه قُصي بإنشائه هذه الدار التي جعل من اختصاصها حسم المشاكل وحلّ المعضلات وعقد الألوية والفصل في الخصومات إلى جانب تختينهم فيها غلمانهم وعقدهم فيها عقود القِران.. ومن ثم وُحّد الحكم الديني بالحكم الزمني في هذه المملكة الناشئة التي وإن كانت من نوع الممالك المنتشرة في شبه الجزيرة عهد ذاك إلاّ أنها كانت تتميز عن سائر هذه الممالك بالطابع الديني لأن الأصول من هذا الملك كانت تقوم على المعنى الواضح من امتلاك مفتاح «بيت اللّه» وما يتبع هذا الامتلاك من مستلزمات واختصاصات تقف في مقدمتها الحجابة أو السدانة أو الكهانة..

وهكذا تنحسر سجف التاريخ عن مكة في عهد قُصي كحاضرةٍ ذات حضارة على نصيبٍ وافر من الرقي السياسي والاجتماعي، ليس فحسب لأن فيها قد أصبح هذا النوع من الحكومة المنتظمة التي وضع قُصي أساسها لهذه السيادة التي استهلت في القرن الخامس الميلادي لها تاريخاً، وإنما!.. لأن هذه الحكومة، كما تُحدثنا مصادر التاريخ العربي، لم تكن حكومة الأغنياء التي يسيطر فيها أصحاب رؤوس الأموال على المرافق العامة وإنما حكومة اشتراكية استهدفت إقامة العدالة الاجتماعية وهدفت إلى القضاء على مشكلة

الفقر[1] فالقريشيون لم يكونوا يستغلون نفوذهم السياسي للثراء المادي وإنما كانوا يشقون به السبل المشروعة لجمع المال ثم ينفقونه في وجوه الخير الذي اتخذ مظهره في مساعدة المتعفِّف وفي إطعام الحاج متبعين في ذلك مبدءاً وضعه في مستهل حكمه قُصيّ، فإن قصياً بما قد جمع لنفسه إلى جانب السدانة من اختصاص الرفادة، التي استقرت من بعده في نسله من بني شيبة، إنما قد سنّ هذه السنّة التي تخرج فيها قريش من أموالها نصيباً لحظة رفع صوته قائلاً: «يا معشر قريش إنكم جيران اللّه وأهل بيته والحجاج ضيوف اللّه وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا...».

وبجانب الرفادة كانت السقاية وكان اللّواء؛ وهو راية الحرب ـ التي كانت لا تعقد إلاّ بيد قُصي قبل أن ينتهي أمرها إلى نسله من بني أُمية ـ وإلى جانب هذه الاختصاصات بالإضافة إلى الندوة أو رياسة الاجتماع كل أيام العام وتولية أمر المشورة والسفارة والحكومة والحكم الأخير في الخصومات جمع قُصي في يده كل السلطات المدنية والدينية فكان زعيم العرب السياسي ورئيسها الديني وقائدها العسكري ورأس قريش التي أصبحت، بذلك، سيدة العرب!. لا تنافسها في هذه السيادة قبيلة ولا تجرؤ قبيلة أن تناوئها وليس هذا فحسب وإنما تسعى القبائل طراً إلى تفيؤ ظل هذه السيادة التي تبثها وعزّزها اتخاذ قريش جزءاً من الأرض المجاورة «للبيت» أولته احترامها واعتبرته، بقدسية البيت، مقدساً ومن ثم عُرف «البلد الحرام» تحت اسم: «**بلد اللّه**»

وفي «بلد اللّه» أمنت قريش جانب غيرها من القبائل وغدا لها مركزاً خاصاً في نظر القبائل العربية قاطبة حضراً ومضراً وليضاعف لها في نظر هذه القبائل مكانة ويؤكد لها على دنيا الصحراء سيادة النعتُ الذي نعتت به قريش نفسها والذي ما لبث أن عرفتها به القبائل طراً حتى أمسى علماً على قريش اسم: «**أهل اللّه**».

وأمام سؤدد «أهل اللّه» كان حتماً أن تنحصر سيادة كل قبيلة في الدائرة الضيقة من محيطها وأن تخفق على الحضر والمضر «لأهل اللّه» ألوية ما رفّت إلاّ ورفرفت حتى أظلت الأرجاء من الحجاز وتهامة طاوية القبائل المنتشرة من عدنان كافة بما تضم هذه القبائل من أصول تشابكت في التفاف منها الفروع من حول قريش ليشتدّ منها الالتفاف من حول بناءٍ تعتبره بيتاً للإله الذي بوحدانيته تدين وتناديه منها الشفاء بنفس النداء الذي تعودت أن تناديه به في العصر الخزاعي وفي العصر الجرهمي من قبل، فإن اللّه، كإله واحد لا يقف بجانبه

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، للأستاذين خفاجة والجيار.

آخر، إنما محور التفكير الإلهي وطابع المعتقد الديني في العصر القريشي منذ بدئه حتى منتهاه والأيام بهذا العصر تسير من قُصيّ بن كلاب إلى محمد بن عبد اللّه..

أجل.. لقد طبع التوحيد العصر القريشي وقط لم يكن العصر القريشي إلاّ موحّداً وعلى مظاهر هذا التوحيد تتوالى الأدلة وتتضافر البراهين وتتضامن على انحصار التفكير القريشي في الوحدانية، فنحن نرى العصر القريشي يُسند إلى اللّه وحده أمر الكون والكائنات فاللّه هو الأحد الذي إليه يعود أمر الجزاء من ثواب وعقاب وهو من عنده جزاء الصالحات:

أجرت مخلداً ودفعت عنه ... وعند اللّه صالح ما أتيت

أبو قيس بن الأسلت

واللّه هو المعين على إحراز النصر:

وأحرزنا المغانم واستبحنا ... حمى الأعداء واللّه المعين

واللّه هو القابض والباسط وهو الذي يعلم السر والجهر وهو المُجازي:

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها ... إن أغناك فسوف يغنيني

اللّه يعلمكم واللّه يعلمني ... واللّه يجزيكم عني ويجزيني

ذو الأصبع العدواني

واللّه هو الخالق والمبدع الجمال:

قضى لها اللّه حين صورها الـ ... ـخالق ألاّ يكنها سدف

قيس بن الخطيم

واللّه هو الذي يجزي على البر والإحسان:

إذا اللّه جازى منعماً بوفائه ... فجازك عني يا قلمس بالكرم

هند بنت الخس

واللّه هو علاّم الغيوب ويعلم السر وما تكنه الصدور:

فلا تكتمن اللّه ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم اللّه يعلم

زهير بن أبي سلمى

من صدور الكتب الإسلامية المعاصرة[1] يتنفس التاريخ معلناً أن العصر القريشي كان مُوحّداً وأن من مظاهر هذا التوحيد يجيء القسم باللّه!

---

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، للأستاذين خفاجة والجيار.

والـلّـه لـو كـرهـت كـفـي مـصـاحـبـتـي لـقـلـت إذا كـرهـت قـربـي لـهـا بـيـني

العدواني

فـوالـلّـه أنـا والأحـالـيـف هـؤلاء لـفـي حـقـبـة أظـفـارهـا لم تـتـقـلـم

زهير

حـلـفـت فـلـم أتـرك لـنـفـسـك ريـبـة ولـكـن وراء الـلّـه لـلـنـفـس مـذهـب

الذبياني

عن التوحيد عَبْر أنفاس الشعر العربي، والشعر إنما موسيقى النفس الإنسانية الذي يطرد مع عواطفها وانفعالاتها المختلفة ويُجانس حالاتها وتراوحاتها المتنوعة يأتينا البرهان على إخلاد العصر القريشي وعلى أن اللّه كان اسماً معروفاً في العصر القريشي ونغمة تختلج بها الشفاه في كل أمر ومناسبة بل يجيء البرهان على أن هذا الاسم، اسم الجلالة الوارد في الأشعار العربية في غضون هذا العصر، هو نفسه اسم إله الإسلام ولهذا الرأي سند من نفس القرآن ففي مصدر العقيدة الإسلامية، كما سنرى ذلك بعد صفحات، نجد أن استعمال العرب لاسم الجلالة يشير إلى أنهم كانوا ينظرون إليه نفس نظرة المسلمين[1] فإن في اللّه، كمحور للمعتقد الأساسي الديني، كان قد انحصر المعتقد الديني في العصر القريشي وإن كان من حول هذا المحور قد اختلفت، كما في كل عصر، ألوان العبادة تبعاً لمراتب التفكير التي ليس إلاّ بسبب تباينها قد شُقت هوة بين العقل الجماعي والعقل الإنساني، فبينما كان العقل الإنساني قد ظلّ في تمثله بالتفكير الحنيفي كما كان في العصرين السابقين، الجرهمي والخزاعي، منتشراً في غير ضياع في أرجاء العصر القريشي كان العقل الجماعي قد استحكمت فيه الصابئية ومن ثم كان التجاؤه إلى الشفعاء يتخذهم زلفى إلى اللّه وهذا يقيناً إنما وثنية ولكنها وثنية لم يخل منها أي عصر ولن يخلو منها أي عصر وما دام هناك عقل جماعي وما دام هناك دهماء، فليس الالتجاء إلى الأولياء وليس الطواف بأضرحتهم إلاّ وثنية يصطبغ بها عصرنا ولها العقل الجماعي يخضع. ومن هنا يجب أن نتنبه فنعلم أن الوثنية التي شاعت عند العرب وخاصة الدهماء منهم لم تكن شركاً. كلا!. فلم تُعبد الأصنام في شبه الجزيرة بصفتها آلهة قائمة بذاتها وإنما، وهي لا تمثل إلاّ تماثيل الشفعاء، لم تُعبد إلا بصفتها شفعاء إلى اللّه.. ويقيناً إن هذا، في ضوء الحقيقة ليس شِرْكاً فإن الشيء الذي يُتخذ شفيعاً إلى شيء آخر لا يُعدُّ لهذا الشيء الآخر مساوياً!..

ومن ثم فإذا كان العصر القريشي قد ورث عن العصر الخزاعي وعن العصر الجرهمي من

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، للأستاذين خفاجة والجيار.

قبل عقائده وإذا كان قد صبغ العقل الجماعي في العصر القريشي بل وطبعه طابع تعظيم الوسطاء إلى اللّه، وإذا كان ليس إلاّ تحت اعتبار أنهم إلى اللّه شفعاء اتجه إليهم بالعبادة وبنى لهم بيوتاً هي التي أسماها «الطواغيت» ومن ثم كان قيام «طاغوت» بجانب «طاغوت» ضمّت منه الأركان أحد الشفعاء إلى اللّه، وإذا كان بهذه البيوت قد طوّف بشفعائه متشفعاً موقناً بأنه لا يستطيع إلاّ من خلالهم الاتصال باللّه فإن العقل العربي، في تفكيره الفردي وفي معتقده الجماعي، قط لم يشذ عن الاعتراف بالتوحيد للموضوع الأول للعقل أو الإله!..

ويقيناً! ما شذ العقل الجماعي في العصر القريشي عن طبيعته ودأبه في كل عصر!. فطابع العقل الجماعي في كل عصر إنما اتخاذ الشفعاء إلى اللّه والتوسّط إليه بالوسطاء ودأبه أبداً تشييد البيوت لهؤلاء الذين يظن أنهم إلى اللّه منه أقرب!. فليس إلاّ ابتغاء التقرّب من اللّه اقترب هذا العقل في العصر القريشي من هؤلاء الشفعاء وليس إلاّ ابتغاء مرضاة اللّه كان استرضاؤه لهؤلاء الوسطاء، ومن ثم فلئن كان العقل الجماعي في غضون العصر القريشي قد ورث عن العصرين السابقين طابع التوسل إلى اللّه بالوسطاء والطواف ببيوت الشفعاء فإنما المحور الأساسي الذي كانت تلتف من حوله سائر صيغ تعبده وألوان عبادته إنما؛ اللّه!. فاللّه هو النهاية القصوى التي تناهى إليها العقل العربي واللّه هو المحور الذي استدار من حوله التفكير العربي قاطبة استدارة حفّها بسياج التعظيم والإجلال حتى المدى الذي خضع فيه العقل الجماعي لمنطق العصرين السابقين القائل بأن الإنسان ليس أهلاً للاتصال باللّه اتصالاً مباشراً!.. فليس إلاّ عملاً بهذا المنطق ورضوخاً لتسلسله اتخذ العصر القريشي الوسطاء واتجه إليهم يناديهم بنفس النداء الذي كان له قد ورث. وليس إلاّ من هنا كان نعته لهم بالأُرباب وهذه إنما كلمة قد مررنا بها من قبل وعلمنا أنها صورة لفظية أخرى للمعنى من كلمة سادة!

من صدور التاريخ العربي يأتينا هذا اليقين بأنه ليس إلاّ تحت هذا المعنى وليست إلاّ تحت هذه الصفة خيمت على العصر القريشي عبادة أرباب انفردت من بينهم تلك الربات الثلاث بمكانة إليها لم يرتق شفيع من الشفعاء، فلهن كانت تُعظّم قريش ومن ورائها سائر بلاد العرب حتى أمست عبادتهن في القلب العربي مشاعاً!

أجل.. رغم اختصاص خزاعة وهذيل والأوس والخزرج «بمناة» فإن من حول تمثالها، الذي كان قائماً على ساحل البحر الأحمر بطريق يثرب، كانت قريش تطوف وتذبح ولعبادتها تتزعّم ومن ورائها سائر العرب.

ورغم اختصاص ثقيف «باللاّت» فإن من حول تمثالها، الذي كان قائماً بالطائف في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، كانت قريش ومن ورائها سائر العرب تطوف وتُعظّم.

ورغم اختصاص غَطَفان «بالعُزّى» فإن حول تمثالها، الذي كان قائماً بالحراض، كانت قريش ومن ورائها العرب تطوف وتخصها بمكانة تفرّدت فيها العزى من بين مناة واللاّت بإعزاز فريد فقد كان تمثالها أعظم التماثيل المقدسة عند قريش.

ولكن! رغم انفراد هؤلاء الربات الثلاث بمكانة إليها لم يرتفع من الشفعاء شفيع فإنهم قط لم يرتفعن إلى مرتبة الألوهية!.. وهذه حقيقة أخرى تفصح عنها مصادر التاريخ الديني وعليها يأتي الدليل من الشعر العربي لهذا العصر نفسه وهو يجري مُقْسماً يقول:

وباللاّت والعزى ومن دان دينها وباللّه إن اللّه منهم أكبر[1]

أوس بن حجر

يقيناً إن القلب العربي إنما بهؤلاء الربات كان قد علق ويقيناً إنه بهن وَلِهاً كان قد طوف منه الخيال فتمثلهن تحت صورة فذة من الجمال ونعتهن «بالغرانيق»[2]، ولكن!.. ليس إلاّ ليعلق بهن وليس إلاّ ليطوف من حولهن كأطياف إلهية يقفن من اللّه تحت الصفة التي يُسجّلها نفسه منه اللسان وهو الذي قد تعوّد أن ينعتهن: بنات اللّه!... ومن ثم فإذا كان القلب العربي بهؤلاء الربّات كان قد علق وبهن ولهاً كان الخيال منه قد طوف فليس ليطوف بهن إلاّ كأطياف إلهية وقط ليس لهن مُؤلهاً!. كلا! فليس إلاّ رجاء شفاعتهن له وتوسطهن بينه وبين اللّه كان اتجاهه إليهن عابداً، ومن خلالهن، اللّه!.. فلقد رسخ في الذهن منه من أن شفاعتهن، واللسان منه ينعتهن «ببنات اللّه»، لترتجى... وهذه إنما حقيقة عليها يأتي من مصدر العقيدة الإسلامية نفسه البرهان بأنهن لم يُعتبرن إلاّ الغرانيق العلى ولم يُعبدن إلاّ لأن عند اللّه شفاعتهن لترتجى!

أجل... من مسانيد التاريخ الديني يأتينا هذا اليقين ليزيدنا على يقين يقيناً بأنه في غير انحراف عن التوحيد وفي غير تحول عن الاعتراف بالوحدانية كان اللسان العربي قد لهج في غضون هذا العصر بعبادة هؤلاء الربات الثلاث فليس إلاّ على هذه المسانيد نفسها نستند في استمدادنا البرهان على أنهن قط لم يعبدن كآلهات وإنما اتخذن، لقربهن الشديد من اللّه، شفيعات إلى اللّه فما كنّ في الاعتبار الديني للعصر إلاّ مرآة عليها ينعكس الجمال الإلهي وجلاله ومن هنا كان تعريفهن بأنهن: بنات اللّه!

---

(١) **الملل والنحل**، للشهرستاني، جـ٣، ص ٣٦٦.

(٢) **الغرنوق**: الأبيض الجميل.

ومن ثم فقد آن لنا أن نستبين بأنه لم يكن إلاّ في غير انحراف عن الاعتراف بالوحدانية الخالصة للّه كان العصر القريشي قد نعت مناة واللاّت والعزى ببنات اللّه وإلى اللّه من خلالهن اتجه بينما كان قد غاب لهن أصول وبينما قد علقت في أرجاء مخيلته منهن الأطياف كغرانيق أو ذوات جمال يقفن لديه في مرتبة الشفاعة على رأس كل ما قد عرف من وسطاء وشفعاء كانت قد قامت لهم أيضاً أصنام أو تماثيل، ومن أشهر هؤلاء الوسطاء الذين قد قامت لهم تماثيل أولئك الذين ورد ذكرهم في مصدر العقيدة الإسلامية وهم: سواع ويعوق ويغوث ونسر وود.

يطالعنا تاريخ هؤلاء الأرباب الخمسة جلياً إذا تذكرنا بأن العرب كانت تُعظِّم من كان ينفرد بعمل فريد يولد من حوله الاعتقاد بأن دعوته قد أصبحت مقبولة عند اللّه ومن هنا كانت تصنع له تمثالاً أو هذا الذي تسميه صنماً، ولم تكن العرب إلاّ مدفوعة بحافزٍ من هذه العوامل حين صنعت لإبراهيم ولإسماعيل ولمريم ولعيسى تماثيل ووضعتهم في فناء «بيت اللّه»، ومن هنا ندرك أن الشأن كان شأن هؤلاء الأرباب الخمس فإن «سواعاً» هذه التي يقف تمثالها شاهداً على عنصرها النسوي، لم تكن إلاّ كنائلة الجرهمية شخصية تاريخية[١]... ونحن إذا رأينا «وداً» يقف بتمثاله على صورة رجل فليس إلاّ لنذكر أن من العرب من كان يسمى وداً، وليس إلاّ لتعود بنا الذاكرة إلى «أد» و«أدد» مَن إليهما كانت العرب العدنانية بنسبها تعود!...

من ثنايا التاريخ الديني عند العرب الأول ومن خلال داكن غيمه تلتمع هذه الحقيقة وعلينا تطلع كبرق خاطف نتبين في ومضته اللاّمحة أن هؤلاء الشفعاء الخمسة الذين كانت العرب قاطبة لهم تُقدس لم يكونوا، رغم اختصاص قبائل حمير بنسر وقبائل مراد بيعوق ومذحج بيغوث وبود، إلاّ أرباباً قبلية أو بالأحرى شخصيات تاريخية، لهم هذه القبائل كانت قد أجلّت وقدّست وبصنعها التماثيل لهم كانت في الوعي العربي لذكراهم قد خلّدت.. فليس هناك من بين هؤلاء الأرباب الخمسة واحد قد وقف في الذهن القبلي إلهاً وإنما للّه شفيعاً وصنوه صنو سائر الشفعاء أو بالأحرى هذه الطائفة التي كان يقف على رأسها «هبل» هذا الذي عن العصر الخزاعي قد ورث العصر القريشي له عبادة ساعدت على استمرارها طبيعة هذه الناحية من الأرض العطشى إلى الغيث، ومن ثم كان لتمثاله، المصنوع من العقيق الأحمر والذي له كانت خزاعة قد أقرت في «بيت اللّه»، مركزاً وقف به بمثابة المحور من كل تمثال كانت قد أقرّته كل قبيلة لشفيعها في «بيت اللّه» اقتداءً بالتقليد الخزاعي

(١) **الواقدي**، سبق ذكره.

الذي لم يكن إلاّ بسببه كان أن قامت، تماماً كما تقوم اليوم في الكنائس المسيحية الكاثوليكية تماثيل القديسين، في بيت اللّه تماثيل الشفعاء لتقوم في نفس الوقت شاهدة على أن الأساس الذي استقر عليه صرح الدين في العصر القريشي كان المعتقد بوحدانية اللّه وفي نفس الوقت الذي تجيء فيه شاهدة أيضاً على أن «الطواغيت» لم تكن إلاّ بمثابة أضرحة الأولياء أو مراكز للعبادة وأنها قط لم ترتفع إلى المكانة التي كان عليها «بيت اللّه» فهو الذي قد انفرد، انفراد صاحبه، بمرتبة الإجلال!..

ولكن!. هنا تجيء حقيقة تاريخية أخرى مستمدة هي من الانقسام المذهبي الذي كانت عليه العرب القريشية في هذا العصر، فلقد كانت العرب على مذهبين: حِلّة وحِمْس، وسميت قريشاً حمساً لتشددها في دينها، فالأحمس، في لغتها، هو المتشدد في دينه والمعظّم بيت اللّه وحده.. وليس إلاّ «الحلّة» من العرب هي التي كانت تعظّم بيوت الشفعاء وأمّا «الحِمْس» منهم فقد تراجعوا إلاّ عن تعظيم «بيت اللّه» لصلته بالساكن السماء، فلقد كانت قريش لا تعظم شيئاً من الحل كما تعظم الحرم ومن مأثور قولها: «نحن الحمس أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره» من ثم فلئن كانت قد انتشرت على صفحة العصر القريشي «الطواغيت» أو بيوت الشفعاء إلى اللّه فإن أُس المعتقد الديني إنما اللّه وأهم بيت كان:

بيت اللّه!...

من حول «بيت اللّه» التفّت ثلاثمائة وستون قبيلة وفي تلاقٍ منها حوله تشابكت الفروع من عدنان، حِلّة وحِمْساً، ومن ثم انحسار العصر القريشي عن عقيدة دينية مشتركة تربط بين القبائل من عدنان محورها اللّه ومركزها مكة أو بيت اللّه.. عقيدة دينية في الطوية العربية منذ العهد الجرهمي غرست فجعلت العرب في العصر القريشي، رغم انعدام وحدتها السياسية، ذات وحدة عقيدية فلا تتنافر القبائل، تنافرها في أصول عقيدتها السياسية، في أصول عقيدتها الدينية القائمة على الاعتراف بألوهية «اللّه» ومن ثم انحسار التفكير الديني للعصر، بهذه العقيدة المشتركة، عن دين له شريعة تقوم على أصول والأصول منه تنقسم إلى:

عقائد وأعمال

أهم أصل من أصول الدين في العصر القريشي أو هذا الدين الذي نعرفه بالصابئي كان: الاعتقاد باللّه، وأما الأصول المهمة التي تمثّل من هذا الدين الأركان فتنحصر في: الاعتقاد بالملائكة ووحي السماء بالتنبؤ والجان والسحر، والإيمان بالبعث، والخلود، والثواب، والعقاب، الأخرويين.

الأصول إنما الأصول من الدين الصابئي في العصر القريشي... فالعقيدة بألوهية اللّه كإله

واحد إنما عقيدة لا يمسها من الشك مساس ولا يخدش من قدسية صورتها وجود الوسطاء بل على النقيض كان اتخاذ الوسطاء كما قد رأينا، إمعاناً في إجلال هذه الصورة القدسية، فالدين الصابئي إذ يقر بألوهية اللّه كإله واحد لا شريك له في ألوهته فليس إلاّ ليحف هذه الصورة القدسية بإطار من المنعة والصون حتّم عليه الاقتراب منها عن طريق الوسطاء من الملائكة إلى جانب الأقدمين من الشفعاء، ومن هنا كان الاعتقاد بوجود الملائكة يمثّل ركناً في صرح الإيمان الصابئي، كما أن على أسس هذا المعتقد قام الإيمان بالخبر الآتي من السماء وجاء الاعتقاد بأن من أفواه الملائكة يمكن أن يستطلع ما قد كتبه القلم الإلهي في لوح القدر من أقدار!.. ومن هنا كان الإيمان بأن من السماء إلى الأرض، بواسطة هذه الأرواح العلوية، يأتي النبأ بما قد كتب في لوح السماء من أقدار الكون والكائنات، فللجبرية في التفكير للعربي كانت الأرجحية على عقيدة الاختيار... أما على من يتنزّل الخبر ومَن باستشفاف ما يجول في ضمير الغيب من أحداثٍ عنها ستنفض طيات الآتي يتنبأ، فليس إلاّ من عنه كانت قد رسخت في العقلية العربية العقيدة بأن له وحده القدرة على الاتصال بالملأ الأعلى، وهذا إنما أمر كان مقصوراً على أفراد طبقة السدانة أو الكهانة، فليس إلاّ السادن أو الكاهن من كان يقف موقف المستنبىء فالمتنبىء فالمنبىء ومن كانت قدرته على الاتصال بالملأ الأعلى أو الملائكة من ساكني «العالم العلوي» تمكنه من الاتصال بالملأ الأدنى أو «الجان».. فعن «الجان» كان قد رسخ في المخيلة العربية، مذ كان هذا العقل يحبو على مدارج الحداثة، الاعتقاد بها كائنات نارية العنصر ومسكنها «العالم السفلي» ولها القدرة الخارقة على قضاء الحوائج وعلى الائتمار بأمر هذا الكائن الذي يسخرها لإرادته فيما شاء ومِن هنا كان الاعتقاد بالسِحْر!

بيْدَ أن عن السحر، والسحر إنما نفثٌ في العقد ولا يأتي إلاّ بشرٍّ، يجب الابتعاد إن لم يكن مخافة العقاب في هذا العالم فمخافة العقاب في عالم آتٍ موعده:

«يوم البعث»!..

بالبعث أو «بيوم قيامة» تُجزى فيه النفس بما عملت إن خيراً فخير وإن شراً فشر، آمن العصر القريشي مؤمناً بأنه: **«يوم الحساب»!..**

ويوم الحساب؟.. يوم الحساب إنما يوم فيه سينتشر لكل امرىء «كتاب» فيه قد سطِّرت كل ما قد أتاه الإنسان في دنياه من أعمال، وعن هذه العقيدة يأتينا الدليل عبر بيان أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، الذبياني، وامرؤ القيس، وهذا الذي من ألقابه المعترف له بها في الإسلام «شاعر الشعراء»، فإن هذا المتألّه المعتقد بأن اللّه عالم بالخفيات والسرائر وأن

ما يصدر عن الإنسان من عمل مدخر ليوم الحساب لنا يقول:

فلا تكتمن اللّه ما في نفوسكم ... ليخفى مهما يكتم اللّه يعلم
يُؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

زهير ابن أبي سلمى

يقيناً إن اللّه يجازي يوم الحساب:

وعلمت أن اللّه يجازي عبده ... يوم الحساب بأحسن الأعمال

علاف بن شهاب التميمي

ويسترسل للشعر العربي بيان به نتبيّن مدى إيمان العصر القريشي «بيوم القيامة» واعتقاده بأنه: «**يوم الحشر**»!...

وعن «يوم الحشر» يأتينا من الشعر العربي التوكيد فمن أشعارهم، وقد كانت للعرب عادة أن تدفن مع الثاوي راحلته حتى يركبها «يوم البعث» وإلاّ سار الرجل راجلاً نسمع:

يا سعد أما أهلكنّ فإنني ... أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلاً ... في الحشر يصرع لليدين وينكب

جريبة بن الأشيم الأسدي

ويستفيض شعرهم فيسجل:

أبُني زودني إذا فارقتني ... إلى القبر راحلة برحل فاتر
للبعث أركبها إذا قيل اظعنوا ... مستوثقين معاً لحشر الحاشر

عمرو بن زيد التيمي

وهكذا تأتينا الأدلة جلية بأن العقل القريشي قد آمن بأن هناك فيما بعد هذه الحياة الأرضية حياة أخروية فيها المثوبة وفيها العقاب ومكانها عالم طبيعته الخلود!

ولكن!.. إلى عيشة سعيدة في عالم الخلد تعترض شروط هي لئن كان التمسك بالقيم الأخلاقية يأتي في أساسها فإنما تتلخص في الحرص على الالتزام بأداء أعمال دينية هي، كالعقائد الأساسية الدينية، أساسية وهذه تشتمل على:

الحج والصلاة والصوم

الحج إلى بيت اللّه، كعبة الدين الحنيف والصابئي، فريضة حولية فرضها التقليد وشرّعتها، منذ العصر الجرهمي، العادة وعلى أدائها حرص العربي، صابئياً وحنيفياً وحضرياً ومضرياً وحلة وحمساً، فمن كل فج من أرجاء شبه الجزيرة كانت تُقبل الأفواج يملأها اليقين

بأنها إنما تقبل إلى «بيتٍ عتيق» إليه شوقاً كانت تصبو منها الجوانح وبلفحات حب «صاحبه» هي أبداً تتلظّى!..

من أعماق الصحارى وأطراف البوادي كان العربي في غضون هذا العصر يقبل ساعياً يسعى بالبيت ويطوف به سبعاً تترعه العقيدة بأنه إنما قد أقبل للإله زائراً ومن ثم كان حرصه على أداء أصول الزيارة... ولما كانت أصول هذه الزيارة تنحصر في اتباع ما قد شرّعه السلف من شعائر تنحصر في الإحرام والوقوف بعرفة والمُزدلفة وهدي البدن وسائر المناسك حتى المناداة بالتلبية فقد كان العربي يحرص على القيام بأداء هذه الأحكام التي كان يختتمها بالتهليل وبالتلبية التي تحتم عليه، إذا كان صابئياً، أن ينادي:

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

إلا شريك هو لك تملكه وما ملك[1]

فإذا ما أدى الحاج مناسك الحج، سواء أكان صابئياً أم حنيفياً فليس إلاّ ليتحول منه الوجه شطر وادي «مناة» وليس إلاّ ليجمع جموعه وإلى هذا الوادي في اليوم العاشر من الشهر يرتحل لينحر فيه الكباش ضحية للّه وقرباناً ولنفسه فداءً، اقتداءً بأرومته من بسيرته كان يروح راوياً: إن إبراهيم كاد أن يضحي للإله بإسماعيل لو لم يُنزل اللّه كبشاً من السماء وكان في ذبحه فداء «للذبيح»!. وبذلك قد شرّع اللّه استبدال القربان البشري بالقربان من الكباش.. فليس إلاّ اقتداءً بالسلف واتباعاً، كما كان يعتقد، لشريعة إبراهيم عرف العربي في العصر القريشي طقوس القيام بالحج بما تشتمل عليه هذه الطقوس من تلبية وطواف وسعي ووقوف بعرفة ونحرٍ للكباش في اليوم العاشر[2] من شهر ذي الحجة لتبدأ بذلك للعرب أيام: **العيد الأضحى**!

الحج إلى «بيت اللّه»، هذا البيتَ الذي جدّدت قريش بناءه ومحمد ابن خمس وعشرين سنة ورفعت بابه حتى لا تدخله إلاّ بسلّم، وذلك لتستطيع منع من تشاء من دخوله، فريضة حولية على أدائها حرص العربي تمام الحرص يدفعه إلى القيام بها، كلما استطاع سبيلاً، إيمان راسخ ترتد عنه شبهات الشك في أنه قد أتى اللّه زائراً، ولما كان العربي في عاداته الاجتماعية قد عرف للزيارة معناها الكفيل بالغض عما قد سلف من المساءات فليس بمستغرب أن نجد هذه العادة الاجتماعية قد أوجدت فيه شعوراً دينياً إليه لا يتسرّب شك بأنه بزيارته اللّه قد مُنح منه، على كل ما قد سلف من ذنبٍ، الغفران!

---

(١) **الملل والنحل**، للشهرستاني، سبق ذكره.

(٢) **الملل والنحل**، جـ٣، ص ٣٣١.

بيد أن لئن كان للقيام بهذه الزيارة موعد ولأدائها كان يضرب ميعاد فإن للتأهب والاستعداد لها كانت هناك أشهر معلومات، المحرم ورجب وذو الحجة وذو القعدة[١] ومن ثم عُرفت هذه الأشهر الأربعة بالأشهر الحرام وتبعاً لحرمتها ولّدت في المعتقد العربي عنها العقيدة بأن من الدين تعظيمها والإقلاع في غضونها عن مستجد العداوات وموروث الخصومات والكف عن القتال، ومن ثم كان الحجيج يقبل في غضون هذه الأشهر ومن حيث أقبل كان يروح عائداً يملأ جانبيه الأمن وتسكن الطمأنينة منه القلب، فطيلة هذه الأشهر الأربعة كان جناح السلام يرفرف على أرجاء الصحراء!.. لا قتل ولا قتال ولا تعد، ولا عدوان.. كلا!. كفت الحرب وفي صمتٍ كفّ في الأشهر الحرم صليل الحراب!

أجل... الحرص التام حرص العربي على تعظيم هذه «الأشهر الحرم» التي نسأها «القَلّمس» بن حذيفة بن عبد فقيم المتحدر من كنانة[٢].. وقط لم يجرؤ من العرب مُجترىء على الإخلال خلالها بقواعد السلام إلاّ مرة وصمها العصر القريشي «بحرب الفجّار» أما بعد ذلك فقد سارت الأيام في غضون الأشهر الحرم، كقبلها من الأيام، هادئة مستقرة خلالها كان الحجيج من أطراف بواديه يقبل ويطوف «بيت اللّه» سبعاً يهلل للّه ويلبي ومتضرّعاً إليه يناديه متشفعاً بمن إليه قد اتخذ من وسطاء ومن في «بيته» لهم كان قد وضع تماثيل بل وليدفعه فيض من وقدة الشعور وحدة الإيمان إلى تحسس أستار الكعبة بها متبرّكاً ليروح بعد طواف بتماثيل شفعائه، ناحية ذلك النصب الذي تجلّه قريش وله تقدس وفي اقتداء بها يهوي في شغفٍ لاثماً «الحجر الأسود»!..

هذا هو الحج في العصر القريشي فريضة فرضها التقليد وشرعتها العادة كما أن بجانب هذه الفريضة التي قد توارثها العرب عن السلف ومن مظاهرها القيام بسائر مناسك الحج وليضاف إلى هذه الشعائر شعيرة جديدة جاءت بعد «عام الفيل»، فإلى «المغمس» حيث يرقد أبو رغال دليل أبرهة الذي أقبل من صنعاء ليهدم البيت العتيق ثائراً للبيت الذي كان قد بناه في صنعاء كان هناك ذلك المظهر الآخر من مظاهر الحب للمعبود والتعبير العاطفي المصوِّر عاطفة الإجلال التي تأتينا منها الصورة في العصر القريشي واضحة جلية. فقد عرف العصر:

الصلاة

في الدين الصابئي صلاة، وصلوات الدين الصابئي خمس صلوات، خمس كانت تؤدى

(١) الملل والنحل، جـ٣، ص ٣٣٠.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ١.

في اليوم نهاراً وليلاً[١]... ثلاث منها كانت تؤدى في غضون النهار واثنان ليلاً ليرتفع في اليوم الواحد، عبر الركوع والسجود، التسبيح بحمد الله بين طرفي النهار وظهراً وفي العشي والإبكار!

لا ثمة شك في أن الصابئي حينما كان يؤدي هذه الصلاة إنما كان يؤديها علامة على إيمانه ودليلاً على تقواه ومن هنا كان حرصه على ما تفرضه عليه هذه الصلاة من شروط تنحصر في التطهر الجسدي، فإنه إذا كان من شعائر الدين الصابئي حتماً ألاّ اقتراب من المسجد الحرام إلا بعد اغتسال من الجنابة فقد كان حتماً أيضاً الاغتسال قبل هذه الصلاة التي كان يؤديها العربي الصابئي مولياً وجهه شطر «بيت اللّه» فبيت اللّه إنما في العصر القريشي قد غدا في الصلاة إلى اللّه قبلة!...

وإما إذا كان بعيداً فهو يتخذ منه الحجر الذي حمله معه من حجارة الكعبة، بديلاً، يضعه متمثلاً الكعبة فيه.

أجل.. عن هذا المظهر من ألوان التعبير العاطفي للّه تنحسر طيات التاريخ العربي في غضون هذا العصر لتنحسر طيات هذا التاريخ نفسها عن مظهر آخر من مواجد الوجدان عرفه العصر، ألا وهو:

التصوف

لقد عرف العصر القريشي في فجر تاريخه ألواناً من التصوف كان الزهد من أول مظاهرها، فالزهد إنما أول درجة في سلم التصوف ومن هنا كان حتماً أن يجيء في غضون هذا العصر الزهد وما يتبع الزهد من تنسك والواقع إن التنسك كان معروفاً فقد كان يطلق على صاحب هذه النزعة التنسكية نعت «الديان» فليس الديان إلاّ المتنسك في الدين[٢] ومن ليس إلاّ بسبب تكاثر فئاته كانت هذه النزعة قد غمرت هذا العصر واغتمرته لتنمو وتتخذ مرحلة متقدمة في تطورها بقوم كان يقال لهم «صوفة» انقطعوا إلى عبادة اللّه وقطنوا الكعبة، ومن هؤلاء بل بالأحرى كان رأس هؤلاء «الغوث بن مر» فلم يكن أولئك المعروفين «بصوفة» إلاّ أتباع الغوث..

بيد أن إذا كان العصر قد عرف هذا اللون من ألوان مجاهدة النفس معرفته لذلك اللون الآخر من ألوان التعبير العاطفي فإن بجانب هذين المظهرين المصورين من تعابير

---

(١) **العرب قبل الإسلام**، للأستاذ عمر رضا.

(٢) **التصوف الإسلامي**، للدكتور زكي مبارك.

العاطفة للعاطفة بعض مشاعر وشعور، يأتي ذلك المظهر الآخر العائد بمصدره إلى النفس ألا وهو:

الصوم

في الدين الصابئي صوم لكنه صوم كتبته على النفس النفس، فالصوم رياضة نفسية وُجد ووجدت حيثما وجد الزهد ومحاربة الشهوات والعربي غضون العصر القريشي لم يجهل الزهد ولم يتجاهل محاربة النفس، فالعصر إنما كان عصراً قد عمرت منه الأرجاء بالمتحنثين والموحدين والزهاد ممّن تركت خطاهم الأثر بعد الأثر على شعب مكة ومهابط حِرَاء ومعتلياتها... بل إن الصوم بمعناه الاصطلاحي من الامتناع عن أشياء محددة في أوقات محددة كان في الدين الصابئي عرفاً معروفاً وشعيرة يجب تأديتها مرات ثلاث في العام الواحد كان أقلها يوماً واحداً وهو يوم عاشوراء وأما أبرها فشهراً كاملاً هو الذي كان العربي الصابئي، في مستهل مجاهدته نفسه، يؤديه خلال «الرمضاء».. عندما يتأبت النهار وتهبُّ من شِذْق الرمال لوافح الرمض تلفح شذْق الصحراء!.

والرمضاء؟.. الرمضاء إنما هي نفس الكلمة التي اشتقت منها كلمة رمضان، فإن العرب حينما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، وهي لغة العرب العاربة، سموا الأشهر بحال الأزمنة التي وقعت فيها عند التسمية، فاتفق أنه حينما أرادوا تغيير اسم شهر «ناتق»، و«ناتق» كما تنتشر عنه اللغة في مادة «نتق» إنما كلمة تعني الصوم وكان الحرّ على أشده والرمض في أشدها فسموه رمضان... من ثم، والعلة الحقيقية هي هذه «العلة» التي يجيء من نفس مصدر العقيدة الإسلامية عنها اليقين بأن على المسلمين قد كتب الصوم كما كُتب على الذين من قبلهم، فإن العرب كانت في العصر القريشي تصوم شهر رمضان!

هذه هي الأصول من الدين الصابئي عقائد وأعمالاً كما يتنفس عنها صدر التاريخ ويعلنها للعصر القريشي ديناً له قد توارث عن السلف الخلف فتوارث له شعائر وطقوس نسكٍ تُمثِّل منه القواعد والأركان وتربط بين الفروع المتفرعة من عدنان بوحدة عقيدية وتضمها بتشاريع تكوّن:

الشريعة في الدين الصابئي

حكومة منتظمة لم تكن العرب، من ثم فلا قانون مدوّن ولا سلطة تنفيذية تتناول التشريع في مرافق الحياة سواء في الأمور المدنية والجنائية والأحوال الشخصية، كلا، فلم يكن هناك إلاّ الخضوع للعرف وإلاّ مراعاة التقليد القبلي الذي كان قد توارثه الأبناء عن الآباء كما استنّه كل أب قبيلة لقبيلته، بيد أن مما قد ناولته إلينا الأجيال من مظاهر الحياة

العقلية في غضون العصر القريشي تحت اسم «المذهبّات» و«المفضليات» و«الحوليات» و«الاعتذاريات» ومما قد ناولنا إياه الزمن «كديوان الحماسة» لأبي تمام والبحتري ومن «الأغاني» للأصفهاني ومن «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ومما فد اختارته «مختارات الشجرّي» ومما قد أوردته «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القريشي تطالعنا جلية الشريعة في الدين الصابئي فليس إلاّ مما قد ناولته لنا الأجيال عن مظاهر الحياة العقلية في غضون العصر القريشي وخلال تاريخ زمني لا يتجاوز القرن والنصف قرن قبل الإسلام، نتبين بوضوح أن للدين الصابئي كانت شريعة وإن تكن شريعة لم تصبغها صبغة التنزيل!. فهي شريعة قد أوحتها على العربي طبيعته وعليه قد أملت موادها له جبلة صاغت ما يضمه قاموس الأخلاق من مبادئ ومُثُل.. فالناحية الأخلاقية إنما تتجلى، فيما قد ناولته إلينا الأجيال من مظاهر هذه الحياة العقلية، متينة وقوية وقويمة مترعة بمظاهر القيم الأخلاقية من مكارم الأخلاق كالعدل والإحسان والوفاء بالوعد ففي «الأمور الجنائية» استنّت هذه الشريعة: **الرجم لمقترف الفاحشة[١] قطع يد السارق[٢]**.

وفي «الأمور المدنية» شرعت هذه الشريعة:

المساواة في الحقوق بين الأفراد والعدالة في المعاملة وهذا تشريع يسجله «حلف الفضول» ففي هذا الحلف، الذي سيطالعنا بأسبابه بعد قليل، قد أخذت قريش على نفسها رد كل مظلمة إلى أهلها لا فرق في ذلك بين قريشي وغير قريشيّ!.. بل وإلى ما قبل «حلف الفضول» يأتينا الدليل على تلك الناحية القوية التي كانت تمتاز بها قريش بسبب وجودها بجوار «بيت اللّه»، فإن العصر القريشي، الذي كان قد توارث عن العصور الأول احترام «بيت اللّه» والذي كان بجانبه قد سنّ استقاء «العسل المصفّى» عادة وكسوته بأفخر الثياب وألاّ يقربه إلاّ المتطهرون وأن لا يقربونه دماً ولا ميتة ولا محائض، إنما بحرمة هذا «البيت» قد بنى ناحية قوية من أخلاقه، فهذه سبيعة بنت الأجب، وكانت عند عبد مناف، تقول لابن لها تعظم عليه حرمة «البيت» وتنهاه عن البغي في «بلد اللّه»:

أبُنيّ لا تظلم بمكة	**الصغير ولا الكبير**
واحفظ محارمها بُنيّ	**ولا يغرنّك الغرور**
أبنيّ من يظلم بمكة	**يلقى أطراف الشرور**
أبنيّ يضرب وجهه	**ويلج بجنبيه السعير**

(١) المختارات الفتحية في تاريخ التشريع وأصول الفقه للأستاذ أحمد أبو الفتوح.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ١.

أبـــنـــي قـــد جـــربـــتـــهـــا فـــوجـــدت ظـــالمهـــا يـــبـــور
الـــلّـــه آمـــن طـــيـــرهـــا والـــعـــصـــم تـــأمـــن فـــي ثـــبـــيـــر

وأما في «الأحوال الشخصية» فقد شرعت هذه الشريعة وحرّمت ما قد شرّعه الإسلام من بعد وما قد حرّمه من القرابات في الزواج فهي لم تُحلل من ألوان الارتباط الجنسي لوناً جعلته شرعياً وبه اعترفت إلاّ ما قد حلّله من بعد الإسلام وأقرّه شرعياً..

يقيناً! لقد تعفّف العصر القريشي في المناكح وعفّ ساداته عن الانغماس في اختيار واحدة بعد واحدة أو الجمع بين الاثنتين، فتاريخ العصر يطالعنا بأن السادة فيه قد اقتصروا على واحدة في نفس الوقت الذي يحدثنا فيه هذا التاريخ بأن هذا التعفف قد امتد مداه الذي به تراجع عن الأخت وبنت الأخت وبنت الأخ مما أقرّه، أيضاً من بعد الإسلام[1]. كما أن هذه الشريعة قد شرّعت الطلاق، فقد كان العرب يطلّقون مرة واحدة ثم يرجعون فيطلقون الثانية فيرجعون أما الثالثة فلا رجعة فيها. وقد يجمعون بين الطلاقات الثلاثة مرة واحدة[2] وهذا إنما نفس ما قد أقرّه الإسلام من بعد.. وأما أقبح ما كانوا يعتبرون فهو أن يجمع الرجل بين أختين أو يخلف على امرأة أبيه أو امرأة ابنه أو ربيبه الذي يكون قد تبناه. فلقد بلغ من شدة استمساك قريش بالقيم الأخلاقية أن كان للمتبنّى كل اعتبارات الابن وحقوقه!

أما «الوأد» فقد نهت عنه قريش وحرّمته، كما سيطالعنا ذلك بعد صفحات، وإن لم يكن شائعاً إلاّ في قبيلتي أسد وتميم وعلى الأصح لم يكن إلاّ في هاتين القبيلتين معروفاً وبالتحديد بين الدهماء فيهما من تلك الفئة التي كانت قد اشتدت بها رقة الحال.. مخافة سُبّة قد تصيب من عارٍ قد يلحق لن تزيله إلاّ إراقة الدم[3]!.

وهكذا نرى أن العرب في العصر القريشي كانت تُحلِّل أشياء وتُحرِّم أشياء هي نفسها التي أُقرّت من بعد ومن بعد حُرمت ومن بعد حُللت... وإن وحيها في هذا التحريم والتحليل لم يكن إلاّ مستمداً من الينبوع الداخلي وإلاّ عملاً بسنن ومقتضيات للقيم الأخلاقية، فمن شريعة العصر القريشي نرى أن القيم الأخلاقية كان الاعتبار الأول الذي اتخذ مظهره في الطهارة بنوعيها: المادي والروحي. فأما «الطهارة المادية» فهي أنهم كانوا يداومون على طهارات الفطرة وهي «الكلمات العشر» التي توارثها عنهم الإسلام وقررها من السنن المرعية كما توارث عنهم تعريفهم لها فقال قولهم بأنها خمس في الرأس خمس في الجسد، أما

---

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، لخفاجة والجيار.

(٢) **الملل والنحل**، جـ٣، للشهرستاني.

(٣) **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن.

التي في الرأس فهي المضمضة والاستنشاق وقص الشارب والفرق والسواك. وأما التي في الجسد فالاغتسال من الجنابة وغسل الموتى والصلاة عليهم وهذه الشعيرة الأخيرة كانت من أوجب الشعائر، فقد كان من عادة العرب عند الدفن أن يقوم خطيب فيذكر محاسن الثاوي ويقول عند مواراته التراب «عليك رحمة اللّه». وأما أبرز مظهر من مظاهر هذه الطهارة الجسدية فقد كان: **الختان**.

وأما «الطهارة الروحية» فقد كان من أهم مظاهرها التسامي إلى بلوغ السمت من قمم الأخلاق ومن هنا كان تمسكهم بمكارم الأخلاق كالتعاون والوفاء بالعهد والزكاة وصلة الأرحام والكرم وتحريم الكذب تحريماً أدّى إلى تحريم كل عامل يؤدي إلى التفريط في هذه القيم. ولما كانت الخمر لا فحسب رأس هذه العوامل وإنما العامل الأول في حلّ رابطة الأخلاق والوسيلة الأولى إلى التحلل من القيم الأخلاقية وإلى الانحلال فالانزلاق في مزالق الهوى فقد حرّم الكثير من ساداتهم على أنفسهم الخمر..

كلا!. لم تتجنّب الخمر طائفة من عقلاء العرب وإنما حرّمتها على نفسها وأوثقت هذا التحريم بالقسم باللّه. وأول عربي حرّمها على نفسه في العصر القريشي كان ذاك الذي أعطى اللّه عهداً ألا يشربها أبداً:

فواللّه لا أحسو بذا الدهر خمرة ... ولا شربة تذري بذي اللُّب والفخر

قس بن عاصم التميمي

وصنو قس كان ذاك الذي ما زال الصوت منه يتحدّر على مقاطع الأيام رنيناً:

وتركت شرب الراح وهي أثيرة ... والمومسات وترك ذلك أشرف

وعففت عنه يا أميم تكرماً ... وكذلك يفعل ذو الحجى المتعفف

الأسلوم اليامي

وصنو الأسلوم فذاك الذي كان أول من قُرعت له العصا:

أقسمت باللّه أسقيها وأشربها ... حتى يفرق ترب القبر أوصالي

تورث القوم أضغاناً بلا إحن ... مزرية للفتى ذي النجدة العالي[1]

عامر بن الظرب العدواني

وإلى جانب العدواني، هذا الذي كانت العرب تسند إليه الفصل في أمورها، يجيء ذلك الآخر:

---

(١) **طبقات الشعراء**، لابن سلام.

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما

صفوان بن أمية الكناني

وصنو صنوان كان شرحبيل المعروف بعفيف:

فلا والله لا ألفي قوماً أنازعهم شراباً ما حببت
أبى لي ذلك آباء كرام وأخوال بعِزّهم ربيت

عفيف بن معدي الكندي

وكعفيف، عفّ عن «أم الفواحش» هذا القائل:

رأيت الخمر طيبة وفيها خصال كلها دنس ذميم
فلا والله أشربها حياتي طوال الدهر ما طلع النجوم

مقيس بن قيس السهمي

وأما أبرز هذه الطائفة فإنما ذاك الذي يأتينا صوته عبر الأجيال عبيراً يقول:

وإني لأرجو أن أموت ولم أنل متاعاً من الدنيا فجوراً ولا خمرا

حاتم الطائي

من شفاه أكثر من واحد من سادة العصر القريشي يأتينا اليقين بأن ما من أحد من حكماء العصر إلاّ وترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس[1] وفي هذا ما يدلنا لا فحسب على مدى الرقي الذي كان طابع العصر القريشي وإنما يمدنا بما به نستطيع أن نحكم على المجتمع القريشي قبيل الإسلام. فإن بين المجتمع والأخلاق علاقة وثيقة فبين المجتمع والأخلاق تجاوب وتفاعل وكلاهما مؤثر ومتأثر في وقت واحد فكل منهما إنما مرآة تنعكس عليها صورة الآخر والأخلاق لا يمكن بحال أن تنشأ وتتكوّن وتنمو وتتطوّر إلاّ في مجتمع، والمجتمع بدوره رهين في سيره وتقدمه واتجاهه وتحوله بأخلاق الأفراد التي تكيفه بكيفية خاصة وتوجهه وجهة معينة، ولهذا الارتباط الوثيق بينهما تبرز الحياة الاجتماعية القريشية واضحة المعالم جلية الصفات من خلال الشعر العربي الذي قد سجّل الحياة الخلقية تسجيلاً رائعاً رسم طهارة المجتمع العربي وعفّته وصور كرمه ووفاءه وغير ذلك من حميد الأخلاق التي كادت أن تكون وقفاً على هذا العصر.. كما أننا نلمس من ثنايا هذا الشعر شيوع الروح التقية واتقاد العاطفة بوقدة الورع فعلينا يهبُّ من مضامين هذا الشعر لهب العاطفة

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني.

الدينية كميزة فيه واضحة!. ولا شك في أنه إلى ما كانت تشتمل عليه مكة في العصر القريشي من أماكن مقدسة وحرمات ظاهرة وإلى ما كان يؤدى فيها شعائر العبادة ومناسك الحج وإلى البيئة الدينية السائدة فيها يعود الأثر الأكبر في إضرام هذه العاطفة وفي إنماء هذه القيم، بل إن من مظاهر ذيوع العاطفة الدينية أن نرى من هذا الشعر وضوح الإيمان بالفضائل والمثل العليا والدعوة إليها حتى المدى الذي أورث اتزاناً في التفكير وسلامة في المنطق وقوة في الحجة وصحة في النظر إلى الحياة، فهو فضلاً عن بلاغته وروعته، غني بالمضامين الحية وبالروح الإيجابية والثورة على الخرافة والأوهام التي كانت، شأنها في كل زمان ومكان، طابع العقل الجماعي...

ثم.. ثم إنه إذا كان من ثنايا هذا الشعر يطالعنا الروح الإيجابية وعلينا يطلع بالمضامين الحية فإن في ثناياه، أيضاً، نرى مظهراً آخر وهو الاتجاه إلى ثراء الروح فمن بطون التاريخ العربي للعصر القريشي تنحسر هذه الحقيقة وهي أن ثراء النفس كان لديهم المطلب والغاية، فالمال في نظرهم غادٍ ورائح وليس من باقٍ على الدهر إلاّ طيب الذكر وحسن الأحدوثة ومن هنا كان تحايلهم بالوسائل على إنفاق المال في سبيل رفاهية المجتمع بالترفيه عن المعوزين حتى المدى الذي تُسجله لهم الكتب الإسلامية فتقول بأن من بواعث ذلك لدى أثريائهم كان إقبالهم على الميسر في زمن الجدب لينحروا الجزر للمحتاجين والجائعين، وأما الوفاء فهو السجية الأصيلة في العرب عامة وفي القريشي خاصة والكلمة عهد مبرم واجب الوفاء وخاصة إذا كان هذا العهد قد أُوثق بالقسم باللّه!...

وهكذا.. من ثنايا الشعر العربي لهذا العصر تأتينا هذه الأدلة على مواد الشريعة التي شرّعها لنفسه بنفسه الدين الصابئي، فهذا الشعر إنما يهدينا إلى أن نلقي نظرة على الروح التقية التي كان عليها المجتمع العربي فنتبيّنه، في ضوء اليقين، مجتمعاً قد صحّ منه الجسم وسلمت منه الأطراف وليس على ذلك أدل مما قد تقدم من أدلة تقف في مقدمتها سُنّة الوفاء بالعهد حتى المدى الذي اعتبرت فيه قريش أن الغدر ثلم للشرف وهذا إنما أمر بسببه كانت قريش ترفع في سوق عكاظ لواء التشهير بالغادر الناكث العهد، فالعهد واجب الوفاء حتى ولو طرأ ما يوجب النقض!

هذه هي الشريعة التي يطالعنا بها الدين في العصر القريشي وهذه هي القيم الأخلاقية في هذا العصر كما أملتها على العربي الفطرة العربية بوحي من طبيعة له طبيعتها الإباء وبدافع من جبلة له صيغت من الأنفة والحمية والشرف والكبرياء، فالدين الصابئي لا يستند في مبادىء شريعته إلى مصدر قدسي أو بالأحرى إلى وحي هابط أو كلم منزل ولا يقول إن

تشاريعه قد دلفت إليه من السماء. كلا. فتشاريعه لم يجئ بها نبي أو رسول إلهي كان سجل صدقه كتاباً مقدساً كشرائع الديانات الأخرى التي كانت منتشرة عهد ذاك والتي كانت في غضون هذا العصر تنساب إلى مكة وفيها تتوغل عبر تياراتها التي استرسلت في امتداد من البقاع الخاضعة سياسياً للإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية وتتدفّق صاخبة من مصدرين أحدهما تلك الإمارة التي قامت على حدود بادية الشام وتلك الإمارة الأخرى التي قامت على ضفاف بحيرة النجف حيث تمر فروع من نهر الفرات... إمارتا الحيرة وغسّان اللّتين بهما يطالعنا:

أثر إمارتي الحيرة وغسّان في التفكير الديني المكي

مما لا ثمة شك فيه أن العرب لم تكن، بسبب مركز مكة الجغرافي الذي جعل منها منذ سَحَر التاريخ طريقاً مطروقاً للتجارة ومهبطاً للتعامل الاقتصادي، في أي عهد مضى قط عن العالم في عزلة، ولكن... بهاتين الإمارتين العربيتين، اللّتين أنشأهما الفرس والرومان في الأراضي القريبة من حدود إمبراطوريتهما واستعاضوا بهما عن جنودهم بجنود أقيالٍ من العرب لحد السطو القبلي ولرد غارات السلب والنهب التي كانت بعض القبائل البدوية تشنها على قوافلهم التجارية باسم الغزو صيغت حلقة جديدة ربطت بين قلب الصحراء وأطراف العالم المتحضر بسلسلة ولّدت اتصالاً ترك عميق أثره في العقلية العربية فقد جعلها، بسبب هذا الاتصال السياسي والتجاري بالحضارات المجاورة المتاخمة، تتصل فكرياً بفارس وبيزنطة أو الروم الشرقية، ويمسّها من خضابيهما، ففي تقليد راح العقل العربي، وهو في أعماق هذا القلب من صحرائه، يقلد ما قد اصطبغ به عبر هاتين الإمارتين عن طريق الحاكمي ممن كانوا معهم قد ارتبطوا بمعاهدات وليولد فيه هذا التقليد ذلك التوثّب السياسي الذي ستطالعنا به الأيام وهي تسير من قصي إلى محمد غداة هدف أن تكون للعرب وحدة سياسية تسلخ الوحدة القبلية ويقوم بها للعرب ملك... كمُلك كسرى وكمُلك قيصر!...

في أفق المخيلة العربية يطالعنا هذا الأثر الذي احتل من تفكيرها السياسي الأرجاء عن طريق تخضيب هذه المخيلة بالتفكير الديني المنساب إلى القلب من الصحراء من هاتين الإمارتين.. وعلى صفحات التاريخ السياسي نراه جلياً ونحن نستعرض أثر إمارتي الحيرة وغسّان في التفكير الديني للعصر القريشي...

ففي **الحيرة** من هذه الإمارة التي تعود بتاريخها إلى القرن الثالث الميلادي وتعود بنشأتها إلى أردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة مَن على أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية إلى بلاد العرب عن طريق المناذرة من

اللّخميين الخمسة والعشرين الذين تعاقبوا على إمارة الحيرة وكانوا واسطة في نشر العلوم والمعارف في شبه الجزيرة، يطالعنا الأثر الفارسي في تخضيب التفكير العربي عامة والمكي خاصة، فإن أسواق الحيرة كانت للتجارة العربية مقصداً وقصور أقيالها كانت للشعراء منهم منزلاً ومدرستها، مدرسة «جنديسابور»، التي شيّدها سانور بن أردشير التابع للدين الزردشتي[1]، كانت للعلم كعبة ترسل إليها الطبقة الثرية من قريش أبناءها، وليس هذا فحسب وإنما كان الظلال الفارسي على العرب الحيريِّين أنفسهم قد انبسط وصبغهم بصبغة التحضر الفارسي فحيثما المتجه من الحيرة كان، كانت الروح الفارسية ترفرف وترف غامرة القصور والأسواق باتباع الـ «زند» من مانوية يُعرف أصحابها بالمجوس ومن زردشية يُعرف أتباعها، نسبة إلى الكتاب المقدس «الزند» بالزنادقة، كما أن إلى جانب أتباع لزردشت وأتباع لماني كان ينتشر ليسوع أتباع من مسيحية نساطرة... وكل هذه العناصر غير المؤتلفة من مسيحية وزنادقة ومجوس تُؤلف بمجاميعها تيارات دينية تموج بها أرض الحيرة وتنساب عبر القوافل الرائحة والغادية، إلى القلب من الصحراء وفي مكة تستقر ليدوِّي فيها الهدير من هذه التيارات هادراً بأن كل، من زنديقي ومجوسي ومسيحي، إنما أتباع نبي رسول وحملة كتاب مقدس!...

وفي **غسّان** وكالحيرة كانت غسّان ففي هذه المنطقة من بادية الشام، حيث إليها كان قد هاجرت قبيلة أزد من اليمن على إثر انكسار سد مأرب وذهب بطن منهم إلى الشمال عُرف بأزد غسّان فولى الرومان منهم أمراء على عرب الشام ألمعهم على التاريخ كان الحارث ابن جبلة أول أمراء بني جفنة الذي رفعه جستانيان إلى مرتبة ملك وبسط سلطته على كل القبائل العربية في بلاد الشام فتولى مُلك الغساسنة من سنة ٥٢٨م إلى ٥٦٩م، يطالعنا الأثر الروماني في تخضيب التفكير العربي قاطبة. فإن غسّان كانت للعرب من مكة مقصداً ومنزلاً فإليها كانت العرب بتجارتها وبشعرها تشد إلى قصورها وأسواقها الترحال فتشد ترحالها إلى حيث كان يترامى الظل الروماني الشرقي وإلى حيث كانت تتفيأ فيء ذلك الدين الذي انبثق في أرجاء العصر الهلليني الروماني ونما على أرض الإمبراطورية الرومانية حاملاً اسم المسيحية وحلّ في غسّان بمن كان قد حلّ فيها من اليعاقبة..

وهكذا... بالمناذرة من اللّخميين في الحيرة الذين استعان بهم الفرس على الرومان وعلى العرب معاً وبالغساسنة في الشام الذين استعان بهم الرومان على الفرس والعرب معاً نفث الزمن روح التحضر في أعماق الصحراء!...

---

(١) **الدين في إيران**، من هذه السلسلة.

ولكن!.. لئن كان في أعماق الصحراء قد نفث الزمن روح التحضّر فليس إلاّ لينفث عبر هذه الروح فِكَراً دينية عن رسل وأنبياء وكتب مقدسة وليس إلاّ ليلفح الوعي العربي بلهب الافتقاد إلى رسول ونبي وكتاب مقدس وليس إلاّ ليذكّي ضريم هذا اللهب ويُرسل له هصيصاً بمن كان يأتي إلى هاتين الإمارتين ومن عنهما كان عائداً يروح إلى مكة ليُحفحف هذا اللهب ويندلع من الشفاه في صورة القصص عن الأنبياء والرسل والكتب المنزلة. ومن هنا تحولت مكة في العصر القريشي إلى مصب ديني لتيارات دينية شتى فهي بعد أن كانت طريقاً للتجارة غدت، بنشأتهما، للتجارة قاعدة ومركزاً لقريش التي كانت في هذا العصر تتزعم للتجارة حركة دفعها إليها، بالإضافة إلى هدفٍ سياسي عنه سينحسر التاريخ بعد صفحات، ميلها للسلام فهي، وللسلام محبة وجل أفرادها من دعاة التعايش السلمي لا يقاتلون إلاّ إذا اضطروا للقتال، اشتغلت بالتجارة وما كان اشتغال القريشيين بالتجارة إلاّ تعففاً عن السلب والنهب، فقد كان بعض القريشيين، كما تذكر ذلك صدور الكتب الإسلامية، إذا أجدبوا ولم يجدوا ما يحفظ رمقهم ينتحون مكاناً قصياً مؤثرين الموت على حياة يصمها عار السرقة والنهب باسم الغزو!...

بهذا الدافع، دافع مشكلة المحافظة على الكيان السياسي والاقتصادي الذي اتخذت قريش الوسيلة لحله عن الطريق السلمي الذي يعتمد على المعاهدات السياسية والتجارية التي تؤمن الشريان الحيوي لتجارتها عبر الصحراء في اتجاهها إلى أعماق الجنوب حتى اليمن وإلى أقاصي الشمال حتى الشام، عملت في الوعي العربي العوامل الدينية الشتى في إنماء فكرة نبي ورسول. فلقد تزعمت قريش حركة التجارة زعامة بلغ من اهتمامها بها أن عقد أبناء عبد مناف الأربعة مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام، فمع الإمبراطورية الرومانية ومع إمارة غسان عقد هاشم معاهدة مودة وحسن جوار وحصل من الإمبراطور الروماني الإذن لقريش بأن تجوب الشام في طمأنينة وأمن، ومع النجاشي عقد عبد شمس معاهدة تجارية ومع فارس ومع حمير في اليمن عقد نوفل والمطّلب معاهدات تجارية... وبهذه المعاهدات التي نظّمت قريش شأن تجارتها وأمنت بها على قوافلها بقيامها بها مرتين من كل عام إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً تكوّن في مكة مجتمع كاد أن يكون سوياً! لا يحس فيه أحد بألم العوز وذل الحاجة ومذلة الإدقاع. فالأغنياء والقادرون على العمل والكسب الذين كانوا يعملون في التجارة طوال العام في رحلة الصيف والشتاء إنما قد انتعشت بهم الحياة الاقتصادية وارتفعت نسبة الدخل القومي ارتفاعاً تضاءلت به نسبة الفقراء، فإذا بقي بعد ذلك فقير أو عاجز عن العمل كان له في الزكاة حظ من أموال الأثرياء، فقد شرعت قريش الزكاة كي تخلط فقيرها بغنيها فإذا الكل سواء!. وبذلك حلّت قريش مشكلة لا تزال أكثر الحكومات

الحديثة تشكو منها ويستبين عجزها عن حلّها.. فقد حلّت قريش هذه المشكلة، مشكلة العوز والفقر وحققت العدالة الاجتماعية في المجتمع المكي بأسلوب مهما قيل في بساطته فإنه قد كفل القضاء على الإدقاع إذ ألزمت الأغنياء بكفالة الفقراء وفرضت على الغني أن يقسّم ربحه بينه وبين الفقير وبذلك رفعت عن ذوي الحاجة غائلة الخصاصة وأصبح من يمتلك المال ومن لا يمتلكه في ميزان الحياة على السواء، فقد غدا هذا التكافل الاجتماعي أمراً مرعياً وسنّة من سنن المجتمع المكي حتى مجيء الإسلام[1].

ولكن.. لئن كانت رحلة الصيف والشتاء وسيلة إلى غاية سياسية ولئن كانت بهذه الوسيلة قد انتعشت الحالة الاقتصادية وبلغ من عناية قريش بالتجارة ما قد رأينا من اقتسام بني عبد مناف الأربعة الاتجاه إلى مختلف البلاد واشتراعهم هذه السنة التي أمست بها مكة قبلة أنظار العرب جميعاً فإنما لهاتين الرحلتين، رحلة الشتاء والصيف، كان التأثير المعنوي والأدبي والديني الذي ترك طابعه في العقلية العربية، ففي الصُحبة القريشية، وللقريشيين حيثما حلّوا حرمة ولهم لا يتعرض أحد إذ هم لا فحسب السادة وإنما هم من تنعتهم العرب كافة «أهل اللّه»، كانت القوافل العربية في حمى «أهل اللّه» تسير وتقفل إلى بلادها قافلة بما تحمل في ذاكرتها صورة البون البيِّن بين حضرها وتلك الحواضر وبين بساطتها وذلك السؤدد والسلطان لأمم تعود بأسباب سؤددها وسلطانها إلى **وحدة سياسية تقوم على أسس وحدة دينية** مادتها: **«نبي رسول» و«كتاب مقدس»**!..

يقيناً ليس إلاّ على أسس وحدة دينية مادتها نبي رسول وكتاب مقدّس تقوم الوحدة السياسية التي للفرس والتي للرومان وهذه حقيقة لا يحملها العائدون إلى مكة إلاّ وعليها يُصادق المقيمون فيها من الرومان والفرس، فمكة في العصر القريشي إنما مترعة بالفرس وبالرومان بما قام لهم فيها من المبيعات التجارية التي أنشأتها فيها هاتان الإمبراطوريتان ليزداد بهذه المبيعات التجارية هدير التيارات الفكرية العقائد الدينية والمعتقدات المذهبية في مسمع مكة مغتمرة العقلية العربية بألوان شتى من المعتقدات والعقائد والفِكر.

من الأجزاء الخاضعة سياسياً للفرس، حيث كانت الزردشتية تُخيِّم ديناً رسمياً، كان يمتد إلى بطون شبه الجزيرة عامة وإلى مكة خاصة التيار الزردشتي متوغلاً بدين المحور منه «نبي رسول» عنه رسخت في المعتقد الفارسي العقيدة بأنه جاء آخر الزمان وأن عليه تنزّل وحي السماء بواسطة «الروح» أو كبير الملائكة الذي أسرى به إلى السماء ليعود إلى الأرض بشيراً بالدين الحق... وهادراً امتد هذا التيار لينصب في جوانبٍ من القلب القريشي حيث استقر

(١) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص ١٨١، ١٨٢.

فيها هذا الدين الذي عُرف، نسبة إلى كتابه المقدس، «بالزندقة» وعُرف أصحابه بالزنادقة، ومن هنا علق بالوعي الزمني أن في قريش قد انتشرت «الزندقة» لتسطر يد الزمن أن قريشاً قد تزندقت!...

أجل... إلى «الزندقة»، والزندقة كما نرى ليست كلمة مرادفة للمعنى من كلمة إلحاد وإنما هي في حقيقتها دين قام على الاعتراف بالتوحيد ويعتبره أتباعه منزلاً، هفت من القلب القريشي جوانب وإليها شدّ من هذا القلب الوثاق بتلك الطائفة التي كانت قد تعلمت في مدرسة «جنديسابور» كالحارث بن كلدة وابنه النضر بن الحارث من أطباء العرب وممن بهم كانت قد راحت الأبحاث تدور في الأفق العقلي بأبحاث تقترب من الرحاب الفلسفي لاتصالها بما وراء الطبيعة وقِدَم العالم وحدوثه وأمر الخلود والبعث ليتراجع منها اليقين عن الإقرار بالبعث الجسدي مؤمناً بأن العظام لن تحيا من جديد بعد أن تمسي رميماً... ومن ثم فبينما استقرّت الزندقة في جانب من الجوانب القريشية فإنما عن قبول عقيدتها القائلة ببعث جسدي في «يوم قيامة» يُنصب فيه «الميزان» ويُحاسب فيه المرء على ما قد أتى في دنياه من أعمال ليسير بعد ذلك على «الصراط» الذي يمتد فوق هاوية الجحيم إلى «الفردوس»، تراجعت ناحية من الطبقة المفكرة ووقفت بطبّها حائرة تتساءل حيرى عن ماهية النفس في نفس الوقت الذي جاء فيه رفضها قبول عقيدة البعث الجسدي مؤيداً لمذهب كان حتماً أن يتكون بتلك الناحية الأخرى من العقلية العربية التي كان قد خضّبها التيار المجوسي الذي قد امتد من الأجزاء الخاضعة أيضاً للفرس ليستقر في بطون شبه الجزيرة عامة وفي «تميم» خاصة يحمل ديناً محوره، أيضاً، نبي رسول وعنه قد صاحب المعتقد المجوسي الإيمان بأنه: «بُشرى عيسى»[1]!...

أجل.. ليس إلاّ كأثر لهذا التيار الديني القائم على نظام «الإمامة» والهادر بأُلوهة «الواحد» في غير اعتراف ببقاء الدهر تولد في أرجاء من التفكير العربي:

المذهب الدهري

بديهياً أنه لا فرق بين الطبيعيين والدهريين إلاّ أنه من الثابت أن أصحاب المذهب الدهري من العرب أو الدهريين فرقتان مختلفتان وإن كان على كليهما يطلق نعت: «المعطّلة» ولكن لا يهمنا من هاتين الفرقتين إلاّ تلك التي رفضت رفضاً باتاً عقيدة البعث الجسدي ومن ثم فإذا كانت فرقة من هاتين قد قالت بأن الخالق قد خلق الأفلاك متحركة ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها فدارت عليه وأحرقته فإنما هناك تلك الفرقة الأخرى التي قالت

---

(١) انظر: كتاب **الدين في إيران**، من هذه السلسلة.

بقِدَم العالم وعدم حدوثه واستدلّت على ذلك بأن الأشياء إنما تخرج من القوة إلى الفعل فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكوّنت الأشياء، مركباتها وبسائطها، من ذاتها لا من شيء آخر... والعالم لم يزل ولا يزال ولم يتغير ولا يتغير ولم يضمحل ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المُبدع يفعل فعلاً يبطل ويضمحل إلاّ ويبطل هو نفسه ويضمحل مع فعله وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه، ومن ثم فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر وما هي إلاّ الدنيا نموت ونحيا فيها وما يهلكنا إلاّ الدهر...

بثالث فحول الطبقة الأولى من شعراء العصر القريشي تتجلّى واضحة هذه النزعة التي تركت تأثيرها في ناحيةٍ من التفكير الديني للعصر، فمن هذا الآتي من مزينة من قبائل مضر يتحدّر إلينا الصوت مُرجّعاً في مسمعنا هدير الدهر هادراً:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدى ليا
بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم ... وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا!

زهير بن أبي سلمى

ومتلقياً في يومه بين أمسه وغدهِ يسترسل:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تُمِت ومن تُخطىء يعمّر فيهرم

وهابطاً في الأرض أثراً، يسترسل:

وإني فتى أهبط في الأرض تلعة ... أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا
أراني إذا أمسيت أمسيت ذا هوى ... ثم إذا أصبحت أصبحت غاديا

ولكن.. هذه النزعة لا تلتمع على تربة التاريخ الديني لهذا العصر إلاّ كسرابٍ ترَهْره! فنحن لا نقترب منه إلاّ ونراه قد تلاشى في لا شيء وليس على ذلك من دليل أدلّ من أن نرى هذا الآتي من مزينة يعود عن الميل إلى المذهب الدهري فلا يلحق «بالمُعطّلة» وإنما يلحق «بالمحصّلة»، وهي تلك الطبقة التي أقرّت بوجود اللّه كموجد للوجود بما فيه من موجودات فيقول:

بدا لي أن اللّه حق فزادني ... إلى الحق تقوى اللّه ما كان باديا
بدا لي أني لست مُدرك ما مضى ... ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا
وما أن أرى نفسي تقيها منيتي ... وما أن تفي نفس كرائم ماليا!...

كالرياح الرامسات التي تُغطي آثار الديار هبّت «المحصّلة» فغيّبت «المُعطّلة» حتى لم يبق من الأثر المجوسي إلاّ القول «بالواحد» وإلاّ القول ببقاء الدهر بيد أن ليتكشف لنا على الباهت من صفحات التاريخ العربي القديم الأثر الذي تركته المجوسية إلى جانب الأثر الذي

تركته الزردشتية أو الزندقة عبر تيارها الذي انساب إلى مكة من الحيرة ولنرى أن في مجرى هذا التيار قد أقبلت أيضاً من الحيرة المسيحية وراحت في توغل تتغلغل إلى القلب من الصحراء العربي ليزيدها في هذا القلب تغلغلاً وتوغلاً تيارها الآخر المقبل من الأجزاء الخاضعة سياسياً للروم، أو بالأحرى غسّان... فمن غسان، حيث المسيحية كانت قد أمست الدين الرسمي، انسابت المسيحية إلى مكة انسيابها من الحيرة ودخولها إلى الجنوب من شبه الجزيرة عن طريق الحبشة دخلت الشمال عن طريق سوريا وشبه جزيرة سيناء وضفاف الفرات ولكن!.. ليتلاقى على هذه الناحية من الأرض في اصطدام منها التيار بمتنافر العقائد المذهبية.. فإنه إذا كانت من غسّان قد أقبلت المسيحية في صورتها اليعقوبية وتحت هذه الصورة المنتشرة بها في غسان وسائر بلاد الشام انتشرت في قبائل تغلب وقضاعة ونجران فإنها من الحيرة كانت قد أقبلت في صورتها النسطورية... وكلتا الفرقتين إنما تتنافران تنافراً جوهرياً من حول عقيدتهما الدينية فاليعقوبية تقول بألوهة يسوع وإن مريم أم الإله بينما النسطورية تستنكر استنكاراً قاطعاً إلاّ الاعتراف بالوحدانية المطلقة للإله حتى المدى الذي تُكفِّر فيه القول بتأليه يسوع وتأليه مريم فليس يسوع لدى النساطرة إلاّ «كلمة اللّه» ألقاها «الروح القدس» إلى مريم، وليست مريم لدى هذا المذهب إلاّ عذراء بتول وقع عليها الاصطفاء الإلهي من بين نساء العالمين، ولكن!. ولئن تنافرت اليعقوبية والنسطورية من حول معتقدهما المذهبي فإنما قد اتحدتا على التهادن من حول محور واحد كلاهما بوجوده يعترف، فإنهما من حول الاعتراف بألوهية اللّه كواحد لا يتنافران وليس إلاّ حاملة هذا الاعتراف قد أقبلت النسطورية وأقبلت اليعقوبية مع القسس والرهبان الذين كانوا يردون أسواق العرب يعظون، ومن ألمع هؤلاء على التاريخ ذكراً كان: عدي بن زيد، وحكيم العرب وحكمها قس بن ساعدة أول من اعتلى «الصفا» وعلا الصوت منه في أرجاء مكة سجعاً ونثراً يُجلجل:

«هو اللّه الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود»!..

بل ويسترسل هذا الصوت يلقي كلماً له في المسمع نغمة ولنغمته في الفكر رنّة يقول:

«هو اللّه إله واحد، ليس بولد ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غداً»!.

كالريح الريّا عندما تهب على عين ريّة هبّت المسيحية على شبه الجزيرة العربية فأنعشتها!. وهذه إنما حقيقة علينا تطلع ويأتينا عبْر القرون منها العبير ونحن نقلّب صفحات التاريخ الديني التي تأتينا باليقين بأن المسيحية، سواء في صورتها اليعقوبية أم في صورتها

النسطورية، لم تكن مجهولة في شبه الجزيرة العربية ولا سيما مدن الحجاز التجارية وخاصة في المحور من هذه المدن وعاصمتها «أم القرى»، فقد كانت مكة على اتصال دائم بأهل الجنوب عامة وبأهل الشمال خاصة وليس من شك في أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتشر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى هذا القلب من الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالمسيحية لا فحسب لأن الصحراء كانت ملجأ تلوذ به بعض الفرق المضطهدة من الكنيسة المسيحية وبعض المذاهب التي عدتها الكنيسة على المسيحية مارقة، كالديصانية التي عارضت الكنيسة في أمر الصلب ونفته نفياً باتاً على أسس عقيدتها بأن من قد صُلب ليس ابن مريم وإنما به شبيه، فما كان الصلب لينل «كلمة اللّه» و«روح اللّه»!.. وإنما لأن هناك كان يقوم دير للرهبان النساطرة على تخوم الشام وبالتحديد في البصرى، فليس إلاّ إلى هذا الدير يعود الأثر الأكبر في تعريف العرب بالمسيحية النسطورية كنتيجة حتمية لما قد نفثه الرهبان النساطرة في الوعي المكي من عطر المحب المسيحية.. فليس إلاّ كنتيجة لما قد همهمت به شفاه رباب السبتي وخاصة سرجيوس وبحيرا، وهما من كان أبو طالب ينزل في ضيافتهما، من تعاليم كان أن خضبت المسيحية ناحية بارزة من قريش.. فالمسيحية ولئن عانقت قبائل ربيعة وتغلب وقضاعة ونجران فإنما قد تغلغلت في القلب القريشي تغلغلاً هو ولئن تمثّل بعثمان بن الحويرث فإنما هو قد تبلور بذاك الآخر الذي كان أحد العوامل المؤثرة في محمد بن عبد اللّه؛ ورقة بن نوفل، مَن راحت يده تترجم وتنقل إلى العربية بعضاً مما في «العهد القديم» ومما في «العهد الجديد» وخاصة مما قد اجتذبه في «العهد الجديد» من فقرات إنجيل ليعلق في الوعي العربي بأن هناك إنجيلاً واحداً تنزّل على ابن مريم من هو في نفس الوقت «روح اللّه» و«الكلمة» و«المسيح»!..

هذا هو الأثر الحيوي والغسّاني في التفكير الديني العربي عامة والمكي خاصة..

ولكن... إلى جانب هذين الأثرين كان هناك أثر آخر مصدره:

يثرب

إن في يثرب يهودية كانت في العهد القريشي قد وطّدت منها الأركان فيثرب إنما مدينة قد اختطتها يد بحتة وشيّدتها سواعد محض يهودية لرجال إليها، «بعد الخروج» من مصر، كانوا قد وفدوا وفيها حلّوا غداة بين نخيلها ومياهها طاب لهم المقام ومن ثم اختطوها مدينة عليها أطلقوا اسماً مصرياً حرّفته الأيام من «أثريب» إلى يثرب...

ولكن... في يثرب لم تستقر اليهودية تمام الاستقرار إلاّ حين نزحت إليها، في أعقاب النكبات التي أصابتها، فلول كان نزحها إلى يثرب ثابتاً بعد الغزو البابلي لفلسطين فقد وفد

بعض من أفلت من الأسر البابلي إلى الحجاز ونزلوا بوادي القرى وفي يثرب وتيماء[1]. لتلحق بهم فلول أخرى من بعد فراراً من «بومي» ومن «هادريان».. فلم يكن لأتباع موسى ملجأ إلاّ يثرب حيث راح فيها من حولهم الزمن ينشر عليهم جناح الأمن الذي مكنهم من بناء الحصون وإثمار الأموال واستثمار الأرض[2] حتى صارت لهم مستعمرات منها «خيبر» و«فدك» و«وادي القرى» و«تيماء» وحتى أهّلت بهم قرى كثيرة شمالي يثرب وحتى نيفت قبائلهم على العشرين تميزت من بينها في المكانة ثلاث:

قريظة والنضير والقينقاع للسبب عينه، سبب هذا الإثراء والإثمار والاستثمار، استقرت في يثرب وفيها لم يستطع أن يناوئها مُناوىء حتى طغى «سيل العرم» وحتى أقبل مع خزاعة، التي كانت قد احتلت مكة، ذلك البطن من بطون كهلان من رجال الحرب والسلاح فقد واصل هذا البطن سيره إلى يثرب حيث حلّ فيها واتخذ مكانه بين هذه القبائل العبرية بفرعيه من بني:

الأوس والخَزْرَج

إن الأوس والخزرج إنما إخوة فالخزرج شقيق الأوس ولكن كلاهما ينقسم بدوره إلى بطونٍ هي هذه التي أقبلت والتي كان أهمها من الخزرج وأشهرها «بنو النجار»..

وفي يثرب كان حتماً أن يقضي الأوس والخزرج ردحاً من الزمن في ضيق لأن المرافق الاقتصادية كانت محكومة بالقبضة اليهودية، إلاّ أن كما تسير الأيام نجدهم قد تحالفوا وتعاملوا ليظلوا على ذلك زمناً حتى دبّ دبيب الخلاف بين الأوس والخزرج على السيادة فيما بينهما ومن جراء ذلك كان أن تنازعا السلطان فجرت بينهما وقائع وحروب فكان «يوم حاطب» و«يوم سمير» و«يوم بُعاث»، أو هذا اليوم الذي استعر فيه قديم الخلاف!. فإن هذه الواقعة العائدة بتاريخها إلى سنوات ست قبل الهجرة قد بعثت بين الخزرج والأوس عداوة أدّت إلى أن يستعين بعضهما على بعض ببعض قبائل اليهود، ولينقلب ذلك إلى عداوة لليهود ومنذ ذلك الوقت والعلاقة بينهما تجري من سيىء إلى أسوأ، كلاهما يخشى أن يتغلّب عليه الآخر.

ولكن!. شامخة في ترفعٍ وقفت اليهود تحدج الأوس والخزرج بنظرةٍ ساخرة مستمدة مما كان لإسرائيل من مركز مدده مباهاتها هذا البطن من بطون كهلان «بنبي رسول» و«كتاب منزّل»... غير متنبهة إلى أنها إنما بهذه المباهاة تشعل في صدر هذا البطن من بطون العرب

---

(١) **تاريخ الطبري**، ١٨٢/١.

(٢) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ٢١ ـ ٢٢، **وخلاصة الوفاء**، للسمهودي.

ومن رجال الحرب والسلاح وقدة المفاخرة وأنها تعقد في النفسية منه عقدة لن تُحل إلا بمفاخرة كالمفاخرة وبمباهاة كالمباهاة!

هذه هي العقدة التي عقدتها اليد اليهودية في النفس الخزرجية والأوسية والتي بدأت بها تنصرف الأيام بينما كان التيار الديني اليهودي إلى القلب من شبه الجزيرة يمتد وباستقراره في خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى لا يستقر!.. ففي ظمأ راح القلب اليهودي يتقلب في هذا الجانب من شبه الجزيرة متجهاً شطر «الأرض الموعودة» يتخذ، اتخاذ الصابئة والأحناف الكعبة في الصلاة إلى اللّه قبلة، «بيت المقدس» في الصلاة قبلة ومن ثم قوياً في تدافع متزايد راح الهدير من هذا التيار يرتفع مدوياً بدين تقوم منه الأصول، أيضاً، على «الوحي الهابط».. وحي تنزّل على «رسول» كان «للإله كليماً» له على قمة الجبل الإله تجلّى وله ناول «الألواح» نصوص شريعة تحمل اسم «التوراة»...

أجل.. قوياً ارتفع هدير التيار اليهودي وبالموسوية راح في مسمع مكة دوياً ليزيده في هذا المسمع تجاوباً من كان إليها يفد من حِمير وكندةً، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب. ولكن!.. لا ليروح على الصدر من مكة يتجاوب ثم يتلاشى فإنما أمامه قد راح يطرق التفكير العربي فيه مفكراً كنتيجة حتمية لما كانت تتمتع به اليهود من سمعة علمية مصدرها ما قد كان لهم في يثرب من مدارس منها كانت الروايات الدينية تنساب لتنصبّ في المسمع العربي الذي راح يصغي في إرهاف إلى ما تحمله إليه هذه القصص من سير القُدامى فالعقل العربي أبداً يستحسن الحنين ويستعذب استعادة الماضي ومن هنا كان التقاطه لهذه القصص التي تتحدث عن «آل عمران» وموسى و«فرعون موسى» وعن هارون وعن مريم أخت هارون مكررة في الوعي العربي اسماً يفرق بين شخصيتين عاشت كلتاهما في عهد تفصله عن الآخر عدة قرون من الزمن، فإن مريم أخت هارون إنما أخت موسى وهي غير مريم أم عيسى...

هذا هو، إلى جانب التيار الحيريّ والغسّاني، التيار اليثربي الذي امتد إلى مكة امتداداً يطالعنا بأثره العميق الذي تركه في الوعي منها. لا فحسب لأنه قد أمدّ مكة بالكثير من القصص الدينية إلى جانب ما تعرفه من قصص عاد وثمود وصالح وهود وإنما لأنه قد أضاف إلى الفِكَر التي جاءت من الحيرة ومن غسان مادة أشعلت في الوعي العربي لهب البحث والتفكير فيما تأتي به هذه التيارات الدينية التي تسترسل هديراً يدوي بأديان «منزلة» محورها «نبي رسول» و«كتاب مقدس»... ومن ثم فانحسار طيات التاريخ العربي في غضون العصر القريشي عن انبثاق البحث في إرسال «الرسل» ليندلع، بالبحث، لهب الجدل

ويرتفع هصيص هذا اللّهب يسفر عن التنازع بين هذه النِحَل المتباينة بأتباعِ كل يناضل بأن الدين الحق إنما هو الدين الذي به يدين!

أمام هذا الجدل الديني هبّ العقل الإنساني تحت صبغته العربية متمثلاً بتلك الطبقة من الأحناف من أصحاب الدين الفطري الذي كان منتشراً في القبائل انتشاره في مكة.. هبّ يتلفت في أرجاء دنياه فلم ير إلاّ اختلاط العقائد وخلطها بعضها ببعض وإلاّ انعدام الوحدة السياسية للبلاد في هذه الفترة الزمنية التي اقتسم السيادة القريشية فيها عشرة أشراف هم ولئن كان أبرزهم العباس بن عبد المطلب فإن أنفذهم أمراً إنما أبو سفيان بن حرب.. وكلاهما إنما يقف، في داخل البيت القريشي، رأساً لفرعين من أبناء العم يتنازعان فيما بينهما السيادة القريشية على العرب ويمثلان وقدة اللهب التي تأججت مذ طوت يد الزمن عن الدنيا قُصياً!.. فليس إلاّ غداة ثوى قُصيٌ بدأ في داخل قريش النزاع على السيادة التي تركها لأكبر أبنائه:

عبد الدار

وهنا يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً لنعود ونسير في ركب الزمن من جديد مستعرضين مجريات الأحداث منذ أورث قُصيّ، والشرف إنما وراثي لمن كان من الأبناء الأسن، عبد الدار مناصب السيادة التي كانت له على العرب ومن ثم ورث عبد الدار كل ما قد كان لقُصي من الوظائف الرئيسية الدينية والسياسية وراثته الهيمنة على السلطات التشريعية، كل الاختصاصات التي كانت لقُصي تركها قصيّ لعبد الدار الذي بها اختص هذا الاختصاص التقليدي الذي آلت به إليه أمجاد قُصي وبذلك غدا عبد الدار زعيماً لبلاد العرب قاطبة ورئيسها الديني الأعلى مما قد أثار حفيظة الآخرين من أبناء قُصيّ لثلاثة وخاصة:

عبد مناف

ولكن... احتراماً لوصية أبيه ومراعاة للتقليد العربي لم ينازع عبد مناف أخاه عبد الدار وإنما احتفظ بهذه الحفيظة التي أورثها لأبنائه الأربعة، هاشم وعبد شمس ونوفل والمُطَّلب ومن ثم فبينما كانت قد استمرت الرياسة في فرع عبد الدار كانت هذه الحفيظة في قلوب هؤلاء الأبناء الأربعة من فرع عبد مناف ترعى وتنمو مع الأيام وتسير في ركب زمنٍ كان خلاله يتفتح من العرب الوعي ويشرئب منهم العنق يتنسم نسائم الحضارة الدالفة من فارس شرقاً وغرباً من الرومان عن طريق إمارتي الحيرة وغسان... وليس إلاّ بدافع من هذه الحفيظة، التي كان لظاها يستعر في صدور أبناء عبد مناف ضد بني عبد الدار، لجأ هؤلاء الأبناء الأربعة إلى اتخاذ سياسة جدهم قُصي في امتلاك أعنة العرب عن طريق الإثراء المادي

ومن هنا كان اهتمامهم برحلة الشتاء والصيف. إلاّ أن الجمر من هذه العداوة لم يندلع ناراً حفحفت وانطلقت من الشفاه سعيراً إلاّ غداة طوت راحة الزمن عن الدنيا عبد الدار!

منذ اللحظة التي غاب فيها عبد الدار عن الدنيا انطلق أبناء عبد مناف ينازعون بني عبد الدار على ما في أيديهم من أمجاد قُصيّ ومن ثم انداح الرماد عن الجمر الذي كان في الخفاء متأججاً وأسفرت الحفيظة المستترة عن سافر عداء واحتدمت بين أحفاد قُصي من بني العم، فرع عبد الدار وفرع عبد مناف، الخصومات لتندلع لهباً تُفرّق بطون قريش وحلفائها وجيرانها إلى فريقين، ففريق كان قد اكتسبه بنو عبد مناف بما قد أصبح لديهم من مادي ثراء مصدره رحلتي الصيف والشتاء، أمسى يعاضد بني عبد مناف، وفريق أبى إلاّ أن يعاضد بني عبد الدار لأنه يرى أن ما في أيديهم إنما حقهم الشرعي!...

واسترسل هذا التحيّز القبلي واتخذ مداه الذي كان من جرائه أن عقد بنو عبد مناف ومعضديهم حلفاً على ألاّ يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً وسموه:

«حلف المطيبين»

وجاوبهم بنو عبد الدار ومن معهم بحلف آخر أسموه:

«حلف الأحلاف»

وبهذين «الحلفين» تجمّع الفريقان للقتال وباتت مكة على شفا حرب أهلية وقودها هذه القبائل المنقسمة إلى قسمين وتجمّعت الغيوم وتجهمت الآفاق وكادت هذه الحرب أن تندلع لو لم يحل حرص قريش على بقاء الوحدة القومية وضنّها من أن تسفك في «بيت اللّه» الدماء!.. فقد أطلقت قريش للسلام صوتاً تداعى به أحفاد قُصيّ من بني عبد الدار إلى الاستسلام والرضوخ للسلام فأعطوا لبني عبد مناف حظاً من الشرف الموروث، فبينما احتفظ بنو عبد الدار باللّواء والحجابة أو سدانة بيت اللّه، تنازلوا لبني عبد مناف عن السقاية والرفادة والقيادة والندوة.

وهكذا تراجع اللّهب وعاد جمراً فقد قُسّمت السيادة العربية بين أبناء العم وأصبحت الحكومة القريشية، بعد أن كان يحكمها حزب واحد، حكومة ائتلافية يشترك فيها حزبان كبيران.

ولكن!.. بهذا التقسيم بدأ يسطع لبني عبد مناف ذكرا!. فإن من هذا التقسيم نرى أنه بينما قد احتفظ بنو عبد الدار بالنفوذ والسلطان في مكة فإنه قد أكسب بني عبد مناف ذكراً ومجداً لا فحسب في قريش نفسها وإنما خارج قريش بما قد أتت به رحلة الصيف والشتاء من ثمار.. وهكذا تبدّى أن الغيوم قد تبدّدت.. ولكن!.. لم يك إلاّ السراب!.

فالجذوة المشتعلة بنار العداوة لم تخمد والجمر المتقد بمادة الاستعلاء لم يسكن إلاّ تحت الكثيف من الرماد!.. متأججة في الصدور ظلّت هذه الجذوة ولظية تحت رماد الأيام ظلّت مشتعلة فما كان لها أن تخمد ولم يكن إلاّ حقناً للدماء كان قد تنازل بنو عبد الدار عن نصيبٍ من حقه الموروث لبني عبد مناف هؤلاء الذين ما أصبحت لهم هذه الاختصاصات إلاّ وراحوا بدورهم يتنازعونها ويقترعون على تقسيمها فيما بينهم فكانت: السقاية والرفادة لهاشم والقيادة والندوة لعبد شمس.

ولكن.! بهذه القرعة التي أجراها بنو عبد مناف فيما بينهم انقسم بنو عبد مناف إلى قسمين قسّمهما إلى بيتين: بيت هاشم وبيت عبد شمس وسرعان ما دبّ بين هذين البيتين التنافس!

بدأ التنافس بين هذين البيتين يسفر ويتخذ مظهره الواضح غداة تنافسا على اجتذاب القبائل واكتساب محبة العرب جميعاً اقتداء بهاشم، فإن هاشماً لما كان أوسع من أخيه عبد شمس أملاً فإنه، بما أصبح له من منصبي الرفادة والسقاية وتولية الإنفاق في إطعام الحاج أثناء مواسم الحج، لم يقصر بذله على الحجيج وإنما امتد فأمدّ أهل مكة نفسها بالكثير من الميرة وخاصة حين كانت تصيبهم سنون الجدب بل وامتد هذا السخاء مداه حتى كوّن فيه عادة سجلت له إحدى الحسنات فما أهلّ مرة هلال ذي الحجة إلاّ وصابح هاشم قريشاً بخطبة لا تسترعينا من بينها إلاّ تلك التي تلقي ضوءاً على التفكير الديني والقيم الأخلاقية للعصر القريشي:

«يا معشر قريش إنكم جيران بيت اللّه أكرمكم اللّه بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل وأنه يأتيكم زوار اللّه يعظمون بيته، فهو ضيّافة، وأحق من أكرم أضياف اللّه أنتم!

فوربّ هذه البِنْية، لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتموه، وأنا مُخرج من طيب مالي وحلالي ما لم يُقطع فيه رحم ولم يُؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام، فمن شاء أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يُخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت اللّه وتقويتهم إلاّ طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً»!

بهذا السخاء، الذي أمسى مضرب المثل، اكتسب هاشم مكانة بين العرب في نفس الوقت الذي كان قد اكتسب عبد شمس، بما كان له من العلاقات بالبيوت الأخرى، نفوذاً سببه هذا المنصب المهم الذي كان به قد اختصّ وهو القيادة في الحرب... ومن ثم برز هذا التنافس بين بيت هاشم وبيت عبد شمس ليتخذ أول مظهر له إيجابي بأُمية بن عبد شمس فقد ظنّ أمية أنه بما قد أصبح له من شهرة في الذكر وكثرة في المال والولد سينال بقوته ما

بيد عمه من شارات الشرف... وكما كادت الحرب من قبل أن تندلع بين فرع عبد الدار وفرع عبد مناف كادت أن تندلع بين بيت هاشم وبيت عبد شمس غير أن الأمر استقر أخيراً على الاحتكام إلى كاهن خزاعي على خروج من يحكم عليه من مكة إلى بلد يختاره بعيداً عن مكة ويعيش فيه عشر سنوات... وقضى الكاهن لهاشم فلم يجد أمية بداً من تنفيذ ما عاهد عليه فخرج من مكة مختاراً الشام لتنحسر عنه هناك عشر سنوات... وهذا أول مظهر من مظاهر العداوة بين بيت هاشم وبيت عبد شمس التي توارثها من بعد أبناء هاشم، أو الهاشميون، وأبناء أمية أو الأمويون..

ولكن... للحظة يقف الفكرُ هنا ويتمهّل متأملاً عبر هذا التيار التاريخي مجريات الأحداث فلا يسعه إلاّ أن يطرق أمام ما قدكان في ضمير الغيب من مخبئات ذاهلاً!. متعجباً كيف أصبح من بعد الحفيد الأكبر لعبد شمس، معاوية بن أبي سفيان بن أمية، ملكاً على نفس هذه البقعة من الأرض التي اختارها أمية مكاناً لمنفاه وكيف أمسى بنو أمية يحكمون منها عالم العالم الإسلامي لألف شهر من الزمان!...

أجل... للحظة يقف الفكر ليعود من تأمله فيتابع مجرى هذا التيار الزمني في العصر القريشي حتى هذا العهد الذي اقتسم فيه السيادة القريشية عشرة أشراف والذي احتفظ فيه البيت الهاشمي بمنصبي الرفادة والسقاية والذي بسببهما كان قد اكتسب هذا البيت نفوذاً ثبّته حسن إدارة المطّلب بعد هاشم ثم عبد المطّلب بن هاشم وإن كان عبد المطّلب لم يتمكن من الاستحواذ على هذا المنصب إلاّ غداة لجأ إلى أخواله في يثرب من رجال الحرب والسلاح فأخواله إنما من الخزرج ومن بني النجار. ليس إلاّ حين نصره الأخوال على الأعمام قام عبد المطّلب في مناصب هاشم فاحتفظ ببيت هاشم بالسقاية والرفادة بينما احتفظ بيت عبد شمس بالقيادة والندوة ليوثق هذا البيت بالبيوت الأخرى علاقاته التي عزّزها ما كان لديه من قبل من نفوذ.. وعلى هذا المنوال بدأت تسير الأيام تُؤجج التنافس بين هذين البيتين أو الحزبين وليبلغ هذا التنافس أشده، كما سنرى بعد صفحات، إبّان قام بدعوته محمد[1]...

رُبّ سائلٍ يتساءل: لماذا لم تحاول قريش هذه المرة أن تخمد من جذوة هذه العداوة التي انتقلت حدّتها من فرع عبد مناف وفرع عبد الدار إلى بيت هاشم وبيت عبد شمس؟.. ولكنه سؤال يأتينا عنه الجواب صريحاً من أنفاس تاريخ العصر القريشي نفسه بأن قريشاً قد حاولت بكل ما اتخذته من وسيلة حسم هذا النزاع وليس هذا فحسب وإنما لدرء كل نزاع

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٨١ - ١٨٢.

قد يتبع، فقد دعت قريش قبائلها إلى التعاهد على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم ممن دخلها ويدخلها من سائر الناس إلاّ قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلمته، وسمت قريش هذا الحلف:

حلف الفضول

في دار عبد اللّه بن جدعان، ابن عم خديجة بنت خويلد، عقدت قريش هذا الاجتماع، ومحمد صبياً مع عمومته يشهد هذا المجتمع، واختتمته بأن رفعت الأقداح ملأى بماء زمزم المقدس نخب هذا التعاهد الذي أوثقته بالقسم باللّه لتكونن مع المظلوم حتى يُرد إليه حقه!..

أمام هذا المشهد الذي تستعيده المخيلة حتماً أن يطرق الفكر، أيضاً، للحظة مستوعباً المعنى من هذا «الحلف» ليهبّ من إطراقته مقتنعاً بأن على العصر القريشي قد رقت:

العدالة السياسية والتكافل الاجتماعي

يقيناً إن بهذا الحلف، حلف الفضول، قد حلّت قريش مشكلتين من مشاكل الاجتماع فأولاً أمام مشكلة الأمن الداخلي لسلامة المواطنين وغير المواطنين، سواء كانوا من الجاليات الأجنبية أو من العرب الذين يفدون إلى مكة وأسواقها لأغراض دينية أو تجارية، وجدت قريش أن قوة القانون وحدها لا تكفي لتحقيق هذا الغرض بل لا بدّ من حصانة أخلاقية تسوق المجتمع لحماية الأفراد من العدوان أياً كان اللون من هذا العدوان وبالتالي لا بد أن يستشعر القريشيون، بوصفهم مواطنين لا حكاماً، أن عليهم أن يردّوا المظالم بأن يأخذوا بيد الضعيف والمظلوم وأن ينتصفوا له من ظالمه أياً كانت شكيمة هذا الظالم!... وهذا اللون من الالتزام والشعور بالمسؤولية ما ساد مجتمعاً إلاّ ورفرف عليه روح السلام وإلاّ أصبح أفراده في الذروة من الرقي والحياة الكريمة الحرة!. وهذا هو الذي كفله هذا الحلف الذي تعاقدت فيه قريش على ألاّ يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه ويردوا إليه مظلمته من أنفسهم قبل غيرهم وبهذا حققت قريش، بانتصافها للخصم والمظلوم من نفسها قبل غيرها، لوناً من التكافل الاجتماعي إلى جانب لون من العدالة السياسية لا فحسب عجيب وإنما مدعاة لإثارة التفكير!

ولكن!. بين أحفاد قُصي من بني العم بين فرعي عبد الدار وعبد مناف من جهة وبين بيتي هاشم وعبد شمس من جهة أخرى كان قد تأصلت العداوة ولم يستطع «حلف الفضول» لها استئصالاً!.. فهي عداوة ولئن حد من حدّتها «حلف الفضول» فإنها ما زالت مشتعلة اللّهب وجذوتها بين الضلوع تتّقد سعيراً فإنما وقودها هذا الشعور المعترم في كل من الفرعين والبيتين بأنه هو وحده الأجدر بما في يد الآخر من شارات الشرف!...

ومن ثم كان حتماً أن تندلع هذه اللّهب وترتفع لافحة في هذه الفترة الزمنية، قبيل الإسلام، بالقبائل المنقسمة انقسام هذين الفرعين وهذين البيتين فإنه لما كان لكل فرع ولكل بيت مؤيد ومؤازر انقسمت القبائل إلى فِرَق يؤيد بعضها فرع عبد مناف وبعضها الآخر فرع عبد الدار وآخر بيت هاشم وآخر بيت أمية أو عبد شمس!

في هذا العهد الذي انعدمت فيه الوحدة السياسية وسادت الوحدة القبلية وعمّ فيه، بسبب التيارات الدينية من إمارات الحيرة وغسان، البحث الديني يلج بنا التاريخ إلى أدق فترة زمنية جاءت قبيل الإسلام إذ ليس إلاّ في هذا العهد الذي سفر فيه النزاع بين فرعي عبد مناف وعبد الدار واتقدت وقدته بين بيت هاشم وبيت عبد شمس كان أن هبَّ العقل الإنساني يبتغي أن يضع لهذه الفوضى السياسية والتشتّت القبلي والتفرق الفكري والجدل الديني حداً فأرسل الصوت جهيراً متمثّلاً بطائفة الأحناف من أهل البلاد ممن بهم تطالعنا:

نهضة الحنيفية والهدف إلى وحدة سياسية ووحدة دينية

إلى وحدة سياسية كالتي للفرس وكالتي للرومان، تسلخ الوحدة القبلية وتستأصل من القلب القريشي عُقدة العداوات ويكون بها للعرب بين الأمم السائدة مركزاً سيداً، هدف العقل العربي وهو بهذه الطبقة من الأحناف قد هبّ متمثلاً ليدرك في نفس الوقت أن إلى هذه الوحدة السياسية، كهدف، لن يُمهَّد الطريق إلاّ بوحدة دينية، وهذه لن يكون تأثيرها نافذاً فتستطيع ضم القبائل المتفرقة سياسياً والربط بينها برابط الوحدة السياسية إلاّ إذا استمدّت قوتها من مصدر عنده تلتقي العرب كافة وهذا إنما مصدر موجود فهو أرومة العرب:

إبراهيم!

يقيناً إن ديناً يتخذ إبراهيم مسنداً إنما دين سيكون من شأنه أولاً جمع الحضر والمضر قاطبة من حول كلمة مكة وبالتالي سيوجد هذا الجمع وحدة دينية تجعل من شبه الجزيرة مركزاً سياسياً يُضارع المراكز السياسية التي للفرس والرومان فليس إلاّ بهذه الوحدة الدينية ستتلاشى حتماً الوحدة القبلية وتحلّ محلها للعرب وحدة سياسية حتماً ستتولى قريش منها الأمر وحتماً سيغدو للعرب سلطان قد يمتد فيطوي سلطان الفرس والرومان. فإن ديناً يتخذ إبراهيم مسنداً حتماً سيعيد جزراً كل ما تأتي به هذه التيارات الهادرة من أديان.

ثم.. يقيناً إن الدين الفطري هو لهذه التيارات الهادرة في الخارج يغاير.. فالفطري تقوم منه القوائم على أسس أن النفس مفطورة على معرفة الخير والشر والهدى والضلال. ولكن ديناً يتخذ إبراهيم مسنداً لا ثمة شك في أنه سيحطم الحواجز التي كان قد أقامها العقل

صبياً في العصر الأوّل بينه وبين الإله بالكائنات البشرية من القدامى و«الوسطاء» والكائنات الإلهية من «الملائكة» إذ أنه دين لا يعترف إلاّ بأن الدين للّه خالصاً ولا يقوم إلاّ على التوحيد الخالص كما من شفاه معلنيه يجيء عنه هذا التعريف بأنهم إليه قد اهتدوا بفطرتهم فهو: **الدين الفطري**

بهذه الفِكَر جرت اللّوالب الفكرية الحنيفية وما اقتنع بها منهم التفكير إلاّ وانطلق في أرجاء مكة منهم الصوت معلناً:

إن للّه ديناً والدين دين إبراهيم والدين إنما الدين الفطري 'الحنيف!

نداءٌ سجّل في سجلِّ التفكير الديني:

قيام الدين الحنيف دين اللّه

بين «مُحصِّلةٍ» و«مُعطِّلة» و«حِلّة» و«حِمْس» وفي فترة تاريخها الزمني يقترب من غسق العصر القريشي أُعلن هذا الدين!.. أعلنه العقل الإنساني المتمثِّل بطبقة تمثلت في شخصيات عدة من أبرز دعاتها الأولين وأول بناة أحجار الأساس فيها كان ذلك المسمى «الفيّاض» لجوده و«شيبة الحمد». لكثرة حمد الناس له إذ كان مفزع قريش في الخطوب ذلك الذي ورث السقاية والرفادة عن أبيه هاشم وعقد المعاهدات مع ملوك الشام وأقيال حِمْيَر باليمن وصارت إليهما رحلاته ذاك الذي احتفر من جديد بئر زمزم ليروي بيُسرِ الحجيج إلى بيت اللّه:

عبد المُطلّب بن هاشم

ليس بالجديد أن نقول إن عبد المطلب كان من حكام قريش وأشرافها وساداتها لكن الجديد أن نكتشف ما قد كان لعبد المطلب من سجايا مطمورة في تربة التاريخ وأن نراه يقف في العصر القريشي مثلاً رائعاً للتوحيد الصافي والخالص النقي من وصمة اتخاذ الوسطاء إلى اللّه والتشفّع بهم إليه ليسجل تنبُّه الوعي تماماً في هذه الفترة إلى ما إليه كان قد انصرف القلب قديماً من دين صاحبه الاعتقاد بأن به قد هبط إبراهيم الوادي وأورثه لإسماعيل غداة تركه بين جُرهم يصحر معهم في الصحراء.

يقيناً إن من الجديد أن نعلم أن عبد المطلب هو أول داعية رفض التوجه في العبادة إلى «الوسطاء» والتمسح بأصنامهم أو تماثيلهم بغية التشفع بهم إلى اللّه! ومن الجديد أن نعلم أن عبد المطلب وحّد اللّه توحيداً خالصاً رفض به إلاّ التوجه إليه بالسؤال. فهو بينما يقوم صورة بارزة للقيم الأخلاقية محرّماً الخمر والفسق وآمراً بترك البغي والظلم وموصياً بالوفاء بالعهد وناهياً عن نكاح المحارم وعن الوأد ومتبعاً التقاليد العربية في قطع يد السارق وحاثاً على

مكارم الأخلاق ومحذراً من يوم حساب عنه يطلق القول مقسماً: «واللّه إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بسيئاته» فإنما يقوم معلناً أنه يعبد اللّه على شريعة الحنيفية ويتبع دين إبراهيم وإسماعيل، وأنه يتخذ مكاناً لهذا التعبّد «حراء»، فقد كان عبد المطلب إذا أهلّ شهر رمضان صعد إلى حراء يتحنث ويتعبد ليعود فيودع التبشير بهذا الدين في مسمع من حوله مِنْ أبنائه مَن بهم كان قد اشتد ساعده ومن عنهم كان يتحدث قائلاً:

«إذا أحب اللّه إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء!»[1].

للحظة أخرى يتمهل الفكر هنا ويسبح مستوعباً المعنى من هذا الصوت الذي لا بدّ أن يكون قد رنّ في وعي محمد صبياً وهو في حجر عبد المطلب نشأ وفي كنفه تربّى... ليعود الفكر من هذا السبح موقناً بأن في نفس محمد كان حتماً أن يترك رنين هذا الصوت انطباعاته التي بوضوح فيما بعد قد تجلّت غداة أنشأ محمد «بالنبوة» دولة!

كلا. لسنا الآن بصدد التحدث عن نشأة الدولة المحمدية، فهذا إنما مكانه صفحات من بعد، وإنما الصدد هو هذا الدين الذي قد ابتُعِث وبُعث قوياً، هذا الدين الفطري الذي ولئن كان عبد المطلب من أوائل الدعاة إليه وأضلع بناة الصرح منه، فإنما من جوانب أخرى كانت قد انطلقت الدعوة إليه جهراً بشخصيات عدة تقف في مقدمتها تلك الشخصية التي لا يستطيع البحث التاريخي النزيه أن يتخطاها أو يُغفل لها ذكراً تلك الشخصية التي يلتقي نسبها ومحمد عند قُصيّ والتي عاصرها محمد شاباً وطوتها راحة الزمن عن الدنيا قبل «البعثة» بخمس سنوات[2] بعد أن أضاءت الأفق العربي بأضواءٍ حجبتها عن صفحة التاريخ الديني والسياسي أيام تغيرت في غضونها النظم السياسية للبلاد وخضّب التفكير الديني الجديد من المعتقدات، هذه الشخصية هي:

زيد بن عمرو بن نفيل

بزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن قُصي علا النداء إلى هذا الدين، العائد إلى الفطرة والعائد بالفطرة إلى الاستسلام إلى اللّه وإليه التسليم غداة استعرض من زيدٍ الفكر هذه التيارات الدينية المنسابة من الخارج والمتلاقية على صدر مكة والمُسببة هذه الحرب الجدلية من حول معتقداتها بينما بأصولها إنما تعود إلى هذا الدين الحق الذي انصرفت عنه الأديان انصراف الدهماء من العرب عنه باتخاذهم الوسطاء وسيلة في التقرّب إلى اللّه!

---

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، لخفاجة والجيار.

(٢) **الملل والنحل**، للشهرستاني، ج٣.

ولكن. لئن بزيدٍ علا النداء إلى هذا الدين فليس إلاّ لأن بزيد قد تمثّل الفكر الإنساني متخطياً دور الشك والحيرة إلى دور التحرر الفكري والتفكير المعتمد على نفسه الذي لا يتخذ مسنداً إلاّ عمل العقل وحده ولا وحياً إلاّ مواجد الوجدان. فليس إلاّ بهذه العوامل راح من زيد النداء إلى هذا الدين مجلجلاً في آفاق مكة غداة، متحنثاً، اتجه زيد إلى حراء حيث إلى نفسه متهجداً خلا وحيث إلى يقينه صفا ومن يقينه أيقن فعاد يرسل الصوت عالياً في الأرجاء العربية قاطبة مطلقاً الروح من ربقة الشفاعات وقيد الشفعاء وأصفاد التزلف إلى غير اللّه مبطلاً اتخاذ الوسطاء إلى اللّه طريقاً للاتصال به ووسيلة للاستغفار ناهياً إلاّ عن عبادة اللّه عبادة خالصة وصافية الاتجاه باتجاهها خالصة من عبادة «الأرباب»!

«يا معشر قريش أيرسل اللّه قطر السماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحوها لغير اللّه[1]؟

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم	يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجامع أنت بيقور مسلعة	ذريعة لك بين اللّه والمطر؟!..

بسلخ شفاعة الشفعاء وبعبادة اللّه عبادة خالصة انطلق هذا الكَلِم من شفتي زيد واسترسل فياضاً في كل ظرف وفي كل مناسبة. ففي يوم في ظلال نخيل «نخلة» والقوم بعبد العزى حُفّل ارتفع في رفاقٍ صوت زيد يقول: «تعلموا! واللّه ما قومكم على شيء وإنهم لفي ضلال فما حجر نطيف به ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ومن فوقه تجري النحور!. يا قوم التسموا لكم ديناً غير هذا الدين!».

ومرة ماراً على شعبة من شعب مكة وجد زيد بن عمرو محمداً بن عبد اللّه فيها فدعاه محمد إلى تناول شيء مما ذبحه «للأرباب» فكان جواب زيد:

«إني يا محمد لا آكل شيئاً ذُبح للأصنام»[2]!

وللكلم المنطلق من شفتي شخصيةٍ كزيد كان حتماً تأثير وأثر فقد تقلبت في الآفاق الوجوه، والدين الحنيف من جديد يُبعث، حيرى بين الأديان!

يقيناً إن الفكر الإنساني وهو بزيد يجيء متمثلاً قد سجّل على هذه الناحية من الأرض تخطيه دور الحداثة إلى دور النضوج ومن ثم كان تسجيله هذا اللون من التفكير الذي كوّن حجر الأساس في بناء الصرح الجديد من هذا الدين القديم الذي ما ألقى زيد منه الأساس

---

(١) **كتاب الأغاني**، للأصفهاني.

(٢) **المبعث**، لأبي معشر المدني، **رسالة الغفران**، للمعري.

إلاّ وحائراً في وضع قواعد هذا الدين بين الأديان جالت منه في الأفق العينان والرأس منه إلى «البيت» مسند بينما الشفتان منه قد انفرجتا عن همس انساب يناجي الإله:

«اللّهم!. لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك به ولكنني لا أعلم!».

إلى اللّه أي الوجوه أحبّ زيد لا يعلم. ولكن لتعلم مكة أن زيداً قد تنادى جهارة بدين هو ولئن كان في لا جدته جديد فإنما تقوم منه الأصول على جديد سُننٍ ويصوغ منه الأركان كَلِم هو هذا الذي أمست مكة له تُردِّد:

أرباً واحداً أم ألف رب	أدين إذا قسمت الأمور
عزلت اللاّت والعزى جميعاً	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنيتها	ولا صنميّ بني عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربي	ليغفر ذنبي الرب الغفور
عجبت وفي الليالي معجبات	وفي الأيام يعرفها البصير
بأن اللّه قد أفنى رجالا	كثيراً ما كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببرّ قوم	فيربل منهم الطفل الصغير
فتقوى اللّه ربكم احفظوها	متى ما تحفظوها لا تبور
فترى الأبرار دارهم جنان	وللكفار حامية السعير
وخزي في الحياة وإن يموتوا	يلاقوا ما تضيق به الصدور

زيد

بهذا الكَلِم علمت مكة أمر هذا الدين غداة إلى مهابطها عاد زيد بعد تحنثه في «حراء» حيث كان قد صعد وأسلم نفسه إلى وحدة تأملية انطوت فيها عنه الأيام وهو يتحنّث أو يتحنّف حتى إذا ما شعرت نفسه بالارتواء هبط «أم القرى» بنفس اشتد استنكافها لصيغ العبادات الصابئية فاستنكرت مادي الطقوس وعلا صوتها في آفاق مكة يعلن بين الأديان ديناً يكفل للفرد حرية الاتصال باللّه متى شاء. فالدين إنما دين لا يحول فيه بين الإنسان واللّه وسيط لأن الصلة بين الإنسان واللّه في حقيقتها موصولة لا تحتاج إلى وساطة وسيط ولأن العبادة فيه مقصورة على اللّه وحده. فالدين إنما «دين اللّه» ودين اللّه إنما دين استسلام وتسليم وإسلام، كما بهذا التعريف يجيء من شفتي زيد الوصف إذ تترنمان بهذه المناجاة:

أسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استوت	على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له المزن تحمل عذباً زلالا

إذا ما هي سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصُبت عليها سجالا

زيد

بهذه الترنيمة هبط زيد من «حراء» مكة داعياً مَن فيها إلى اعتناق هذا الدين الذي بدأت شفتاه تضع له تشاريع هي ولئن جاءت تتلخص في عبادة اللّه عبادة خالصة تُوجّه إلى «الواحد» وحده وليس فيها، لمن ليس له شريك، أي لون من وصمة الشرِك أو الإشراك فإنما تنص على: هجر الأزلام ونبذ الأوثان والأصنام والأنصاب، تحريم الوأد، تحريم الميسر والميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ به لغير اللّه!

بين الباهت من صفحات التفكير العربي منتشر للفكر هذا التفكير الذي كان من كسب الفكر وحده والذي ما تجاوبت به أرجاء مكة إلاّ وجاوبته بالاستجابة للنواحي العقلية فيها أرجاء فاعتنقت منه المبادىء واستندت إلى ما يقيمه من قواعد اعتناقاً واستناداً بدأ به لا فحسب ينهض الصرح من هذا الدين وإنما بدأ يشمخ عالياً منه هذا البناء الذي ألقى زيد في تربة العصر منه حجر الأساس قبل أن يروح في راحة الزمن ويأتينا عنه الرثاء مزيجاً مختلطاً بين صوتي ورقة بن نوفل وأُمية بن عبد اللّه أبي الصلت:

رُشِدتُ وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا

بدينك بالليس رب كمثله ... وتركك أوثن الطواغيت كما هي

وإدراكك الدين الذي قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا

فأصبحت في دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا

تُلاقي خليل اللّه فيها ولم تكن ... من الناس جياراً إلى النار هاويا!

أجل... لقد ثوى زيد بعد أن ألقى حجر الأساس من هذا الدين الحامل اسم الحنيف وبعد أن أقام منه الأصول والأركان متمثلة فيما له قد حرّم وفيما عنه قد نهى إلى جانب خالص التسليم ومُطلق الاستسلام إلى اللّه. ومن ثم ما بدأ يشمخ من هذا الدين الصرح إلاّ ليلتفت إليه الوجه من العصر وإلاّ لينبّه إليه من الانتباه فقد تدافع إليه من مختلف القبائل، قضاة وحكّام وحكماء وقلامسة أو الفقهاء من العرب، واحداً بعد واحد يعتنقه وإلى اعتناقه يدعو، ومن ثم بدأت طوائف من العرب تأتمر بالتعاليم الحنيفية وبمبادىء هذا الدين تعمل فدانت بالتوحيد الخالص من عبادة اللّه الواحد الأحد عبادة خالفت الأصل الأول من أصول الدين الصابئي وهو التشفّع بالشفعاء! فكان الحض على التوحيد وكانت مجافاة الذبح للأصنام وكان تحريم الميتة والدم والخمر والميسر والفحشاء والوأد والأزلام!. ومن أبرز بُناة هذا الصرح من هذه الطوائف في هذه الفترة التي يسجلها التاريخ قبيل

الإسلام كان: أكثم بن صيفي وخالد بن سنان العبسي وحنظلة بن صفوان وأبو قيس الأسلت والقُلّمس بن أمية الكناني وهو هذا الذي ارتفع صوته يخطب العرب بفناء مكة قائلاً:

«أطيعوني ترشدوا... إنكم قد تفرّدتم «بآلهة شتى» وإني لأعلم ما اللّه راضٍ به وإن اللّه رب هذه الآلهة **وإنه يحب أن يُعبد وحده!**».

وإلى صوت الكناني انضمت الأصوات الحنيفية وفي الآفاق العربية انطلقت لا فحسب داعية إلى الدين الحنيف وإنما في تدعيم الصرح منه عملت، فقد قام حنيفي يعاون حنيفياً ليتدافع إلى هذا الدين واحداً بعد واحد من الرؤوس العربية له يعتنق وإليه يدعو، فإلى الدين الحنيف قد انبسط الأفق العقلي وبه انتعشت الروح العطشى إلى وحدة دينية تضم هذه القبائل المنعدمة الوحدة السياسية بوحدتها القبلية ومن ثم تجاوبت في آفاق العصر الأصداء من الأصوات الحنيفية تُعلن قيام هذا الدين الذي بسببه أخذت «الوثنية» لدى العرب في الضعف فالأفول حتى لم تعد قاصرة إلاّ على الدهماء من العرب[1]! وكان حتماً أن يجتذب هذا الدين النواحي الفكرية بما يحمله إلى جانب المغزى الديني من مغزى سياسي فهو دين سيسلخ الوحدة القبلية ويربط العرب بوحدة دينية بها حتماً ستتم الوحدة السياسية التي إليها يستشعر العربي نفسه في حاجة. فإن هذه القبائل على الرغم من ارتباطها العقيدي، إنما تعيش متفرقة بين الممالك الكبرى من حولها وهذه تهادنها تارة عليها تضغط تارات فتبعث فيها الشعور بالحاجة الماسة إلى الوحدة السياسية وليس إلى الوحدة السياسية من سبيل إلاّ الوحدة الدينية فهي بها كل الكفالة كفيلة!

ومن هنا كان انبساط الأفق العقلي، المتعطش إلى وحدة سياسية بها تقوم للعرب سيادة تكوّن لها كينونة كالتي للأمم المتاخمة، إلى هذا الدين. ومن هنا كان ارحباب الروح العطشى إلى وحدة دينية إلى التبشير بهذا الدين. ومن هنا كانت معاونة حنيفي حنيفياً في تدعيم هذا الصرح الذي ولئن لم يشمخ منه البناء عالياً إلاّ بالأحناف ولم تتطود منه الأركان إلاّ بزيد، فإن من أرجائه لم يرتفع صوت ارتفاعه بتلك الشخصية التي كانت العامل الأساسي في نشره غداة رفعت الصوت منها في هذه الفترة من مغرب العصر القريشي يعلن قولاً راح في محافل مكة ومجالسها وأسواقها يجلجل:

كل دين يوم القيامة عند اللّه إلاّ دين الحنيفية زور

أمية بن عبد اللّه

(١) **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن.

بأمية بن عبد اللّه أبي الصلت (٥٠٠ ـ ٦٣٠م/٩ هـ).. داعية الطهر والتوحيد، علا الصوت في هذه الفترة العجيبة من تاريخ العرب ليستقر في المسمع العربي وتتجاوب به آفاق الحضر والمضر وترهف إليه من أبعاد الأرجاء العربية أقاص لا تعلم ما قد شاع بالأحناف إلاّ وترجع آفاقها أصداء تردد:

إن الدين الحق إنما الدين الحنيف فإنه دين اللّه!..

بنغمة كان لوقعها رنة ولرنتها إيقاع انسابت من شفتي أمية بن عبد اللّه المناداة إلى هذا الدين عبر الكِلَم الذي ارتفع مناجياً الإله ومعترفاً له بخالص التوحيد:

إلى اللّه أهدي مدحي وثنائيا ... وقولاً رصيناً لرايني الدهر باقيا

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... إله، ولا رب يكون فدانيا

ثم إلى نفسه يتحول أُمية مناجياً:

رضيت بك اللّهم رباً فلن ... أرى أدين إلهاً غير اللّه ثانيا

ثم إلى الإنسان يتحول رادعاً:

ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفي من اللّه خافيا

إياك لا تجعل مع اللّه غيره ... فإن سبيل الرشد قد أصبح باديا

وإلى هذا الكلم المنساب من شفتي أمية كان حتماً أن ترهف في بالغ إنصات المسامع فإن أمية ليس بالشخصية العابرة على التاريخ التي عبرت معبر الزمن ولم تترك خطاها أثراً. كلا.. وإنما هو شخصية بفضلها اعترف عصرها وما قد أتى بعد عصرها للعرب من عصور خلالها قد رددت الكثير من الأقلام لها ذكراً[1] هو في نفس الوقت لم يك إلاّ رجع الصدى لاعتراف عصره به كداعية للطهر والتوحيد والتصوف الصحيح. فقد تصوف أمية ولبس المسوح وحرّم على نفسه الخمر والفحشاء والمنكر والميسر. ثم هو كمفكر كان الشعر وسيلته إلى الإفصاح عما يجول بين جانبيه من فِكَر ثم هو بالإضافة إليه كشاعر منحته العرب لقب «شاعر ثقيف» تسير بشعره الركبان من أسواق مكة إلى بيدائها كان من أشراف قبيلته ورؤسائها وإلى قُصيّ يعود منه أيضاً النسب والأصل فأمه إنما هي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف.. ومن ثم كان الكَلِم الذي يُلقيه أمية كفيلاً بأن يجعل المسمع العربي إليه يصغي أعمق الإصغاء وإليه يتنبّه تمام الانتباه، وخاصة أن أمية قد عاش في هذه الفترة العجيبة من تاريخ العرب التي انتهى فيها الاحتلال الحبشي لليمن وتبعه استعمار الفرس لتلك

---

(١) **طبقات الشعراء**، ابن سلام، **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، **الأغاني**، والمرزباني، وخزانة **الأدب**، **والملل والنحل**، للشهرستاني، **والعمدة**، لابن رشيق.

البلاد استعماراً كان من أثره تخضيب التفكير العربي بالثقافة الفارسية العاجة بالألوان الطريفة من القصص والأساطير والأخبار والمحاورات الممثّلة جزءاً من الثقافة الفارسية المستمدة من ثقافة الهند وعلومها، ومن ثم كان لا بد أن تعكس شخصية أمية ألوان هذه البيئة لا سيما وصاحبها قد ظلّ حياته يمارس التجارة، تارة إلى الشام وتارة إلى اليمن، فإن من الطبيعي أن يتصل بالفرس في اليمن ويسمع محاوراتهم وقصصهم كما كان طبيعياً أن يتصل بالكهان والأحبار والقسس في الشام ويسمع عظاتهم ولما يبدو أنه كان عالماً بغير العربية من اللغات لكثرة ما أدخله في شعره من كلمات غريبة عن العربية فإنه حتماً قد اطلع على كتب القدامى بالإضافة إلى التوراة والأناجيل في الوقت الذي كان فيه يشاهد مظاهر القلق الروحي البادية في تفكير بعض العرب.

كل هذه العوامل تضافرت لتدفع أمية إلى أن يهب، كنتيجة حتمية لنشأته المنطوية على التدين الفطري، يدعو الناس عامة والعرب خاصة إلى الدين الحنيف. ومن الطبيعي كان أن تصغي المسامع وترهف إلى الكَلِم المنطلق من شفتي شخصية كهذه الشخصية تقف مثالاً رائعاً للطهر والعفة، وأن تستوعب المعاني من هذه القريحة التي انصرفت إلى المعاني الدينية وهي تعلن عقيدتها في التوحيد فتقول:

الحمد للّه ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربي ومسّانا
رب الحنيفية لم تنفد خزائنها ... مملوءة طبق الآفاق سلطانا

وكان حتماً أن تُردّد الشفاه عن أمية هذه الترنيمة المسجلة عقيدته في إيجاد الكون:

إله العالمين وكل أرض ... ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعاً شداداً ... بلا عمد يرين ولا حبال
وسوّاها وزيّنها بنور ... من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ وشق الأرض فأنجبت ... عيوناً وأنهاراً من العذب الزلال
وبارك في نواحيها وزكى ... بها ما كان من حرث ومال

وكان حتماً أن تردّد الشفاه عن أمية هذه التسبيحة المسجلة عقيدته في الكون والكائن:

ألا كل شيء هالك غير ربنا ... ولله ميراث الذي كان فانيا
وليٌّ له من دون كل ولاية ... إذا شاء لم يمسوا جميعاً مواليا
وإن يك شيء خالداً ومُعمراً ... تأمل تجد من فوقه اللّه باقيا
له ما رأت عين البصير فوقه ... سماء الإله فوق سبع سمائيا

وكان حتماً أن تردّد الشفاه عن أمية عقيدته في النفس:

فكل معمر لا بد يوماً   وذي دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلى   سوى الباقي المقدس ذي الجلال

وكان حتماً أن تردّد الشفاه عن أمية هذا الاستغفار:

إن تغفر اللّهم تغفر جماً   وأي عبد لك لا ألما
ألا لن يفوت المرء رحمة ربه   ولو كان تحت الأرض سبعين واديا
يعاني وتدركه في اللّه رحم   ويضحى ثناء في البرية زاكيا!

وكان حتماً أن تردّد الشفاه عن أمية هذه التذكرة بيوم الحشر:

ويوم موعدهم أن يُحشروا زمراً   يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر
وأبرزوا بصعيدٍ مستوٍ جُرُزٍ   وأُنزل العرش والميزان والزُبر!

* * *

عند ذي العرش يُعرضون عليه   يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم   إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه، مثل ما قال، فرداً   لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعيد سعادة أرجو   أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد النار   كتاباً حتمه مقضيا

وكان حتماً أن تردّد الشفاه عن أمية عقيدته في مشكلة الثواب والعقاب ووصفه الجنة والنار:

وسيق المجرمون وهم عُراة   إلى ذات المقامع والنكال
فنادوا ويلنا ويلاً طويلاً   وعجّوا في سلاسلها الطوال
فليسوا ميتين فيستريحوا   وكلهم بحرّ النار صالي
وحلّ المتقون بدار صدق   وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون وما تمنوا   من الأفراح فيها والكمال

إلى هذا الكَلِم المسترسل شعراً عدّ صاحب «الجمهرة» صاحبه من أصحاب «المعجزات»، وهي القصائد السبع التي تلي «المعلقات» في المنزلة الأدبية:

أصغى المسمع العربي لما في شعر أمية من طلاوة البيان وسهولة اللفظ وعذوبة العبارة وحلاوتها ولما فيه لم تكتف مسامع العصر بالإصغاء وإنما له ردّدت الشفاه ولكن.. قط لم تردّد الشفاه هذا الكلم، الذي انطلق من شفتي داعية الطهر والتوحيد وباني صرح الدين الحنيف، ككلم مقدس، وكلا! فإنما الدين الحنيف دين لم يقم منه الصرح على أساس كتاب

بالقدسية محفوف، كلا!. فلم يقم الصرح من هذا الدين الفطري المنادي بالتوحيد الخالص إلاّ على أساس كَلِم صاغة الأدب الأصيل الذي جاءت تُسجله:

مظاهر الحياة الأدبية في غضون العصر القريشي

عرف العصر القريشي أدباً له في تاريخ التفكير الديني أهمية خاصة مزدوجة الانقسام فهو الأدب السباق للقرآن وهو الأدب الذي قد صيغ من لغة هي بمادتها ثرية وهي بموادها راسخة التأثير...

لا ثمة شك في أن لغة العرب إنما على الأصح لغات والكَلِم فيها غريزي المادة وبفصاحة العربي الفطرية هي فصيحة التعبير بيد أن أنضجها لغة إنما لغة العرب المستعربة، لغة أبناء عدنان، وهذه وإن كانت أيضاً مختلفة اللهجات تبعاً لاختلاف قبائلها الشتى وتتميز من بينها لهجات سبع قبائل: عليا هوازن وسفلى تميم وجثم ونصر وثقيف وسعد وقريش إلاّ أن اللهجة القريشية تتميز من بين هذه اللهجات. فإن قريشاً تُعتبر أفصح العرب المستعربة لساناً وأصفاها لغة وإلى ذلك كانت قد عملت الأسباب، فقريش إنما وُلاة «البيت» وعليها تفد وفود العرب للتحاكم والتجارة وللحج ولا ترتحل عن قريش هذه الوفود إلاّ وقد التقطت قريش بعض الكلمات الكثيرة الاستعمال بين هذه الوفود.. ثم إنه إلى جانب ذلك تأتي رحلات الصيف والشتاء ويأتي ذلك الاستقرار لأفراد من الفرس والروم ومصر والحبشة... بهذه الوسائل تأثرت اللغة القريشية باللغات المختلفة وبهذه العوامل أدمجت قريش في لغتها كثيراً من ألفاظ الأمم التي نقلت عنها أسماء الأجناس والأعلام كما أنه بما به قريش قد تأثرت كانت تحمل التأثير إلى غيرها من العرب فيما كان ينجم من اجتماع العرب في مشاعر الحج وفي الأسواق التي كانت، إلى جانب سوق مكة وهي سوق دائمة، تقام.. فإن بقرب الطائف كانت هناك «عكاظ»، وهذه كانت تعقد في أول ذي القعدة إلى العشرين منه. وبقرب مكة كانت «المجنّة»، وإلى هذه كانوا ينتقلون من عكاظ ويقيمون فيها إلى نهاية ذي القعدة وعلى جبل «كبكب» بمنى خلف «عرفة» كانت هناك سوق «ذي المجاز»، وفي هذه كانوا يقيمون ثمانية أيام من ذي الحجة ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع وهناك كان سوق «دومة الجندل» التي كانت تعقد في اليوم الخامس عشر من ربيع الأول، وهناك كانت سوق نطاة خيبر، وهذه كانت تعقد بعد أيام الحج... وكل هذه الأسواق، برغم أنها كانت للمتاجرة والمقايضة، كانت منابر للغة والخطابة ومعرضاً لإلقاء روائع الشعر ومن هنا كان هذا الميدان الفسيح الأدبي، بما فيه من مسامع مرهفة وأذواق حصيفة، يحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح ويدعوهم إلى تخير الألفاظ العذبة والأساليب الجميلة والمعاني الرائعة قصداً إلى الوضوح والإفهام والإقناع ولما كان من ورائهم الرُواة فقد كان هذا

الأدب عن طريقهم يُذاع في أرجاء البلاد وينتشر في القبائل ويُروى في كل مكان وذلك هو الأثر الكبير لهذه الأسواق فوق أثرها الخطير في توحيد العقائد والأخلاق والعادات وفوق أثرها في قريش خاصة التي تميزت من بين هذه القبائل الشتى إلى النقد اللغوي، وبذلك اقتبست من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظها أسهلها وأنصعها وأفصحها بل أخذت تضفي ذلك إلى لغتها، فزادت ثروتها اللغوية حتى أمست لغة قريش أفصح لغات القبائل العربية قاطبة، وهذه هي لغة القرآن الذي جاء لا فحسب مؤيداً للغة القريشية وإنما مذيعاً لهذه اللغة في مكان بعد مكان.

لا ثمة شك في أن قريشاً، بإجماع المؤرخين العرب من القدامى والمحدثين، كانت على الجانب الأكبر من الثقافة اللغوية والرقي الفكري والذوق الأدبي الذي استطاعت به أن تنتقي ما خفّ على اللسان وحلا في المسمع، وبذلك مرّنت على نقد الألفاظ وصارت أجود العرب لا فحسب في انتقاء الأفصح والأسهل والأبين وإنما تمكّنت من أن تُميز بدقة بين اللّهجات والألفاظ وتتعرف من أي ينبوع تصدر وتأتي! إلاّ أن لقريش كان عمل آخر في هذا المضمار وهو إدخالها في اللغة ألفاظاً كثيرة جلبتها في رحلاتها التجارية من الشام وفارس والحبشة وأيضاً من الرومان، فلقد استفاد العرب أثناء هذه الرحلات من آداب الروم والفرس واقتبسوا مما شاهدوه في هذه الأمم من أنظمة حكومية ومن أخلاق وعادات حتى المدى الذي كان سبباً لاضطلاع العرب بالأخبار وعنايتها بالتاريخ[1] فإن من تتبّع شعر العرب ووقف على ما قد صدر منهم من مثل وتقصّى ما قد وقع منهم من قول يستبين ما كان لهم في العصر القريشي من يد طولى في معرفة أخبار الأمم الماضين وأخلاقهم وسيرهم ودولهم وسياستهم. ففي الشعر العربي، وهو سجل دينهم وعاداتهم وأخلاقهم ومعارفهم ومستودع علومهم وحافظ آدابهم وأخبارهم، نرى هذا الاضطلاع بالأخبار الماضية، فنحن نرى أن «ذا القرنين» كان لديهم معروفاً كما سجله شعر «أعشى بن ثعلبة» وشعر «الحارثين» وكان لديهم مضرب المثل في القوة الحربية والمقدرة على الفتوح... ومن شعرهم نرى أن مدن الحجاز، وفي مقدمتها مكة والطائف، تميزت بطابع ثقافي يتميز عن سائر المدن الأخرى إذ كان الكثير من أهلها مثقفين ثقافة خاصة، لا فحسب بتأثير البيئة والاختلاط والرحلات ومواسم الحج وأسواق العرب وإنما بسبب إيفادهم أبناءهم إلى مدرسة «جنديسابور»... وإذا كان مثلاً على هذا التأثر بالثقافة الفارسية يقف الحارث بن كلدة وابنه النضر بن الحارث فإن مثلاً على هذه الثقافة الواسعة تقف أيضاً ما كان بمكة من طبقة تدعى «طبقة الحكام» ومن

---

(١) **الملل والنحل**، جـ٣، ص ٢٧٦.

أبرز هذه الطبقة التي كان مناطاً بها حلّ المشاكل والقضاء فيها كان: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأبو طالب وأبو سفيان بن حرب وحرب بن أمية...

وهكذا نرى أن هذا التزوّد بثقافات الأمم قد دفع قريشاً إلى أن تُدخل في لغتها ألفاظاً كثيرة بها دخلت في اللغة العربية كلمات فارسية وررومانية وحبشية ومصرية مما أصبح على مرّ الأيام جزءاً لا يتجزأ من اللغة العربية إلى حدّ أن وردت في القرآن.. وبذلك نتبين أن قريشاً كانت تقوم بأكثر مما تقوم به المجامع اللغوية في توحيد اللغة وتوسيعها، لا فحسب لأن لغة قريش قد أمست هي البلاغة والفصاحة وإنما لأنه لما كان لقريش من سلطة دينية وعزة قومية كادت العرب أن تجتمع على اللغة القريشة لتسير أشعارهم في الآفاق وليتناول الرواة والحفاظ في كل الجهات هذه اللغة التي ازدادت بهذه الكلمات الدخيلة على ترصيع ترصيعاً ومن هنا لطفت اللغة القريشية وجاد الأسلوب القريشي وبدورهم بدأ خطباء البطون وشعراء العشائر والقبائل يحاكون قريشاً في لغتها وبذلك اتسعت للعربي لغة ينقسم بها الأدب إلى المرتبط بوزن وقافية وإلى غير المرتبط بوزن وقافية، وينقسم فيها الكلام، بانقسام الشعر فيها إلى المقفّى واللاّ مقفّى، إلى:

النظم والنثر

لا ثمة شك في أن الفطرة العربية إنما بفطرتها مرهفة العاطفة. فالنفس العربية إنما بطبيعتها نفس شاعرية واللسان من النفس الشاعرية أبداً ذو ارتجال!. وهذا مما جعل العرب قاطبة أقوى الأمم شاعرية وأقدرهم على التعبير وفيض اللسان العربي في غضون العصر إنما على ذلك الرقي النفسي برهان ودليل، وسجّل ذلك تلك السّجلات التي لها الفكر العربي بالقدسية لم يخضب وهو بالذهب لسطورها يسطر ويده على جدران الكعبة لها تُعلق، فهو إلى درجة التقديس قد رفعها حتى علقها في «بيت اللّه» لينساب بالرائحين إلى مكة والغادين عنها وبمن في مكة، منها السطور أصواتاً تردِّد لفحول البيان سحراً تنفثه في الأرجاء العربية عطراً شذياً تكاثرت قطراته واتخذت هذا المظهر السافر من مظاهر الحياة العقلية في غضون العصر القريشي، فإن بهذا الآتي من قبيلة مضر، المتوفى سنة ٥٥٥م. يأتي إلينا الصوت يقول:

من يسأل الناس يحرموه   وسائل اللّه لا يخيب

عبيد بن الأبرص الأسدي

وكما للأسدي رددت الآفاق المكية هذا الصوت رددت هذه الآفاق صوتاً آخر به ترتسم الناحية الأخلاقية للعصر:

الصدق يألفه الكريم المرتجي والكذب يألفه الدنيء الأخيب

طرفة بن العبد

وكما لطرفة رددت الآفاق هذا الصوت ردّدت هذه الآفاق نفسها صوتاً آخر به ترتسم واضحة من الفِكَر الدينية الناحية الجبرية التي يسجلها من الشعر بيت يقف الأجمل والأروع:

قضى اللّه في بعض المكاره للفتى برُشدٍ وفي البعض الهوى ما يحاذر

عامر بن الطفيل

وإذا كانت لابن الطفيل قد رددت الآفاق هذه العقيدة المذهبية فإن نفس هذه الآفاق قد ردّدت عقيدة مذهبية أخرى سجّلها للأعشى بن قيس، «صناجة العرب»، صوت راح يتغنّى بمذهب يصح أن نسميه «المذهب القدري»:

استأثر اللّه بالوفاء وبالعدل وولّى الملامة الرجل

ميمون بن قيس

وبأحد أصحاب «المعلقات» ذاك الذي قصر شعره على العصر القريشي، انساب من عكاظ في أرجاء العصر هذا الترجيع:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وكل أناس سوف تدخل بينهم دُويهية تصفر منها الأنامل

وكل امرىءٍ سوف يُعلم سعيه إذا ما كشفت عند اللّه الحصائل

لبيد بن ربيعة

من ثم:

فلا جزع إن فرَّق الدهر بيننا فكل امرىء يوماً إلى اللّه راجع

وإذا كان العصر القريشي قد سجّل هذه الألوان من مظاهر الحياة الأدبية فإنه قد سجّل أيضاً ألواناً أخرى من هذه المظاهر تجلّت: باليشكري الحارث بن حلزة، أحد أصحاب المعلقات، وبعمر بن ربيعة التغلبي وخاصة بامرىء القيس هذا الذي راحت النواحي العربية بشعره تتغنّى مرجعة أصداءً ما قد سجل بأفحل شعراء الطبقة الأولى للعصر القريشي:

تلك السحاب إذا الرحمن أنشأها روى بها من نحول الأرض أسبابا

ويسترسل:

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مقياسا

امرؤ القيس

وهكذا.. من مدد هذه الألوان ومن مادة هذه الفِكَر صيغت «المعلقات» و«المذهبات» و«حوليات زهير» و«اعتذاريات النابغة» و«بائية أبي عبيدة» و«رائية العبادي» لتطالعنا، إلى جانب ما قد تقدم، جلية مظاهر الحياة الأدبية في العصر القريشي التي صقلت النفس العربية على صقلٍ صقلاً بل ليزيد هذه النفس صقلاً على صقل ذاك الذي كان يواصل تدعيم صرح الدين الحنيف بما كان يلقيه من الكِلَم شعراً يصوِّر خلاصة ما كان يتداول في مكة من قصص دينية عبر تسابيح يرفعها إلى الإله كما قد صاغها منه الكلم المترع بالوصف الحسي وهو يقص، شعراً، قصة إبراهيم وما كان من حديث الذبح:

ولإبراهيم المُوفي بالنذر ... احتساباً وحامل الأجزال[1]
بكره لم يكن ليصبر عنه ... أو يراه في معشر أقتال
ابني إني نذرتك للّه ... شحيطاً[2] فاصبر فدًى لك خالي
فأجاب الغلام إن قال فيه ... كل شيء للّه غير انتحال
فاقض ما قد نذرته لك واكفف ... عن دمي أن يمسه سربالي
واشدد الصف أن أحيد الـ ... سكين حيد الأسير ذي الأغلال
بينما يخلع السرابيل عنه ... فكّه ربه بكبش حلال
قال خذه وارسل ابنك إني ... للذي فعلتما غير قالي
ربما تجزع النفوس من الأمـ ... ـر له فرجة كحل العقال!

أمية بن عبد اللّه

ويسترسل أمية ويقص «قصة لوط» و«قصة خراب سدوم» قائلاً:

ثم لوط أخو سدوم أتاها ... إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا ... قد نهيناك أن تقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات ... كظباء بأجرع مرعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا ... أيها الشيخ خطة نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز ... خيّب اللّه سعيها ورجاها
أرسل اللّه عند ذلك عذابا ... جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طين ... ذي حروف مسمم إذ رماها

أمية بن عبد اللّه

---

(١) جمع جذل: الحطب اليابس.

(٢) ذبيحاً.

وفيّاضاً يسترسل أُمية ويقص قصة «فرعون وموسى وهارون» عبر تسبيحة ترتفع إلى اللّه تتغنّى:

وأنت الذي من فضل ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له اذهب وهارون فادعوا ... إلى اللّه فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له أأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفق إذا بك بانيا
وقولا له أأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنّ الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز زابيا
ويخرج من حبه في رؤوسه ... وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

أمية بن عبد اللّه

وبالإله ولهاً يسترسل أمية ويقص «قصة يونس» عبر مناجاةٍ تنساب من شفتيه هامسة:

وأنت بفضل منك أنجيت يونسا ... وقد أبت في أضعاف حوت لياليا
وإنّي لو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فربّ العباد ألقِ سيباً ورحمة ... عليّ وبارك في بني وماليا

أمية بن عبد اللّه

وتحت هزة من توهّج العاطفة يسترسل أمية وهو يقصّ «قصة مريم وابن مريم»، ولكليهما كانت العرب قد أقامت تمثالاً وضعته في البيت الحرام، فيقول:

وفي دينكم من رب مريم آية ... منبئة بالعبد عيسى ابن مريم
تدلّي عليها بعدما نام أهلها ... رسول فلم يحصر[1] ولم يترمرم[2]
فقال: ألا لا تجزعي؛ وتكذبي ... ملائكة من رب عاد وجرهم
أنيبي واعطي ما سئلت فإنني ... رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقالت له أنى يكون ولم أكن ... بغياً ولا حبلى ولا ذات قيم
فسبح ثم اغترها[3] فالتقت به ... غلاماً سويّ الخلق ليس بتوأم

ثم يسترسل أمية ويقص «قصة الفيل»:

---

(١) من الحصر وهو العيي في المنطق.

(٢) ترمرم: تحرّك للكلام ولم يتكلم.

(٣) أي تغرب عنها ولم يمسها.

فقال لها: إني من اللّه آية ... وعلّمني واللّه خير معلم
وأرسلت لم أرسل غوياً ولم أكن ... شقياً ولم أبعث بفحش ومأثم

أمية بن عبد اللّه

إن آيات ربنا ثاقبات ... ما يُماري فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور
حبس الفيل بالمغمّس حتى ... ظلّ يحبو كأنه معقور
ثم يجلو النهار ربّ رحيم ... بمهاة شعاعها منشور

أمية بن عبد اللّه

بين الكثير والشتى من قصص العصر القريشي وإلى جانب تلك التي أتت من الحيرة مرددة على لسان النضر بن الحارث، كأحاديث رستم وأسفنديار، تأتي هذه القصص التي تتحدث عن إبراهيم ولوط وعن فرعون الذي طغا فأرسل الإله إليه موسى مؤيداً بهارون وعن يونس الذي بات في أحضان حوتٍ لياليا.. وعن مريم وابن مريم الذي تكلم قائلاً بأنه لم يُرسل غوياً ولم يكن شقياً.. وقصص أخرى كانت أحداث العصر لها مواد إلاّ أن كلها كانت قصصاً لم تحف بالقدسية، فهي إنما من فيض المشاعر والمقفى المرتبط بوزن كان قد أطلقها استرسالاً من أمية اللسان!

أجل... بالمُقفى المرتبط بوزن سجّل العصر القريشي من متداول القصص وشائعها هذه القصص التي خلا منها القسم الآخر من كلام العرب ألاّ وهو القسم اللاّ مقفى أو النثر.

لا ثمة شك في أن العرب كانت أمة صناعتها الكلام ومفخرتها البيان ولما كان أهل مكة من بينهم خاصة أهل لسن وفصاحة امتازوا بالبيان وتميزوا بالبلاغة التي تتجلّى في مظهرين أولهما الشعر الذي يعتمد على الإيقاع والنغم والوزن الراقص والقوافي المتزاوجة وهذا هو القسم المقفّى، والآخر هو هذا اللون من الكلام الذي لا تحدّه، في الغالب، قيود الوزن والقافية بما له من أساليب سلسة تصدر عن قريحة مؤاتية وطبيعة طيّعة مستجيبة، فهو مساوٍ للطبع يجري على الفطرة وليس فيه تكلف ولا تطرف ولا غلو لأنه ينزع من **قوس البادية** ويتدفق من ينابيع البيئة، ومن ثم جاء القسم اللاّ مقفى أو النثر قوي اللفظ متين العبارة قوي الأسلوب قصير العبارات قريب الإشارة وهو لئن كان ما وصل إلينا منه وخاصة من النثر الفني ليس إلاّ قل من كثر فليس إلاّ لأن العرب في العصر القريشي كانوا يعتمدون في رواية الأدب على الاستظهار وليس إلاّ لأن الذاكرة أقدر على حفظ الشعر وروايته من حفظ النثر وروايته ـ فالشعر وليد الخيال وموضوعاته كانت تتدفق من ينابيع العاطفة، أما

موضوعات النثر فلم تك بهذه المثابة لأن النثر وليد العقل وسنّة الثقافة ـ ولهذا لم يستطع النثر بألوانه المختلفة وخاصة الفني منه أن يباري الشعر في العصر القريشي ولا أن يقوى على الموضعات التي عالجها الشعر، ولما كان الخيال أبداً عند الأمم أكبر من العقل فقد عُني الناس بحفظ الشعر ولم يعنوا بحفظ النثر الفني الذي يأتينا تحت ألوان متعددة منها:

المُرْسَل والمُزدَوج والسّجع من النثر: المرسل، وهو الذي لم تُقيّد فقراته بوزن أو قافية وهو مهم لأنه صورة راقية من النثر، ومن النثر: المزدوج، وهو المتحد في فواصله في الوزن دون اتفاق في القافية وقد يسميه البديعيون «موازنة» وهذا أيضاً مهم لأنه، صورة راقية من النثر بيد أن من النثر ما هو الأهم لأنه تلك الصورة الأرقى فأرقى صورة من الصور النثرية: السّجع.

والسجع؟ إن السجع أو الكلام المسجوع إنما ينقسم بدوره أيضاً إلى ألوان ولكن أهمه هو الذي تتحد فواصله في الحرف الأخير وهو ما يسمى بالقافية وهو، كما عنه تنتشر صفحات تاريخ اللغة العربية، الكَلِم الذي كان في غضون العصر القريشي **لغة التعبير الديني**.

أجل... كان السجع أو الكلام المسجوع، في غضون العصر القريشي، لغة التعبير الديني لا فحسب لأنه كان يتميز بميزة دينية تقترب من المرتبة الإعجازية على الجماعات وإنما لأن عنه قد صاحبت العقل الجماعي العقيدة بأنه لغة لا يرسلها الكُهّان إلاّ كما تُملى عليهم سواءً أكان هذا الإملاء يأتي من الملأ الأدنى عن طريق ورُئّي أو من الملأ الأعلى عن طريق مَلَكٍ، وأنفاس العصر القريشي نفسه تتنفس عن ألوان هذا السجع الديني الذي يبدأ في أكثر صوره بالاستهلال بالقسم بالمظاهر الكونية فإن من لوازم السجع الديني في أكثر الحالات الاستهلال بالقَسَم بالمظاهر الكونية، كما يأتينا من «الزبراء»، الكاهنة التي عاشت خلال ما قبيل وما بعد الميلاد المحمدي، القول:

«واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأؤد ختلاً، ويرقّ أنياباً عصلاً، وإن صخر الطود لينذر ثقلاً، لا تجدون عنه معلاً[(١)]..»

ومن ألوان هذا السجع الديني الذي يأتي إلينا قبيل الإسلام يأتينا أيضاً لون آخر يُسفر عنه قول ربيعة بن ربيعة وهو «ليوم القيامة» يصف:

---

(١) **الشعراء الحضرميون**، للشريف عبد الله السقاف.

«يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون، يُسْعَد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون[١]!.».

بل يسترسل ربيعة مقسماً:

«والشفق والغسق، والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحقّ!..» ومن صور هذا السجع الديني قبيل الإسلام يأتينا أيضاً قول شقّ بن صعب وهو ليوم القيامة «يوم الفصل» يصف:

«يوم تجزى فيه الولايات، يُدعى فيه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات».

وكابن ربيعة، يُقسم ابن صعب لسائله أن ما قد قاله إنما القول الحق:

«ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، أن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض!.».

وكابن صعب يأتي من ذلك الكاهن الخزاعي، الذي إليه كان قد احتكم هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس، القول:

«والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، فقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر».

بين قسم بالليل الغاسق والنجم الطارق، وبين قسم بشفق وغسق وفلق إذا اتسق وبين قسم بقمر باهر ونجم زاهر وسماء وأرض وما بينهما من رفع وخفض وبين حديث بيوم فصل يُجْمَع فيه الناس للميقات ولمن اتقى منهم وأحسن الفوز بالخيرات سارت لغة التعبير الديني جهراً بهذا السجع الذي وإن كان لغة التعبير الديني فإنه لم يكن على أهل الكهانة مقتصراً، فإن من السجع يأتينا قول لبيد:

«إنها التربة التي لا تذكي ناراً، ولا تؤهل داراً، ولا تسرّ جاراً، عودها ضئيل، وفرعها كليل، وخيرها قليل، بلدها شاسع، ومنبتها خاشع».

بل من السجع الذي يأتينا أيضاً من غير أهل الكهانة سجع في الخطابة يأتينا من عكاظ كسجع أول من علا الصفا وكان سجعه قدوة. فسجعه مهذب الألفاظ قوي التأثير كثير الفواصل ظاهره على مرسله يجري فيسجل لقُسّ بن ساعدة الأيادي قولاً يقول:

«ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساةً، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبرا!!».

هذه الألوان اللغوية من التفكير والأسلوب كانت طابع العصر القريشي ليس إلاّ النظم

---

(١) سيرة ابن هشام.

فيّاض وأما النثر فبقصر الجُمل ودقة الفواصل والميل إلى الإعجاز يمتاز امتيازه بقلة الولوع في صوغ الأسلوب وعدم التكلّف في إرسال العبارة ليسجّل لوناً بجانب هذه الألوان التي صاغت للعصر القريشي أدباً هو ولئن جاء يمثل الأساس الذي قامت عليه من بعد لغة القرآن فإنه أيضاً يمثل الأدب الذي قام عليه من قبل صرح الدين الحنيف المتنادي بالتوحيد الخالص والهادف إلى سلخ الوحدة القبلية بوحدة سياسية لئن اجتمعت بها أعنة القبائل جميعاً في يد قريش فلن يقوم بها لقريش مُلك لأن مكة إنما لقاح!

على صفحات التاريخ السياسي نرى مكة في العصر القريشي فنرى أن الحكم السياسي فيها كان لقاحاً، اللقاح هو الذي لا يخضع لحكم ملك. إن مكة في العصر القريشي تستنكر أن تدين لملك وتستنفر أن ينفرد بالحكم فيها فرد متوج أيّاً كان هذا الفرد ولو كان من صفوة بنيها فلا تاج ولا صولجان ولا استئثار بالسلطان ذلك لأن الحكم الفردي يخالف طبيعتها ويجافي فطرة أبنائها.. ونظام الملكية الذي يتوارث فيه الملوك الأمة، كما يُتوارث قطيع القطعان، تستنكره قريش ومن ورائها القبائل جميعاً المحكومة بوحدة قبلية هي هذه التي تهدينا إلى طبيعة الحكم في العصر القريشي والتي يمكن تلخيصها في أن القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية، فقد كانت القبيلة أشبه بحكومة صغيرة في الأمة الكبيرة ومن هنا كانت القبيلة العربية هي الأساس الاجتماعي الكبير لحياة العرب ولما كانت من الأسر المشتركة في الدم تتألف القبيلة فقد كانت القبيلة تنشأ لا فحسب موسومة بطابع الأسر التي كوّنتها وإنما لأنه لما كان أفراد القبيلة أنفسهم أبناء دم واحد كانوا يتداعون إلى الحرب بصيحة واحدة ويضيفون كلمة «بني» إلى الاسم الذي يجمع بينهم ولنفس السبب كانوا يخضعون لرئيس واحد هو شيخ القبيلة الذي كان يُنتخب انتخاباً طبيعياً تتوافر شروطه فيمن توافرت له فضائل الكرم والشجاعة والمروءة والشهامة وفصاحة اللسان والحكمة وفاق غيره في هذا المضمار، ولذا كان سعي كل واحد إلى ارتقاء السمت من قمة القيم الأخلاقية، ثم إنه لما كانت هذه الخلال لا تنتقل بالوراثة فإن سيادة القبيلة لم تكن منصباً وراثياً وليس فيها من طابع الملك شيء بل على النقيض لم يكن سيد القبيلة مطلق السلطة وإنما محدود السلطان فقد كان عليه، في المسائل القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة، أن يستشير مجلس القبيلة المكون من زعماء القوم كما كان بقاؤه في منصبه رهيناً برضاء زمرة ناخبيه، ومن ثم فسيادة الرئيس لم تكن مبنية على التسلّط والقهر والاستعباد والاستبداد وإنما منشؤها التجلّة والاحترام والعدالة والتعاون والتفاني في خدمة العشيرة، وأما إذا اغترّ سيد القبيلة بسلطته واستبدّ بجماعته فإنه لا يلبث طويلاً حتى يثور عليه بعض أفراد قبيلته ويكون نصيبه إما القتل أو الإقصاء عن الحكم.

هذا هو الحكم القبلي الذي كانت به هذه الناحية من الدنيا محكومة وله كانت العرب عامة والأعراب منهم خاصة تخضع كنتيجة حتمية لمولدهم في أحضان الحرية والطلاقة وفي مهد المساواة. فالواحد منهم يقابل سيد قبيلته ويقف منه موقف المساواة، ولهذا نفروا من كلمة ملك وأبوا أن يستعملوا هذه الكلمة إلاّ حينما يشيرون إلى الحكام الأجانب أو الأقيال العرب المتأثرين بالسلطان الفارسي والروماني من مناذرة وغساسنة. وعلى هذا النحو كان الحكم القبلي سائداً في البوادي والحضر ـ وإن شذ عن هذه القاعدة ملوك بني كندة ـ أما مكة فقد احتفظت بجوهر الروح التعاونية في الحكم القبلي إلاّ أنها اتخذت ألواناً من التنظيم والتنسيق طبقاً لما كانت عليه من التحضّر والرقي، وهكذا لم تزل مكة لقاحاً لا تؤدي إتاوة لحاكم أو جزية لملك وتعترض كل الاعتراض على فكرة قيام ملك. وعلى هذا يأتي مثلاً حين طمح أحد القريشيين، وهو عثمان بن الحويرث، في أن يملك قريشاً وأن يعقدوا له التاج، فقد قَدِمَ عثمان على قيصر فذكر له مكة ورغّب أن تكون له زيادة في ملكه، كما ملك كسرى صنعاء، عن طريق توليته هو ملكاً على مكة فملّكه عليهم وكتب له إليهم ـ فلما قدم عليهم يقول: «قد ملكني قيصر عليكم وأنا ابن عمكم وواحد منكم وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع عنكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه» وافقت قريش لأول وهلة مخافة قيصر فقد أخذت بقلوب سادتها ما ذكر من متجرهم واجتمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج وجعلوا لذلك عشية موعداً وفارقوه على ذلك.. ولكن لما كانت العشية هب أبو زمعة الأسود بن عبد المطلب بن أسد؛ فصاح: «يا عباد اللّه ملك بتهامة؟! إن قريشياً لقاح لا تملك» ومن ثم طافت بقريش تلك الانتفاضة التي انطلقت خلالها أصواتها تجيب الأسود بأنه قط ما كان ملك بتهامة ولن يكون! ومن ثم كان القسم القريشي، وقريش إنما قلب تهامة، على ألاّ يكون ذلك في المستقبل أبداً!

وهكذا نستبين جلياً أن مكة كانت تأبى الخضوع لحكم ملكي إبان هذه الفترة الزمنية من تاريخها السياسي الذي اشتد في غضونه الشعور بالحاجة الماسة إلى سلخ الوحدة القبلية والاستعاضة عنها بواحدة سياسية لئن أصبحت بها أعنة القبائل جميعاً في يد واحدة فلن تكون هذه اليد قط يداً ملكية فإنما بهذه الوحدة السياسية الوحدة الدينية كفيلة!

ولكن... الفكر العربي إذ يتلفت من حول نفسه وفي أرجاء دنياه، خاصة في تمثله بالأحناف، فليس إلاّ ليرى أن كل تلك السيادات التي تجاوره والمتاخمة له والقائمة على أسس وحدة سياسية إنما حجر الأساس منها: كتاب مقدس ونبي رسول

إن لكل أمة من الأمم نبي رسول وكتاب مقدس إليهما بأسباب وحدتها السياسية تعود

فما استتبت لكل أمة من هذه الأمم وحدة سياسية إلاّ بنبي رسول لم يقد قومه إلاّ بإقران طاعة اللّه بطاعته وأمر اللّه بأمره.. فإن:

الإمبراطورية الفارسية أمة لها نبي رسول وكتاب مقدس..

والإمبراطورية الرومانية أمة لها نبي رسول وكتاب مقدس..

بل يثرب، يثرب المحكومة باليهود، أمة لها نبي رسول وكتاب مقدس..

والعرب؟.. العرب إنما أمة ليس لها نبي رسول ولا كتاب مقدس وإلى هذا السبب إنما تفرّقها القبلي يعود!

مشكلة!.. مشكلة، انعقدت بسببها في أفق التفكير الحنيفي الغيوم، فهي مشكلة جابهت التفكير الحنيفي لحظة اصطدم هذا التفكير بهذه الحقيقة والصوت منه ينطلق في أرجاء دنياه مدوياً بمطلب وحدة دينية بينما كل وحدة دينية لم تستتب إلاّ «بنبي رسول» كان بمثابة القائد الموحد للكلمة «بكَلِم قدسي» قدسيته تنسب إلى «وحي منزل» كانت نتيجته الحتمية ربط الفروع المتفرقة برباط الوحدة السياسية، وعلى هذا تأتي شاهدة الإمبراطورية الفارسية والرومانية، فإن كلاً من الإمبراطوريتين المتاخمتين إنما تقوم لها سيادة مصدرها الرضوخ لحكم وحدة سياسية مادتها وحدة دينية روحها «نبي رسول» و«كتاب مقدس» مما يجعل الشأن من هذين الإمبراطوريتين غير شأن هذه القبائل التي رغم التفافها من حول عقيدة مشتركة محورها «اللّه» ومركزها «بيت اللّه» فإنما متفرقة تعيش في وحدة قبلية تفرّق القبلية عن القبيلة وتنشر العرب بطوناً متفرقة في بطون الصحراء فليست هناك شخصية يربط الإيمان بها بين هذه القبائل ويكون بها للدين في العصر القريشي طابع الأديان التي تراها الحنيفية من حولها منتشرة وسائدة وإلى قلب الصحراء بتعاليمها قد تغلغلت، وهذه إنما حالة تنادي بحاجة البلاد الماسّة إلى التوحيد السياسي يجمع أعنة القبائل في يد واحدة، يد واحدة، ولكن!. قط لن تكون لملك الطبيعة العربية تأبى أن تسلم عنانها لملك وإنما هذه اليد لا بد أن تكون لشخصية عندها تلتقي معاً صفة النبوة والرسالة!

ولكن!... الدين الحنيف، إنما دين فطري والدين الفطري لا تتنافر طبيعته فحسب وهذه الفكرة وإنما هو بطبيعته يتنافى والقول بالوحي الهابط ونبي يأتي بالهدى ورسول يأتي بالرشد على أسس القول بأن النفس بطبيعتها مفطورة على معرفة الهدى والضلال. لأنه ما دام الإنسان فطرياً فلا حاجة بالإنسان إلى وحي خارجي ورسول يهدي إلى معرفةٍ هي فطرية في النفس!..

يقيناً إن هذه لمشكلة تعترض التفكير الحنيفي وبينه وما إليه يهدف تحول خاصة في هذه

الفترة التي كان خلالها على الركب من السيادة قد تحاذي فرعا ابني العم من أحفاد قُصيّ. وقط لا يمكن حلّها إلاّ بالتغاضي عنها وإهمال آثارها بل تجاهلها تجاهلاً تاماً تحتّمه للمطلب السياسي أهداف..

فكرة ما التمعت في الأفق الحنيفي إلاّ واستحكمت من تفكيره التفكير. ومن ثم في انصراف عن المبدأ الأول القائم عليه الدين الحنيف بدأت تنساب في داخل الأرجاء الحنيفية الهمسات بأنه إذا كانت الحنيفية تخالف الصابئة في أنها تطلق الحرية بين الإنسان واللّه وتنفي عقيدة التوسّط إلى اللّه بالملائكة والشفعاء من القدامى فإن المرء إنما يحتاج في معرفة اللّه وطاعته إلى وسيط من البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة فوق البشر.. يماثل البشرية في الجسد ويمايزها من حيث الروحانية فيتلقّى الوحي بطرق الروحانية ويُلقي إلى نوع الإنسان بطرق البشرية...

وانطلق التفكير الحنيفي يبحث عن «نبي رسول» ولكن!. في الأفق الحنيفي لم تتحكم هذه الفكرة إلاّ ليرسل الصوت منه استرسالاً في الأرجاء العربية يتهامس بانتظار «نبي رسول» وفي استجابة إلى هذه الفكرة الحنيفية تجاوبت الأرجاء العربية حضراً ومحضراً وراحت بين جنبات الفيافي والبوادي نغمة عذبة تُرجّع الهمس الحنيفي إيماناً به تحولت الفكرة إلى:

عقيدة النبي المنتظر

وأرهصت الأجواء العربية وأرهفت تنتظر «النبي المنتظر» وبدأت فكرة النبوة تُراود أفراد الحنيفية كلٌ عن نفسه في أن يكون هو هذا «النبي المنتظر»، ولما كان الشرط الجوهري من شروط النبوة ينحصر في اعتلاء الذروة من قمم القيم الأخلاقية فقد بدأ تباري الأحناف في بلوغ هذه الذروة وكدحهم في السعي نحوها، فكان تدافعهم ذلك التدافع الذي اتخذ مظهره بتلك النزعة التقشفية التي انتزعتهم من حمأة التمرغ في زيف الدنيويات ليبرز من بينهم، مثلاً قوياً، في التقشف ذاك الذي سمعناه يقص، شعراً، قصة إبراهيم وموسى وهارون ومريم وابن مريم ويونس ولوط، ذلك الذي لبس المسوح ووقف صورة رائعة للطهارتين الداخلية والخارجية حتى أمست مكة تردد عنه قوله الذي سجل منشأ هذه العقيدة في دائرة التفكير الحنيفي:

ألا نـبـي لـنـا مـنّـا فـيـخـبـرنـا ... مـا بـعـد غـايـتـنا فـي راس مـحـيـانـا

أمية بن عبد اللّه

وتأهبت أنفاس الزمن لتعلن ظهور «النبي المنتظر» من بين الأحناف وطوّفت هذه الأنفاس

من حول هذا الحنيفي الذي يقف فريداً في مراقي الطهر والطهارة من الأوزار وفي الذروة العليا من الأحناف:

أمية بن عبد اللّه

ولكن!.. فجأة تراجعت من حول أمية بن عبد اللّه أنفاس الزمن وناحية أخرى تحولت والتفت من حول شخصية أخرى رأتها مكة لا تعتنق الدين الحنيف، وصعود الأحناف إلى حراء في شهر رمضان تصعد إلاّ لتراها بعد انحسار الشهر دلفهم تدلف ولكن لتطلق الصوت في أرجاء مكة ينادي:

إني أنا: «النبي المنتظر»!.

أرسلني اللّه للدين الحنيف نبياً ورسولاً...

كلا!.. لا بتفكير إلهي جديد ولا بدين جديد تأتي هذه الشخصية وإنما للتفكير الإلهي الحنيفي جاءت تؤيد فصاحبها إنما بهذا التصريح يصرح، والأيام بدعوته تسير، قائلاً:

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التي حرّمها اللّه﴾.

الآية ٩١ من سورة النمل

وإن له قد قيل: **﴿وأوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً﴾.**

الآية ١٢٣ من سورة النحل

إنه قد أُمر:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللّه التي فطر الناس عليها... ذلك الدين القيّم﴾.

الآية ٣٠ من سورة الروم

في هذه الفترة الزمنية، ٦١٠م، التي تنادت فيها حاجة البلاد طالبة التوحيد السياسي وجمع أعنة القبائل بوحدة دينية مصدرها هذا الدين الذي تنادي به الحنيفية وتعود بأصله إلى إبراهيم وتسميه «دين اللّه» وفي هذه المرحلة التاريخية التي اشتدّ خلالها التطاحن على السيادة القريشية بين فرعي قريش من عبد الدار وعبد مناف وعلى الركب، في غضونها، كان بيت هاشم وبيت عبد شمس قد تحاذيا. في هذه اللحظة التاريخية التي أرهفت فيها الأجواء الحنيفية لترى أن في أمية بن عبد اللّه قد تحققت عقيدة «النبي المنتظر» تراجعت عن أمية بن عبد اللّه أنفاس الزمن وتحولت في التفافٍ من حول:

محمد بن عبد اللّه

في عهدِ تفكيره الديني كان التفكير، وشأن شبه الجزيرة كان الشأن أعلنت أنفاس الزمن

ظهور «النبي المنتظر» في شخصية هذا الفرد من بيت هاشم وهذا الغصن من فرع عبد مناف. مَن للدين الحنيف كان قد اعتنق ومن منه راح الصوت داعياً الناس إلى نفس الناس بأنه هو «النبي المنتظر» وأن اللّه قد أرسله للدين الفطري نبياً ورسولاً..

نداء، سجّل في سجلّ الأديان:

الدين الإسلامي

إن الإسلام إنما صرح يقوم على أسس كتاب وعلى عصمة ما يضمه هذا الكتاب ترتكز لمحمد بن عبد اللّه صدق نبوة وعصمة رسالة، فليس هذا الكتاب إلاّ مرآة تنعكس عليها شخصية محمد وليست المراحل الحيوية التي كوّنت الدين الإسلامي إلاّ السطور من هذا الكتاب الحامل اسم:

القرآن

حتماً من ثم أن تتناول اليد منا القرآن ولهذا الكتاب الذي صفّحت القدسية دفّتيه تنشر للفكر من صفحاته الصفحات..

ولكن!.. هذا «الكتاب» الذي تحدثنا منه السطور بأنه على محمد قد أنزل عن طريق «الوحي الهابط» إنما كتاب قد استغرق تكوينه نيفاً وثلاثاً وعشرين سنة من عمر محمد وهذه إنما المرحلة التي عمرت فيها حياة محمد بالمهم من الأحداث، فحياة محمد في غضون هذه الفترة من الزمن إنما حياة لا فحسب سياسية الصبغة وإنما أيامها تمثل الحجارة التي تلاصقت لتكوّن صرح الإسلام. ومن ثم فنحن إن نتناول القرآن فليس لننشر منه الصفحات كما لطويل من الزمن قد تعودنا لها نشراً. كلا ولا لنتصفّحها كما لأجيالٍ قد تعودنا لها تصفّحاً. كلا، ولا لنقرأ منه السطور كما لقرونٍ على قراءتها قد درجنا كلا!. لا نتناول القرآن وننشره لتسير العينان على سطوره وإنما ليسير الفكر بين سطوره ولا لنقرأ هذه السطور، إلا بحسب الترتيب التاريخي لهذه السطور، فلن يتاح لنا فهم الدين الإسلامي كلا ولا تفهم ماهية الشريعة الإسلامية لا ولا ماهية حلول الإسلام للمشكلات الدينية ما لم نتّبع فترة ففترة وفترة بعد فترة فقرات هذا الكتاب في كل هذه المراحل التي ينتشر تاريخها عن تاريخِ نفسه إنما نفسه تلك الحياة التي اقتطعت من عمرها قرابة ربع قرن من الزمن بين مكة ويثرب ومن ثم كان انقسام القرآن إلى:

القسم المكي: (٦١٠ ـ ٦٢٢م)

القسم المدني: (٦٢٢ ـ ٦٣٢م) (١ ـ ١١هـ)

قسمان إنما القرآن وكل قسم إنما عن الآخر مختلف الصبغة والطابع وسطور القسم المكي

غير سطور القسم المدني. لا أسلوباً فحسب بل جوهراً وروحاً، وعلى ذلك يأتينا الدليل مما يضعه هذان القسمان اللذان يسجلان لمحمد صوتاً ارتفع قرابة ربع قرن من الزمن اختلفت خلاله المناسبات الشتى وتعارضت في غضونه الحوادث العارضة وفي كل مناسبة وفي كل حادثة كانت الدعوة تؤيد بكَلِم بدأ النغم منه في مكة سجعاً حاراً[1] وانتهى في يثرب أسلوباً هادئاً في صرامة وصارماً في هدوء..

بدأ الكَلِم من القرآن، في القسم المكي، ممتازاً بقصر الجُمل، وكثرة الفواصل ملتزماً لقواعد معينة مفعماً بالعواطف الحرار، فخم الصور باهر الألوان وانتهى، في القسم المدني، صارماً قوياً يضع السنن والفرائض والأحكام وينسخ ما قد سبق من آي السلم بآي القتال[2] مسفراً عن «الرسول الإلهي» في صورة المشرع والحاكم المطلق السليم.

ومن ثم فنحن إذا ما تتبعنا السطور من القرآن بحسب الترتيب التاريخي فإننا لا نقف وقوف الأجيال، حتى عصرنا الحاضر، عند الإعجاز في اللغة وجزالة اللفظ وسحر البيان، كلا. فوراء اللغة إنما تقع الغاية من الجمل ووراء الجمل ينجلي المبتغى ويتجلّى الهدف! بلاغة اللفظ وجمال الجمل لا يكفي للاعتقاد بقدسية كتاب حفّته من القرون الزمنية نيفاً وثلاثة عشر قرناً بالقدسية ما لم يحط الفكر بالغاية التي إليها قد هدفت هذه الجمل وما لم يسبر العقل الجوهر من هذا الكَلِم الذي يمثل الأساس الذي يقوم عليه صرح الإسلام.

لهذه الروح يجب أن نتناول القرآن وننشر منه الصفحات.. صفحات، لا ننشرها إلاّ وينتشر للقرآن عصر. فالحروف فيه قد تحولت أمامنا إلى مشاهد والسطور منه قد لجت المسمع منا تحمل مقاطع صوت ارتفع ضعيفاً فقوياً، مهيضاً فقائماً، مهزوماً فمنتصراً..

بدأ الصوت من محمد يرتفع منادياً العرب كافة وقريشاً عامة، في عهد كانت فيه فروع قريش في تنافرٍ قد تشابكت وعلى الركب من السيادة قد تحاذت وبنبيٍّ منتظر قد اشتدّ بها الإرهاص وتهيأت أذهان العرب إلى رسولٍ إليه يتشوقون، يقول:

إني أنا: «النبي المنتظر!..».

أنا رسول اللّه إليكم ومن اللّه آتٍ إليكم بكتاب فإنه:

«جاءني جبريل، وأنا نائم، بغمط من ديباج فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ. فغتّني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم

---

(١) الصفوة من علماء البلاغة لا يمنعون أن يسمى ما جاء في القرآن من ذلك سجعاً ومنهم أبو هلال، وابن سنان وابن الأثير.

(٢) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس.

أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلاّ افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾.

ثم؟ «فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً وخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول اللّه!».

وأما من هو صاحب هذا الصوت فسؤال يأتينا عنه الجواب وشفتا محمد تسترسلان قائلة:

«فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صافّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول اللّه وأنا جبريل»!

كَلِمٌ، لم تتجاوب في آفاق مكة منه الأصداء إلاّ وأوقف أهل الحكم والنهي من أهلها موقف الذهول!

ولكن!. الذهول إنما حالة نفسية تعقبها أبداً حالة التنبّه والتنبّه الشديد. فليس إلاّ تحت تأثيرٍ من هذه الحالة كان أن أسرع إلى محمد أهل البلاغة والحجة من قومه ينصتون فأنصتوا إلى كَلِم ما لبث أن قادهم إليه الإنصات إلى اعتباره سجعاً من كلام البشر بينما هو عنه يقول إنه إليه وحياً قد تنزّل من الملأ الأعلى ودلالة على ذلك أنه قد غُتّ مرات ثلاث لا مرة واحدة كما بذلك يأتي الوحي عن طريق الرئي من الجان الذي لا يغت صاحبه إلاّ مرة واحدة ومن ثم ومحمد قد غُتّ ثلاثاً فليس هذا الكَلِم الذي يطلع به إلاّ وحياً قد هبط به ملك من السماء!

من صدور الكتب الإسلامية، التي نتخذها مصادر تطلع علينا هذه الحقيقة وهي أن العرب كانت تعتقد أن من يُغت مرة واحدة غير من يُغت ثلاثاً، فالأول إنما ينقل كَلِماً ليس هو إلاّ من إملاء رئيٍّ من الجان وأما إذا تكررت هذه ثلاثاً، كما قد حدث ذلك من قبل لعبد المطّلب حين أمر باحتفار زمزم من جديد، فإنما من اللّه. ومن هنا كان إقبالها على محمد تنصت إليه مستوعبة هذا الكلام الذي يكوّن المقاطع الأولى من أول سورة من القرآن ولكن!. ما لبثت أن راحت مكة تتساءل بلسان ذلك الشريف من رؤوس أشرافها، الوليد بن المغيرة، والملقّب «بالوحيد»[1] لمكانته فيها:

أمفتون محمد أم مجنون؟!.. وعن التساؤل أجاب الأخنسُ بن شريق، والأخنس إنما شريف آخر من رؤوس ثقيف: مجنون!!

---

(١) **سيرة ابن هشام**، جـ١.

وانطلق الرّد من شفتي محمد كَلِماً بقصر الجمل وقلة الولوع بالتكلّف في صوغ الأسلوب والعبارة يمتاز مقسماً - «يقسم بحوت يونس، وحوت يونس (ن)» - بأن اللّه له يخاطب قائلاً:

﴿ن، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون.. وإنك لعلى خلق عظيم﴾!

من «سورة القلم»

وإنه إلى الوليد بن المغيرة وإلى الأخنس بن شريق يقول:

﴿بأيكم المفتون.. هماز مشاء بنميم مناع للخير معتدٍ أثيم عُتّل بعد ذلك زنيم﴾!

من «سورة القلم»

للوليد وللأخنس انطلق الكَلِم من شفتيّ محمد يكيل لهما الصاع صاعين فقد قذفتهما شفتاه بأقسى ما تقذف به العرب إذ وصفت كليهما بابن بغي، فالزنيم إنما عيب في النسب ولما كان كلاهما من الأشراف وكانت هذه صفة عن الوليد وعن الأخنس لها مكة من قبل لا تعرف فقد تحوّل الوجه القريشي عن محمد نافراً ينعته «بالمذمم» ويعلن بأنه ليس إلاّ دعياً وأن الكَلِم المتحدر من شفتيه ليس إلاّ على اللّه افتراء!

وكنتيجةٍ حتمية توتر بين محمد وقومه الموقف، بينما راحت شفتاه تلقيان قولاً يمثل رجع الصدى لما كان يعتمل بين الضلوع من أحاسيس:

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم أن كيدي متين فاصبر﴾!.

من «سورة القلم»

هذه هي أُولى المراحل من إعلان محمد دعوته وهذا هو الصدر من الكلم الذي سُجّل نصوصاً بها بدأت تبرز شخصية محمد على صفحة التاريخ وتزداد التماعاً بل لتزداد هذه الشخصية أمامنا تبلوراً ونحن نطوي هذه النصوص إلى نصوص غيرها تبعتها حسب الترتيب التاريخي، وجاءت بعد هذه بليلة واحدة خلالها كان محمد قد أوى إلى «حراء» حيث أطال هناك التفكير في أمر هذا «الأمر» الذي فيه قد أصبح حتى إذا ما طوى الموضوع من أطرافه عاد إلى داره يرتجف ويقول: «زملوني!». لتمضي من عمر الزمن ليلة صابح محمد في صبحها مكة يقول إن اللّه يخاطبه قائلاً:

﴿يا أيها المزمل، قم الليل إلاّ قليلا.. واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا﴾.

من «سورة المزمل»

وإلى القول المناسب ليّناً في شدّة وشديداً في لين كان حتماً أن تلتفت مكة وأن تطرق

منها الرؤوس مفكرة في هذا الأمر، وأما محمد فكان قد انطلق إلى ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة والذي كان قبل انخراطه في المسيحية قد انخرط في الموسوية، لا يحدثه محمد وإليه يُصغي إلاّ وعلى قوله يُعقِّب قائلاً:

«لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى!»

والتفتت مكة لترى محمداً عليها يطلع قائلاً إن اللّه يقول:

﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾.

من «سورة المزمل»

بل وإن اللّه قد استرسل مُذكراً بأن من يعص الرسول يأخذه أخذاً وبيلاً فهو يقول:

﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا... إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾.

من «سورة المزمل»

وهبّت مكة تحت هزة من التنبّه جديدة وبدأت ترتسم في أُفق مخيلتها صورة لمحمد كل الجدّة جديدة.. إنه يطلب منها الطاعة لنفسه ويذكرها «بفرعون وموسى» ويقول إن هذه تذكرة.

ومن ثم كان اجتماعها عند «الوحيد» لا تسأله ما نصيب هذا القول من الحق إلاّ ليجيئها التأكيد، بعد أن أطرق وفكّر وقدّر ثم نظر وعبس، قائلاً:

«ما الذي يقوله إلاّ سحر يؤثر... إن هذا إلاّ قول البشر!».

وبقول «وحيدها» اطمأن فؤاد مكة. وأما محمد فقد عاد إلى داره والعرق بارداً منه يتصبّب يقول: «دثروني!». لتنقضي من الزمن آنات لم يغف خلالها من محمد الجفن بجسدٍ مجهد إلاّ ليهبّ بعدها وتنفرج شفتاه عن قول يقول بأن اللّه له يقول:

﴿يا أيها المدّثر، قُمْ فانذر وثيابك فطهر والرجز فاهجر.. ولربك فاصبر﴾.

من «سورة المدثر»

وإن اللّه عن «الوحيد» له يقول:

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً.. كلا إنه لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعوداً، إنه فكّر وقدّر، فقُتل كيف قدّر، ثم قُتل كيف قدّر ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلاّ قول البشر، سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تُبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر﴾.

تُرى.. أي شيء أراد اللّه بهذا العدد مثلاً؟!

بالتساؤل انطلقت قريش تتساءل بلسان عبد العزّى أبو الحكم ولكنه سؤال كان جوابه:

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذي آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد اللّه بهذا مثلاً كذلك يضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء﴾.

من «سورة المدثر»

وازداد الموقف بين محمد وقريش توتراً!.. ولكن!.. أمام قول يكل الهداية والضلال إلى اللّه كان حتماً أن تطرق الرؤوس العربية المفكرة تفكر وتجري منها اللوالب على سلاسل المنطق بل لتتسارع ومحمد إليها يلتفت مستهلاً بالمظاهر الكونية القسم يقول:

﴿كلا والقمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، كل نفس بما كسبت رهينة﴾.

من «سورة المدثر»

كلا واللّه!. ليس هذا القول إلاّ على اللّه افتراء!..

بهذه العبارة عبّرت قريش عن نفسها وعند هذا المنطق استقرت منها اللوالب الفكرية. ومن ثم فبينما إلى محمد كانت ترهف مسامع قبائل لديها كان القمر مقدساً كان الوجه القريشي من أهل البلاغة والحجة يزداد في تحوله عن محمد إعراضاً لم يكن إلاّ بسببه كان تحدّر الكِلَم من شفتي محمد متعجباً في أمر هذه الرؤوس يقول:

﴿فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة﴾!.

الآي (٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١) من «سورة المدثر»

بِحُمر، والحمر إنما جمع حمار، مُثلت الطبقة المثقفة وشبهت وبهذا الكَلِم جاء عنها الوصف بينما استرسلت شفتا محمد تذكران:

﴿كلا إنه تذكرة، فمن شاء ذكره، وما يذكرون إلاّ أن يشاء اللّه﴾!.

الآي (٥٤ ـ ٥٥) من «سورة المدثر»

لا غرو من ثم أن تهتز النفس القريشية غضباً وثُلّة الناس فيها بِحُمر قد شبهت، ولا غرو أن تتجاوب من جديد أرجاء مكة بأصداء من خواطر الخاطر مصدرها هذه الطبقة من أهل النهي منها والحكم فيها التي أخذت تستعرض ما قد كان من أمر محمد حتى الآن.

حتى الآن ومحمد لا يتحدث إلاّ عن هبوبه من نومه وسماعه من السماء صوتاً يناديه بأنه هو رسول اللّه وليس هناك من مؤيد لمحمد بالنبوة وبالرسالة التي إلى نفسه بها يدعو إلاّ هذا الكَلِم الذي يتلوه سجعاً والذي لا يُكوِّن إلاّ ردوداً وأجوبة جاءت في مناسبات شتى ومسائل عارضة مما يدفع بالفكر إلى استعراض ما قد انقضى من مراحل حياة محمد...

واسترسلت مكة تستعرض مراحل هذه الحياة فاستعرضت لمحمد طفولة فصبا فحلقات شباب حتى فجر هذه الكهولة من العمر التي لها في هذه الفترة الزمنية يجتاز، رأته طفلاً قد طبعه اليتم بالحرمان وأصابه الحرمان بجروح كانت لا بد أن تترك في أعماق نفسه عميق الأثر التي لم يمحها احتضان جده عبد المطلب له، بل على النقيض زادت هذه الجروح حساسية كفالة عمه أبو طالب له غداة ابتدأ محمد يحبو على مدارج الحداثة نحو الصبا وهذه إنما مرحلة قد خضبها لون الارتحال، فإن أبا طالب الذي قد تولى، بعد أبناء عبد مناف الأربعة، الزعامة الاقتصادية إنما قد استصحبه أكثر من مرة في سفره إلى الشام وبه أناخ أكثر من مرة في البصرى على حدود الشام حيث، بينما كانت قافلته التجارية تنيخ إلى جانب الأديرة المسيحية للرهبان النساطرة، كان ينزل هو لمكانته كزعيم لهذه الحركة الاقتصادية ضيفاً مع محمد على سرجيوس وبحيرا.. هذان الراهبان النسطوريان من أتباع هذا المذهب الذي يرفض رفضاً باتاً بنوة «المسيح» للّه ويعلن جهراً أن «المسيح» ليس إلاّ «كلمة اللّه» التي ألقاها «الروح القدس» إلى مريم «العذراء البتول»، في نفس الوقت الذي يرفض هذا المذهب رفضاً قاطعاً الأصنام أو التماثيل ويتشدد في هذا الرفض حتى يشمل الصليب!..

ثم، إن رحلات محمد لم تقتصر على صحبة أبي طالب وإنما إلى جانب أبي طالب كان هناك الزبير، عمه الآخر، فقد استصحب الزبير محمداً إلى اليمن فاستصحبه إلى حيث كانت الأجواء تعبق بعطر بلقيس وإلى حيث كانت تشنّف المسامع قصص حمير وسبأ وسد مأرب. وهذه المرحلة ومحمد قد فارق مدارج الصبا إلى الشباب، إنما مرحلة هي ولئن كانت قد خضّبتها ألوان الارتحال مع الأعمام فإنما قد طوت حلقاتها أيضاً كثرة الأسفار إلى اليمن وإلى الشام بتجارة الآخرين ولحسابهم في قوافل قريش التجارية. وهذه الرحلات مما لا ثمة شك أنها تركت أثرها في مدارك محمد وجاءت إلى أفق تفكيره بالجديد ـ فمما لا شك فيه أن هذه الرحلات قد نمّت مداركه وأكسبته معلومات وجعلت له، عن طريق هذا الاحتكاك بمختلف الأجناس، معرفة عميقة لا فحسب بالطباع البشرية وإنما بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية للبلاد التي احتضنته لفترات متقطعة من الزمن وكانت حتماً أن تتناوله بالتصقيل ـ كما زاده صقلاً تردده على أسواق مكة وخاصة عكاظ،

فلقد شاهدت مكة محمداً يواظب على حضور عكاظ حيث كان اللسان العربي يتسامى في الإجادة ويتنافس في البيان وحيث كانت مختلف العقائد والفِكَر تتجاوب فيها أصداء عبر انسيابها من كل جهة خاصة من الحيرة ومن غسّان... ولكن!. أهم أحداث هذا الشباب كان التقاء محمد، وهو في الخامسة والعشرين من العمر، بخديجة بنت خويلد وهي قد تجاوزت الأربعين عن طريق اشتغاله لحسابها بالتجارة، فقد كان لهذا التلاقي، الذي أعقبه زواج جعل محمداً في مرتبة الأثرياء من قومه، أثره في حياة محمد فقد حوّل انتباهه عن ناحية التجارة والكدح والكفاح في سبيل العيش إلى غير التجارة وفتق منه الذهن إلى الناحية السياسية للبلاد وأرهف منه الوعي وإلى النزاع القائم بين فرعي عبد الدار وعبد مناف وإلى التنازع الثائر بين بيتي هاشم وعبد شمس.

وها هو ذا محمد يشرف على مشارف الأربعين من العمر، وقد أنضجته التجارب وحنكته السنون، يطلع بنداء لو قُدِّر له الانتصار لجفّ فرع عبد الدار وترعرع فرع عبد مناف ولتقوّض بيت عبد شمس وهوى أنقاضاً ولارتفع بيت هاشم وشمخ في علياء!

الاستعراض، استعرضت الرؤوس القريشية حتى هذه المرحلة الزمنية لمحمد مراحل حياة. وعلى أضواء التاريخ السياسي للعصر جرت اللوالب الفكرية منها تقول: بأن محمداً، ومحمد إنما من فرع عبد مناف وبيت هاشم، يتخذ هذه الدعوة إلى نفسه وسيلة لامتلاك أعنة العرب فإنما هذه الدعوة ليست في مداها الحقيقي إلاّ دعوة ترمي إلى هدف سياسي يتلخص في حصر السيادة أولاً في فرع عبد مناف عامة وفي بيت هاشم خاصة وبالتالي إفراغها في يد محمد ليكون، هو، سيد العرب قاطبة!

حتى هذا المدى استرسلت اللّوالب القريشية وعند هذا المنطق استقرّت وراحت، تؤيدها مظاهر الأحداث، تتخذ على صحة هذا المنطق ما يتحدر من شفتي محمد من كلم ما طال إليه منها الإنصات إلاّ ليزيدها إليه إنصاتاً انفراج شفتي محمد عن حديثٍ بعث في أجواءٍ بالمجوسية تدين، أيضاً، الانتباه: «**أنا بُشرى عيسى!**»

«أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى رأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهْماً إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجاً فشقا بطني واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه»[1].

---

(١) **سيرة ابن هشام**، جـ١.

ولكن!... للإيمان الذي كان قد سكن في الصدر المجوسي بأن «ماني» هو «بشرى عيسى» ـ لليقين الذي كان قد استقر في القلب القريشي عن أهداف محمد لم يستطع هذا الحديث أن يقتلع. وكأن الفهم القريشي الذي استعرض لمحمد مراحل حياة قد أبى أن يدرك المغزى من هذا الحديث وهو أن اللّه قد أعدّ محمداً، وهو في حوالي الرابعة من العمر، لرسالة في مطلع الأربعين فأرسل ملائكة شقت منه البطن وطهّرت منه القلب وأعدته لحياة تُحتمها للرسالة شروط تنحصر في اتباع طريقة مُثلى في الحياة تتنافر ألوانها كل التنافر وألوان الرجز.. كلا، لم يستطع هذا الحديث أن يقتلع جذور اليقين التي استقرت في القلب القريشي عن محمد ـ ومن ثم قسا من قريش القلب ولم يلن لهذا الكَلِم المنطلق بقصر الجمل، أيضاً، يمتاز ويقول إن اللّه يناديه آمراً:

﴿وثيابك فطهر، والرجز فاهجر﴾.

الآي (٤ ـ ٥) من «سورة المدثر»

وإنه له يقول بأن ما قد أنقض قبل الأربعين من العمر من وزر كان قد أنقض منه الظهر إنما عنه قد وُضع:

﴿ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾.

الآي (٢ ـ ٣) من «سورة الشرح»

كلا.. لم يقتلع هذا الكلم من قلب قريش اليقين بمنطقها بل على النقيض ازدادت بهذا المنطق يقيناً زادها برأيها إيماناً ومن ثم عليه إصراراً حملته معها وهي تلبّي لمحمدٍ نداء انطلق من «الصفا» صبحاً واسترسل يجمعها منادياً:

«يا معشر قريش!.. يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة يا بني تميم يا بني مخزوم يا بني أسد إن اللّه يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين **إنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!**».

حينذاك ارتفع صوت أبي الحكم مستنكراً:

«تباً لك! ألهذا جمعتنا؟!».

وناحية أبي الحكم اتجهت عينا محمد لتنفرج منه الشفاه تنعته بنعت، أصبح من بعد في الدوائر الإسلامية عليه علماً، وهي تردُّ عليه بكَلِم كوّن سورة كاملة من القرآن تقول:

﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمّالة الحطب، في جيدها حبل من مسد﴾!

«سورة المسد»

أجل.. إن أبا الحكم، هذا الذي ينعته محمد بأبي لهب، إنما هو عم محمد فهو عبد العزى بن عبد المطلب، ثم هو، نفسه، من تذكره كتب التاريخ العربي بأنه كان ذا عِزة يعززها ما كان لديه من مال وذا أنفة وحمية وإباء، ومن ثم ليس إلاّ بدافع من هذه الحمية كان قد استنكر لمحمد نداء كالنداء لما يحمله من خطورة إليها قد تنبّه أبو الحكم وإلى نتائجها الحتمية كان قد حمله، حتماً، التفكير فإن دعوة كالدعوة حتماً ستجر وراءها عداوة الباقي من فروع قريش وبيوتها وحتماً ستفرق شملهم وحتماً ستُدلع اللّظى الثاوي تحت رماد الأيام وتُرسل منه الشرر سعيراً لافحاً.. ثم هو، هو ولئن كان من بيت هاشم فإنما جد حريص على مسألة بيت عبد شمس الذي تربطه به، زيادة على رابطة الدم، رابطة النسب والمصاهرة فامرأته هذه التي نُعتت بحمّالة الحطب إنما هي في الصدارة من شريفات بيت عبد شمس فهي أخت أبي سفيان وهذا إنما يقف رأساً لبيت عبد شمس ويتقاسم سيادة مكة والعباس بن عبد المطلب رأس بيت هاشم وعلى الانفراد بسيادة مكة، لبيته، كل منهما يتوثّب!

وهكذا، في غير صفو وفي غير صفاء انفضّ اجتماع «الصفا»!.

ولكن!.. هنا تبدأ مرحلة جديدة في تكوين الإسلام كدين فإن محمداً قد راح مسترسلاً يُرسل الكَلِم وحياً منزلاً ويقصر الجُمل وكثرة الفواصل ما زال أيضاً يمتاز امتيازه بقلة الولوع في صوغ الأسلوب والعبارة ويستهلّه بالقسم الذي كان حتماً أن تصغي إليه جوانب من هذه الأرجاء كانت ما زالت بهذه الكواكب الخمسة إلى اللّه تتشفّع:

﴿فلا أُقسم بالخنّس، الجوار الكنّس[1]، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مُطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون﴾.

من «سورة التكوير»

ومن جديد، كان حتماً أمام استرسال محمد بهذا الكَلِم الذي يقول عنه إنه وحي من الملأ الأعلى عليه يتنزّل، أن يدلف إليه أهل البلاغة والحجة من قومه وأن يستديروا من حوله حلقاتٍ وإليه يصغون وهو مسترسلاً يقول إن ما يأتي به ليس:

﴿... إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم﴾.

من «سورة التكوير»

---

(١) الأجرام السماوية الخمسة، تفسير النسفي.

وإلى هذا الكلم، المُكوّن لجملة طابعها محض اختياري، أرهفت من الرؤوس القريشية المسامع بل اشتدت على إرهافٍ إرهافاً وهي إليه ما زالت تصغي وهو لها مسترسلاً يقول:

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء اللّه﴾!.

من «سورة التكوير»

وإلى هذا الكَلِم، المُكوّن لجملة طابعها محض جبري، استمعت الرؤوس القريشية من أهل البلاغة والحجة وفي إنصاتٍ بالغ أصغت، ولكن!.. لتنصرف بعد ذلك عن محمد ومُنصرفة عنه تنصرف إلى نفسها تطرق وتفكر لتهب من جديد :إلى الحكَم، الملقب «بالوحيد» راحت من جديد في أمر هذا «الكَلِم» تحتكم فكان حكمه القاطع:

«إنه كلام بشر!.».

الوليد بن المغيرة

ومؤيِّداً لحكم «الوحيد» علا لقريش منطق بلسان من كان في الأحكام لهم مرجعاً وراح يؤكد:

«افتراه على اللّه!.».

عتبة بن ربيعة

وأمام حكم «الحكم» ومنطق «المرجع» ارتفعت من الجانب القريشي موجة استنكارية اصطفقت هادرة باستنكار أمر محمد وراحت تُكذبه في دعوته وتنعتها ادعاء. وتصفه بالافتراء على اللّه، بل علت هذه الموجة العارمة وتدافعت حتى المدى الذي لم يستطع محمد لها صداً في هذه الفترة من حياته في مكة.. ففي هذه الفترة كانت حياة محمد تتسم بالصبر وإرجاء العقاب إلى «فيما بعد».. ومن ثم اكتفى بالاتجاه ناحية هذا الذي كذّبه وعنه تولّى ينعته «بالأشقى» يتوعده ومن معه بما يخشونه في «فيما بعد» من عذاب النار:

﴿فأنذرتكم ناراً تلظى، لا يصلاها إلاّ الأشقى، الذي كذّب وتولّى﴾!.

من «سورة الليل»

ومتوعداً استرسل «الكَلِم» من شفتي محمد ضارباً الأمثلة مقسماً بليالٍ عشر، حائرة هي بين ذي الحجة والمحرم والآخر[1] من رمضان، يقول:

﴿والفجر وليالٍ عشر.. ألم تر كيف فعل ربك بعاد، أرم ذات العماد التي لم يخلق

(١) تفسير النسفي، جـ٤.

مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾!.

من «سورة الفجر»

ولكن!... أمام قصص عاد وثمود وفرعون صاحب موسى وهارون، وهي قصص على المسمع العربي عامة والقريشي خاصة غير جديدة، ازداد إمعان الرؤوس القريشية في تفكيرها إمعاناً ارتفع على أثره الصوت منها جهيراً يقول:

«إنها أساطير الأولين!».

أبي بن خلف

يقيناً: «إن هذا إفك افتراه وأعانه عليه عداس ويسار وأبو فكيهة الرومي، فإن هي إلاّ أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً..!»

النضر بن الحرث

وهكذا أحدث الشك القريشي بمحمد من كل جانب مؤمناً بأن ما يلقيه من كَلِم ليس إلاّ كلام بشر وأنه افتراه على اللّه وأنه ليس إلاّ لأغراضه السياسية يتخذ الدين الحنيفي إلى السيادة وسيلة بل ليزيد قريشاً بشكها إيماناً صوت لرأس الحنيفية ارتفع، أيضاً، جهيراً يقول:

«أنا أعلم أن الحنيفية صدق ولكن!. الشك يداخلني في محمد!..».

أمية بن عبد اللّه

وعلى دعائم صاغتها من منطقها قامت قريش تتساءل:

حقاً أي شيء به قد أتى محمد، هو لما إليه يدعو مؤيد ومعضِّد؟

ومن مادة هذا المنطق جاءت قريش إلى نفسها بالجواب بأن لا مؤيد لمحمد أو معضد إلاّ هذا الكلم الذي ينطلق من شفتيه وأكثره ردود وأجوبة في مسائل عارضة وكلما عرضت مناسبة أو جاء لهم قول على صحة دعوته يعترض وأحدث مَثَل على ذلك هو تحول وجهه ناحية أبي بن خلف يتوعده قائلاً:

﴿إذا دكّت الأرض دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفا، وجيء يومئذٍ بجهنم، يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى، يقول يا ليتني قدمت لحياتي، فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد﴾!..

من «سورة الفجر»

من مساند منطقه اتخذ الرأي القريشي حجته بأن الكَلِم المنطلق من شفتي محمد إنما

ردود وأجوبة ومن ثم فهو كلام بشر، وعلى رأيها هذا تتخذ قريش برهاناً الكَلِم الذي تحدّر حتى هذه المرحلة الزمنية من حياة محمد مكوناً من السُوَر:

العلق، فالقلم، فالمزمل، فالمدثر، فالفاتحة، فالمسد، فالتكوير، فالأعلى، فالليل، فالفجر..

عشر سور، مزيج فيها الوعد بالوعيد، توالت في غضون العام الستمائة والعاشر الميلادي وبمحمد قد اجتازت الحياة من العمر أربع حلقات ـ وحلقات أربع من العمر ليست بالقدر البسيط في حياة الإنسان ـ!. ففي الأربعين يتفتح الذهن تفتحاً لم يتفتحه قط من قبل وفي الأربعين ينضج الفكر نضوجاً لم ينضجه قط من قبل، فالأربعون إنما سن ينضج الذهن فيها ما قد مرّ من التجارب ويصقل الفكر فيها ما قد مرّ من الشدائد والأحداث فيتزن التفكير وباتزانه توزن الأمور وترسم الطرق وتحدد الأهداف وإلى الغاية يعبد الطريق جديُّ العمل وإلى الغاية تتخذ من الوسائل الوسيلة الأجدى. فليس إلاّ في الأربعين كان محمد قد ترك مكة في شهر رمضان، كما يتركها في شهر رمضان الأحناف من قومه. واتجاههم إلى حراء اتجه، ودلفهم من حراء، بعد انحسار الشهر، دلف ولكن ليطلع على قومه بما به لم يطلع منهم أحد، فهو قد ناداهم بأنه هو «النبي المنتظر» وأنه لا يأتيهم بدين جديد وإنما هو الرسول للدين الحنيف وأن على صدق ما يقول إنما برهان ودليل هذا الكلم الذي من شفتيه لا ينساب إلاّ كرجع الصدى لكَلِم إلهي كما يأتيه سجعاً وهو هذا الذي قد تدفق حتى كوّن هذه السور العشر التي لا تستعرض قريش ما تشتمل عليه من آي إلاّ لترى أن في جلاء تام قد انحسرت من هذه الدعوة الأهداف التي لا ترتسم منها الخطوط في الأفق المكي وإليها الوعي العربي يرهف في التنبه إلاّ ويصمت بعدها «الوحي».

أجل.. صمت «الوحي» وفتر..

ولكن... لفترة!... لفترة استغرقت زهاء ثلاث سنوات.. سنوات ثلاث في غضونها يطالعنا:

تحديد الهدف «في فترة الفتور»

في هذه الفترة من «فترة الفتور» (٦١٠ ـ ٦١٣م)، التي كانت خلالها خديجة لمحمد مرجعاً ولخديجة ومحمد معاً كان ورقة بن نوفل مرجعاً، كان محمد قد أوثق عرى الصداقة العتيقة بـ «عتيق» بن أبي قحافة، أبو بكر، ومكن لها أواصر بزيد بن حارثة فلم تتمكن لمحمد بأبي بكر ويزيد رابطة الصداقة إلاّ خلال هذه الفترة التي كانت بمثابة التريث والتوثب والاستعداد، فهي فترة قد عمل محمد فيها جاداً في تعبيد الطريق نحو الهدف عن طريق مفاوضة كل من توخى فيه لدعوته مؤازرة وفي المقدمة كان أبو بكر وزيد، لا فحسب لثقته

البالغة في صداقتهما وإنما لأن كلاهما مرتع خصيب للدعوة وهذا إنما اختيار يلتمع من ثناياه مدى قدرة النظر المحمدي في اجتلاء الهدف فإن زيداً، ولزيد كان محمد اتباعاً للتقليد القريشي في تبني الموالي قد تبنّى حتى أمسى زيد يعرف بابن محمد، إنما مولى وإلى كلمة المولى كان حتماً أن تصغي الموالي وما دون طبقة الموالي من طبقة الإماء والعبيد. وبكلا الطبقتين إنما تعجّ مكة!.. وأما أبو بكر فقد كان، كما تذكره كتب السيرة، تاجراً لين العريكة سهلاً محبباً وإلى كلمة رجل التجارة والمال كان حتماً أن تصغي مسامع رجال شغلتهم التجارة وشاغلهم زينة الحياة الدنيا من جاهٍ وسؤدد ومال..

وبالدعوة إلى «الدعوة» اضطلع أبو بكر فأخذ يدعو، سراً، لا فحسب كل من أنس منه وتنسّم فيه لها تعضيداً وإنما كل من توسّم فيه قدرة ذهنية تساعده على إدراك الهدف من الدعوة... وفي اقتفاء لأبي بكر تتابعت من الطبقة العليا من أهل مكة أسماء: عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد اللّه وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وأبي عبيدة بن الجراح..

وبالدعوة إلى «الدعوة» اضطلع بدوره زيد وأخذ يدعو من كان به قد وثق وكان لنداء زيد، في هذه الفترة والعهد عهد كانت فيه الفوارق الاجتماعية تُفرّق بين السادة وبين الموالي والعبيد تفريقاً سافراً فتفرّق بذلك تفريقاً كلياً بين ذوي النسب ومن لا نسب له، أثره الإيجابي في هذه الطبقة التي تدافعت نحو زيد تدافعاً وفي مقدمتها سلمان الفارسي. ففي هذه النفوس، التي انعقدت في طواياها عقدة النسب، كان قد عمل لزيد نداء راح يثلج منها الصدر ويؤجج فيه لوعة التحرّق إلى النسب ما دام اتباعها محمداً سيكفل لها في الغد نسباً! فإنما بلسم للجراح راح الصوت من زيد بهذا النداء الذي لم يكن إلاّ عن محمد ترديداً يقول:

«اتبعوني أجعلكم أنساباً!.. والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر!».

وهكذا تبدأ في الانحسار فترة مهمة أخرى من تاريخ تكوُّن الدين الإسلامي بمن كان قد تبع محمداً من أفراد هاتين الطبقتين:

طبقة السادة وطبقة الموالي والإماء والعبيد

لا ثمة شك في أن لمحمد قد اتبع من هاتين الطبقتين من قد فهم المعنى من أمر الدعوة ووافق على الهدف من ورائها وأرهف من الوعي إلى كلام ألقته شفتا محمد قط لم يلق جزافاً!.. فالعينان من محمد ترقبان الأحداث السياسية في الداخل وفي الخارج، فهما بينما تنحصر أهدافهما في الداخل في إقامة وحدة سياسية كان لوسط محمد تأثير كبير في

ظهورها، وفي إقامة نظام اجتماعي كان لنشأة محمد تأثير كبير أيضاً في ظهوره، امتدت أهدافهما إلى الخارج. ففي الخارج كانت قد ظهرت بوضوح إمارات الانحلال السياسي على دولة الفرس، وفي الخارج كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تسير أحوالها من سيىء إلى أسوأ، فالعهد إنما عهد هرقل قيصرا (٦١٠ ـ ٦٤٠) ونفسه إنما العهد الذي كان قد ظهرت فيه أيضاً وفي تصارعِ تشعبت المذاهب المسيحية.

ولكن!. إذا كان لمحمد قد اتبع من هاتين الطبقتين من قد فهم المعنى من أمر «الدعوة» فليس إلاّ لتشدّ إلى محمد منهما الوثاق شخصية لمحمد تجلّت في غضون هذه الفترة الزمنية من «فترة الفتور» مثلاً للبر والرحمة والصبر والتسامح والصفح والسلام مما جعلهما يريانها أو بالأحرى يريانه المثل الصحيح لما يجب أن يكون عليه النبي والرسول، فهو في خلال هذه الفترة قد تجلّت فيه على أشدها المثالي من الخلال. فهو الزاهد المتجرّد المتبتل المنادي بالهجر الجميل وبالصفح الجميل وبالسلام.

يقيناً لقد وقف محمد في هذه الفترة الزمنية من فترة الفتور مثلاً رائعاً للطهر ونموذجاً باهراً للرحمة في المعاملة مما جعل أفئدة البعض من أشراف مكة تهوي إليه وله ترقّ ويجتذبها إليه ما في طباعه من رقة بادية فتقلع عن سابق مجافاتها له وبه، كنبي وكرسول، تؤمن لتتكوّن، بالانضمام إلى من كان من سادة مكة قد تبع محمداً والجانب الآخر من العبيد والموالي، جبهة هي ولئن تراوح إيمانها بمحمدٍ تراوح أصحابها في الدرجة الفكرية فإنه إنما إيمان قد التقى عند نقطةٍ واحدة وهي الاتفاق بأن محمداً حقاً «رسول اللّه»!.

وهكذا.. بهذه الرقة البالغة وبسياسة الصفح والسلام انتشر، في غضون هذه الفترة من «فترة الفتور» أمر محمد بمكة ودخل الناس في ظل محمد أرسالاً ليشتد بهذه السواعد ساعد محمد وليشتد بهذا التعضيد عضد محمد لتلتمع أمام المخيلة المحمدية بوارق الانتصار التي ما توهّج في الأفق المحمدي لها التماع إلاّ وانتهت للوحي «فترة الفتور»!

وهنا.. هنا نلج إلى فترة دقيقة ومرحلة خطيرة من تاريخ تكوُّن الدين الإسلامي يستهلها محمد معلناً انتهاء فترة الفتور بكلمٍ راح مقسماً بأن ربه له لم يَقْلِ وأنه له يقول:

﴿والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدّث﴾!

«سورة الضحى»

يقيناً إن محمداً قد هبّ يحدث! فإن هذا «الكَلِم» المستفيض حناناً والفيّاض بالحنين إنما يُعبِّد الطريق العملي ويعلن الاتجاه الجدي صوب الهدف!.. فنحن إذ نستوعب المعنى من هذا «الكَلِم» فليس إلاّ لندرك أن محمداً، بعد أن طوف فيه بذكر طفولته التي اصطبغت بألوان الفقر واليتم والحرمان حتى أغناه اللّه بمال خديجة إنما يعلن جهارة أنه بنعمة ربه، أو هذه الدعوة سيحدث، وهذا ما قد حدث بالفعل فما انطلق هذا «الكلم» إلاّ وتبعته دعوته عشيرته من أشراف قريش إلى طعامٍ في بيته حيث وقف فيهم معلناً بدئه العمل الإيجابي في سبيل تحقيق دعوته يقول:

«قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة.. فأيكم يُؤازرني في هذا الأمر؟..».

ولكن! كيوم «الصفا» كان هذا اليوم فقد انفض الجمع القريشي مُعلناً رفض هذه «الدعوة» التي لم تلق في هذا اليوم مُؤازراً إلاّ صبياً دون العاشرة يحمل اسم: علي بن أبي طالب..

وكَبُرْكانٍ هبّ بعد هجوع يقذف الحمم وينثرها في كل مُتجه هبّت قريش بما تضم من فروع وبيوت تحيط بهذا الفرع من عبد مناف وبهذا البيت من هاشم تستطلعهما الأمر وتلقي إليهما بسؤال راحت من ورائها تردده القبائل المحالفة لعبد الدار وتلك المؤازرة بيت عبد شمس:

أي المبتغى محمد يبتغي؟!..

إن محمداً إنما من هاشم، هذا البيت من فرع عبد مناف، وهذا إنما بيت من فرعٍ هو منذ قُصيّ ومُلك مكة له هدف.. من ثم أو تكون غاية محمد، عن طريق هذا النداء، اتخاذ «الرسالة» وسيلة لبلوغ الهدف بُملك له تدين الصحراء ويمتد فيطوي الروم والعجم؟!

وفي تلاقٍ استدارت لقريش حلقات تواصلت بهذا التساؤل وترابطت بمنطق لها راح يجيب:

وهل من شك؟!

ولكن!.. مكة إنما لقاح!. مكة لا تقبل أن يقوم عليها ملك، وحدث ابن الحويرث إنما حدث ليس على الأذهان ببعيد، ومن ثم فإن محمداً، وإن كان يبتغي ملكاً إليه منذ عهد قصيّ قد هدف بيت هاشم، فإنما هو يتخذ «الرسالة» تعبيراً عن هذا الملك، إذ أن في الاعتراف له «بالرسالة» ستمتلك يده من أمر العرب الزمام وأي زمام للرسول الإلهي لن يلين وعلى المعترف «بالرسالة» إنما واجبه طاعة الرسول؟!

وبمنطقها أيقنت قريش ليزيدها بهذا المنطق تشبثاً اقتناع مفكريها به، فهي لا تسمع

الأخنس بن شريق يسأل أبا الحكم: «ما رأيك فيما سمعنا من محمد؟» إلاّ وتطرق إطراقة الأخنس وهو إليه يأتي من أبي الحكم الجواب:

«ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبني عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكُنّا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء؟! واللّه لا نؤمن به ولا نصدقه!.».

وهكذا راح المنطق القريشي يؤكد لقريش تفكيراً بأن هذا الفرد من فرع عبد مناف إنما يحاول التغلّب على كلمتها بكلمة «الوحي»!.

وبمنطقها آمنت قريش هذا الإيمان فآمنت أن هذا الفرد من بيت هاشم والذي احترف التجارة احترافها وفي قوافلها التجارية سار إنما يريد سيادة على العرب وللعرب امتلاكاً بملك لا تحده حدود الحيرة وغسّان بل إلى ما وراءهما سيمتد فيطوي الروم والعجم، فإنما العين من محمد تمتد إلى خارج أرضها وعلى ذلك يأتي اللسان منه دليل وهو ينطلق في ترديد منادياً:

«اتبعوني! والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر!.»

ومن ثم، وعند هذا الإيمان بمنطقها استقرّت قريش، راحت متضافرة تُعلي الصوت منها باليقين بأن «الكَلِم» الذي يلقيه محمد ليس إلاّ كلام بشر وإن نسبته إلى اللّه افتراء وإن محمداً إلى الحكم إنما يسعى متخذاً إلى غرضه السياسي وسيلة هذا الدين الذي يدين به الكثير من العرب والذي عن الأحناف له محمد كان قد اعتنق منادياً، كما سجلت ذلك النصوص من بعد، بأنه لهذا الدين الفطري قد أُرسل رسولاً وأنه له قد قيل:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة اللّه التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق اللّه، ذلك الدين القيم﴾

الآية ٣٠ من «سورة الروم»

أجل.. لا ثمة شك في أن محمداً إنما للدين الحنيف كان قد اعتنق ولصحة هذا الدين الحنيف الذي يدين به الكثيرون من العرب جاء يؤكد وبمُستحدث جديد محمد لم يأت إلاّ بقوله بأنه هو رسول هذا الدين الفطري، وهذا إنما قول لم يعترض عليه من فروع قريش وبيوتها أكثر مما عليه اعترض فرع عبد الدار وخاصة بيت عبد شمس، فإن على رأس هذا البيت يقف أبو سفيان بن حرب، وهذا لم يدفعه إلى الاعتراض إلاّ ما لمحه من وراء هذه الدعوة من الخطر، لا فحسب على مكانته السياسية وإنما على مكانة قريش السياسية والاجتماعية ومن ثم فانطلاق قريش بلسان شعرائها وعلى رأسهم عبد اللّه بن الزبعرى تهجو محمداً وتقارعه. ومن ثم انطلاق اللسان المحمدي بما كوّن جزءاً كبيراً من السور المكية

الأولى ردوداً هي ولئن كان الوعد فيها بالوعيد مزيجاً فإن النغمة الواضحة إنما الإخلاد إلى الصبر والهجر الجميل والإيقان ببلوغ الغاية.. فيقيناً:

﴿إن مع العسر يسراً﴾

من «سورة الشرح»

من ثم: **﴿تواصوا بالصبر﴾**!

من «سورة العصر»

ولكن! من نفس هذا «الكلم» الذي انطلق ينفث في الأتباع روح الصبر تأتينا، في هذه الفترة الزمنية، صورة خاطفة للغزو وخيل الغزاة ونار الحباحب التي تنقدح من حوافرها[1] والإغارة على العدو صبحاً، ففي هذه الفترة جاء هذا النغم الحار الملتهب يقسم قائلاً:

﴿والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحاً، فالمغيرات صبحاً﴾!

من «سورة العاديات»

من ثم كان حتماً أن تبدأ يد الزمن تحريك الجمر الثاوي تحت رماد الأيام بين فرعي عبد الدار وعبد مناف من جهة وبيتي هاشم وعبد شمس من جهة أخرى وأن يبدأ اللّهب من هذا الجمر في الاندلاع فيرتفع اللسان القريشي يرمي هذه الدعوة بأنها قد فرّقت القوم فِرقاً كما كان حتماً أن يلتمع في أفق المخيلة القريشية أمل حاكته شفتا العاص بن وائل، سيد بني سهم، وتسجله تلك اللحظة التي تحول فيها إلى قريش لها مهدئاً يقول: «دعوه! إنما محمد رجل أبتر. لو قد مات لقد انقطع ذكره واسترحتم منه».

وإلى هذا الذي وصف محمداً بأنه رجل أبتر، والأبتر هو من لا ولد له، تحوّل الوجه من محمد يقول إن الله له يقول:

﴿إنا أعطيناك الكوثر، فصلِ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر﴾!

«سورة الكوثر»

أمّا ما الكوثر؟.. فسؤال يأتينا عنه الجواب بأنه:

«نهر كما بين صنعاء إلى آيلة، آنيته كعدد نجوم السماء، ترده طير لها أعناق كأعناق الإبل، من شرب منه لا يظمأ أبداً!».

محمد

---

(١) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي.

من ثم يا أيتها الكثرة من أعزة مكة وأشرافها ـ يقيناً ـ لقد:

﴿ألهاكم التكاثر... كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، لترونّ الجحيم، ثم لترونّها عين اليقين، ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾.

«سورة التكاثر»

بهذه النغمة توالى من شفاه محمد الكَلِم في غضون هذه الفترة من فترةٍ بدأت تسفر بالسخط على قريش التي ما لبث أن اتجه إليها محمد ينادي طوائفها: **﴿يا أيها الكافرون﴾**!.

الآية الأولى من «سورة الكافرون»

لا ثمة شك في أن بهذه النغمة قد ارتجت أرجاء مكة وتردّد في آفاقها رجْع الصدى يُدوي بالتساؤل وهي إلى محمد، مسترسلاً، تسترسل في إصغائها وتسمعه يقول:

﴿يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون.. لكم دينكم ولي دين﴾!.

الآي (١ ـ ٢ ـ ٦) من «سورة الكافرون»

إزاء هذا القول كان حتماً أن تتحول قريش إلى نفسها، بما تضم من طوائف هم «حماة بيت اللّه» و«أهل اللّه»، تتحسّس من صدرها مدى الإيمان بالمحور الذي تلتف من حوله في عباداتها، لتجد نفسها أنها تعود مقتنعة بأن الإيمان بألوهية اللّه كواحد. يملأ منها الوجدان ويُترع منها الصدر!. فهي بوحدانية اللّه كإله واحد تعترف وهي له في صلاتها وحجها وتشفعها بشفعائها إنما عابدة إليه تتجه. بل على ذلك يأتي برهان «كلم» من شفتي محمد تحدر يذكر إعراضها عن تصديقه بأنه رسول اللّه رغم إيمانها باللّه عندما متعجباً من أمرها انطلق هذا «الكلم» يتساءل:

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون للّه قل أفلا تتقون﴾؟!

الآي ٨٦ و٨٧ من «سورة المؤمنون»

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه.. سيقولون، للّه قل فأنّى تسحرون﴾؟!..

الآي ٨٨ و٨٩ من «سورة المؤمنون»

بل إنك:

﴿لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾!.

الآية ٩ من «سورة الزخرف»

وإنك:

﴿لئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللّه﴾!

الآية ٨٧ من «سورة الزخرف»

وإنك:

﴿لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن اللّه فأنّى تؤفكون﴾؟!

الآية ٦١ من «سورة العنكبوت»

لذلك كان حتماً أن تتلفت قريش إلى نفسها تتحسس من صدرها مدى الإيمان لتعود وبإيمانها تهدأ غير متنبّهة إلى أن الإيمان قد غدا صفة لا تنطبق على من آمن باللّه وإنما صفة مقصورة على من أضاف إلى الإيمان باللّه بمحمد كرسول اللّه، ولكن! هذا إيمان لا فحسب عليه تعترض قريش وإنما تأبى إلاّ عنه الإعراض! فهي تأبى الإيمان بأن محمداً قد جاءها من اللّه، الذي له تعبد، رسولاً!

بل ومصرّة هي ما زالت على أن هذا «الكلم» الذي يتحدر من شفتي محمد ليس إلاّ وسيلة لهدف سياسي أمسى في أمسياتها مجال حديثها وغدا في غدوها ورواحها مجال تفكيرها بل من حوله تروح في مجالسها حلقات تتواصل وتؤكد أن كلامه كلام بشر وأن قصصه أساطير الأولين وأن دعوته إنما افتراء على اللّه!

وهكذا راحت الأيام تنفرط وقريش عن عقيدة لها لا تتخلى ففي المخيلة منها قد رسخت عن محمد هذه الفكرة ليزيدها بمنطقها إيماناً استشعارها من أنفاس السور الأولى المكية النغمة الاجتماعية التي رأت أن فيها يكمن الخطر من أمر هذه «الدعوة» التي راحت لها تؤيد طوائف ممن وعدوا بامتلاك كنوز كسرى وقيصر وبأن يكون لهم نسباً وهؤلاء إنما هم من تنعتهم قريش «بالسفهاء»! فإنه إلى جانب تلك الطبقة من السادة الذين إلى المرامي السياسية من هذه الدعوة كان قد هفا منهم الفكر كانت تقوم هذه الطبقة المؤلفة من الموالي والعبيد ممن إلى المرامي الاجتماعية من أمر هذه الدعوة كانت قد استجابت منهم الأفئدة وبهذا الاتّباع الذي تجلّى بالاتباع من كلا الطبقتين بدأت الدعوة المحمدية تتخذ مظهرها العملي، فإن محمداً قد بدأ، وهو الذي كان قد اعتنق الدين الحنيف، يُبادئهم بذكر شفعائهم وكان من قبل لا يذكرها ويعيبها وكان من قبل لا يعيبها وهنا عظم الأمر على قريش وبدأ بهم جدي التفكير في أمر محمد، لقد كان من قبل لا يهممهم حين قال إنه نبي بقدر ما يهممهم الآن، ومن ثم فلم يبق الأمر موضع سخرية واستخفاف وإنما موضع تفكير واهتمام، فالأمر

إنما منذر بثورة سياسية قد تهب بهؤلاء السادة وثورة اجتماعية قد يندلع لظاها بهؤلاء الموالي والعبيد وهذا إنما أمر لشدّ ما منه تفزع قريش ولشدّ ما منه تجزع!

هذا الفزع هو الذي حمل قريشاً إلى أن تفزع إلى أبي طالب وإليه تسير، وفي مقدمتها أبو سفيان بن حرب، به من محمد تستنجد، ولكن! أي شيء يستطيع أبو طالب أن يفعل، وهو نفسه إنما رأس من بيت هاشم وفرع بني عبد مناف، إلاّ أن يردها رداً جميلاً؟... ومن ثم مضى محمد على إثر ذلك في دعوته حتى ازداد لها أعواناً بهم تحقق لقريش الخطر المقبل الذي دفعها إلى أن تمشي إلى أبي طالب مرة أخرى ولكن هذه المرة مشت لا مستنجدة وإنما مُنذرة بأن يكف محمداً عن أفرادها أو ينازلوه حتى يهلك أحد الفريقين!

وهنا تتحدث كتب التاريخ الإسلامي بأن الأمر قد عظم على أبي طالب!. عظم عليه فراق قومه وتفرقهم فبعث إلى محمد حتى إذا ما أتاه وقصّ عليه رسالة قريش استنجده قائلاً:

«فابق عليّ وعلى نفسك ولا تُحمّلني من الأمر ما لا أطيق!.».

ولكن.. كيف؟! «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته!».

محمد

كلا!. لن يمكن أن يترك محمد هذا الأمر الذي أفضى به إلى أبي طالب وهو به تلك الآونة قد خلا والذي ما أدركه الإدراك من أبي طالب جلياً إلاّ وأطرق إطراقة عملت فيها إلى جانب اللوالب الفكرية انفعالات الوجدان التي استدرت في قلبه عاطفة الحنان الأبوي، ومحمد إنما في كنفه قد عاش صبياً، فتمتمت شفتاه بما قد راح في المسمع القريشي دوياً:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم — حتى أوسد في التراب دفينا

وقدح عمل الوجدان شرر الذاكرة فعملت من أبي طالب المخيلة وراحت تستعرض الماضي والحاضر وفي امتداد راحت تطوي الحاضر وترتاد آفاق المستقبل الذي قد التمعت منه البوارق خلال تلك الخلوة التي خلا فيها إلى محمد وأصغى إلى حديث أدرك من ورائه أن التاريخ السياسي للعرب يتجه اتجاهاً لا فحسب جديداً بل مغايراً وأن أمره إنما أمر هو في بيت هاشم وبيت عبد المطلب محصوراً!... ومن ثم هبّ أبو طالب يجمع بيت هاشم وبني المطلب ويفضي إليهم بأمر ابن أخيه وابن أخيهم طالباً إليهم، وهم فرع عبد مناف، أن يمنعوا محمداً من فرع عبد الدار ـ ثم، وهم بيت هاشم، أن يمنعوه من بيت عبد شمس ـ فاستجابوا له جميعاً باستثناء عبد العزى بن عبد المطلب استجابة هم فيها ولا ريب كانوا

متأثرين بالعصبية القومية وبالخصومة القديمة بين فرعي عبد الدار وعبد مناف وبالمنافسة الجديدة بين بيت هاشم وبيت عبد شمس مما جعلهم يرون حقاً لابن أخيهم أن يعلن الناس برأيه. وهكذا اعتصم محمد ببيته من هاشم وبعمومته من أبناء عبد المطلب، لا فحسب من فرع عبد الدار وبيت عبد شمس وإنما من سائر قريش!

ولكن! كانت هذه «المنعة» الهاشمية لمحمد إلهاباً لجذوة الخصوبة بين بني العمومة فمن حول نفسها أخذت سائر الفروع والبيوت القريشية تستدير حلقات لينعقد منها الرأي عند القول بأن في انتصار هذا الفرد من عبد مناف انتصاراً لفرع عبد مناف على عبد الدار وبالتالي انتصاراً لبيت هاشم على بيت عبد شمس وفي هذا ما فيه من الخطورة على ما لهذه الفروع والبيوت من قريش من مكانة اجتماعية وسياسية، ومن ثم بدأت للقضاء على ما في هذه الدعوة من المبادىء السياسية والاجتماعية، ألوان من الاضطهاد تنزلها قريش بمن لديها من الإماء والعبيد ممن كلفوا بالوعد المحمدي كلفاً أخرجهم من طاعة قريش إلى طاعة محمد..

وازداد بنو هاشم والمطلب، وإن كانوا لمحمد في دعوته الدينية لا يؤازرون، منعاً لمحمد وللأذى عن الموالي والعبيد من أتباعه دفعاً دفع حمزة بن عبد المطلب إلى أن يعلن اتّباعه محمداً ومعاهدته على نصرته والتضحية في سبيل أمره..

وازداد الموالي والعبيد للعذاب استعذاباً حتى ضاقت قريش بمحمد وأصحابه ذرعاً إذ رأتهم يزدادون كل يوم عدداً وقوة ثم لا يثنيهم التعذيب ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم به والجهر بأنهم له قد تبعوا!

أي شيء يمكن أن تفعله قريش إزاء هذه الظاهرة إلاّ أن تجد نفسها تُطرق إطراقة تحاول خلالها أن تجد لهذه المشكلة حلاً سليماً، فإن قريشاً إنما بطبيعتها، كما تذكر سجلات التاريخ الإسلامي[1]، محبة للسلام لا تبدأ بالعدوان أحداً، ومن ثم ليس إلاّ بدافع من هذه الطبيعة راحت تفكر في إيجاد طريقة لمهادنة هذه الدعوة لتهديها مطارق التفكير إلى فكرةٍ ما تحددت في جبينها بوضوحٍ منها المعالم إلاّ وهبت تتساءل: ماذا لو هادنت محمداً وحاولت له استرضاء ومنحته ما إليه يتوثب من وراء هذه الدعوة فتكف بذلك هذه العداوات المتأججة في الصدور، وهو بعد إنما منها وله في النسب ما لها من المكانة؟!

فكرة، ما التمعت في أُفق التفكير القريشي وما اجتمعت في توافق عليها منها الرؤوس إلاّ لتُحمِّلها رسالة إلى محمد يحملها عتبة بن ربيعة من وفد على محمد يقول:

---

(١) **الطبقات الكبرى**، لابن سعد، و**تاريخ الرسل والملوك**، للطبري، والواقدي.

«يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا **الأمر** مالاً جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ».

وبديهياً كان أن يشيح الوجه من محمد عن هذه العروض فما يريد محمد مالاً وهو الذي قد جعله الزواج بخديجة في مرتبة الأثرياء من قومه!.. كلا ولا هو يريد تشريفاً، فما كان لحفيد عبد المطلب أن يطلب شرفاً وهو في القمة من الشرف!.. ثم.. ثم لماذا تعرّض عليه مكة ملكاً ومكة إنما لقاح لا تقبل أن يقوم عليها ملك وتأبى أن ينفرد بالحكم فيها فرد مُتوّج؟!

تُرى؟ ألِى القلب القريشي قد لجّ من محمد وجلّ يدفعها إلى أن تعكس الآية من سياستها وتعرض عليه الملك؟! أم أن قريشاً توقّعت ما ستأتي به هذه الدعوة في الغد من إنشاء دولة حتماً بها ستدول دولتها ومن ثم ارتأت أن تهادنه وأن يكون أمره، وهي التي ستُملّكه، بأمرها رهين وفي هذا إنما البقاء على دولتها؟!

لا ثمة شك في أن اللّوالب العقلية القريشية قد جرت تؤيدها مظاهر الأحداث بأن إلى الملك، كغاية، يتخذ محمد «الرسالة» وسيلة، ولكن!.. أي ملك هذا الذي تعرضه قريش على محمد؟ بل وما الملك بجانب «الرسالة»؟!

إن الأمر الصادر من شفتي ملك قط ليس كالأمر الصادر من شفتي رسول وقط ليس أمر الملك كأمر الإله، فللأمر الصادر من شفتي ملك قد يكون مرد أما الأمر الصادر من شفتي رسول فأمر الإله، وأمر الإله قط ليس له مرد!

بديهياً من ثم كانت الإشاحة من محمد عن هذه العروض وبديهياً كان أن يعود عتبة إلى قريش ولساداتها يقول:

«أطيعوني. وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه **فوالله** ليكونن للذي سمعت منه **نبأ!** فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب **فملكه ملككم!**».

ولكن.. إزاء رفض محمد لعروض قريش وإدراكها أن محمد يأبى مهادنتها عادت تناوىء أتباعه بما كان هو في منجاة منه بمكانته في قومه ومنعته بأبي طالب وبيت هاشم وبني المطلب.. لتسجل هذه الفترة تطوراً جديداً في بناء الدين الإسلامي، فإنما هذه هي الفترة التي تحدّر فيها من شفتي محمد «الكَلِم» الذي كوّن من السور المكية سُوَر: الفيل، فالفلق، فالناس، فالإخلاص

في هذه الفترة من الزمن التي اشتدّ فيها من قريش رمي محمداً بالافتراء على اللّه ومواصلة ألوان الردع بمن لديها من الإماء والعبيد، وأتت هذه السور التي جاء فيها من «الكلم» ما يؤكد كيف ردّ اللّه كيد الكائدين في استعاذة من شر النفاثات في العقد، والنفث في العقد هو «السحر». بدأ محمد خلال هذه الفترة من الزمن في التجلّي على صفحات التاريخ السياسي تجلّياً لم يتجلّه قط من قبل. فقد ارتسمت على هذه الصفحات نظرته البعيدة المرمى، المديدة المدى، العميقة الغور، المحددة الهدف فمحمد يستهل خطوته السياسية على التاريخ بأن يأمر بعض الأتباع بترك مكة إلى بقعة من الأرض أخرى حتى حين، فكانت:

الهجرة إلى الحبشة (٦١٥م)

إلى الحبشة، المسيحية الدين، ذهب بعض الأتباع وعلى رأسهم رقية بنت محمد ولهم قائداً زوجها عثمان بن عفان، هذا الذي جمع من بعد «الكلِم» الذي تحدّر من شفتي محمد في مصحف أُسمي بهذا الاسم العبري «القرآن»، وأما أبرز هؤلاء المرتحلة فإنما جعفر بن أبي طالب، هذا الذي حمّله محمد كلِماً انطلق به إلى مَن يحتضنون عقيدة عليها في حنان تنحني منهم الضلوع، يقول: بأن إلى محمد قد أوحي من السماء هذا القول:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً، قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً، قالت: أنّى يكون لي غلام ولم يمسَسْني بشرٌ ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً، فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً، فجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرءَ سوء وما كانت أمك بغياً، فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا قال إني عبد اللّه آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً، ذلك عيسى ابن مريم﴾!

الآي من ١٦ إلى ٣٤ من «سورة مريم»

إلى هذا الكَلِم المُصوِّر صورة خلابة من صور العاطفة كان حتماً أن ينعطف القلب المسيحي بالعطف على مَن قد ترك الأتباع في مكة من سيدٍ عنه قد انصرمت سنوات خمس منذ بدأ دعوته حتى هذه اللحظة من عمر الزمن.

أجل.. سنوات خمس حتى الآن قد انصرمت منذ قام محمد إلى دعوته ينادي وغضونها به قد اشتدت الشدائد بيد أن ما اشتدت قطّ سنة شدة هذه السنة، فقد أمسى محمد بين أفراد قلائل من الأتباع وحيداً وفي قلّة من تابعيه في مكة بينما الأيام فيها تتلاحق وتكوّن من الزمن شهوراً ثلاثاً مذ ترك بعض الأتباع محمداً إلى الحبشة!..

سنوات خمس حتى الآن قد انصرمت مذ قام محمد إلى دعوته ينادي للمتشفعين بالملائكة وبمُناة واللاّت والعزى إلى اللّه بأن ما يتحدّر من شفتيه ليس إلاّ رجع الصدى من صوت الإله، ولكنها سنوات لم تنصرم إلاّ وأتباع قد هاجروا وقوم يسخرون وبينه وبينهم جفوة لشد ما يتمنى لها محمد استئصالاً فتعود بينه وبينهم سابق مودة ويعود إلى مكة عن مكة المرتحلون!.

التمنّي تمنّي محمد فكان هذا التمنّي سبباً في عودة المرتحلين وفي مهادنة قريش له لبعض الوقت وليكون هذا السبب نفسه سبباً في ورود ذلك الحديث الذي أورده كثيرون من المُفسرين المسلمين وكُتّاب السيرة[١] والذي يطالعنا تحت اسم:

حديث الغرانيق

يتزعم «الواقديُّ» طبقة كتّاب السيرة في هذا الصدد فيذكر أن السبب في عودة المرتحلين ومهادنة قريش محمداً ينطوي في ما قد تلته شفتا محمد في غضون غيبة الأتباع من كلم كوّن «سورة النجم»... فإن محمداً لما رأى تجنُّب قريش إياه وإيذاءهم أصحابه تمنّى فقال:

«ليته لا ينزل عليّ شيء ينفرهم مني!».

وقارب محمد قومه فاقتربوا منه ودنا منهم فدنوا منه حتى كان يوماً جلس فيه في نادٍ من تلك الأندية التي كانت منتشرة حول الكعبة وألقيت منها الشفاه في المسمع القريشي كلماً استهله بالنجم مُقسِماً:

﴿والنجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرّة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذّب الفؤاد ما رأى،

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم حسن.

أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى، أفرأيتم اللاّت والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾؟

وهنا يقال إن محمداً قد استرسل قائلاً:

﴿تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى﴾!.

الآية ٢٢ من «سورة النجم»

عند ذاك أعلنت قريش رضاها عما تلا محمد وقالت:

«بلى، لقد عرفنا أن اللّه يُحيي ويميت ويخلق ويرزق، ولكن هذه تشفع لنا عنده».

ثم إلى محمد التفتت قائلة:

«أما إذا جعلت لها نصيباً **فنحن معك**!..».

وهكذا زال وجه الخلاف بين محمد وقريش وفشا أمر ذلك في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فعاد المرتحلون عن مكة إلى مكة راجعين.. ولكن!... ما شارف المهاجرون مشارف مكة حتى لقوا من كنانة ركباً أخبرهم أن الأمر قد تبدّل!. وللتساؤل الذي كان حتماً أن يجيء جاء الجواب:

ذكر محمد شفعاءهم بخير فتابعه الملأ ثم ارتد عنها فعادوا له بالشر، فإن محمداً بعد أن قال أفرأيتم اللاّت والعزى ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا إن شفاعتهن لترتجى، قد طلع بعد ذلك يقول: إن جبريل جاءه ومعاتباً له قال: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ كلا وإنما:

﴿أفرأيتم اللاّت والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى﴾!.

الآي من ١٩ إلى ٢٢ من «سورة النجم»

هذا هو في سجلّ الدين الإسلامي: «حديث الغرانيق»..

حديث رواه، غير الواقدي، غير واحد من كُتّاب السيرة وإليه غير واحد من المفسرين أشار وإن يك قد نفاه من المسلمين أكثر من واحد على أسس منطق يقول إن هذا الحديث إنما ينقض ما ينبغي أن يكون عليه الرسول من العصمة المفروضة في تبليغ الرسالات الإلهية!

ويقيناً! إن حجة النافين لهذا الحديث إنما حجة دامغة وهذا هو الواقع إذا أُخذ الحديث على ظاهره ولكن!.. فيما قد توالى بعد ذلك من كلم قرآني نرى، وإن يك ليس له بحديث

الغرانيق صلة، ما يبرر موقف محمد في هذا المضمار كل التبرير، فالقول يأتي، من بعد، يذكر:

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾!.

الآي ٧٣ ـ ٧٤ من «سورة الإسراء»

إن الشيطان ليلقي في نفس كل نبي ورسول، إذا تمنّى، كَلِماً يحسبه من اللّه وحياً، فإن:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته﴾!.

الآية ٥٢ من «سورة الحج»

ولكن!. ليس ذلك إلاّ:

﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم﴾!.

الآية ٥٣ من «سورة الحج»

عن يونس، عن الزهريّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، يذكر الليث بن سعد، بأنه لم يحدث إلاّ مرة واحدة حين ألقى الشيطان في أمنية محمد ما قد عاد الوحي ونسخه فابن سعد يحدثنا بأن:

«قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة **﴿والنجم إذا هوى﴾**، فلما بلغ **﴿أفرأيتم اللاّت والعزى﴾** قال **﴿ فإن شفاعتهن لترتجى﴾** فسها فلقيه المشركون والذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا، فقال: إنما ذلك من الشيطان! فأنزل اللّه **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان﴾**!.

ومن هنا نرى أنه ليس إلاّ مرة واحدة قد ألقى الشيطان في أمنية محمد ما قد عاد «الوحي» ونسخه ويؤكد ذلك لنا أننا، ونحن نتابع مجرى الأحداث في حياة محمد، نرى أن عن محمد، بعد هذا الحدث الذي جاء بهذا الحديث، انصرفت قريش انصرافاً تاماً به لم تعد إلى جفوتها القديمة فحسب وإنما دمغت يقينها بالإيمان بأن محمداً إنما يصوغ كَلِماً قط لم يتنزّل وحياً من الإله!.

ولكن!. لتُصرّ قريش على يقينها ما شاء لها الإصرار إصراراً، فإن عمر بن الخطاب، في غضون فترة الهدنة بين محمد وقريش، كان قد أعلن اتباعه محمداً!.

وعُمَر؟. عُمر إذا اتبع محمداً أمسى أمر محمد أمراً منه يُخشى. فإن لعمر، في هذه

الفترة من العصر القريشي، كانت السِفارة.. كانت قريش ترسله سفيراً عنها إذا قامت بين القبائل حرب. فهو رجل قد عرفته مكة قوي الشكيمة شديد البأس حاد الطبع سريع الغضب ـ وهو ـ وإن يك محباً للهو والخمر، فيه إلى جانب ذلك بر بأهله ولهم رقة. وهذا هو الذي دفعه إلى اتباع محمد في هذه الفترة من الهدنة التي وكأنها لم تكن إلاّ لتجتذب عمر في دائرة الجذب المحمدي!. فإن عمر لم يكد يرى قومه قد هاجروا إلى الحبشة حتى استشعر فراقهم وحتى شعر لفراقهم بوحشةٍ وبما لفراق موطنه من ألم فاحزأل منه القلب وحزه الألم وفرى الفراق منه المهْجة فحدثته نفسه بقتل محمد كي تستريح قريش وتعود إلى وحدتها! وهنا يجيء التاريخ الإسلامي فيُحدثنا بأنه كان يوماً علم فيه عمر أن محمداً مجتمع عند أصحابه في بيت عند «الصفا»..

وهنا يستطرد التاريخ الإسلامي فيحدث بأن عمر قصد إليهم يريد قتل محمد فلقيه في الطريق نعيم بن عبد اللّه فقال له: واللّه لقد غشتك نفسك من نفسك يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟!..

وعن قتل محمد تراجع عمر.. ولكنه فكّر في هذه الدعوة تفكيراً عميقاً جاء في غضون هذه الفترة القصيرة من فترة الهدنة التي جاءت بحديث الغرانيق فقاده التفكير إلى محمد يعلن اتباعه دعوته التي ما لبثت، باتباعه لها، أن تحولت من ضعف إلى قوة! فاتباع عمر محمداً قد استتبع من محمد سياسة جديدة أُترعت بالأحداث التي أدّت إلى ظهور محمد السياسي إلى جانب محمد «الرسول» فبإسلام عمر أخذت السياسة المحمدية طريقها إلى الظهور وهذه هي النتيجة الحتمية لانضمام عمر إلى محمد ـ فإن لعمر ساعداً به قد اشتد لمحمد ساعد، ولعمر عضد عضَّد لدعوة محمد عضداً ودلالة على ذلك أن أصبح أكثر «الوحي» ما يرى عمر من رأي وما من سياسة بها على محمد يشير فكثيراً ما كان عمر بالأمر على محمد يشير، فتنفرج شفتا محمد قرآناً يجيء وفقاً لما قد ارتأى عمر ومؤيداً لما به عمر قد أشار[1]!.

وهكذا نرى أن اتباع عمر محمداً كان عنصراً هاماً في بناء صرح الدعوة المحمدية، لا فحسب لأن بإسلام عمر قد اشتد لمحمد ساعد خشيت بطشه بها قريش وإنما لأن بإسلام عمر قد بدأ أمر محمد يشيع في القبائل ويسري في أرجائها همس ما لبث أن تكاثف وراح في آفاقها دوياً بأن الغاية التي بدأ إليها مسعى عبد مناف قد بدأت بمحمد تتحقق!.

للسبب، اجتمعت رؤوس قريش وأجمعت على أن تشنها على عبد مناف حرباً، وأن

---

(١) النسفي، جـ٣.

تهوي بكافة فروعها وبيوتها فتهشم هذا الفرع وتقضي على بيت هاشم. ولكن!. وطبيعتها إنما للسلام محبة اختارت قريش أن تكون هذه الحرب **حرباً سلمية** تنحصر في حصر نشاط عبد مناف في الدائرة الضيقة من الأتباع، فتكف قريش عن الزواج من أبناء هاشم والمطلب وعن التعامل مع هذين البيتين من عبد مناف، ومن ثم امتدت يد قريش فسطرت ما أجمعت عليه من رأي وعلقته على جدار «بيت اللّه» لتروح عبر هذه السطور أنفاس الزمن تسجل:

«صحيفة المقاطعة» (٦١٧ ـ ٦١٩م)

لزمن ظلت «الصحيفة» معلقة ولقرابة ثلاث سنوات متتابعة خلالها لم يستطع محمد وأتباعه غضونها الجَهْر والتحدّث بأمر الدعوة إلاّ في الأشهر الحُرم من كل عام حين كانت تفد فلول العرب إلى مكة حاجين إلى «بيت اللّه».. ففي هذه الأشهر الأربعة حين تضع الخصومات أوزارها فلا اعتداء ولا انتقام، كان محمد يطلع إلى العرب داعياً إلى رسالته يَعدهم جزاء اتباعه والإيمان به ثواباً ونعيماً وينذرهم عاقبة عصيانه عقاباً وعذاباً وسجل هذا الوعد والوعيد ما قد تحدّر من شفتيه خلال هذه الفترة الزمنية من «الكلم» المكوّن السطور التي تُكوِّن القسم المتأخر من القسم المكي:

عبس، فالقدر، فالشمس، فالبروج، فالتين، فقريش، فالقارعة، فالقيامة، فالهمزة، فالمرسلات، فقاف، فالبلد، فالطارق، فالقمر، فصاد، فالأعراف!.

وكلّها؟... كل هذه السطور التي شكّلت كل هذه السُوَر التي كوّنتها المناسبات الشتّى والمسائل العارضة في غضون هذه الفترة الزمنية وصحيفة «المقاطعة» على جدران «بيت اللّه» معلقة إنما سُور هي ولئن امتازت، أيضاً، بقصر الجُمل وكثرة الفواصل والاستهلال بالقسم بالمظاهر الكونية، فإنما هي في نفس الوقت تكوِّن من القرآن الجانب المترع بالوعد والزاخر بالوعيد. وعد يعد المؤمنين «بالرسالة» جزاء مكانه جنة ونعيم، ووعيد يتوعد مُكذبي محمد بعاقبةِ كعاقبة عاد وثمود ونهاية كنهاية قوم نوح وإبراهيم ولوط وفرعون. ومن ثم كان أن تدافعت في هذه الفترات المتقطعة، ناحية محمد من القبائل قلوب..

ولكن!.. بينما بسبب ما قد جاء في هذه السُوَر من وعود كانت قد تدافعت ناحية محمد قلوب، فإنه قط لم يحد من جفوة قريش ما قد جاء في هذه السور من وعيد وكأن لقريش قد انعقد منطق على تكذيب محمد في اتباع لرأي «الوحيد» الذي راح محمد يؤكد نعته بالأشقى ويضرب لقريش مثلاً يقول كأن مثلها مثل عاد وثمود عندما:

﴿كذبت ثمود بطغواها، إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول اللّه، ناقة اللّه وسقياها، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، ولا يخاف عقباها﴾!

الآي من ١١ إلى ١٥ من «سورة الشمس»

ولكن... قريشاً، التي كانت على علم بثمود وبديار ثمود علماً مصدره قوافلها التجارية التي كانت في طريقها إلى الشام بها تمر والتي كانت عند اجتيازها هذه المنطقة، منطقة «الحجر» التي كانت مسكناً لبني ثمود، تتذاكر ذكرى هذه القبيلة من قبائل العرب البائدة التي أصابها في ديارها الفناء وعليها عدت عوادي الأيام، لم تأبه لما تسمعه من شفتي محمد من وعيد مرجعه إنما تلك القصة التي تقول: إن إلى ثمود قد أرسل اللّه صالحاً نبياً رسولاً فأبى قومه له تصديقاً وجعلوا شرطاً على تصديقهم إياه أن يُخرج لهم من بطن الجبل ناقة! ودعا صالح ربه أن يأتيه بهذا البرهان واستجيبت دعوته وخرجت «ناقة اللّه!».

وهنا دمدم الرعد وقذف اللّه ثموداً بالصواعق[1]!.

كلا!.. ناحية محمد لم تنحن بالحنان من قريش الضلوع بل وتأسّن منها نحوه الود وهي منه تسمع هذه القصة تسجّل ككلم إلهي لم تُعقّب عليه إلاّ بما قد استمسكت به من رأي سابق ومن ثم راح من شفتيها رَجْعُ الصدى من جديد مُدوياً بأنها: **«أساطير الأولين»**

وكان لهذا الدويّ أثره، فقد راحت مكة تتهامز وتتلامز في اتباعٍ للأخنس بن شريق، لم يحدها من محمدٍ كَلِم راح ناحية هذا الشريف الثري من رؤسائها يقول:

﴿ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالاً وعدده، أيحسب أن ماله أخلده كلا لينبذنّ في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار اللّه الموقدة﴾!...

الآية من ١ - ٦ من «سورة الهمزة»

كلا ولم يحد من تهامز مكة كَلِمٌ راح من شفتي محمد يسترسل بالويل متوعداً، مقسماً بالملائكة المرسلة إلى العالم:

﴿والمرسلات عرفاً.. إن ما توعدون لواقع.. ويل يومئذٍ للمكذبين﴾.

الآي ١ - ٧ - ١٥ من «سورة المرسلات»

إذن!. أما كفى قريشاً لمحمد تكذيباً؟

---

(١) **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي.**

فلقد: **﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد، وفرعون ذو الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة... إن كل إلاّ كذّب الرسل فحق عقاب﴾**!

الآي ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ من «سورة ص»

وإن عقابهم: **﴿... لشرّ مآب، جهنم يصلونها فبئس المهاد، هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾**!

الآي ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ من «سورة ص»

تالله إن نصيبهم ليس كنصيب الأتباع فالأتباع إنما المتقون و:

﴿... إن للمتقين لحسن مآب، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾!

الآي ٤٩ إلى ٥١ من «سورة ص»

فإن: **﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون... تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه. لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾**!

الآي ٤٢ ـ ٤٣ من «سورة الأعراف»

ولكن!. قريشاً تُواصل الاستهزاء بالاستهزاء والاستنكار بالاستنكار.. تاللّه إنهم كقوم نوح الذين أصابهم الطوفان ولم يغرقهم إلاّ عقاباً على تكذيبهم نوحاً!

وتاللّه إنهم كعاد قوم هود الذي أهلكتهم الريح العقيم عقاباً على تكذيبهم هوداً!

وتاللّه إنهم كثمود قوم صالح، الذين عمروا مكان عاد، وأهلكتهم الصواعق عقاباً على تكذيبهم صالحاً!

وتاللّه إنهم كمدين قوم شعيب الذين أهلكتهم الزلازل عقاباً على تكذيبهم شعيباً!

وتاللّه إنهم كقوم فرعون الذين أغرقهم اليمّ عقاباً على تكذيبهم موسى!

فإنها إنما: **﴿تلك القُرى نقصُّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل كذلك يطبع اللّه على قلوب الكافرين﴾**!.

الآية ١٠١ من «سورة الأعراف»

كل هذه «القُرى» أُهلكت عقاباً على تكذيبها من جاء إليها يقول بأنه إليها قد جاء من اللّه رسولاً... وحقاً:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾!

الآية ٩٦ من «سورة الأعراف»

من ثم يقيناً: **﴿ساء مثلاً القوم الذين كذّبوا بآياتنا وأنفسَهُم كانوا يظلمون، من يهد اللّه فهو المهتدي ومن يُضلل فأولئك هم الخاسرون﴾**!.

الآي ١٧٧ و١٧٨ من «سورة الأعراف»

للسبب، تأبى قريش إلاّ برأيها الإيمان وفي إشاحةٍ راحت تنصرف عن محمد ساخرة ترميه بالاختلاق!.. فتاللّه إن:

﴿... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها... كالأنعام﴾!

الآية ١٧٩ من «سورة الأعراف»

كلٌّ منهم عن الهداية والهدى انسلخ: **﴿... فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون﴾!**

الآية ١٧٦ من «سورة الأعراف»

هذا هو الجوهر مما تحدّر من شفتي محمد في غضون هذه السنوات الثلاث من السنة السابعة «للدعوة» إلى نهاية التاسعة و«صحيفة المقاطعة» على جدران الكعبة معلّقة.. فترة عصيبة في حياة محمد لا ثمة شك كانت هذه المرحلة الزمنية التي وإن كان قد قوي ساعد محمد بمن استطاعت دائرة الجذب المحمدي أن تجتذبه فإنما ما زال محمد ضعيفاً ومن حوله من الأتباع لا حول لهم حول «أهل الحول» من قريش التي لم يستهوها الوعد بجنة فيها أطايب المأكل والشراب والاستطراف بقاصرات الطرف لا ولم يردعها الوعيد بعاقبة كعاقبة عاد وثمود ومدين ونهاية كنهاية قوم موسى ونوح وإبراهيم ولوط فما زالت قريش مجمعة على ما أجمع عليه رؤساؤها من رأي استحكم فصار عقيدة وهي أن محمداً يتخذ «الرسالة» وسيلة إلى هدف سياسي ينحصر في امتلاك أعنة العرب!

يقيناً إن هذه العقيدة التي استحكمت فِي العقلية القريشية عن محمد غير جديدة بيد أن ما قد توالى من أحداث وما قد تتالى من كَلِم مذ قيام محمد بالدعوة راح يؤكد لها هذه العقيدة التي لم يكن إلاّ بسببها كانت أن علّقت على جدران بيت من تعبد هذه الصحيفة إعلاناً بمقاطعة هذين البيتين منها من فرع عبد مناف.

ولكن! هذه الحرب السلمية التي شنّتها فئة من قريش على فئة أخرى من قريش.. هذا الحصار الذي أوقعته الفروع والبيوت الأخرى من قريش على قريش وأنزلته ببيتي المطلب وهاشم كانت له نتيجته الحتمية التي لم تحسب حسابها هذه الفروع والبيوت الأخرى من قريش، فلقد استفزّت هذه المقاطعة التي صبر عليها هذان البيتان من فرع عبد مناف لثلاث سنوات وَجْد فرع عبد مناف!.. أثار هذا الحصار لهب العصبية والحمية من عبد مناف وألهب الخصومة القديمة بينها وفرع عبد الدار حتى اتخذت هذه الخصومة مظهر التحدي الذي أسفر جلياً بإعلان عبد مناف أنها قد منعت فتاها!..

لا ثمة شك أن إلى «صحيفة المقاطعة» يعود الأثر كل الأثر في إثارة العصبية القومية التي جاءت بمنعة فرع عبد مناف محمداً وانتصار بني هاشم والمطلب ما خلا عبد العزى، «أبو لهب»، لما إليه محمد يدعو ويُحفّزهم إلى ذلك ما كان شائعاً العهد لا في مكة فحسب وإنما بين قبائل العرب جميعاً من أن للّه ديناً اسمه الحنيف مما جعلهم يرون حقاً لمحمد أن يعلن هو للناس هذا الدين ويعتبرون فخراً لهم أن تتحقق عقيدة «النبي المنتظر» في شخصية هذا الفرد منهم، فإن لهم في مجده لا فحسب نصيباً وإنما مجده لهم مجد!

للسبب، هبّ أبو طالب ينتصر لدعوة محمد لا يثنيه عن الانتصار لها أو له، تمسُّكه بما هو عليه من دين، بل على النقيض فإن أبا طالب الذي كان قد خلا بمحمد تلك الخلوة وأدرك خلالها من حديثه أن التاريخ السياسي للعرب يتجه به اتجاهاً لا فحسب جديداً وإنما مغايراً لم يك إلاّ بدافع من هذا الإدراك قد هبّ ينتصر لمحمد وبقريش يهيب:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرٍ ... فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصرت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وأن عليه في العباد محبة ... ولا خير ممن خصّه اللّه بالحب

ومنتصراً لعبد مناف وبيت هاشم استرسل أبو طالب:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خُطّ في أول الكتب
وأن الذي ألصقتم من كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية الثقب
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى وسرّها وكريمها

وكان حتماً أن تُردِّد الأرجاء القريشية صوت أبي طالب أصداءً لتردّد عنه قصيدته التي تعوّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها منادياً أشراف قومه أنه غير مسلم محمداً لأحدٍ منهم أبداً ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه، ومنها هذه الأبيات:

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

أحضرت عند البيت رهطي وإخوتي وأمسكت من أثوابه بالوصائل
وقلتُ أعوذ برب الناس من كل طاعنٍ علينا بسوءٍ أو مُلحٍ بباطل
فهل بعد هذا من مُعاذ لعائذ وهل من مُعيذ يتقي اللّه عادل
جزى اللّه عنا عبد شمس ونوفل عقوبة شرٍ عاجلٍ غير آجل

ويسترسل أبو طالب لترجّع مكة عنه صيحة حربٍ تكاد تندلع بين هذين الفرعين من قُصيٍّ:

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب
ولا تقبلوا أمر الوشاة وتقطعوا أواصرنا بعد المودة والقربِ
وتستجلبوا حرباً عواناً وربما أمر على مَن ذاقه جلب الحرب
فلسنا ورب البيت نُسلم أحمد لعزاءنا من غض الزمان ولا كرب

أثارت صيحة أبي طالب العصبية القومية فكانت نصرة بني هاشم وعبد المطلب لمحمد نصرة اشتدت بها منعة فرع عبد مناف لمحمد، ولكن:

بمنعة أبي طالب لمحمد وبانتصاره له وإيمانه بدعوته السياسية رغم عدم إيمانه بدعوته الدينية بدأ مظهر النزاع القديم بين هذين الفرعين من قُصي يتخذ دوره الإيجابي مُسفراً عن اشتداد إخلاد قريش إلى عقيدتها بأن هذه الدعوة التي يطلع بها عليها محمد ليست في مداها الحقيقي إلاّ دعوة سياسية لجأت في تدعيم كلمتها إلى «الوحي» واتخذت الدين الحنيف وسيلة إلى غاية تنحصر في إحراز سلطة مطلقة عن طريق وحدة سياسية تأتي للعرب بإمبراطورية كتلك التي للفرس وكتلك التي للرومان، بل تهدف إلى أن تقيم القوائم من سلطانها على أنقاض هاتين الإمبراطوريتين كما كان قد أعلن هذا الهدف لمحمد نداء ما زال يتردد مجلجلاً:

«اتبعوني. والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر!».

لا جدل في أنه مُذ ثوى قُصيّ والتطاحن على سيادة العرب سجال بين فرعي قريش وعوان ولكنه ما اشتد قط اشتداده في هذا العهد. كلا وما عمل كلا الفرعين إلى الإمارة وإليها جد جدهما مثل هذا العهد، ولذلك فإن قريشاً إذ تقف مقتنعة بأن محمداً إنما سياسي اتخذ «الوحي» طريقاً للاعتراف بما يضمن له كامل السلطة ومطلق السلطان وأنه ليس إلاّ مفترياً اتخذ اللّه إلى هدفه وسيلة واتخذ الدين الحنيفي مسنداً إليه في دعوته يستند ليكفل لكلمته إصغاء، فليس إلاّ بوحي من أحداث العصر كانت قريش قد كوّنت عن محمد هذه الفكرة التي تحولت في صدرها إلى يقين غداة استجابت لمحمد هاشم، مما كان السبب في

شد أزر الدعوة المحمدية وتثبيتها والخروج بها من الدور الإعدادي إلى الدور العملي الذي اتخذ مظهر النزاع السافر بين الفريقين والذي ما لبث بدوره أن تطور إلى مظهر التحدي حتى كاد يندلع شرر الحرب بين الفرعين.. ولكن، للفريقين من أبناء العم لم يرتض لهما في العداوة تمادياً فكر أرسل اللسان العربي بصبغته الحنيفية من الأحناف. الأول يناشدهما أن يكف بعضهما عن بعض مُذكِّراً لهما بفضل لهما وأحلام، تذكيراً يعطينا في نفس الوقت صورة لما قد أكنته الضمائر:

أعيذكم باللّه من شرّ منعكم ... وشرّ تباغيكم ودس العقارب

أبو قيس بن الأسلت

ويسترسل:

فذكرهم باللّه أول وهلة ... وإحلال إجرام الظباء الشوازب

وقل لهم اللّه محكم حكمة ... ذروا الحرب تذهب عنكم في المحارب

ويسترسل:

فبيعوا الحراب واذكروا ... حسابكم واللّه خير محاسب

ولي امرؤ فاختار ديناً فلا يكن ... عليكم رقيباً غير رب النواقب

أقيموا لنا ديناً حنيفاً فأنتم ... لنا غاية قد يهتدي بالذوائب

ويسترسل:

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب

فعندكم منه بلاء ومصدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب

فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم ... جنود المليك بين ساف وغالب

ويسترسل:

فإن تهلكوا نهلك وتهلك مواسم ... يعاش بها قول امرىء غير كاذب

أبو قيس بن الأسلت

وإلى القلب انساب الصوت الصادر من القلب. فإزاء ذلك استشعرت قريش حنيناً بعث فيها على أبناء عمومتها عطفاً وعليهم حناناً ما اتقدت وقدته بين الوجدان منها إلاّ وانطلق منها الصوت متمثلاً بزهير بن أمية الذي هبَّ يحتضن بني هاشم احتضاناً عنه يحدثنا للإسلام تاريخ يقول إنه على قريش قد طلع وقد ذهبت تطوف «بيت اللّه» سبعاً منادياً: «يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم؟ واللّه لأقعد حتى تشق هذه الصحيفة!».

وكان لهذا النداء المنطلق من زهير في أرجاء قريش أثره.. فلِحَال هاشم رقت قريش فنقضت «الصحيفة» وألغيت لها مواد.

وهكذا بسلام انتهت «الحرب» السلمية التي كانت قد شنتها قريش على محمد وهكذا من جديد عاد محمد يستأنف الدعوة إلى ما جاء به من «دعوة» ليتجلّى تجلياً لم يتجلّه من قبل.. فالوجه من محمد إذ يلتفت إلى قريش فيراها قد رقّت فألغت القطيعة فليس إلاّ ليدرك أنها لأمره قط لن تلين منها القناة!

حقيقة، ما أدركها تمام الإدراك محمد وما منها تمام اليقين أيقن إلاّ ودفعته للسياسة دوافع إلى أن يلتفت إلى القبائل التفاتة سجل بها التاريخ الإسلامي!.

دعوة محمد بعض القبائل إلى دعوته

إلى **كندة** في أقاصي الجنوب، تحول من محمد الوجه فأتاها وأتى سيدها «مليحاً» وعرض عليه ما عرض من أمر ولكن «مليحاً» عن الأمر ولّى وأعرض!..

وإلى: **بني حنيفة** في بعيد الشمال الشرقي، التفت محمد فأتاهم في ديارهم بيْد أن ردهم عليه كان له رداً!..

وإلى: **كلب** في أقاصي الشمال: اتجه محمد فأتاهم في منازلهم، ونزل من بطونهم بطن عبد اللّه هاتفاً: «يا بني عبد اللّه! إن اللّه عزّ وجلّ قد أحسن اسم أبيكم». وعرض عليهم دعوته فأعرضوا!..

وإلى: **بني عامر** في أعماق الشمال، تحول محمد فهبطها وما أن عرض الدعوة على سيدها نجية بن فراس حتى صاح هذا في قبيلته: «واللّه لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب!..» ومن هنا كان أن التفت سيد بني عامر إلى محمد يقول: «أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك اللّه على من يخالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟» ولكن!. هذا المطلب الذي يطلبه سيد بني عامر إنما مطلب لا فحسب عسر التنفيذ، وإنما الإجابة عنه أعسر، فالإجابة تتطلب حكمة السياسي وحنكته وفي الإجابة تجلّت مقدرة الداعي السياسي وضليع حنكته السياسية فالجواب المحمدي قد أتى بأن: «الأمر إلى اللّه يضعه حيث يشاء.!». ولكنها إجابة، بسببها أجابوه: «أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك اللّه كان الأمر لغيرنا؟!. كلا لا حاجة لنا بأمرك..».

إباء كندة وحنيفة وكلب أبت عامر ـ لم يعدها محمد إذا أظهره اللّه «الأمر» من بعده جزاء تعريضها نحورها للعرب، فأبت عليه معه الأمر. وهكذا لم تُجد دعوة محمد القبائل إلى الأمر ـ ومن ثم عاد إلى مكة مُثقل القلب لتحل به فبها حالة نفسية مريرة مصدرها

خطب ينزل به بعد خطب، فقد قضى أبو طالب وأعقبته خديجة. فأما خديجة فقد كانت ذلك العامل الذي أغنى اللّه محمداً بماله وكان لدعوته معول البناء، وأما أبو طالب فقد كان الصرح الذي منع محمداً وحماه وعنه لم يتخل حتى اللحظة التي امتدت إليه فيها يدُ المنية، فهو ينادي إليه قريشاً يترك فيها وصيته أن تستوعي بمحمد.

«يا معشر قريش. أنتم **صفوة اللّه من خلقه وقلب العرب** إنكم لم تتركوا في المآثر نصيباً إلاّ أحرزتموه ولا شرفاً إلاّ أدركتموه فلكم بذلك على الناس الفضيلة... **وإني أوصيكم بمحمد خيراً**... وايم اللّه كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم إليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له بلادها، وأعطته قيادها».

وهنا... للحظة يتمهل الفكر هنا، وقد استوعب لأبي طالب قولاً يتحدث عن أهل الأطراف والمستضعفين، ليتساءل: من هم صعاليك العرب؟

سؤال، يأتينا عنه الجواب من سجّلات التاريخ الأدبي عندما ينتشر لنا على هذه السجلات[1] نوع من الثورات ذو طابع اشتراكي كان يُشن على النظام السياسي والاجتماعي، عرفه العصر القريشي غداة سجل ثورة من هذه الثورات تحت اسم:

ثورة الصعاليك

الصعاليك هم جماعة رقاق الحال من قبائل شتى جمعت بينهم الخصاصة والحاجة وإعوازهم ما عند غيرهم من مال. فخرجوا على قبائلهم وتحللوا من نظمها وأنكرهم قومهم وأخذوهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد ثم توزيعها فيما بينهم.. و«الشنفرى» و«تأبط شراً» وزملاؤهما ممن كان يعيش في منطقة الحجاز مثّلوا هذا الخروج على النظام القبلي. فالصعاليك هم مَن قد طرحوا عن كواهلهم تقاليد العرب إلاّ ما ارتضوه لأنفسهم. وجعلوا وكدهم الحصول على المال ولو قتلوا أصحابه، لا يبالون في هذا قرابة، يعطفون على الفقراء والمرضى والضعاف ويبذلون ما عندهم في سخاء. يجمعون بين صفتين متناقضتين، صفتي الكرم والسلب. فهم، كما عليهم ولهم تسجّل سجلات الأدب، لصوص كرماء..

ومن هنا نفهم أن هذا المذهب الثوري الاشتراكي إنما مذهب بطبيعته يُحتّم على الآخذين

(١) النسفي.

به الكفر بأوضاع اجتماعية فرضت الفقر والحرمان وفي شعر «الشنفرى» و«تأبط شراً» من صعاليك الحجاز وشعر غيرهم من صعاليك العرب عامة، صورة واضحة لحياة الصعاليك تُصوِّر فتكهم وجرأتهم وصبرهم على المكاره والجوع وخروجهم على نظام القبيلة العام.

وهكذا نرى أن الصعلوك يُفارق قومه ويقلي عشيرته لأمور تتعارض ومبادئه، ولهذا فهو يلتمس له مضطرباً في الأرض يقيه أسباب القلى والبغض ومنعزلاً فيها يشعره بالحرية والكرامة مستبدلاً بأهله وعشير أهلاته وعشيرة..

وهنا يتضح لنا تماماً من هم كانوا الصعاليك الذين عناهم أبو طالب وهو يوصي قريشاً بمحمد من له كان من قبل قد قال: «واللّه لا يخلص إليك شيء تكرهه» وكأن أبا طالب قد وفى لمحمد بوعده حتى هذه اللحظة التي طوته فيها راحة الردى والتي التفت فيها بعض الأتباع يسألون محمداً عما سيكون جزاءه وهو به كرسول لم يؤمن؟ فكان الجواب: «هو في ضحضاح من النار ولولا مكاني لكان في الطمطام».

ولكن.. بوفاة أبي طالب هوى صرح المنعة، فقد تحررت قريش من المودة المفروضة وأصبحت مطلقة الحرية، فعادت تسخر بمحمد جهارة وبعداوة أصحابه راحت جهراً تجهر وليس هذا فحسب وإنما، وأمره تراه لأمرها ناقض، أعلنت رفضها القاطع أمر محمد، فالأمر إنما قد أعلن بنفسه عن نفسه إما سيكون لها وإما له سيكون.

في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ تكوين الدين الإسلامي كان لا بدّ أن ينبثق بصيص يلقي على الناحية السياسية من حياة محمد ضوءاً مصدره الفِكَر التي دارت عليها لفكره لوالب تقول: هذه قريش تأبى كل الإباء أن ينفرد بها فرد من بيت هاشم بسيادة العرب سواءً أكان مصدر هذه السيادة السماء أم الأرض، وهذه هي أهم القبائل العربية التي خرج إليها وعرض عليها أمره وأعرضت عن أمره تمام الإعراض وحجتها في ذلك أنها ستهدف نحورها للعرب ثم لن يكون لها من بعده الأمر.. فترى؟!. تُرى، ماذا لو أتى ثقيفاً وعلى ثقيفِ عرض أمره؟

أستُعْرِض ثقيف إعراض تلك القبائل إذا قدم عليها ولأمره عرض؟

إن لمحمد في ثقيف، عاصمة الطائف، بأحد سادتها الثلاث من أبناء عمرو، صهراً ونسباً. فلمحمد من ثم فيها قُرْبَى رحماً وصلة تُسهِّل له الالتماس من ثقيف النصرة لدعوته والمنعة لشخصه فكانت:

دعوة محمد ثقيفاً إلى نصرته

إلى الطائف، سنة ٦٢٠م، ذهب محمد.. ولكن!. ما رده أحد من العرب رد ثقيف!

يقيناً إن من محمد قد نالت ثقيف ما لم تنله منه العرب ولكنها لم تنل منه إلاّ لأسباب اقتصادية بحتة وعلّة محلية محضة. فالطائف وإن تك مستقر عبادة اللاّت فإنما هي، لجمال مناخها وحلو أعنابها ورمانها لأهل مكة مصيف. فلو أن ثقيفاً تابعت محمداً لقامت بينها وبين قريش خصومة ستترك لا ريب أثرها الاقتصادي في موسم الاصطياف!. من ثم فإنه كما كان لكل قبيلة علّة محلية اقتصادية في إعراضها عن أمر محمد، كانت هذه العلّة الاقتصادية أقوى أثراً في إعراض ثقيف عن أمر محمد من تعلّقها بدينها!

ومن حيث أتى عاد محمد... عاد من دعايته إلى دعوته فاشلاً وحيداً كسير القلب مهيض الجناح يجتاز في طريقه إلى مكة «وادي نخلة».. حيث في هذا الوادي أناخ ليلة لئن قضاها التفكير منه يحوم من حول أتباع له في مكة ينتظرون أوبته من ثقيف بالكثير من الأتباع فإنما قد كانت سبباً في تكوُّن: **«سورة الجن»**

على أتباعٍ في مكة ينتظرون الأوبة طلع محمد يقص عليهم رفضاً لقيه من ثقيف فوجفت منهم القلوب... ولكن!.. ما وجفت وجلاً من الأتباع القلوب ومحمد يقص عليهم رفض البشر أمر الدعوة إلاّ لتعود فتخفق هذه القلوب استبشاراً إذ يرونه يستطرد الحديث ومسترسلاً يقول بأنه بينما كان في «وادي نخلة» منيخاً، مرّ به نفر من «الجان» وإليه استمع منهم سبعة، فما رفضه الجان رفض البشر!.. ومن ثم فإذا لم يكن بأتباع من البشر قد عاد فإنه قد عاد بأتباع من الجان، عنهم يحدثه اللّه وله يقول:

﴿قل أُوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾.

الآية الأولى من «سورة الجن»

وأنهم قد قالوا: **﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على اللّه كذباً وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث اللّه أحداً﴾.**

الآي ٦ ـ ٧ من «سورة الجن»

وأنهم قد استرسلوا: **﴿وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً، وأنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾.**

الآي ٨ ـ ٩ من «سورة الجن»

وأما إذا استفسر أحد من الأتباع المعنى من هذا «الكلم» فليس إلاّ ليأتي من الشفاه المحمدية الشرح حديثاً يحدث: «إن اللّه تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش فسبّحوا من تحتهم. فسبح من تسبيحهم من تحت ذلك. فلا يزال التسبيح

يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحون ثم يقول بعضهم لبعض: ممّ سبحتم؟ فيقولون: سبّح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم. فيقولون: ألا تسألون مَنْ فوقكم ممّ سبحتم؟ فيقولون مثل ذلك حتى تنتهي إلى حملة العرش فيقال لهم: ممّ سبحتم؟ فيقولون: قضى اللّه في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان يهبط به الجن من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثوا به فيسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ثم يأتون إلى الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم به فيخطئون ويصيبون، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضاً ويخطئون بعضاً، ثم إن اللّه عزّ وجلّ حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها!.» فإن اللّه يقول:

﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد، لا يسمعون فيها إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب، دحوراً ولهم عذاب واصب، إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾!.

الآي من ٦ إلى ١٠ من «سورة الصافات»

أجل... **﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلاّ من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾**!

الآي ١٧ و١٨ من «سورة الحجر»

أجل.. **﴿ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾**.

الآية ٥ من «سورة الملك»

للسبب، آمن بعض نفر من «الجان» في «وادي نخلة» على يدي محمد وأعلنوا إسلامهم معترفين له بسابق ضلالهم وله قالوا:

﴿وأنّا ظننا أن لن نعجز اللّه في الأرضِ ولن نعجزه هرباً وأنّا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾؟.

الآي من ١٢ إلى ١٥ من «سورة الجن»

ومن ثم لهذا النفر من الكائنات التي قيل عن خلقها:

﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾.

الآية ٢٧ من «سورة الحجر»

لن يصيب ما سيصيب القاسطين، والقاسطون هم الكافرون من هذه الكائنات المخلوقة من النار، من نار جهنم!..

بهذا الحديث عن الأنجم وعن «الجان» عاد محمد من وادي نخلة «بالكَلِم» الذي كوّن بعض آيات ألّف إحْدى سُوَر القرآن. بيْدَ أن هنا آن للفكر أن يتساءل: أية صدمة نفسية سببها ذلك الصد من ثقيف تمكنت من نفس محمد والأيام في مكة قد تجمعت وانحسرت عن سنوات عشر منذ قام بالدعوة إلى نفسه داعياً؟

سنوات عشر انحسرت عن محمد وقريش منه تسخر ولا تُوليه إلاّ استنكاراً به ينوء منه الجانب. وهو ولئن كان قد طوى الصدر منه غيظاً كظيماً فإنما هو أبداً الحليم الصابر والمعاملة منه لا تفضي إلاّ عن «الصفح الجميل»..

ولكن... سنوات عشر انحسرت وقريش ـ هي هي ـ إلى محمد لا تستمع إلاّ وتُطرق مُفكرة، ولا تستقيم فحسب نافية أن «الكلم» كَلِمٌ إلهي إلاّ ليشتد إخلادها إلى عقيدتها هذه غضون هذه الفترة التي تحدّر فيها من «الكَلِمْ» الكلمُ الذي كوّن من السُوَر: سورة يس، فالفرقان.

يقيناً إن قريشاً قد اشتد بها الإخلاد إلى عقيدتها في غضون هذه الفترة الزمنية من السنة العاشرة لقيام محمد بدعوته وقط لم يمل منها القلب إلى محمد وهو بينها ينادي أنه ما جاء إلاّ كما له يُقال:

﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾.

الآية ٦ من «سورة يس»

ولكن!... **﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾!**

الآية ١٠ من «سورة يس»

لأنك: **﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾.**

الآية ١١ من «سورة يس»

وأما أولئك فيقيناً: **﴿لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾.**

الآية ٧ من «سورة يس»

يقيناً!. لقد حق القول عليهم ألا يؤمنوا إيمان من آمن بمحمد هؤلاء الذين لم يثنهم نعت قريش لهم بالأراذل والسفهاء عن بذل النفس في سبيل نصرة محمد وفي الانتصار لدعوة زادتهم بها إيماناً الوعود التي جاءت من شفتي محمد تعدهم جنة فيها عنهم سيقال:

﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾.

الآية ٥٥ من «سورة يس»

كلا لا يتساءل الفكر في هذا الصدد عن هذا الشغل الذي سيفكه فيه المؤمنون في رحاب الجنة، فمن طيات سجلات الدين الإسلامي يأتي التفسير بأنه:

«افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار أو ضرب الأوتار أو ضيافة الجبّار»[1].

حينذاك سيفكه المؤمنون وسيعلمون أن هذه هي:

﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً﴾.

الآية ٦١ من «سورة مريم»

فإنها: **﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾**!.

الآية ٦٣ من «سورة مريم»

من ثم فيقيناً لن يكون كنصيب المؤمنين بمحمد نصيب قريش وهي غير المؤمنة بمحمد والكافرة بدعوته كلا ولن تكون هذه الجنة لها مأوى فإنما حينذاك سيقال لطوائفها:

﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون... هذه جهنم التي كنتم تُوعدون، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾!.

الآي ٥٩ ـ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ٦٥ من «سورة يس»

وعيدٌ قفى وعداً من كليهما هبّتٍ قريش ساخرة تسأل محمداً بلسان ذلك الذي يصفه التاريخ العربي بالحصافة وبالفصاحة، أُبي بن خلف: «متى هذا الوعد؟!».

إنه يوم ينفخ في الصور: **﴿فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾**.

الآية ٥١ من «سورة يس»

وللسبب، كان انطلاق جمع مِمن تعرفهم قريش بفصحائها وبينهم من تخرّج في «مدرسة جنديسابور» طبيباً وعلى رأسهم أُبيّ بن خلف وقد أخذ عظماً بالياً جعل يفتته بيده أمام محمد وله يقول:

«يا محمد! أترى اللّه يُحيي هذا بعد ما أرم؟!» وانفرجت شفتا محمد عن: **﴿يُحييها الذي أنشأها أول مرة﴾**!

الآية ٧٩ من «سورة يس»

وتجاوبت على الشفاه القريشية قهقهة ساخرة سهم في إطلاقها حكم النضر بن الحارث

---

(١) النسفي.

بأن ما هذا إلاّ إفك قد افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون ليسترسل من محمد «الكلم» يقول:

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً، كذبوا بالساعة، واعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا... أذلك خير أم جنة الخلد التي وُعِد المتقون﴾؟!

الآي ٤ ـ ١١ ـ ١٥ من «سورة الفرقان»

لمن كذب من قريش «بالساعة» أعد اللّه سعيراً ولن يحول بينهم وإياه شيء حتى ما قد أتوه في دنياهم من حسن الأعمال. كلا ولا تمسكهم بمكارم الأخلاق بمجدٍ عن دخولهم جهنم فتيلاً ما داموا غير مؤمنين بأن محمداً هو رسول اللّه. فإن محمداً لهم يقول إن اللّه له عنهم يقول:

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾!.

الآية ٢٣ من «سورة الفرقان»

وإلى قريش السادرة بيومها عن غدها استرسل «الكلم» من شفتي محمد ضارباً الأمثلة لقومه بالأقوام التي عفا عليها الزمن وطوتها بكرّها عجلة السنين مُنبهاً بأنها لم تبد إلاّ جزاء تكذيبها الرسل مُردداً للمرة بعد المرة في سورة القصص ذكر قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود.. وللمرة بعد المرة راحت قريش تؤكد بأن هذه القصص ليست إلاّ أساطير الأولين ومن هنا كان التفاتها إلى من قد التف من حول محمد قائلة: إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً!. وإلى هؤلاء التفت من محمد الوجه واللسان منه يقول:

﴿وقالوا أساطير الأولين،... وقال الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾!.

الآي ٥ ـ ٨ ـ ٩ من «سورة الفرقان»

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلاّ كالأنعام﴾!..

الآية ٤٤ من «سورة الفرقان»

ولكن...

﴿وإن يكذّبوك فقد كذّب الذين من قبلهم وجاءتهم رسلهم بالبينات والزبر﴾!.

الآية ٢٥ من «سورة فاطر»

لا جدل في أن المعنى هنا واضح بأن «الزبر» هو «الزبور» أو «المزامير» أو الأسفار المتأخرة

من «العهد القديم» وعلى ذلك يأتينا الدليل من نفس «الكلم» الذي استرسل من شفتي محمد موضحاً يقول:

﴿وآتينا داود زبوراً﴾!.

الآية ٥٥ من «سورة الإسراء»

لأول مرة نعلم هنا أن «الزبور» كتاب منزل بدليل:

﴿ولقد كتبنا في الزبور..﴾.

الآية ١٠٥ من «سورة الأنبياء»

ولكن...

﴿يا حسرة على العباد، ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون﴾!.

الآية ٣٠ من «سورة يس»

في هذه الفترة الزمنية، التي تميز فيها «الكلم» المسترسل من شفتي محمد بإرجاء عقاب مَن بمحمد لم يؤمن إلى اللّه في يوم الحساب حين تبعث الأجساد من القبور ومن جديد تعود الأجساد، تميزت السياسة المحمدية بالسلام فالآيات تتوالى وتوالي أنغام السلام والشفاه المحمدية تنفرج عن:

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾!

الآية ٦٣ من «سورة الفرقان»

وإلى قريش ومن التف حولها من جموع الناس راح الصوت المحمدي يتجه نغماً هادئاً ينادي:

﴿يا أيها الناس، إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾!

الآية ٦ من «سورة فاطر»

رادعاً عن اتخاذ الشيطان صاحباً اتجه الصوت من محمد ناحية قوم واصلوا إشاحتهم عما يلقيه من كَلِم إليه أرهفت في استجابة المسامع من الأتباع وله ردّدوا يملأ قلوبهم من فيض الإيمان إيمان بهذه الشخصية القوية التي إليهم يلتفت منها الوجه والكَلِم من شفتيها يسترسل استرسالاً يقول:

﴿ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾.

الآية ٨٤ من «سورة مريم»

لا تسألن لماذا؟..

﴿فإن اللّه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾!

الآية ٨ من «سورة فاطر»

ولا تسألن ما هو جزاء الذين هدى اللّه؟ فإن لهم:

﴿جنّات عدن يدخلونها، يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾!

الآية ٣٣ من «سورة فاطر»

كلا ولا تسألنّ ما عقاب الذين لهم أضلّ اللّه فكفروا؟ فالجواب يأتي بأن:

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾.

الآية ٣٦ من «سورة فاطر»

وعلى هذا النمط راح يتوالى في هذه الفترة الزمنية «الكلم».. فمن جديد راحت سورة بعد سورة تردّد قصص الأولين وتسطر علي صفحة الذاكرة بمداد أعمق لوناً قصة «عاد وثمود» و«ناقة اللّه» و«طوفان نوح»، وسجل ذلك «سورة الشعراء».. وإلى جانب هذه القصص جاءت قصص أخرى تذكر موسى وتقص «قصة الالقاء في اليم» محدثة أن موسى قد ألقي في اليم وهو وليد، وسجّل ذلك «سورة طه»... ولكن!.. عبثاً ارتفع في قريش صوت محمد فمن جديد عادت قريش تصرّ على أن هذه القصص ليست إلاّ أساطير الأوّلين!..

في ترديده لقصص الأوّلين ارتفع في قريش للمرة بعد المرة صوت محمد وللمرة بعد المرة راحت قريش بها تندد وتوليه بسببها جفاء به تشبثت لا سيما وهو يسترسل يذكّرها بأنه رسول كموسى من قد اختاره اللّه رسولاً وعليه تاب بعد أن قتل فإن اللّه يذكره قائلاً:

﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن..﴾.

الآية ٥٢ ـ ٥٣ من «سورة مريم»

أجل، لقد جفا الفكر القرشي «الكَلِم» الذي انطلق من شفتي محمد سخياً ولجفائه ما برح يواصل ليواصل جفاءه لهذا «الكلم» المحدد المكان الذي كان فيه اللّه عند مكالمته لموسى والذي يدل دلالة قاطعة على أن اللّه كان في الجانب الأيمن من الطور. فقد واصلت قريش جفاءها القديم بجديد جفاء بينما كان «الكلم» من شفتي محمد يسترسل محدثاً:

﴿وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً.. فلما أتاها نُودي يا موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المُقدَّس طوّى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إني أنا اللّه﴾!

الآي ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ من «سورة طه»

كلا!. إلى هذا «الكَلِم»، المسترسل نغماً حنوناً يتحدث صراحة بالتجلّي الإلهي وبالمكالمة الإلهية، لم يلن من قريش القلب، لا ولا إلى محمدٍ هزّت الأعطاف منها هزة الإيمان والمسمع منها إليه يصغي وهو يواصل سرد المكالمة الإلهية التي جرت بين اللّه وموسى وموسى يصغي إلى اللّه له مُكلِّماً:

﴿وألقيت عليك محبة مني.. وقتلت نفساً فنجّيناك من الغم.. واصطنعتك لنفسي، اذهب أنت وأخوك بآياتي.. اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾!

الآي ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ من «سورة طه»

بيد أن كمثل قريش كان قد قسا من «فرعون» القلب:

﴿.. لقد أريناه آياتنا كلها فكذّب وأبى﴾!

الآية ٥٦ من «سورة طه»

بل وكتنازع رؤوس قريش أمر محمد تنازع «فرعون» وقومه أمر موسى وأخيه و:

﴿قالوا إن هذان لساحران﴾!

الآية ٦٣ من «سورة طه»

بيد أن قريشاً تشيح!.. تاللّه إن أمر قريش لمثار العجب، فإنها وهي ذات لسن تنصرف عن هذا الكَلِم المسترسل والقائل عن نفسه إنه:

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلّهم يتّقون﴾!

الآية ٢٨ من «سورة الزّمر»

بل إن قريشاً لتسخر وإلى ما أكنّه الزمن لها وراء أحداث الأيام وحدثان الليالي لا تتنبّه ومحمد يسترسل متّجهاً إلى المؤمنين به يقول:

﴿تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين..﴾!

الآي ٢ إلى ٤ من «سورة القصص»

لا ثمة شك في أن بالوداعة والرفق والرحمة والحنان قد اصطبغ هذا «الكَلِم» اصطباغ كلم من قبل بالصفح الجميل وبالسلام، بل إن أميز ما يتميز به الكلم المسترسل من شفتي محمد في غضون هذه الفترة الزمنية إنما الحنان الحار والرفق الوديع، حتى أن هذه النغمة الجيّاشة بروح الهدوء لم تفارق الكلم المسترسل من شفتي محمد وهو يسترسل مُردّداً قصص الأولين ومكرراً بهذا الترديد قصة موسى من جديد وكيف ضرب موسى بعصاه الماء فافترق كالطود العظيم، لتكوّن هذه القصة جزءاً من «سورة الشعراء»... بل ليكرر قصة موسى مرة أخرى لتكوِّن صدراً من «سورة النمل» ولكن كمقدمة لهذه السورة التي تتحدث عن سليمان وكيف حُشر له جنود من الطير والإنس والجن، وكيف اتخذ أخيراً «الهدهد» رسولاً إلى «قوم بلقيس» وكيف بعرش بلقيس إلى سليمان أتى عفريت من الجن..

ولكن!. قط لم يثر النغم الحنون الحنان في القلب القريشي إلى محمد بل على النقيض تنادت قريش بقسوةٍ وهي إلى هذا الكَلِم تصغي:

«إن الشياطين تلقي القرآن على محمد!.»

كلا!.

﴿وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم..﴾

الآية ٦ من «سورة النمل»

تالله لشدّ ما علت قريش برأيها وبه استعلت حتى تمسكت به وبه استمسكت، يزيدها غلواً في رأيها ما هي عليه من جاه في النسب وثراء في المال وما لديها من متاع الحياة الدنيا وزينتها حتى المدى الذي راحت به الطوائف التي حفّت بمحمد تستشعر البون البيِّن بين ما عليه قريش من ثراءٍ وبين ما هي عليه من رقة حال لئن هي بها في الحاضر لم تتململ فليس إلاّ أملاً في «فيما بعد» وتحت دافع من قناعة مصدرها «الكلم» المتجه إلى قريش لها يخاطب:

﴿ما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون، أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾؟!

الآي ٦٠ و٦١ من «سورة القصص»

أما... أما إذا مالت بالأتباع الميول إلى ما عليه أبناء العم من قريش من زينة الحياة فكفاهم أن يصغوا إلى كَلِم جاء ضارباً مثلاً يحدثهم:

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن اللّه لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة... فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أوتوا العلم، ويلكم ثواب اللّه خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقاها إلاّ الصابرون﴾!

الآي ٧٦ إلى ٨٠ من «سورة القصص»

وأما إذا تساءل سائل ماذا حدث لقارون، ابن عم موسى «النبي الرسول»؟ فالجواب:

﴿فخسفنا به وبداره الأرض.. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن منّ اللّه علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾!

الآي ٨١ - ٨٢ - ٨٣ من «سورة القصص»

تُرى أيّ العواقب عاقبة المتّقين؟.

لقد قسّم محمد المتّقين إلى قسمين[1] مفرّقاً بين: «السابقين» و«أصحاب اليمين» ومن هنا نفهم أي العاقبة عاقبة «السابقين» ونحن نصغي إلى «الكَلِم» المتحدّر من شفتي محمد يقول:

﴿والسابقون السابقون، أولئك المقرّبون في جنات النعيم.. ثُلَّة من الأوّلين، وقليل من الآخرين.. على سرر موضونة[2]، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون.. جزاء بما كانوا يعملون﴾.

الآي من ١٠ إلى ٢٤ من «سورة الواقعة»

﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود[3] وطلح منضود[4] وظل

---

(١) النسفي.

(٢) أي منسوخة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت.

(٣) سدر: النبق... مخضوض: لا شوك فيه.

(٤) طلح: الموز.

ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة[١] إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً عُرُباً أتراباً[٢] لأصحاب اليمين﴾!

الآي من ٢٧ إلى ٣٨ من «سورة الواقعة»

وأما «الكافرون» وقد وصفتهم شفتا محمد ولفظتهم «بأصحاب الشمال»، فإن:

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال، في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾!

الآي ٤١ ـ ٤٥ من «سورة الواقعة»

﴿فأما إن كان من المقرّبين، فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم وتصلية جحيم، إن هذا لهو حق اليقين﴾!

الآي ٨٨ إلى ٩٥ من «سورة الواقعة»

تاللّه:

﴿.. إنكم أيها الضالون المكذبون، لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين﴾!

الآي من ٥١ إلى ٥٦ من «سورة الواقعة»

هذا هو بعض «الكَلِم» الذي تحدّر من شفتي محمد غضون تلك الفترة الزمنية التي أعقبت العودة من «وادي نخلة» حيث انقضت من عمر الزمن ليلة تكونت فيها «سورة الجن»... وهذه هي الفترة الزمنية التي لم يشتد فيها استهزاء قريش بهذا «الكلم» فحسب وإنما جرى لها تفكير يستمد منطقه من مظاهر الأحداث ومن تنبهها إلى الآي الذي توالى بذكر موسى وما قد أتى من معجزات أيّدت رسالته ليُكوِّن هذا المنطق السؤال الذي دوّى جهيراً يتساءل: امتدت عينا محمد إلى يثرب؟

ومن ثم فتطور هذا الاستهزاء، لا سيما وهي ترى أمر محمد قد بدأ يخرج من الصيغة النظرية إلى الصيغة العملية، إلى لونٍ جديد تبلور في سؤالها محمداً: «ألست برسول اللّه؟.. إنك تقول إن موسى وعيسى وسواهما من الرسل والأنبياء قد أثبتوا رسالاتهم بمعجزات وأنت إذا كنت حقاً مثلهم وأعظم منهم أثبت لنا ذلك بمعجزة!».

---

(١) الفرش المرفوعة هي المضاجع أو النساء لأن المرأة يكنى عنها بالفراش، «النسفي».

(٢) عرباً: متحببات.. أتراباً: مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين، «النسفي».

سؤال، جاء عنه من شفتي محمد الجواب بأن ما ينطق به من «كَلِم» إنما أكبر المعجزات!.

ولكن! قريشاً التي لمعتقدها القديم الذي بَنَته عن هذا «الكَلِم» لم تستبدل إنما للرد لم تستمرىء ليجتمع من تدعوهم بأهل البلاغة والحجة من ساداتها في الرأي عند كلمة واحدة بها انطلقت صيحتهم تتنادى في الأرجاء المكية مطالبة محمداً إثبات رسالته عن طريق البرهان، بل وفي مطالبتها إياه بالبرهان اشتدت وشدّدت وكأن ذلك كان تنبيهاً لبعض أتباع محمد، فقد انضمت منهم الأصوات إلى الصوت القريشي تطالبه بمعجزة تطمئن إليه بها منهم القلوب!..

بديهياً كان أن يضيق الأفق أمام محمد!. وطبيعياً كان أن يطرق الفكر منه مطارق التفكير أمام أصوات انطلقت من الجانب الذي برسالته كان قد آمن تطالبه بمعجزة تكون البرهان لا فحسب على صحة الرسالة وإنما أيضاً على عصمة التبليغ!... فترة عصيبة لا ثمة شك كانت هذه الفترة التي ضاعف من شدتها أنها كانت إحدى الفترات الحاسمة في حياة الدعوة التي دفعت محمداً إلى أن يزيد الأواصر بينه والأوَل من «السابقين» متانةً على متانةٍ وشدة على شدة بصلة المصاهرة فخطب إلى أبي بكر ابنته عائشة، صبية تحبو على مدارج السابعة.. وبعائشة ربطت بين محمد وأبي بكر رابطة صلةٍ بها أبو بكر يفخر ويعتز هذا بينما راحت الأصوات من حول محمد تُدوي تطالبه في إلحاح بأن عليه، إذا كان صادقاً، تقدمة البرهان و:

﴿قالوا، لن نُؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء، كما زعمت، علينا كسفاً أو تأتي باللّه والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء﴾!.

الآي ٩٠ إلى ٩٣ من «سورة الإسراء»

إن قريشاً تتحدّى وتسخر!. وللتحدي القريشي والسخرية القريشية، رداً، أتى:

الإسراء المحمدي إلى بيت المقدس والمعراج إلى السماء «٦٢١م»

من بيت هند بنت أبي طالب طلع محمد صبحاً وصابح مكة يتلو: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...﴾**

الآية الأولى من «سورة الإسراء»

أما كيف؟ فسؤال، الجواب عنه يأتينا من شفتي محمد حديثاً يُحدِّث:

«بينما أنا نائم في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي إلى السماء».

كيف؟.. لا تسألنّ كيف فإنه:

«بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه فجلست فلم أرَ شيئاً فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أرَ شيئاً فعدت إلى مضجعي فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة بين البغل والحمار. في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه. يضع يده في منتهى طرفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته فلما دنوت منه لأركبه شمس، فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: ألا تستحيي يا براق مما تصنع؟ فواللّه يا براق ما ركبك عبد للّه قبل محمد أكرم على اللّه منه! فاستحيى حتى ارفض عرقاً ثم قرّ حتى ركبتيه!...»

«محمد»

إلى هذا الحديث لا نصغي إلاّ لنصغي إلى محمدٍ مسترسلاً في حديثه مُردِّداً ما قد حَدَّث به هند قائلاً: «يا أم هانيء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه!.

ثم، لما فرغت مما كان في بيت المقدس أُتي بالمعراج ولم أرَ شيئاً قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف مَلَك تحت يدي كل ملك اثنا عشر ألف ملك... فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: محمد!. قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم. فدعا لي بخير...».

وهكذا.. «تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا فلم يلقني مَلَك إلاّ ضاحكاً مستبشراً يقول خيراً ويدعو به حتى لقيني ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا لي بمثل ما دعوا به إلاّ أنه لم يضحك ولم أرَ منه من البشر مثل ما رأيت من غيره، فقلت لجبريل: يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أرَ من البشر مثل ما رأيته منهم؟ فقال لي جبريل: أما أنه لو كان ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك ولكنه لا يضحك أبداً!.. هذا مالك خازن النار!...

فقلت لجبريل: وهو من اللّه تعالى بالمكان الذي وصفه لكم مطاعٌ ثم أمين، ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال: بلى، يا مالك، أر محمداً النار!. فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى!.. فقلت لجبريل: يا جبريل مره ليردها إلى مكانها!.. فأمره

فقال لها: أخْبِ!. فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه فما شبهت رجوعها إلاّ وقوع الظل، حتى إذا دخلت من حيث خرجت ردّ عليها غطاءها!..».

أما ما تضمه السماء الدنيا، فإنه:

«لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويسرّ: ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أف!. ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث!. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم! تعرض عليه أرواح ذريته، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سرّ بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب، وإذا مرّت روح الكافر منه أنف منها وكرهها وساءه ذلك وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث!..

ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قِطَع من نار كالأفهار يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً!..

ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أرَ مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من أماكنهم تلك فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: أكلة الربا. ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين أبيض إلى جانبه لحم غثّ نتنٌ يأكلون من الغث النتن ويتركون السمين الطيب فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ اللّه لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرّم اللّه عليهم منهن.

ثم رأيت نساء معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللائي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم».

هذا ما تضمه السماء الأولى، أما السماء الثانية حتى السابعة فنفهم مَن فيها ونحن نواصل إلى محمدٍ الإصغاء وهو يحدثنا قائلاً:

«ثم أصعدني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابني الخالة: عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا.

ثم أصعدني إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك يوسف بن يعقوب.

ثم أصعدني إلى السماء الرابعة فإذا فيها رجل فسألته من هو؟ قال: هذا إدريس ورفعناه مكاناً علياً.

ثم أصعدني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية عظيم العيون لم أرَ

كهلاً أجمل منه قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا المحبب في قومه هارون بن عمران.

ثم أصعدني إلى السماء السادسة فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى كأنه من رجال شنوءة فقلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران!.

ثم أصعدني إلى السماء السابعة فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب «البيت المعمور» يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة لم أرَ رجلاً أشبه بصاحبكم ولا أشبه به منه قلت من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لعساء فسألت: لمن أنت؟ وقد أعجبتني!.. قالت: لزيد بن حارثة!.»

محمد

ومحدثاً يسترسل محمد ليطرق منه الصوت مسامع إليه قد اشتد بها الإصغاء: «إن جبريل لم يصعد بي إلى سماء من السموات إلاّ قالوا له حين يستأذن في دخولها: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم فيقولون: أو قد بُعث؟ فيقول: نعم؟ فيقولون: حياه الله من أخٍ وصاحب حتى انتهى بي إلى السماء السابعة».

وعن السماء السابعة حيث «البيت المعمور» وهو البيت الذي على نمطه وصورته بني «البيت» على الأرض. وحيث في السماء السابعة يقع «عرش الله» ويوجد «الله» مَن انتهى به جبريل إليه يسترسل من محمد الحديث يقول:

«ففرض عليّ خمسين صلاة كل يوم فأقبلت راجعاً فمررت بموسى بن عمران، ونَعْم الصاحب كان لكم، فسألني: كم فرض عليك من الصلاة؟ قلت: خمسين صلاة كل يوم.

قال: إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة فارجع إلى ربك فاسأل أن يُخفف عنك وعن أمتك. فرجعت، فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي فوضع عني عشراً. ثم انصرفت على موسى فقال لي مثل ذلك فرجعت، فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي فوضع عني عشراً. ثم انصرفت فمررت على موسى فقال مثل ذلك فرجعت، فسألت ربي فوضع عني عشراً، فمررت على موسى ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك كلما رجعت إليه. فارجع فاسأل حتى انتهيت إلى أن وضع عني إلى خمس صلوات في كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك. فقلت: قد راجعت ربي وساءلت حتى استحييت منه فما أنا بفاعل!.»[1].

محمد

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٢.

بهذا الرّد على مطالبته بالبرهان وللكفّ من التحدّي القريشي طلع محمد من بيت هند بهذا الحديث عن الإسراء والمعراج ليروح في أرجاء مكة الصوت منه دوياً كان صداه السؤال:

أإلى السماء بمحمد رقي والحديث يحدث محمد!؟.. ووهل لأول وهلة من وهل وجفل مرتداً من جفل حتى أبا بكر!.

وإلى أبي بكر فزع من فزع من الأتباع له ينادي: هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنه كان هذه الليلة ببيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة؟!. إلاّ ليحسب أبو بكر أن هذا افتراء على محمد فصاح: إنكم تكذبون عليه!.

ولكن!. ليطرق أبو بكر لحظة إذ يأتيه النبأ بأن محمداً في المسجد الحرام يُحدث الناس هذا الحديث، ومستدركاً يهب قائلاً: والله لئن كان قاله لقد صدق[1]!..

على القول المحمدي صادق أبو بكر. ومن ثم كان على أبي بكر الإنعام بلقب: «الصدِّيق»!.

وبإيمان «الصدِّيق»، وهذا إنما لقب يحمل من المعاني معنى لا يفهمه الفهم إلاّ في ضوء ذلك العصر، عاد كثير ممن كان قد جفل وإلى محمد عاد مرتداً مَن عنه كان قد ارتدّ!

ولكن!.. أهل البلاغة والحجة من قريش أهل الفصاحة والفهم من قوم محمد يأبون على محمد التصديق!.

أجل... لقد تحدّوه!... تحدّاه أهل الفهم بمعجزة الرقيّ إلى السماء ولكنه ما طلع عليهم يقول بأنه قد رقى إلى السماء إلاّ ليأبى الفهم منهم لهذا الرقي فهماً ولا يرضى لهذا الرقي، تحت هذه الصورة، قبولاً من ثم فاستهزاء قريش واستنكار ذوي الأسنان والشرف فيها بكل ما إليه تتألف من قبائل ففرع عبد العزّى يستنكر وعلى رأسه الأسود بن عبد المطلب وبنو زهرة تستنكر وعلى رأسها الأسود بن يغوث وبنو مخزوم تستنكر وعلى رأسها الحرث بن الطلاطلة.

كل الرؤوس القريشية تستنكر الإسراء بمحمد إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماء، فهي وإن كانت حقاً قد تحدت محمداً بمعجزة الرقي إلى السماء إلاّ أنها لا ترى هذه المعجزة مستوفية شروط الإقناع، فهذه وإن كانت لم يشهدها أحد فإنما بصدقها لا يستطيع

---

(١) النسفي.

أن يشهد أحد لا سيما وأن هذا الرقي لم يكن بالروح وإنما بالجسد. فأصوات المؤمنين بمحمد تتهامس بما راح على الأجيال يتردد بأن: الإسراء كان في **اليقظة إذ لا فضيلة للحالم** ولا مزية للنائم![1].

لا جدل من ثم في أن «الإسراء» كان حسّياً جسدياً و«المعراج» كان في اليقظة لا في المنام والبرهان على ذلك يأتينا من شفاه محمد من خلال قوله: «بأن آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرهم حس الدابة فندّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء وقد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من[2] البيضاء ثنية التنعيم». فسبحانه إنه:

﴿يُدير الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾!

الآية ٥ من «سورة السجدة»

فإنه: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون..﴾!**

الآية ٤ من «سورة المعراج»

وأي اعتراض يمكن أن يُقدَّم على أن محمداً قد عرج بجسده إلى السماء، و:

﴿السماء بناها، رفع سمكها فسواها﴾؟..

الآي ٢٧ و٢٨ من «سورة النازعات»

بل وأية غرابة و: **﴿...السماء سقفاً محفوظاً﴾؟!.**

الآية ٣٢ من «سورة الأنبياء»

لا ثمة شك في أن الحديث عن حدث «الإسراء» إنما حديث صريح بأن هناك سماء تعلو سماء وأن العدد منهن ينحصر في سبع، فقد:

﴿... خلق الله سبع سموات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾.

الآي ١٥ ـ ١٦ من «سورة نوح»

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس.

وأنه هو: **﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾.**

الآية ٥٩ من «سورة الفرقان»

وأما كيف؟. فقد:

﴿...خلق الأرض في يومين... وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾.

الآي ٩ و١٠ من «سورة فصلت»

ثم.. **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحِفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾.**

الآي ١١ و١٢ من «سورة فصلت»

ثم.. **﴿.. ثم استوى على العرش﴾.**

الآية ٣ من «سورة يونس»، والآية ٥٩ من «سورة الفرقان»

وهكذا نرى أنه ليس هناك حجة تستطيع أن تتخذها قريش أداة تنقض بها القول بأن «المعراج» كان حسياً جسدياً إذا كانت قد آمنت قريش بهذه الآي. ولكن!.. «بالإسراء» رسخت ريبة قريش بمحمد وأكد هذه الريبة لها منطق راح منذ سنين يرميه بالافتراء على اللّه وتقويل اللّه كَلِماً له لم يقل اللّه ومن ثم اشتد، بعد هذا الحدث، من قريش استنكار أمر «الدعوة» استنكاراً كان له أثره القوي هذه المرة، فقد انضمت إلى قريش طائفة من الذين كانوا قد آمنوا من قبل بمحمد وأعلنت عنه ارتدادها، ومن ثم انحسار الإسراء عن:

ارتداد بعض من أسلم وتضعضع المسلمين

وجدت قريش لها مؤازراً في مَن عن محمد ارتد وراح في اتباع لمنطقها يجري له منطق رامياً محمداً بالبهتان وبالافتراء على اللّه.. ليأتي هذا الارتداد بنتيجته الحتمية، مما كان السبب لا فحسب في تضعضع حال المسلمين بعد الإسراء وإنما في انعقاد غيوم الشدة على جبهة محمد!..

أية شدة يلقاها الآن محمد؟!..

يقيناً أية شدة يلقاها الآن محمد في مكة وعبثاً بدأت في مكة تُطْوى ـ بين الأعمام ـ الأيام؟!

وكانت إطراقة.. إطراقة يسجلها التاريخ لحظة دارت اللوالب الفكرية لمحمد ترى أن من

المحال للهدف بلوغاً إلاّ بالتغلب على قريش عن طريق مغالبة قوتها بقوةٍ لن يكوِّنها إلاّ أتباع أقوياء يفتدون وعن إيمانهم لا يرتدون وبدورهم يؤلفون جيشاً مكيناً يحمي ويذود..

ولكن!.. أين هؤلاء الأتباع وأين هذه الحماية؟!

لقد هبط محمد بطناً بعد بطن وعلى قبيلةٍ بعد قبيلة أقبل يطلب لأمره تعضيداً ولدعوته مؤازرة فما كان رد القبائل إلاّ له رداً!.. ردته كل قبيلة بشر مما ردّته به الأخرى وكانت «ثقيف» أشدّهم شراً!.

والآن؟.. يقيناً إن عبثاً تُطوى في مكة الأيام وعبثاً إلى بعض يسلم بعضها بعضاً طالما أن قريشاً لا تؤمن بأن ما يقوله إنما وحي من السماء، وكأن قد غدت لا تفرّق بينه وبين سواد ابن قارب، أحد كهنتها، الذي قد طلع يُحدِّث حديث الكهان قائلاً:

«بينما أنا نائم ذات ليلة بين النائم واليقظ إذ أتاني رئيّ فضربني برجله وقال: قم يا سواد ابن قارب واسمع مقالتي إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب!

قلت: دعني أنام فأمسيت ناعساً، فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل أنه قد بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من لؤي بن غالب يدعو إلى اللّه عزّ وجل وإلى عبادته قلت: دعني أنام فإني أبيت ناعساً، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب!».

كلا!.. إن لقريش قلباً إلى محمد لا يلين كلا ولا يثير في جوانبها القلق منه «الكَلِم» الذي انطلق ينذرها بعاقبة كعاقبة عاد وثمود عقاباً على عدم إيمانها به. كلا.. ولا يهزها ما تسمعه من شفتيه من التصوير القاتم للعذاب في «جهنم» وفي «سقر». كلا ولا إليه يجتذبها ما من شفتيه يأتي أيضاً من التصوير الممتع للنعيم في «الجنة» وفي «الفردوس»!.. وسجل ذلك ما قد تدفق في غضون هذه الفترة من الزمن ليكوّن السور المتأخرة من القسم المكي الذي ألف سُور:

الإسراء، فيونس، فهود، فيوسف، فالحجر، فالأنعام، فالصافات، فلقمان، فسبأ، فالزمر، فغافر، ففصلت، فالشورى، فالزخرف، فالدخان، فالجاثية، فالأحقاف، فالذاريات، فالغاشية، فالكهف، فالنحل، فنوح، فإبراهيم، فالأنبياء، فالمؤمنون، فالسجدة، فالطور.

كلا!. إن القلب القريشي أمام توالي هذه السُوَر لا يزداد لمحمد إلاّ جفوة ولا يثنيه عن هذه الجفوة أن يرى أن محمداً على مساءات قريش لا يرد!

كلا.. إن محمداً لا يرد الآن لا فحسب لأنه يعلم أنه من قريش أضعف وإنما لأنه يعلم

أن بني هاشم وإن منعوه من الاعتداء عليه فلن يمنعوه ولن ينصروه مُعتدياً!.. ومن ثم نرى محمداً في غضون هذه الفترة الزمنية السياسي المسالم وسلاحه الوحيد آيات التخويف بيوم بعثٍ فيه يحاسب المرء على الهدى والضلال راداً الهدى والضلال إلى الإرادة الإلهية وإلى الإرادة البشرية ومعلناً أن جزاء الضلال الجحيم وجزاء الهدى الجنة. فإن الآي في ما قد تقدّم من سُوَرٍ تتوالى تقول:

﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها﴾.

الآية ١٥ من «سورة الإسراء»

﴿ومن يهد اللّه فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾.

الآية ٩٧ من «سورة الإسراء»

وللضالين يأتي عقاب هذا لونه:

﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾!

الآية ٩٧ من «سورة الإسراء»

العقاب عقاب مَن لهم لم يهد اللّه وأراد لهم ضلالاً وللإرادة الإلهية في ذلك غاية فإن:

﴿إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾!

الآية ١٦ من «سورة الإسراء»

﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾.

الآية ١١٧ من «سورة هود»

ولكن.. **﴿وإن من قرية إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾!**

الآية ٥٨ من «سورة الإسراء»

على هذا النحو توالت الآي والأيام بمحمد بعد حدث «الإسراء» تتوالى ولقريش قلب قد ازداد منه نفوراً ومنه توجساً، لا يردعها توالي «الكَلِم» المتحدر من شفتيه مصوِّراً الصُور الواضحة الألوان من العذاب في النار. كلا ولا يجتذبها ما يُصوّره هذا «الكلم» من الصور الواضحة الألوان للنعيم في الجنة وكأن قريشاً إلى ما يتلو محمد قرآناً عن هذه الآخرة لا تسمع!... لماذا؟.

سؤال، تأتي عنه الإجابة من شفتي محمد بأن اللّه له يقول:

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يُؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾!

الآي ٤٥ و٤٦ من «سورة الإسراء»

كل فرد من هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذه الآخرة جعل اللّه على قلبه أكنة أن يفقهه وفي أذنه وقراً ومن ثم:

﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم﴾!

الآية ٧ من «سورة لقمان»

وهنا... هنا حتماً نجد أنفسنا نتساءل ونحن نستعرض ما تضمه الآي التي توالت في غضون هذه الفترة الدقيقة من تاريخ تكوين الدين الإسلامي: لماذا كانت من قريش كل هذه الجفوة ولماذا أشاحت شامخة منها الرؤوس وأي شيء على محمد أخذت وتأخذ ومحمد لا يأخذ عليها إلاّ اتخاذها الشفعاء زلفى إلى اللّه وهذا إنما أمر قد عابه عليها، من قبل محمد، الرعيل الأول من الأحناف؟!

يقيناً لقد عاب أصحاب الدين الحنيف، من قبل محمد، على قريش اتخاذها الشفعاء فما جافتهم هذه الجفوة التي تلقاها دعوة محمد وهو لا يقول إلاّ بأنه قد أُمر باتباع الدين الحنيف وعبادة رب هذه البلدة وأنه من اللّه الذي له يعبدون قد جاء للدين الفطري رسولاً وأن الاعتراف برسالته إنما يُكوِّن ديناً اسمه الإسلام هو نفسه إنما كان دين من قد جاء قبل محمد من الرسل والأنبياء الذين بهم هم يؤمنون.

إن نوحاً كان مسلماً فإنه لقومه قد قال: **﴿وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾!**

الآية ٧٢ من «سورة يونس»

وإن موسى كان مسلماً فإنه لقومه قد قال: **﴿يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾!**

الآية ٨٤ من «سورة يونس»

وإن سليمان كان مسلماً فإنه إلى ملكة سبأ قد كتب: **﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم، ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾!**

الآية ٣٠ و٣١ من «سورة النمل»

إذن... أي شيء تأخذه قريش على محمد وبرأيها فيه تزداد إصراراً لا سيما وهي تسمعه يقول:

﴿ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾؟!

الآية ٩٩ من «سورة يونس»

فإنه: **﴿وما كان لنفسٍ أن تُؤمن إلاّ بإذن اللّه﴾**!

الآية ١٠٠ من «سورة يونس»

أي شيء تأخذه قريش على محمد والصوت منه يرتفع يناديها:

﴿... يا أيها الناس، قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾.

الآية ١٠٨ من «سورة يونس»

لا جدل أن الفكر إذ يستعرض هذا «الكَلِم» ولمعانيه يتأمل فليس إلاّ لتتجلّى في وضوحِ الشخصية المحمدية، وليس إلاّ ليلمس فيها تلك السياسة البعيدة الغور والمسفرة جلياً من مقاطع الكلمة الأخيرة المنادية الناس بأن محمداً ليس عليهم بوكيل... فمحمد في غضون هذه الفترة الزمنية، لا يجبر الناس على اعتناق الإسلام وإلاّ فالقتل وضرب الرقاب كما قد حدث من بعد غداة غدا قوياً وإنما وهو ما زال غضون هذه الفترة مهيض الجناح محفوفاً بأتباع مهما كثروا وتكاثروا فإن العدد منهم ليتضاءل بجانب قريش، كما أن بهم الجانب منه أمام قريش العزيزة الجانب ما زال غير عزيز وليس له من سلاح إلاّ هذا «الكلم» الذي ينطلق متوعداً قومه بيومٍ قد يصيبهم فيه ما أصاب قومِ نوح وعاد وهود وصالح وثمود وإبراهيم ولوط، كما من جديد كُرِّرت هذه القصص في «الكَلِم» الذي كوّن الكثير من «سورة هود».

ولكن!.. قريشاً واصلت الاستخفاف بالاستخفاف فما زال يستخفها الكفر بمحمد حتى المدى الذي جاوبه الجانب المحمدي مُردِّداً بأن حقاً:

﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا﴾!

الآية ٩٩ من «سورة يونس»

بل يقيناً: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين﴾**!

الآي ١١٨ و١١٩ من «سورة هود»

ولكن!... بينما كانت تهتز أعطاف المؤمنين طرباً لأنه من رحم اللّه راحت الخوالج القريشية تختلج خلجات الانفعال وينبعث من أعماقها رجع الصدى بسؤال يقفو سؤالاً وبمحمد يحيط متسائلاً: أما عندك غير قصص نوح وعاد وثمود وصالح وناقة اللّه؟!.

يقيناً إنه للحدِّ من سخرية قريش انفرجت شفتا محمد عن «سورة يوسف».. ولكن!. لم ينته محمد من تلاوة هذه القصة التي تتحدث عن انتقال آل يعقوب من الشام إلى مصر إلا وساخرة تنطلق قريش تنادي محمداً بنداء راح رجع صداه على شفتي محمد مسجِّلاً:

﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾!

الآية ٦ من «سورة الحجر»

تباً لقريش!.. تاللّه إن قريشاً لفئة أغواها من قد أغواه اللّه فانقلب من ملكٍ إلى شيطان كما تأتي بذلك في القرآن قصة تقص الحديث الذي جرى بين الإله و«إبليس» حين لعنه اللّه قائلاً:

﴿وإنّ عليك اللّعنة إلى يوم الدين، قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾!

الآي من ٣٥ إلى ٣٩ من «سورة الحجر»

تاللّه إن الشيطان قد أغوى قريشاً فاسترسلت ساخرة هازئة ولكنها قد تمادت حتى المدى الذي يكاد به أن يجف في الصدور ينبوع صبرٍ لشدّ ما إليه محمد الآن في حاجة! إلاّ أن هنا.. هنا تزداد الشخصية المحمدية على وضوح وضوحاً يتجلّى في إخلادها إلى الصبر ولما كان أبرز مظهر من مِظاهر الصبر إنما الصفح فإن «الكَلِم» المسترسل قد انطلق بنغمةٍ تتغنّى:

﴿... فاصفح الصفح الجميل﴾!

الآية ٨٥ من «سورة الحجر»

يقيناً إن هذه الجملة المليئة بالرحمة والحنان قد نُسِخَت من بعد. نسختها، بعد سنين غدا فيها محمد قوياً ذا جيش وصلاح، آيات القتال[1] ولكنها إنما جملة تنمّ عن مقدار ما احتمله محمد صابراً غضون هذه الفترة الزمنية التي كان قد تضاعف فيها عن ذي قبل استهزاء قريش به استهزاءً لم يكن مصدره فحسب ارتداد بعض الأتباع بعد حدث «الإسراء» وإنما مدده كانت لهب تلك السخرية التي اندلعت بهذا الحدث الذي تزعم التنديد به

(١) سيرة ابن هشام.

خمسة من الرؤوس القريشية كل منهم يقف سيداً لقومه لحظة دوّت منهم الأصوات تُرجِّع في الآفاق العربية سخريتها من محمد صباح ليلة «الإسراء»!.

ولكن!.. إلى هؤلاء المستهزئين الخمسة، أشد الرؤوس صلابة بين ذوي الأسنان والشرف، امتدت للمرة بعد المرة يد خفية ألقت على الواحد بعد الآخر لوناً بعد لون من ألوان الرَدَى عجيب، فقد قضى الوليد بن المغيرة، سيد بني مخزوم، بسهمٍ مسمومٍ صريعاً، وقضى العاص ابن وائل، سيد بني سهم، بشوكة مسمومة مسموماً، وقضى الأسودَ بن المطلب غداة أشار محمد إلى عينيه فرُمي بورقة في وجهه بسببها ذهب بصره، وقضى الأسود بن يغوث، سيد بني زهرة، بضربة في بطنه، وأما سيد بني خزاعة الحرثُ بن الطلاطلة فقضت عليه ضربة على رأسه[1]...

وانفرجت شفتا محمدٍ بكلمة لها في النفس وقع ورنين تقول إن اللّه له يقول:

﴿إنّا كفيناك المُستهزئين﴾!.

الآية ٩٥ من «سورة الحجر»

بيد أنه لئن كفّت اليد الخفية عن محمد المستهزئين في هذه الفترة العجيبة من فترات تاريخ محمد فإن الجدل من حول القصص قد ظلّ ثائراً، وقريش وعلى رأسها أبو سفيان لا تسأل النضر بن الحرث ربيب «مدرسة جنديسابور» ومحدثها عن «أساطير الأوّلين»: ماذا يقول محمد؟ إلاّ ومنه يأتيها الجواب مقسماً:

«واللّه، ما أدري ما يقول محمد إلاّ أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما أحدثكم به عن القرون الماضية!».

كلا!.. إنه لا يحرك لسانه فإنما محمد يقول بأن اللّه عن قريش يقول:

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾!.

الآية ٤٦ من «سورة الإسراء»

﴿...انظر كيف نُصرِّف الآيات لعلهم يفقهون﴾!

الآية ٦٥ من «سورة الأنعام»

ولكن!... حقاً: ﴿... ولو شاء اللّه لجمعهم على الهدى﴾.

الآية ٣٥ من «سورة الأنعام»

---

(١) **حياة محمد**، للدكتور محمد حسين هيكل.

فإن: ﴿... **من يشأ اللّه يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم**﴾.

الآية ٣٩ من «سورة الأنعام»

من ثم فلقومك: ﴿.. **قُل لست عليكم بوكيل..**﴾!

الآية ٦٦ من «سورة الأنعام»

كلا.. ليس على محمد هداهم وما هو عليهم بوكيل فلقد سبق القول بأنه:

﴿**وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين**﴾.

الآية ٤٨ من «سورة الأنعام»

وهنا يسترسل «الكَلِم» من شفتي محمد ضارباً الأمثال بالمرسلين، ومن ثم فمرة أخرى تُكرر قصة إبراهيم ونوح وسليمان ويوسف وموسى وهارون ولوط وعيسى، وسجّل ذلك: «سورة الأنعام».. كل هؤلاء المرسلين الذين تكرر عنهم الذكر في «سورة الأنعام» ما كانوا إلاّ مبشرين ومنذرين. إذاً ما لقريش تخوض في مناقشاتها في أمر ما يتحدّر من شفتي محمد من كَلِم بل وبمحمد تحيط وله تناقش حتى المدى الذي لم يحده إلاّ كَلِم تحدّر من شفتي محمد يُعْفيه من مجالسة المناقشين في صحة الآيات:

﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾!

الآية ٦٨ من «سورة الأنعام»

من ثم: ﴿**وأعرض عن المشركين**﴾!

الآية ١٠٦ من «سورة الأنعام»

لأنه: ﴿**لو شاء اللّه ما أشركوا**﴾!

الآية ١٠٧ من «سورة الأنعام»

لا ثمة شك: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء اللّه ما أشركنا.. كذلك كذّب الذين من قبلهم.. فللّه الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾!

الآية ١٤٩ من «سورة الأنعام»

ولكن: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه، فذرهم وما يفترون**﴾!

الآية ١١٢ من «سورة الأنعام»

وليس ذلك إلاّ لأن: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يُضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً.. كذلك يجعل اللّه الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾!.

الآية ١٢٥ من «سورة الأنعام»

من ثم: ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى**﴾؟!.

الآية ٥٥ من «سورة الكهف»

ولكن! ﴿**ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء اللّه**﴾!

الآية ١١١ من «سورة الأنعام»

تاللّه إن هناك لبوناً بَيِّناً بين من كان بمحمد قد آمن وبين من بمحمد كان قد كفر لأن على الأخير قد حقت الضلالة ولأن على الأول قد حق الهدى ولكل على ذلك جزاء، فأما الأول فإنه من:

﴿**عباد اللّه المخلصين، أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون، في جنات النعيم، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين؛ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيض مكنون**﴾!

الآي من ٤٠ إلى ٤٩ من «سورة الصافات»

﴿**أذلك خير نُزلاً أم شجرة الزقوم**﴾؟!

الآية ٦٢ من «سورة الصافات»

لا تسخروا، فإنها شجرة هي نصيب هذا الآخر الذي عليه قد حقّت الضلالة وعنها قد جاء الوصف:

﴿**إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم**﴾!

الآية من ٦٤ إلى ٦٨ من «سورة الصافات»

بيْد أن ساخرة تضاحكت قريش. فقد سكن الكفرُ بمحمد منها القلب، ومن وراء أبي الحكم بن هشام، الساخر «بشجرة الزقوم»، انطلقت ساخرة لا يردعها عن سخريتها الوعيد بجحيم فيه المكذب محمداً سيسلك:

﴿**في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً**﴾!

الآية ٢٢ من «سورة الحاقة»

وإن له فيها سيقال: ﴿**خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم**﴾!

الآية ٤٧ و٤٨ من «سورة الدخان»

وإن فيها سيقضي هذه الحياة الأخروية بعيداً عن مكانٍ أُعد لمن بمحمد كانت قد آمنت منهم القلوب فأولئك لهم:

﴿**جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب**﴾.

الآي ٥٠ و٥١ من «سورة ص»

حينذاك سيقول كلُّ مَن بمحمد كرسولٍ لم يؤمن: ﴿**يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً**﴾!

الآية ٢٧ من «سورة الفرقان»

ولكن!. حقّت كلمة اللّه: ﴿**فمنهم من هدى اللّه ومنهم من حقّت عليه الضلالة**﴾.

الآية ٣٦ من «سورة النحل»

لأنه: ﴿**ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾!

الآية ٩ من «سورة النحل»

فيقيناً إن: ﴿**ومن يهد اللّه فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا**﴾!

الآية ٩٧ من «سورة الإسراء»

ولكن! عن الوعيد وعن الوعد راحت قريش لاهية بسخريتها ليتحول إليها، أيضاً في غضون هذه الفترة الزمنية، محمد رادعاً، ومن ثم فمرة أخرى تُكرَّر قصص نوح وإبراهيم وهارون ولوط وموسى إلى جانب قصةٍ أخرى كانت تختلج بها شفاه «عدّاس» قبل أن تسجّل نصوصاً قدسية تضمها دفتا القرآن تحت اسم «سورة يونس».. بيد أن ما أصغت أيضاً قريش إلى هذه القصة المتحدثة بأنه كان هناك رجل صالح تحت اسم يونس التقمه الحوت فظلّ في بطنه أياماً قبل أن ينبذه بالعراء حياً وتحت شجرةٍ من يقطين، كما تسجّل ذلك الآيات من ١٣٩ إلى ١٤٨ من نفس السورة، إلاّ وراح منها الصوت أصداء أنفذ من ذي قبل تردِّد عن النضر بن الحرث:

محض أساطير! تاللّه إن قريشاً لتأبى الإيمان بكل ما يقصه محمد من قصص!. فهو لا

يقص قصة إلاّ وساخرة ترسل الصوت مُردِّداً بأنها أساطير الأولين وكأن كل ما يقصه من القصص قد تساوت في نظرها حتى أعادتها بحذافيرها إلي محض أساطير، ودلالة على ذلك أنها لا تقول عن «قصة يونس» إنها محض أسطورة إلاّ لتقول نفس القول عن «قصة لقمان»، وهذه إنما قصة انفرجت عنها شفتا محمد في غضون نفس هذه الفترة التي فيها قدم مكة سويدّ بن الصامت، هذا السيد من أشراف يثرب ومن كانت تنعته يثرب لشرفه «بالكامل»، غداة تصدّى له محمد وعرض عليه الإيمان بنبوته ليسأله سويد: «فلعل الذي معك مثل الذي معي؟» وليسأل محمد: «وما الذي معك» قال: «صحيفة لقمان» وقال محمد: «اعرضها عليّ». وعرض سويد على محمدٍ قصة لقمان ووافق «الوحي» على هذه القصة، فبينما كان سويد يقع صريعاً بعد عودته إلى يثرب أبى «الوحي» إلاّ أن يُسجّل هذه القصة من خلال شفاه محمد كما أبت قريش أن تُصدّق بأنها وحي من السماء!..

لا ثمة شك في أن قريشاً قد تجاوزت في تكذيب محمد المدى الذي كان حتماً أن تهتز منه الجوانب المحمدية بانفعالات المضض!.. فإن محمداً لا يقصُّ قصة ومن حوله تتشابك في خشوع حلقات الأتباع إلاّ وينطلق من الجانب القريشي الصوت بأن ما يقصّ إنما أساطير!.. بل ولا يأتي من محمدٍ وعد بنعيم ووعيدٍ بجحيم ومن حوله يزداد التصاق المؤمنين إلاّ وتنطلق من الحناجر القريشية قهقهات السخرية وإلاّ وتلاحقه منها بسمات الاستهزاء!. أية محنة نفسية تُعرِّض قريش لها محمداً في هذه الفترة من تاريخ دعوته والأيام تسجِّل في سجلِّ الزمن السنة العاشرة لقيام «الدعوة»؟!.

يقيناً إنها لفترة عصيبة هذه الفترة التي تسجّل السنة العاشرة في تاريخ «الدعوة»، ففي غضونها قد أصبح واضحاً تمام الوضوح أن قريشاً قد رفضت أمر محمد رفضاً تاماً وقاطعاً وأنها لن تقبله أبداً!.. حقيقة ما تجلّت لمحمد وله اتضحت إلاّ لتولّد فيه اليقين بأن عبثاً إنما تُطوى في مكة الأيام بين الأعمام!.

ويقيناً!.. عبثاً تُطوى في مكة الأيام بين الأعمام ما دام أن الأعمام تأبى إلاّ الإباء.!

وهنا.. هنا تدور اللّوالب الفكرية من محمد دورة تتخذ بها «الدعوة» دورها العملي الحاسم ويبدأ بها تاريخ تكوّن الإسلام كدين دوره الإيجابي. فقد دارت هذه اللّوالب تستعرض ما قد مضى من أحداث حتى الآن.. حتى الآن كان محمد يقابل الإعراض بالإعراض والاستهزاء والسخرية بالهجر آناً وبالسلام آناً، وكل آنٍ بالصفح الجميل.. وأما الآن!. الآن وقد اتضح تمام الوضوح إعراض الأعمام ورفضهم الدعوة رفضاً حاسماً فليس إلاّ لتسير من محمد اللّوالب الفكرية على نغمة تقول: لئن أبى الأعمام فهناك الأخوال ولئن أبت مكة فهناك يثرب!.

إن في يثرب، قبيلتين عربيتين:

الخَزْرَج والأوْس في يثرب أوْس وخزْرَج وفي الخزرج النقباء من بني النجار ـ وبنو النجار إنما الأخوال!.. أخوال محمد من ناحية آمنة، أمه، وفي نفس الوقت هم أخوال جده عبد المطلب، ومن ثم ففي يثرب قربى موصولة وصلة قوية بخزرج تاريخها والأوس تاريخ التناحر على رياسةٍ كلاهما يبتغي منذ زمنٍ أن تكون له حتى كانت سبباً لثائرة بينهما لا يهدئها حرب ودافعاً لكليهما إلى التماس الحليف من القبائل العربية ليقاتل أحدهما الآخر!.. حتى كانت «واقعة بُعاث» التي فتت من عضد كليهما وعلى كليهما كانت، رغم انتصار الأوس فيها، وبالاً ـ فقد استعادت اليهود مكانتها بعد «بُعاث» وبعث سلطانها في يثرب من جديد بل ورسخت لها في يثرب مكانة إزاءها وجد كل من الخزرج والأوس نفسه مسوقاً إلى الالتصاق بالآخر ليكوّنا جبهة في بلدٍ يسود فيه أصحاب «التوراة» أصحاب «الكتاب الأول» ممن يرون لأنفسهم على الأوس والخزرج ميزة «بنبي رسول» و«كتاب منزّل» وبهما للأوس والخزرج يفاخرون مفاخرة كانت نتيجتها الحتمية تولد الضغائن بين الأوس والخزرج وبين اليهود، ومن ثم كانت الحرب عواناً بين اليهود من ناحية والخزرج والأوس من ناحية أخرى، ولهذا سبب يحدثنا عنه التاريخ فيقول:

إن يثرب مدينة تعتبرها اليهود لها خاصة ولكن الأوس والخزرج قد نازعتاها على هذه المدينة العامرة بالزراعة والماء وأراد كلاهما أن تكون له خاصة، وإلى هذه الغاية اتخذ كلاهما وسيلة الإيقاع باليهود وفي هدفهما نجحا بعض النجاح ولكن لوقيعتهما بهم فطن اليهود وبذلك تمكنت العداوة والبغضاء في نفوس يهود يثرب لأوسها وخزرجها[1] وبالتالي في نفوس الأوس والخزرج معاً ومَنْ بينهما كانت أيضاً قد استقرت عداوة اتخذت مصدرها من هدفٍ واحد هو أن ينفرد عن سواه بنيل سلطانٍ في مدينةٍ أمر السيادة فيها معقود لليهود!..

هذه هي الفترة من الزمن التي تدفّق في غضونها من اللّسان المحمدي «الكَلِم» الذي راح يُكوِّن من السُّوَر المكيّة سوراً رأت فيها مكة الدليل الأوفى على أن السياسة المحمدية قد تحولت ناحية يثرب، وأن محمداً يحاول التقرّب بها إلى اليهود وتتخذ على هذا التحول برهاناً لا فحسب التنادي بالرسُل الأولين من عنهم تُحدِّث اليهود وتُعلّم وإنما ترجيع الكَلِم القرآني لكثير من قصص «العهد القديم» تحت صورتها «التلمودية» كما كانت معروفة عند هؤلاء اليهود العرب...

(١) **حياة محمد**، للدكتور محمد حسين هيكل.

وبمنطقها آمنت قريش فهي ترى أن هذه الآي قد جعلت الأسماع العبرية في يثرب تهفو إلى الصوت المحمدي الآتي من بعيد وأن بها إلى محمد قد تحولت العين اليهودية ترنو من بعيد وهو يحدثها عن موسى وهارون وإبراهيم وهامان وفرعون وإلياس ويونس ولوط ونوح... بل ومن إيمانها بمنطقها راحت قريش تستمد القول على أن في هذا «الكلم»، ومحمد لا يلقي القول على عواهنه ولا جزافاً، البرهان القاطع على تحول السياسة المحمدية ناحية يثرب ومحاولة التقرّب إلى اليهود!...

إلى هذه النتيجة من الرأي أدّى المنطق القريشي بينما كانت اللوالب الفكرية من محمد تدور تلك الدورة التي دفعت بوجهه إلى يثرب...

وإلى يثرب تحوّل وجه محمد تحول وفيها شأن اليهود الشأن وبينها أوس وخزرج قد جمعت بينهما محنة «بعاث» التي إزاءها رأت الأوس المنتصرة والخزرج المهزومة، على سواء، وبيل ما صنعا، فلليهود بعد هذا «اليوم» قد رسخت في يثرب مكانة تُلجىء كليهما، أوساً وخزرجاً، إلى التفكير الجدّي في عاقبة الأمر على أسس صحيحة من سليم التفكير..

ويقيناً لقد جمعت بين الأوس والخزرج المحنة وإلى التفكير في مصير أمريهما قادتهما بعد «واقعة» الأحداث التي بعثت في نفسيهما عاطفة التماسك إلى حلٍ استقر فيه بهما الرأي على إقامة ملك مَلكٌ يُوحِّد من كلمتهما الكلمة ويجعل من متبعثر قوتيهما قوة متكاملة تصمد أمام هؤلاء الذين يفاخرونهما «بنبي رسول» و«كتاب منزّل»!. مَلِك، وإن كانا به لا يستطيعان ردّ المفاخرة بنفس المفاخرة إلاّ أن به ستكون لهما قوة وصؤلة وبه ستستقر لهما في يثرب مكانة قد تتطور بها الأيام إلى كامل سيادة!..

وإلى إقامة مَلِك عليهما لم يطل بالأوس والخزرج التفكير فقد اختارا مَلِكاً:

عبد الله بن محمد

إن عبد الله بن محمد[١] إنما خزرجي ومن الخزرج المهزومة بيْدَ أن لحزمه ولمكانته وشكيمته وحسن رأيه كانت الأوس ترى فيه رأي الخزرج ومن ثم اختارته الأوس واختارته الخزرج ليقيموه ملكاً. وتعاونت الأيدي منهما على أن تصوغ له تاجاً وتأهبت أنفاس التاريخ، والتاج له يُعد، لتعلنه على الأوس والخزرج مَلِكاً..

ولكن!.. هنا يقف التاريخ لحظة لتيار زمني هادر يجري متحولاً إلى مجرى غير المجرى

---

(١) النسفي.

كما تُسجّل هذا التحوّل تلك الفترة الزمنية من غضون سنة ٦٢٠م، فلقد حلّ موسم الحج من هذه السنة والحج إنما موسم تُعلّق فيه الأمور وتُزجا!.

وإلى الحج أقبل نفرٌ من الخزرج وفيها من ساداتها تيم اللّه بن النجار وأسعد بن زرارة من بني النجار أيضاً وهما خالا محمد، كما أن فيها من بني النجار أيضاً، هذا البطن من بطون الخزرج والذي كانت عليه وقفاً نقابة الخزرج، كانت «عفراء بنت عبيد» إحدى خالات محمد في ستة من ساداتها أقبلت الخزرج في ذاك الموسم تحجّ وتنشد حليفاً لتوحيد كلمتها والأوس.. وهنا يُحدِّثنا التاريخ الإسلامي بأن للقائها أسرع محمد حتى لقيها عند «العَقَبة».. ولتمر من عمر الزمن لحظات من ساعة اللقاء هي التي بدأ فيها تحوُّل التيار الزمني عن عبد اللّه بن محمد إلى محمد بن عبد اللّه!..

مما لا ريب فيه أن لعبد اللّه بن محمد كانت في الخزرج المكانة بل ومكين مكانة، ولكن!. لمحمد بن عبد اللّه إنما مكانة تتضاءل بجانبها ما لعبد اللّه بن محمد من مكانة وتقصر كل القصور عن أن يكون صاحبها نداً لمحمد بن عبد اللّه!.. فمما لا جدال فيه هو أن بين عبد اللّه بن محمد ومحمد بن عبد اللّه البون بيِّن والفرق شاسع، فمحمد بن عبد اللّه ليس فحسب ابن آمنة وآمنة من بني النجار وبالتالي ليس هو فحسب حفيد عبد المطلب من أخواله أيضاً بنو النجار،وإنما هو من قريش، وقريش إنما سيدة العرب، ثم هو من يحف به أتباع يؤمنون أنه «نبي ورسول» وعليه يتنزل «كتاب مُنزّل». ويقيناً إن الخزرج ومع الخزرج الأوس لأحْوَج بعد «بُعاث»، من أي يوم مضى، إلى سيد كالسيد!. فسيد كالسيد إنما به سيفاخرون!. سيفاخرون مفاخريهم «بنبي رسول» و«بكتاب منزّل» بأن لهم أيضاً «نبياً رسولاً» عليه يتنزّل «كتاب منزّل»!..

هذا هو، في ضوء التاريخ الصحيح، السبب الجوهري لقبول الخزرج ما قد عرض عليها محمد، وهذا هو السبب الذي جعل الخزرج له تقول: «فلا رجل أعز منك!».

وهنا يسترسل التاريخ الإسلامي ويُحدِّث بأن بعد ذلك عاد هذا البطن من بطون الخزرج ومن أخوال محمد إلى يثرب يلقون بالأمر إلى سائر الخزرج، لتجد «الدعوة» في نفوس سائر الخزرج مرعى خصيباً ما لبث أن امتدت به إلى الأوس معاً التي استجابت إليها استجابة بدأت بها تذوب في تلاشٍ بين الخزرج والأوس الدعوة إلى عبد اللّه بن محمد بالدعوة إلى:

محمد بن عبد اللّه

هذه هي الفترة التي سجّل فيها «الكَلِم القرآني» لآباء التوراة ذكراً لمحت فيه قريش اتجاه السياسة المحمدية ناحية يثرب ومحاولة محمد التقرّب به إلى اليهود، وهذه هي الفترة التي

جاء خلالها من مظاهر الأحداث ما يؤيد لقريش منطقاً فهذه هي الفترة التي سجّل فيها الزمن:

تحول وجه محمد في الصلاة عن الكعبة «بيت اللّه» إلى «بيت المقدس»

لا جدال في أن مكة قد وقفت تهتز غضبى أمام هذا التحول من محمد إلى «بيت المقدس» عن «بيت اللّه» وتعتبره خروجاً على بيت اللّه ولكن! هذا التحوّل كانت له أهدافه السياسية وبعيد مرماه... فهو إنما خطة سياسية ترمي إلى استمالة القلوب واستدرار العاطفة من قوم أقوياء تكاد أن تضيع بينهم هاتان القبيلتان العربيتان اللّتان لا بدّ كان أن يفهم منهما المعنى من وراء هذا التحوّل الذي بينما كانت مكة ترتعد منه غضباً كانت المسامع اليهودية في يثرب تهفو له طرباً وتسترق الإصغاء إلى هذا «الكلم» الذي انطلق من شفتي محمد يقص القصص عن أهل التوراة ويلهج بذكر موسى وداود وسليمان وخاصة سبأ، ومن سبأ كانت قد أقبلت الخزرج والأوْس بعد سيل العرم، لهجاً كوّن الكَلِم الذي ألّف «سورة سبأ»... إلى جانب القصص التي جاءت تُردِّد ذكر داود وسليمان ولكليهما في الذهن العبري صورة تنفث بين جانبي الشعب العبري روح العزة!.. من ثم فليكفّ بعد ذلك الجدل!.. فإن:

﴿ما يجادل في آيات اللّه إلاّ الذين كفروا﴾!

الآية ٤ من «سورة غافر»

يقيناً، لا يجادل في آيات اللّه إلاّ الكافرون وأما إذا طاف بمخيلة أحدٍ من المؤمنين بمحمد طائف شك فليستغفروا فإن:

﴿.. الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾.

الآية ٥ من «سورة الشورى»

ولكن!.. هنا تهب قريش كرة أخرى وكرة أخرى على هذا «الكَلِم» الذي إليه تصغي تثور معترضة على محمد اعتراضه عليها اتخاذها الملائكة شفعاء إلى اللّه وتنادي بأن تبعاً لهذا «الكَلِم» فإن وصمة الكفر لا تلحق بها لأن ما كان اتخاذها الملائكة إلاّ كما قد سبق منه على ذلك القول الذي لم يكن إلاّ عنها ترجيعاً:

﴿ليقربونا إلى اللّه زلفى﴾!.

الآية ٣ من «سورة الزمر»

ومن ثم بلسان عبد اللّه بن الزبعْرى ارتفع الصوت القُريشي يحاج محمداً:

«يا محمد ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه وعلى أمه خيراً وقد علمت أن النصارى يعبدونهما **وهكذا الملائكة يُعبدون!**»

هذه هي العقيدة الجوهرية التي انبثق بسببها وأسفر بين محمد وقريش من حولها الجدل فإن قريشاً، التي لم تكن تعلم ما قد حدث في «العقبة» مِن لقاء محمدٍ الخزرج، إنما قد استرسل بها الجدل على ما يأتي به محمد من آي وراحت معترضة تناديه أنك يا محمد ما قمت إلاّ معترضاً علينا اتخاذ الملائكة شفعاء إلى اللّه وعبادتنا الملائكة تحت الصفة التي تعبد بها النصارى عيسى ابن مريم ومريم. ثم إنك الآن تكِل إلى المشيئة الإلهية أمر كل شيء ومن ثم فلو شاء الرحمن ما عبدناهم!.

تباً لقريش! ﴿**وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلاّ يخرصون**﴾!

الآية ٢٠ من «سورة الزخرف»

حقاً إنك لو سألت قريشاً: ﴿**من خلق السموات والأرض.. ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾.

الآية ٩ من «سورة الزخرف».

إذن!.. فما لقريش، وهي المؤمنة باللّه، تأبى إلاّ التشفّع بالملائكة إلى اللّه في نفس الوقت الذي تأبى فيه الإيمان بمحمد كرسول من اللّه!؟

تاللّه إن: «هؤلاء قوم لا يؤمنون!»

في كفرها بمحمد تمادت قريش بل وتجاوزت المدى ولم ترعو ولم ترتدع فراحت تصفه بأنه:

﴿.. **معلم مجنون..**﴾!

الآية ١٤ من «سورة الدخان»

ولكن!.. ثمة سؤال يتساءله الفكر هنا: أما خافت قريش محمداً وهي ترى أن الوجه منه قد تحوّل ناحية يثرب تحولاً لم تلمحه فحسب وإنما منه قد أيقنت ولا سيما بعد أن رأته قد تحوّل في الصلاة عن الكعبة إلى بيت المقدس؟.

سؤال، لا يتساءله الفكر وهو يستعرض هذه الفترة التي تقتطع أيامها السنة العاشرة للدعوة إلاّ ويجيء من مجريات الأحداث الجواب بأن قريشاً ما زالت قوية الجانب ومن ثم لا تخاف من محمد الآن بطشاً.. وأي بطش منه الآن تخشى وهو ما زال مهيض الجناح

يقف بين أتباع مهما كثروا وتكاثروا فلا حول لهم بجانب أهل الحول ولا يملكون إلاّ أن يتواصوا بالصبر بينما تغلي في صدورهم مراجل الانفعالات النفسية إزاء ما يلقى محمد من صدود ولا يسكن ما في هذه الصدور من سعير النقمة إلاّ صوت محمد الذي انطلق رداً على قريش، إزاء وصفها له بمعلم مجنون، يقول إن اللّه له يقول:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾!

الآية ٨٩ من «سورة الزخرف»

لا شك في أنهم سوف يعلمون، وأما الآن فدعهم في غيهم يعمهون غافلين عما تُخبئه في الغد أيام كانت تحيك لمحمدٍ عليهم الانتصار، فهناك في يثرب كانت الدعاية الخزرجية، خلال هذه الأيام، تعمل بين الأوس جاهدة على جمعهم كافة عن حول محمد، وهناك في يثرب كانت أفئدة عبرية تستروح الاطمئنان، فإن من يأتيها منه الصوت من بعيد لا يقول بأن عليه يتنزل كتاباً إلاّ ليعترف اعترافاً صريحاً بأنه كتاب قد جاء:

﴿من قبله كتاب موسى﴾.

الآية ١٢ من «سورة الأحقاف»

وبين الوئيد والحثيث من الآنات سارت في موكب الزمن الأيام إلى يوم وافى فيه محمداً الخبر من الأخوال بأن بين الأوس قد نجحت الخزرج في الدعاية إليه وأنّهما معاً، خزرجاً وأوساً، يواعدانه اللقاء، سراً، عند «العقبة» في موسم الحج الآتي والوشيك الحلول..

وهنا تسترسل أنفاس الزمن تروي:

بيعة العقبة الأولى «٦٢١م» أو «البيعة التمهيدية»

إن الأيام قد استدارت ولبعضها أسلم بعضها بعضاً فاستدار العام وحلّ موسم الحج من عام ٦٢١م...

وأقبلت الخزرج آتية معها بالأوس في رهط يتألف من اثني عشر فيهم أخوال محمد ومن أخوال محمد فيهم هذه المرة النقيب وخلسة، حلّت الخزرج بهذا الرهط حيث كانت قد واعدت محمداً في العقبة وخلسة، واتاها محمد ليجد كلاهما أنه حقيقة قد وجد في الآخر ضالته!

وهكذا بايعت الخزرج والأوس محمداً عليهما سيداً ولكن لم تكن هذه البيعة إلاّ بيعة تمهيدية لمبايعةٍ من بعد رسمية ضُرب لها موعداً العام القادم من موسم الحج التالي...

وإلى يثرب عادت الخزرج ومعها الأوس بعد أن انتهى للحج موسم ولكن!.. كان حتماً

أن يرسل محمد معهما مصعب بن عمير عنه نائباً، وبهذه النيابة أصبحت لمحمد على الأوس والخزرج معاً كامل السيادة التي بدأ بها ينتشر اسم محمد والدعوة إلى محمد في يثرب...

كلا!... بأمر هذه «البيعة التمهيدية» لم تعلم قريش... وعن انتشار الدعوة إلى محمد في يثرب شغلها ما قد كان يتحدّر في غضون هذه الفترة من «كلم» راح يسترسل من جديد يؤكد ما قد قصّه من قبل من قصص، فمن جديد راحت تُعاد قصة عاد وثمود وناقة اللّه ومن جديد راح «الكَلِم» يمزج الوعد بالوعيد وسجلٌ ذلك الكلم الذي كوّن في هذه الفترة «سورة الأحقاف»... لتتلو هذه السورة سورة أخرى، تجيء قبل «سورة الغاشية»، تحمل اسم «الذاريات» وفيها من جديد تعاد قصص إبراهيم وموسى وفرعون متحدثة عن كيف أغرق اللّه «فرعون» وجنوده، كما أن فيها من جديد تُعاد قصة عاد وثمود وكيف أخذت الواحدة الريح العقيم والأخرى الصاعقة عقاباً على عقرها «ناقة اللّه».. لهذا السبب لم تعلم قريش بأمر «البيعة التمهيدية» إذ أنها إلى هذه السُّوَر التي جاءت في هذا الوقت تعيد أيضاً من جديد قصة نوح أو قصة «الطوفان» قد انصرف منها البال عن الناحية السياسية إلى الجدل في أمر القصص وكأن لم يستغرقها من أمر محمد في هذه الفترة إلاّ ما يتردد على لسانه من قصص الأولين. فهي من جديد لا تلتفت إلى محمد تتنادى بأنه لا يقص إلاّ أساطير الأولين إلاّ لينصرف بها البال إلى قصة متداولة تتحدث عن «أهل الكهف» وليطلق هذا الانصراف تفكيرها بالسؤال:

أفلا يقص محمد بلسان «الوحي» قصة «أهل الكهف»؟..

لقد عرف العرب هذه القصة وكانت بينهم متداولة وشائعة محورها فتية من أهل الإنجيل ألجأهم الاضطهاد الروماني إلى كهفٍ ومعهم كلبهم إلى حيث ناموا فيه ثلاثمائة وتسع سنوات... ثلاثة قرون كاملة من الزمن ازدادت تسعاً هجع هؤلاء الفتية ومعهم كلبهم في الكهف ليستيقظوا بعد هذا القدر من السنين ليجدوا أن الدنيا لم تعد بعد دنياهم فعادوا إلى كهفهم حيث طوتهم في طواياه أحضان الوسن من جديد..

عن هذه القصة التي تعود بمادتها، تحت أضواء التاريخ السياسي للعصر الهلّيني الروماني، حتماً إلى عهد الاضطهاد الدقلديانوسي للمسيحية إذ لم يكن الاضطهاد الروماني للمسيحيين إلاّ في عهد دقلديانوس، فهو إنما العهد الذي كانت تُعقد فيه المجامع المسيحية في الكهوف هرباً من اضطهاد حكم بدأ عام ٣٠٣م، لم يرف إلاّ تسع سنوات انتهت بفشل هذا الاضطهاد. فالسجلات التاريخية تحدثنا أن المسيحية كانت خلال هذه السنوات التسع تزداد انتشاراً وأن الجيش الروماني قد اعتنق المسيحية ديناً وأن المناصب الرئيسية للدولة

أصبحت للمسيحيين مما كان من جرائه الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية... عن هذه القصة التي تعود بمادتها إلى زمن تاريخه ينحصر في سنة من هذه السنين التسع التي انقضت من حكم دقلديانوس والرواية بأن أصحابها قد استيقظوا بعد مائة وتسع سنوات وبذلك نستطيع أن نضيف إلى هذا التاريخ الثلاثمائة والتسع سنوات التي قضاها «أهل الكهف» نائمين لنجد أن الأضواء التاريخية تنير لنا موعد هذا «الاستيقاظ» الذي لا بد أن يكون تبعاً للقصة قد اتخذ مكانه سنة ٦١٢ لسنتين خلتا من حكم هرقل الإمبراطور الذي استهل حكمه سنة ٦١٠ وهي نفس السنة التي هبّ فيها محمد إلى دعوته داعياً.. عن هذه القصة التي كانت تتناقلها بعض الشفاه العربية في غير اهتمام من حصرها تحت أضواء الحساب والتي أرادت بها قريش أن تُعجز محمداً تقف حائرة الجزم من حول عدد هؤلاء الفتية، جاء رداً من شفتي محمد الجواب يقص قصة أهل الكهف وسجّلها: «سورة الكهف»..

﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾.

الآية ١٣ من «سورة الكهف»

﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم﴾!

الآية ٢٢ من «سورة الكهف»

ولكن!.. قريشاً لا ترى أيضاً في هذا «الكَلِم» جواباً شافياً يُنبئها بما قد طلبته من معرفة عدد «أهل الكهف»؟ كلا. لم يقنع قريشاً أن تسمع أن «الكَلِم» قد ضنّ عليها بمعرفة عددهم فلم تعتبر هذا الرّد إعجازاً وإنما حسبته عجزاً ومن ثم راحت فيما تحسبه من تعجيز محمد تتمادى وبلسان أبي الحكم «أبو جهل» تتابع سؤالها محمداً:

إذن وما الحقيقة من قصة «ذي القرنين»؟!

ما هي كلمة «الوحي المنزّل» في هذه القصة التي كانت شائعة في هذه الناحية من شبه الجزيرة شيوعها في أرجاء الدنيا القديمة والتي لذكر صاحبها ترتسم رقعة الفتوح التي جعلت من الإسكندر مثلاً يتخذه قدوة كل من تضطرم بين جانبيه روح الفتح؟.. ومن شفتي محمد جاء الجواب:

﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾.

الآية ٨٣ من «سورة الكهف»

واسترسلت شفتا محمد تلقيان هذا «الذكر» الذي يبدأ من الآية الثالثة والثمانين من «سورة الكهف» حتى أفرغت نفسها في أخرى تتحدث عن موسى وصاحبه في نفس السورة الآنفة الذكر.. ولكن!. عبثاً كان من قريش الإصغاء ما دام القلب منها إلى هذا «الكلم» كان قد تحجر!. فإن الرؤوس منها لم تصغ إلى هذه القصص إلاّ:

﴿وقالوا أساطير الأولين﴾.

الآية ٢٤ من «سورة النحل»

ولكن!... لتسخر قريش ما شاءت لها السخرية فإنها لا تدري ما يكنّه لها ضمير الأيام في الغد جزاءً على هذه السخرية التي اتخذت أقصى مداها في غضون هذه الفترة التي ما لمحت فيها محمداً يطيل الجلوس إلى مبيعة جبر النصراني واستبداله آية بآية إلاّ وتصايحت تنادي:

«يا محمد! إنما أنت مفترٍ!.. إنك تبدل آية مكان آية!»[1].

وماذا؟! **﴿وإذا بدلنا آية مكان آية واللّه أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفترٍ.. قل نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾.**

الآي ١٠١ و١٠٢ من «سورة النحل»

يقيناً إن قريشاً قد تعاظمت وفي اعتراضها قد استعلت!.. أتعترض على تبديل آية مكان آية وما انفرجت شفتا محمد إلاّ بما يناسب كل مناسبة. ولكل مناسبة إنما لها ما يناسب ظرفها من كَلَم أو آية؟!.

ومن ثم كان حتماً أن تتصايح من الجانب الذي التفّ من حول محمدٍ أصوات راحت تؤكد بأن حقاً لقد كتب اللّه الضلال على قريش كما كتبه من قبل على تلك الأقوام التي ضلّت عن رسالات أنبيائها. وللسبب أتى من جديد ذكر نوح فأتت: «سورة نوح» وللسبب من جديد أتى ذكر موسى وعاد وثمود فتكونت: «سورة إبراهيم» وللسبب أتى من جديد ذكر «الأنبياء» فكانت «سورة الأنبياء» وللسبب أتى من جديد ذكْر نوح وموسى وهارون فأتت: «سورة المؤمنون» ولكن!.... الفكر وهو يجول بين سطور هذه السورة الأخيرة، سورة المؤمنون، لا يسعه إلاّ أن يقف للحظات من قريش موقف الذهول!... ذاهلاً يقف الفكر من قومٍ يشهد لهم لسان محمد بأنهم يؤمنون باللّه وهم في نفس الوقت لا يؤمنون بأن ما يتحدر من شفتي محمد إنما كلام اللّه!.. فالآي تسترسل وتقول، سلهم و:

﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون للّه قل أفلا تذكرون، قل من

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٢.

رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون للّه قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه... سيقولون للّه قل فأنّى تسحرون﴾؟!

الآي ٨٤ إلى ٨٩ من «سورة المؤمنون»

ويقيناً، أية عقيدة هذه التي بنتها الرؤوس القريشية عن محمد وبها أيقنت حتى المدى الذي ما زالت بالرغم من إيمانها باللّه ترمي محمداً بالافتراء على اللّه وتتصايح بأنه مُفترٍ!...

بيد أن عبثاً!.. عبثاً يروح في قريش النذير وكلمة مفترٍ تتردد على شفاه سادتها وعنها شفاههم لا تفتر وكأنهم ممن حق عليهم «الكلم» القائل:

﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾!

الآية ١٣ من «سورة السجدة»

يقيناً لقد تأددت بين قريش ومحمد الأمور... ومن ثم اجتماع الرؤوس من قريش في «دار الندوة» تتشاور أمر محمد وقد أجمع رأيها على أنه إما كاهن أو شاعر أو مجنون ولكن!... أي شيء تستطيع قريش له عملاً إلاّ أن تخلد إلى الصبر وأن ترى، والمنية إنما نهاية كل كائن حيّ، سيُنْهي الموت أمر محمد. ومن ثم سكنت تتربص به ريب المنون..

لا ثمة شك في أن بسمة الاستهزاء قد التمعت على شفتي محمد وهو إلى هذا القول يصغي. فحتماً كان أن تستعيد ذاكرته ما قد جرى في «العقبة» وحتماً كان أن تثب مخيلته إلى الآتي وأن تتوثّب إلى ما سيحدث في موسم الحج التالي والوشيك الحلول من حدث ضُرب له موعد أيضاً في «العقبة» بينما تحدّر من شفتيه «الكلم» مطابقاً لما كان يعتمل بين الضلوع من أحاسيس يقول:

﴿فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾!

الآي ٢٩ إلى ٣١ من «سورة الطور»

من ثم: **﴿فذرهم حتى يُلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾**.

الآية ٤٥ من «سورة الطور»

يقيناً ستُصعق قريش يوم تعلم ما قد دار في «العقبة» من قبل وما سيدور فيها من بعد... حتماً ستصعق قريش يوم تعلم أن عضد، «الأخوال» قد عضّد عضداً محمد وأن سواعدهم قد شدّت منه الساعد ولن يكون هذا اليوم ببعيد، فالأيام من هذه الفترة الزمنية التي تُسجل

العام العاشر من تاريخ قيام «الدعوة» إنما سريعة تسير ليستدير العام مرة أخرى ويأذن موسم للحج جديد...

ودار الزمن بالأيام دورته لتسترسل أنفاس الزمن يُسجّلها للإسلام تاريخ يحدّث بأنه لما آذنت الأشهر الحرم جاء مصعب، مَن كان قد أرسله محمد نائباً عنه على الخزرج والأوس، إلى مكة ليقص على محمد خبر من قد اتّبعه في يثرب وما هم عليه الآن من وحدة «خزرجية ـ أوْسية» وأن العزم من الخزرج والأوس معاً قد استقر على إيفاء العهد بالقدوم إلى مكة في هذا الموسم من الحج وأن الموعد، كما قد سبق، سراً عند «العقبة» وليلاً لمبايعته، رسمياً، عليهما سيداً...

أجل... لقد استدار العام مرة أخرى وحلّ الموسم التالي للحج وامتدت يدُ الزمن تُسجِّل:

البيعة الرسمية أو بيعة العقبة الكبرى «٦٢٢م»

إلى «العقبة» أقبلت الأوس والخزرج وفيها حلتا تنتظران محمداً كي تبايعاه البيعة الرسمية المعروفة في التاريخ الإسلامي بالبيعة الكبرى، وخرج محمد إلى العقبة ليلاً بيد أنه بمفرده إليهما هذه المرة لم يخرج، فمعه قد خرج رأس فرع عبد مناف من بيت هاشم: عمه العباس ابن عبد المطلب...

كلا!.. إن العباس لم يكن ممن آمن بمحمد «كرسول» فإنما على عقيدة قومه كان العباس بيد أن، كما يحدثنا للإسلام تاريخ، لما كان للعباس من المكانة السياسية كرأس لفرع عبد مناف المزاحم رأس فرع عبد الدار على السيادة وبالتالي كسيد من بني هاشم المتنافس وبيت عبد شمس على السيادة، كان قد عرف من قِبَل ابن أخيه أن في الأمر حِلْفاً وأن الأمر قد يجر إلى حرب وهو قد تعاهد مع من تعاهد من بين المطلب وهاشم على أن يمنعوا محمداً ومن ثم فكما تقول كتب السيرة: «أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له»[1].

ليستوثق العباس لابن أخيه حتى لا تكون كارثة يصلى بنو هاشم وبنو المطلب نارها ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيين نصيراً، خرج العباس!.. ولذلك كان العباس أول من تكلم في هذا الوفد «الخزرجي ـ الأوسي» الذي أقبل يُسوِّد عليه محمداً وله يبايع البيعة الرسمية... وهنا نترك التاريخ الإسلامي يحدثنا عن الأسس التي قامت عليها هذه البيعة، بلسان كعب ابن مالك:

(١) سيرة ابن هشام، جـ٢.

«واعدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العقبة من أواسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول اللّه ومعنا عبد اللّه بن عمرو بن حرام، أبو حرام.. شهد معنا البيعة وكان سيداً من ساداتنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا ما مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين!... فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب **وهو يومئذٍ على دين قومه** إلاّ أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال:

يا معشر الخزرج إن محمد منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه **فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده وقد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم** فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم مُسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عزة من قومه ومنعة في بلده!.

قلنا له: قد سمعنا. فتكلم يا رسول اللّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت..

فتكلم رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، فتلا القرآن ودعا إلى اللّه ورغب في الإسلام ثم قال:

أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم!.

فأخذ البراء بن معرور، سيد القوم وكبيرهم، بيده وقال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك وما نمنع منه أزرنا فبايعنا رسول اللّه فنحن واللّه **أهل الحروب وأهل** الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر!...

قال العباس بن عبادة بن نضلة: يا معشر الخزرج. أتدرون علام تُبايعون هذا الرجل؟!

قالوا: نعم!. قال: **إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس؟...**

واعترض القول أبو الهيثم بن التَيْهان فقال: يا رسول اللّه إن بيننا وبين الرجال ـ «اليهود» ـ حبالاً وإنا قاطعوها!. فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟!.

فتبسم رسول اللّه ثم قال: بل الدم الدم! والهدم الهدم!... أنا منكم وأنتم مني أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم!.

فطرب البراء بن معرور طرباً ضرب به على يد محمد بن عبد اللّه فبايعه القوم[1]!».

وهنا يكف التاريخ الإسلامي عن الاسترسال ويتوقف للمحةٍ خلالها امتدت يدُ الزمن تزيح الستار عن محمدٍ وقد بُويع «البيعة الرسمية»... بينما يتحدّر إلينا عبر سكون الأجيال هدير الخناجر الخزرجية والأوسية التي انطلقت تعلن قيام محمد بن عبد اللّه على الخزرج والأوس سيداً.. فحقاً:

﴿تبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير﴾!.

الآية الأولى من «سورة الملك»

وهذه هي صيغة «البيعة الرسمية» في سجلات التاريخ الإسلامي الذي يسترسل بعد ذلك سخياً يحدثنا بأن القوم لما فرغوا من أمر هذه البيعة اتجه العباس بن عبادة بن نضلة إلى محمد يقول:

«إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا!»

ولكن! ... سياسة محمد إنما سياسة تتسم بالصبر وبالصبر الجميل ومحمد السياسي لا يرتضي هذا التسرّع ومن ثم كان الجواب: «لم نُؤمر بعد!.» بإرجاء أمر الإمالة بالسيف إلى بعد.

انتهت مراسم «البيعة الرسمية» القائل فيها عبادة بن الصامت: «بايعنا **رسول اللّه بيعة الحرب**» بيد أن ما انتهت مراسم هذه البيعة التي قامت على أسس معاهدة تنص على حرب الأحمر والأسود: والأحمر إنما اليهود والأسود إنما قريش، حتى صاح مُتجسس من قريش في رأس «العقبة» يُناديها بأنفذ صوت سُمع:

«يا أهل الجباجب!. هل لكم في «مُذَمم» والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم».

وفزعة استيقظت قريش وهبّت من مضاجعها لتخرج إلى الخزرج تعاتبها:

«يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه واللّه ما من حي من أحياء العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم!..».

ولكن. هذا العتاب لم يكن إلاّ عتاباً جاء عن موعده متأخراً فقد سبق السيف العذل ومن ثم لم يكن الجواب إلاّ أن نظر الخزرج بعضهم إلى بعض نظرة هبّ على إثرها بعضهم يُقسم باللّه ما كان من هذا شيء!

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٢.

وعادت الخزرج ومعها الأوس إلى يثرب لتُكوِّنا هناك:

فئة الأنصار، ولكن!... إلى مضاجعها لم تعد قريش فمنذ هذه الليلة أقض أمر محمد لقريش مضجعاً وأسهر أعين ساداتها لمحمد هدفاً!... وللسبب أسرعت إلى «دار الندوة»، حيث تجتمع، تتشاور أمرها أمام نذر الخطر الداهم الذي ترى أن نيرانه من حولها قد بدأت تتأجج وبها تحدق.. بالأمس واجهت قريش محمداً بحربٍ سلمية أرادت بها أن تحصر نشاطه في الدائرة الضيقة من الأتباع، وأما اليوم؟ اليوم إزاء هذه المبايعة من قوم عاهدوه وعاهدهم على الدم والهدم، أي أمر سيكون أمرها إذا انتصر عليها الأنصار؟!

وفي «دار الندوة»، في هذه الدار التي لا يُقضى أمر إلاّ فيها دويّ رجْع الصدى، الذي كان يُطبق آفاق مكة بأن الأوس والخزرج قد بايعا محمداً وأنه قد عاهدهما على حرب قريش، دوياً كان حتماً أن تطرق بسببه الرؤوس القريشية وأن تعترم على جبينها موجة قاتمة لا تعكس فحسب اقتتام الأفق المكي بهذه «البيعة» وإنما تعكس الوجل الذي بدأ يلج القلب القريشي من محمد، ويُعزِّزه منطق لها راح يرى أن من «الكلم» الذي تحدّر مكوِّناً السور المتأخرة من القسم المكي يفوح ريح النِقمة ممزوجاً بصليل السيف!.. أي شيء من ثم يمكن أن تفعل قريش وما اجتمعت إلاّ لتتشاور ماذا تصنع؟

يقيناً لقد خافت قريش محمداً!... وما كان انعقاد جمعها في «دار الندوة» وتشاور رؤسائها فيما يصنعون في أمر محمد إلا «حين خافوه»[1]. وليس على ذلك من دليلٍ أدلّ من أن مجلس «دار الندوة » قد ضمّ يوم هذا الاجتماع:

من بني عبد الدار: النضر بن الحرث بن كلدة.

ومن بني عبد العزى: زمعة بن الأسود بن المطلب، وأبو البختري ابن هشام.

ومن بني عبد شمس: عُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب.

ومن بني نوفل: طعيمة بن عدي، وحبيب بن مطعم، والحرث بن عاد.

ومن بني مخزوم: أبو الحكم بن هشام «أبو جهل».

ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

ومن بني جمع: أُمية بن خلف.

وفي الجمع المجتمع ارتفع لأبي الحكم صوتٌ يهزُّ أرجاء «دار الندوة» يقول:

---

(١) انظر: **كتاب الدين عند العبريين** من هذه السلسلة.

«إن محمداً يزعم إن تابعتموه على أمره **كنتم ملوك العرب والعجم ثم بُعثتم** من بعد فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن!.. وإن لم تفعلوا كان له فيكم **ذبح**!. ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها!.».

والتفتت الرؤوس القريشية إلى بعضها بعضاً تستعرض «الكَلِم» الذي توالى في تتالٍ مكوناً السُوَر المتأخرة من القسم المكي:

الملك، فالحاقة، فالمعارج، فالنبأ، فالنازعات، فالانفطار، فالانشقاق، فالروم، فالعنكبوت، فالمطففين.

ومن استعراضها الآي الذي كوّن هذا «الكلم» خرجت قريش ليستقر في صدرها اليقين بأنه «كلم» تلتمع بين مقاطعه لمعات السيوف!...

إذن!.. أيمكن بعد ذلك أن يُترك محمد فيخرج إلى الخزرج والأوس ويُقبل بهما على قريش لقريش محارباً؟!. كلا!. أنى يُمكن أن يُترك محمد يخرج من مكة؟!. إن قريشاً لو فعلت وتركت محمداً يخرج فسيلحق حتماً يثرب ومن يثرب إنما قريش تخشى أن يقطع محمد فيها طريق تجارتها إلى الشام!.

إذن!.. أيبقى محمد في مكة؟!.. إن قريشاً لو حاولت ذلك ومنعته عن الخروج من مكة فستُعرّض نفسها إلى الأذى من الخزرج والأوس دفاعاً منهما عن **من بايعا** ومن به، بطبيعة الوضع، أصبحا يفاخران مفاخريهم بنبيٍّ رسولٍ وكلامٍ منزّلٍ أن لهما مثلهم رسولاً نبياً وكلاماً منزلاً!.

إذن!. أيُقْتَل؟!. إن قريشاً لو فعلت هذا لطالب بيت هاشم وبيت عبد المطلب وأفراد فرع عبد مناف، طُراً، لمحمد دماً؟!.

ويقيناً!. لو قتلت قريش محمداً لاندلعت بين فرعي عبد الدار وعبد مناف وبالتالي بين بيتي هاشم وعبد المطلب من جهة وبيت عبد شمس من جهةٍ أخرى بل وبين سائر البيوت العربية قاطبة نيران حرب أهلية تكون أفظع شراً وأشد وبالاً مما منه قريش من الأوس والخزرج تخشى!.

إذن!.. إذن ما الحيلة وقد عزّت الحيَل؟!..

وفي تلبدٍ تكاثفت على الجباه القريشية غيوم الحيرة والقلق...

يقيناً لقد تأسن الود من قبل وأما الآن فقد تأدّد الأمر حتى غدا أمر محمد لدى قريش الأديد من الأمور!.. فإن في ترك محمد أو بقائه أو قتله يحير من قريش الفكر بينما تدلهم

الآفاق منذرة بالخطر الوشيك الحلول لتأتي إلى قريش بحلٍّ استقرّ عليه عزمها وهو أن تأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً وأن تُعطي كل فتى سيفاً صارماً بتاراً فيضربوا جميعاً محمداً ضربة رجلٍ واحد وبذلك يتفرّق دمه بين القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف وبيت هاشم على قتالهم جميعاً فيرضون فيه بالدّية وتستريح قريش من هذا الذي تراه قد بدّد شملها وفرّق قبائلها شيعاً وبذلك تستبقي مكانتها التي تكاد به أن تتضعضع وتضيع!.

ولكن!. قريشاً لا تعلم أن الهجرة كان أمرها قد أُعدّ وأن يثرب قد عمرت بأتباعٍ إليها، خلسة، قد هاجروا فرادى لا ولا تعلم أن يثرب إنما تنتظر، على مضض الشوق، سيدها!.

وهكذا راحت تنفرط أيام قلائل من عمر الزمن وقريش في أمر ومحمد في أمر آخر حتى وصابح مكة صبح يومٍ فيه علمت أن محمداً، خلسة، قد تركها إلى يثرب!.

وتجهمت في مكة جباه وأشرقت في يثرب أخرى بينما امتدت يد الزمن تُسجِّل:

الهجرة المحمدية «٦٢٢م ـ ١هـ»

بالهجرة بدأ في سجلّ التاريخ للإسلام، كدين، تاريخ به بدأت السنة الأولى من التاريخ العربي لتبدأ بالتالي نغمة جديدة «للوحي» استهلت الانسياب من شفتي محمد غداة خرجت إليه يثرب به تحفّ وبمقدمه تحتفي، فبهذه الهجرة بدأ عهد جديد للدعوة يتخذ صبغته الرسمية كما يأتي عنه الدليل من القسم القرآني الذي جاء في يثرب والذي تتكشف فيه الناحية السياسية لهذه الشخصية التي نرى فيها، على أتمها، قوة الحكم والحنكة السياسية والدراية العميقة بالطباع البشرية، كما أسفرت جلية منذ اللحظة التي التقت فيها بأهل يثرب من اليهود..

مما لا جدل فيه أن محمداً قد دخل يثرب سيداً على الخزرج والأوس ولكن بما قد سبق هذا الدخول من آي مكية رنت بسببها العين اليهودية إلى محمد وترنّت إليه إعجاباً لم تستطع اليهود التي تترنّى عنه وهو عليها يفد فاستقبلته استقبالاً حسناً. وما كان لليهود إلاّ أن يستقبلوا محمداً هذا الاستقبال. لا، لا رهبة منه وإنما به احتفاء فإليهم منه كان قد أتى من الآي التي تضمها تلك السور المكية الأخيرة بما هشّت له منهم المسامع وبما طربت له منهم الأفئدة لا فحسب لأنها لا تنافرهم قط في أسس معتقداتهم وفي صلب عقائدهم وإنما لأنها تؤيِّد لهم معتقدات وعقائد وبرهان على ذلك تأتي:

قصة التكوين الكوني

لما يضمه صدر «سفر التكوِين» من معتقد يقول بأنه لم يكن في البدء إلاّ الماء وأن العرش الإلهي كان على الماء جاء «الكلِم» من شفتي محمد مؤيِّداً يقول بأنه:

﴿... هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾.

الآية ٧ من «سورة هود»

صراحة السِفْر العبري من «العهد القديم» صريح إنما قد جاء «الكَلِم» من القرآن بأن العرش الإلهي كان على الماء.. وإن اللّه إنما، بعد خلق الكون، على العرش استوى:

﴿إن ربكم اللّه الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش..﴾.

الآية ٣ من «سورة يونس»

ومن ثم فإن للمعتقد العبري في «الجسدية» و«المكانية» أيّد «الكَلِمُ» بدليل:

﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾.

الآية ٧٠ من «سورة الزمر»

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾.

الآية ١٧ من «سورة الحاقة»

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

الآية ٥ من «سورة طه»

وكالبرهان، يأتي برهان آخر تأتي به:

قصة التكوين الكائني

لما ترويه أنفاس «سفر التكوين» عن التكوين الكائني، جاء القرآن مُؤيِّداً ـ فهو يذكر ـ أن أول البشر كان «آدم» بدليل:

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين، قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

الآي ١١ ـ ٢٥ من «سورة الأعراف»

وكالبرهان، يأتي برهان آخر تأتي به:

قصة الطوفان

للعقيدة الدينية العبرية عن هذه القصة التي تضمها دفتا «العهد القديم» يجيء «الكَلِمُ» الذي قد تحدّر من شفتي محمد مؤيداً: في «سورة هود» من آية ٢٥ إلى آية ٤٩ ـ وفي «سورة الأعراف» من آية ٥٩ إلى آية ٦٤ ـ وفي «سورة الأنبياء» من آية ٧٦ إلى آية ٧٧.

وكالبرهان، برهان آخر تأتي به:

قصة إبراهيم

للعقيدة العبرية الدينية في قصة إبراهيم يجيء القرآن مؤكداً: في «سورة الأنعام» من آية ٧٤ إلى آية ٨٣ ـ وفي «سورة هود» من آية ٦٩ إلى آية ٧٦.

وكالبرهان، برهان آخر تأتي به:

قصة يوسف

إن ليوسف في القرآن قصة تكوّن كاملة إحدى السُّوَر قصة فيها اللون العاطفي العذري على الغريزي غلاب وفيها مِن «العهد القديم» أطياف وأصداء.

وكالبرهان، يأتي برهان آخر تأتي به:

معجزة انقلاب العصا إلى حية وانشقاق البحر

للعقيدة العبرية الدينية في هذه «المعجزة» التي تتضمنها قصة إسرائيل وموسى وفرعون يجيء «الكَلِم» مؤكداً: في «سورة الأعراف» من الآية ١٠٢ إلى ١٥٦ ـ في «سورة يونس» من الآية ٧٥ إلى الآية ٩٠ ـ وفي «سورة طه» من الآية ٩ إلى الآية ٩٩ ـ وفي «سورة الأنبياء» آية ٤٨.

لهذه الأسباب أحسن اليهود لمحمد استقبالاً وكيف لا يحسنون له استقبالاً وهو يؤيِّد لهم ديناً ويقول إن الإله قد:

﴿.. أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾؟

الآية ٩١ من «سورة الأنعام»

وإن الإله، نفسه، هو القائل:

﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾.

الآية ٢ من «سورة الإسراء»

من ثم، أنّى كان يمكن ألاّ يحسن اليهود لمحمد استقبالاً ولموسى إنما هو يؤيد ويقول بأنه «كليم اللّه» وأن له قد تجلّى اللّه في النار؟... وهذه إنما قصة تسجلها شفتا محمد عبْر «الكَلِم» الذي تدفّق يستهل الحديث قائلاً: **﴿وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتاها نُودي يا موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى، إنني أنا اللّه﴾.**

الآي من ٩ إلى ١٤ من «سورة طه»

من ثم، أنّى كان يمكن ألاّ يحسن اليهود لمحمد استقبالاً ومحمد إنما يُؤيِّد السِفْر العبري في قوله بـ «الكلامية» و«المكانية» و«الزمانية» و«الجسدية» كما يجيء على ذلك البرهان من تحديده المكان الذي كلّم منه موسى، فلقد:

﴿... نُودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا اللّه رب العالمين﴾.

الآية ٣٠ من «سورة القصص»

ويقيناً إن موسى إنما نغمة تتردد على شفتي محمد وبين الآونة والآونة تُرجّع وتُكوِّن من سُوَر القرآن الكثير من الآي... فهناك آي تُحدِّث عن ولادة موسى وإلقائه في اليمِّ، تضمها دفتا مصدر العقيدة من آية ٣ إلى آية ٤٦ من «سورة القصص» ومن آية ٣٦ من «سورة طه» في نفس الوقت الذي تسترسل فيه هذه الآي وتحدث عن قتل موسى مصرياً وفراره خشية العقاب إلى حيث من ثنايا البرق والرعد تجلّى له في النار الإله وله كلّم... ومسترسلاً يسترسل «الكَلِمُ» فيقص قصة يعقوب أو إسرائيل[1] ومقدم أبنائه مصر حتى «معجزة انقلاب العصا إلى حية» ثم فرار موسى ببني إسرائيل و«انشقاق البحر» في طريقه إلى الأرض التي كتبها اللّه لهم:

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب اللّه لكم﴾!.

الآي ٣٠ إلى ٣١ من «سورة المائدة»

من ثم، أنّى كان يمكن لليهود ألاّ يحسنوا لمحمد استقبالاً وهم يسمعون هذا «الكلم»؟!...

لهذا السب كان حتماً أن يحسن اليهود لمحمد استقبالاً!...

واليهود؟... اليهود في يثرب إنما أصحاب الحصون والقصور وهم فيها أصحاب المنعة والسياسة والمال فحصونهم قد ملأها الذهب فوطد أركانها المال وحصنت جوانبها منع الثراء.. ولهذا لم يكن حسن استقبالهم لمحمد إلاّ به ترحيباً جاوبهم عليه محمد بأحسن منه.. ففي يثرب أقرّ محمد اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدهم معاهدة حربية تتكشّف بها على أجلاها الحنكة السياسية لهذه الشخصية التي ترتسم منها الصورة واضحة كل الوضوح على صفحات: «**الصحيفة**» أو:

---

(١) **البخاري**، جـ٢: ١٧٤.

المعاهدة السياسية بين محمد واليهود

إعلان محمد التسامح الديني وحرية العقيدة وإحلال الوحدة القومية محل الوحدة الدينية

تنحدر إلينا هذه «المعاهدة» عبر التاريخ كاملة النصوص تنص على أن:

«هذا كتاب من محمد النبي، صلى اللّه عليه وسلم، **بين المؤمنين والمسلمين** من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم **وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس.**

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمر على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

لا يتركون مفرجاً بينهم أن يعطوه **بالمعروف في فداء أو عقل** ولا يجاف مؤمن مولى دونه وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليهم جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل **مؤمن مؤمناً في كافر**

ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجرّ عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس **وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة** غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سالم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء أو عدل بينهم **وأن كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضاً** وأن المؤمنين يبرأ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله **وأن المؤمنين على أحسن هدى وأقومه** وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يعينها على مؤمن وأن من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه توعد به إلى أن يرضى وليّ المقتول وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحلّ لهم إلاّ قيام عليه وأنه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله وباليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يُؤْويه وأن من نصره وأواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل **وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.**

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم واحد إلاّ بإذن محمد صلى الله عليه وسلم وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليف وأن النصر للمظلوم.

وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها إلاّ لأهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن **مرده إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.**

أمام هذه «الصحيفة» التي عقد بها محمد معاهدة صداقة بينه واليهود أمّنهم فيها على أموالهم وكفل لهم بها حرية المعتقد يقف الفكر مُطرقاً وهو لمعانيها قد استوعب استيعاباً يعدّها به في مقدمة الوثائق السياسية الجديرة بالدراسة على ممرّ التاريخ، فإن هذه المعاهدة السياسية الحربية التي قد عقدت على الحرب ومن نصوصها جرت النصوص على التسامح الديني وإحلال الوحدة القومية محل الوحدة الدينية إنما عنها قد استرسل «الكلم» من شفتي محمد لها مؤيّداً يقول:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا النصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾!

الآية ٦٢ من «سورة البقرة»

للحرية الدينية كفلت هذه الآية التي جاءت في الفجر الباكر من المقام بيثرب كما على هذه الحرية نصّت مؤيِّدة لما اشتملت عليه نصوص «الصحيفة» من مواد التسامح الديني التي شملت الجميع حتى الصابئة أو أصحاب هذا الدين الذي يدين به بعض أهل يثرب والجل من قريش ولكن!. بهذا التسامح الديني الذي كفلته هذه المعاهدة السياسية التي ردّ النصّ الأخير منها الأمر، بعد اللّه، إلى محمد إنما قد نصّت بهذا النّص **الرئاسة لمحمد** فليس إلاّ تطبيقاً لهذا النص وليس إلاّ عملاً به كان أن أنشأ محمد حكومة وكلٌّ إلى يديه منها المقاليد بها سُجلت في صفحة التاريخ السياسي:

نشأة الحكومة الإسلامية

بهذه المعاهدة السياسية الحربية التي عُقدت على الحرب، ومن نصوصها نصّت الرئاسة لمحمد نشأت حكومة نظامية في يثرب **أُعلن فيها التسامح الديني والحرية العقيدية وإحلال الوحدة القومية محل الوحدة الدينية**... فبهذه المعاهدة أحلّ محمد الوحدة القومية محل الوحدة الدينية وقام بنفسه يُقدِّم البرهان العملي على هذا التضامن والتعاون بأن صام صوم اليهود، صوم الغفران، إلى جانب استمراره باتخاذه «بيت المقدس» قِبْلة ولهذا التسامح الديني كان مرماه البعيد الذي أتى بثماره، فإن بهذا الإحلال للوحدة القومية محل الوحدة الدينية كان أن تناولت يدا محمد زمام فِرَقٍ ثلاثة طال أمر تناحرها فيما بينها على السيادة طويلاً!

ثم. ثم إن بهذا التودّد الديني أصبحت يثرب معقل «الدعوة» وأمست لمحمد الحصن الحصين. وإذا ما أمست يثرب معقلاً للدعوة وحصناً لمحمد فليس إلاّ ليبدأ في يثرب الطور الهام من تطور الدين الإسلامي كما ترويه حياة محمد نفسها في هذه الطور وفي تطورها من طور إلى طور وتحولها من حال إلى حال ومن صبغة إلى صبغة ليست فحسب جديدة وإنما كل الاختلاف مختلفة عن ذي قبل. فحياة محمد في هذه الفترة الزمنية إنما قد تطورت تطوراً سياسياً تسجله كُتب السيرة قبل سجلات التاريخ السياسي التي عليها يتجلّى واضحاً هذا التطور السياسي الذي أبدى فيه محمد من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعله يقف في سجلّ الساسة في المقدمة، إذ أن هذه «الوثيقة» التي تقرر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وتحريم الجريمة ويقفوها من الآي ما يؤيدها إنما فتح جديد في الحياة السياسية لمحمد التي ينجلي بها في موطنه الجديد هدفه القديم الذي يتضح لنا تمام الوضوح إذا ما عدنا إلى الأُسس التي قامت عليها هذه «الصحيفة» والتي ألقى أصولها محمد غداة تشاور هو وأبو بكر وعمر أو وزيريه، كما أمسى في يثرب يسميهما، في تنظيم صفوف الأتباع من المهاجرين والأنصار أو هؤلاء

الذين ولئن كان قد جمعهما محمد فإنما في نفسه منهما بعض المخاوف من أن تثور البغضاء القديمة بينها مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كانت نتيجته الحتمية:

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

بين كل واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار آخى محمد إخاءً جعل له حكم إخاء الدم والنسب... وبهذه «المؤاخاة» التي توكدت بها بين المسلمين وحدة شدّت إلى يد محمد من المهاجرين والأنصار معاً الوثاق اطمأن فؤاد محمد إلى وحدة المسلمين وهذه، ولا ريب، حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبُعد نظر ودراية عميقة بأطواء النفس البشرية. فإن هذه «المؤاخاة» لم تكن إلاّ درءاً لما كان يمكن أن يحدث بين الأنصار وهؤلاء المهاجرين الرقاق الحال الذين أقبلوا لا يملكون ما يملكه الأنصار المستقرون في يثرب من ماديّ ثراء جعل على الأنصاري واجباً التكفل بأخيه من المهاجرين..

ولكن! هذه السياسة، سياسة «المؤاخاة» بين المهاجرين والأنصار، لم تكن إلاّ مقدمة للعمل السياسي الدقيق الذي تمثّل في «الصحيفة» والذي يدل على أقدر الاقتدار السياسي الذي تميزت به شخصية محمد في يثرب تميزها بقوة الحكم فهو، كرأس أظلّ معاً للمهاجرين والأنصار، قد فكّر واتجهت سياسته إلى تحقيق وحدة بيثرب تضع نظامها بالاتفاق مع اليهود على أساسٍ من حرية التحالف السياسي والحرية الدينية وهذه هي التي كانت نتيجتها الحتمية توثيق صلته بأهل يثرب من اليهود عن طريق «الصحيفة» أو هذه المعاهدة السياسية الحربية..

لا ريب أن هذه المبادرة من محمد إلى توثيق صلته بقوم كان من قبل قد عاهد الأنصار في «البيعة الرسمية» على حربهم إنما حنكة سياسية تدل دلالة قاطعة على القوة الذهنية التي توفرت لهذه الشخصية وفيها توافرت والعمر بها يطوي في هذه الفترة الحلقة الخامسة، فقد رأى محمد أن اليهود قد أحسنوا له استقبالاً وخاصة رؤساؤهم أملاً في مُحالفته واستمالة لصداقته، فبادر هو إلى توثيق الصلة بهم فتحدث إلى رؤسائهم وتقرّب إلى كبرائهم وربط بينهم وبينه برابطة مودة بلغ من مداها أن صام صومهم وبلغ من مظاهرها أن استبدل التحية القريشية من «حيّاك اللّه» إلى التحية العبرية «السلام عليكم» مع الاستمرار في اتخاذ «بيت المقدس» في الصلاة قِبْلة، بهذا التودد بدأت الأيام الأولى من مقام محمد في يثرب تسير وما كانت لتسير إلاّ لتزيد اليهود له مودة حتى وصلت بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف سياسي يتضمن التقرير التام لحرية المعتقد والإقرار بحرية الدين وسجّلها

«الصحيفة» التي نصّت على أن الرياسة لمحمد والتي نشأت بها حكومة ما تناولت يداه منها المقاليد إلاّ لتنحسر سجف التاريخ وتطالعنا:

السياسة المحمدية في يثرب

بهذين العملين السياسيين: «**المؤاخاة**» بين الأنصار والمهاجرين ونتيجته الحتمية كان وحدة المسلمين.

و«الصحيفة» أو هذه الوثيقة التي عقدت على الحرب وكفلت التسامح الديني بين المسلمين واليهود وحرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً حتى الصابئة ونتيجتها الحتمية كانت **وحدة قومية سياسية**.

تبدأ في الانحسار سجف التاريخ عن محمد بن عبد اللّه...

ففي يثرب، وقد استقر في يثرب بهذين العملين السياسيين المقام، بدأت طوية الطوية العربية في الانتشار، فبدأت النقمة على قريش تسفر وبدأ الاستعداد لانتقام وبدأ السعي العملي إلى تنفيذ نصوص المعاهدة التي عُقدت في «البيعة الرسمية» على حرب «الأسود» و«الأحمر» من الناس، فقد بدأ محمد يُفكِّر في تنفيذ ما قد عقد عليه العزم وسجلته «البيعة الرسمية» وعن ثمار هذا التفكير انحسرت الأيام الأولى في يثرب ومحمد يبني «الجامع» ليجمع إليه الأتباع وليكون للدعوة مقراً ما قامت منه الأركان إلاّ وبدأت تنفض أردية التاريخ عن محمد ليرتسم على لوحة الأجيال صورة صوّرتها يد الزمن بريشة القوة ودهنتها بألوان الحنكة والمقدرة الفذة العجيبة!... فإلى تحقيق ما كان قد ارتسم على الجبين من أهداف بدأ السعي الجدي الذي مهّدت له حياة الرماق التي قاساها محمد خلال الأشهر القلائل الأولى من المقام بيثرب والتي كان خلالها لا مأوى هناك لبعض المهاجرين إلاّ الجامع وما حول الجامع لا تستر أجسادهم إلاّ الأسمال، وأما قوتهم فلا يكفي حتى بسد الرمق! ولهذا إنما سبب وهو أن سنة «المُؤاخاة» لم تكن إلاّ على أن يعمل كل مهاجر مع الأنصاري في عمله[1] ولما كان هذا العمل قد اقتصر على الأعمال اليدوية فقد انحصر عمل المهاجر إما في قطع الأخشاب أو في انتزاع الماء من جوف الأرض[2] أو ريّ الزرع ليظل طوال نهاره وبطنه خواء حاملاً على ظهره الماء، وهذا اللون من القشف الذي تجاوز رقة الحال لم يقتصر على صغار المهاجرين وإنما شمل الكبار منهم. فنحن نرى عليّاً نفسه يعمل نهاره جزاء

---

(١) المسند، جـ٣: ١٣٧.

(٢) المسند، جـ٣: ١٣٥.

أجرٍ لا يتجاوز بلحات[١] وأما أبو بكر فنراه يبيع أقمشة[٢] وأما عثمان فيتاجر بالفاكهة التي كان يبتاعها من بني القينقاع ليبيعها بثمن أكبر[٣] وأما عمر فيقضي وقته يُساوم في السوق[٤] عملاً بما كان له من صلات تجارية بالفرس[٥]، بل إن محمداً[٦] نفسه قد شارك أتباعه هذا القشف الذي ظهر واضحاً عليه في حياته الخاصة وكان من مظاهره لون التقشّف الذي تطالعنا به كتب السيرة والذي بالتالي جاء كنتيجةٍ حتمية لعدم وجود أي مورد أو دخل...

وعلى هذا المنوال سارت، تحت ضغط هذه الظروف القاسية من الإدقاع والعري والجوع، الأيام في بلدٍ لا يتمتع فيه بالثراء إلاّ أصحاب «الكتاب الأول». وعن هذه الحال التي لم تعمل على احتمالها إلاّ الآيات التي تتغنى بالزهد اقترب الزمن من الشهر السابع وآن أن تزف عائشة إلى محمد لتؤخذ من بين لعبها صبية تحبو على مدارج التاسعة إلى حريم سيدٍ في الثالثة والخمسين من العمر، وهذه هي الفترة التي بدأ محمد فيها يفكر تفكيراً جدياً في تحقيق ما كان قد ارتسم على الجبين من أهداف.. ولكن!. لما كان لا بدّ للوصول إلى هذه الغاية من وسائل تنحصر في شلّ القوى من الجسم ليتهاوى بعد ذلك الجسم كله صريعاً بدأت:

حياة الغزو وإرسال السرايا المسلحة

على رأس الشهر الثامن في يثرب وقد تمّ تسجيل «الصحيفة» وتدعيم «المؤاخاة» وتنظيم وسائل المعاشرة تنظيماً دعمه «صوم الغفران» والاستمرار في اتخاذ «بيت المقدس» قبلة بدأ محمد مبادءة قريش بالعدوان والحرب[٧]. وإلى هذه الغاية كهدفٍ كانت الوسيلة: حياة الغزو وإرسال السرايا المسلحة التي قصد بها محمد إلى القتال بالفعل[٨].. فما انقضت ثمانية أشهر من المقام في يثرب إلاّ وعقد محمد لعبيدة بن الحرث راية وأرسله مصحوباً بسعد بن أبي وقاص في سرية مسلحة قوامها حوالي الثمانين من المهاجرين فقط دون الأنصار فكانت:

---

(١) **المسند**، جـ٣: ١٣٠.

(٢) **المسند**، جـ١: ٦٢.

(٣) **المسند**، جـ٤: ٤٠٠.

(٤) **المسند**، جـ٣: ٣٤٧.

(٥) **الترمذي**، جـ١: ٢٠٣، والمسند، جـ٤: ٧١.

(٦) **حياة محمد**، للدكتور حسين هيكل، ص ٢٣٧.

(٧) **حياة محمد**، للدكتور حسين هيكل، ص ٢٣٧.

(٨) **النسفي**، جـ١.

سرية عُبيدة بن الحرث، بهذه السرية التي هدفت الوقوع على قافلة تجارية لقريش سار عبيد في الربيع وما وصل بها إلى أسفل «ثنية المرة»، بالقرب من الشاطىء وفي منتصف الطريق بين مكة ويثرب، إلاّ ولقي من قريش جمعاً على رأسهم أبو سفيان وإلاّ وتناول سعد بسهم رمى به قريشاً!...

وهكذا رمى الإسلام قريشاً بسهم لم يكن أول سهم رُمي في الإسلام فحسب وإنما كان السهم الذي سجّل أن محمداً وهو في يثرب قد غدت له من السيطرة ما يستطيع بها أن ينذر قريشاً بالحرب وعلى ذلك تتوالى الأدلة. فما انحسر اثنا عشر شهراً من مقدم محمد يثرب إلاّ واستعمل عليها سعد بن عبادة وخرج بنفسه غازياً فكانت:

«غزوة ودّان»

لنفس الهدف السابق خرج محمد إلى «الأبواء» حتى بلغ «ودّان» يريد قريشاً وهي تمر بأرض بني ضمرة ولكنه لم يلق قريشاً وأما بنو ضمرة فقد خشاه سيدها «مخشي بن عمرو» وهابه لما كانت له من المكانة في يثرب، ومن ثم كانت النتيجة الحتمية أن عُقِدَ حِلف بين محمد وبني ضمرة...

وما انتهى محمد من غزوة الأبواء إلاّ وعقد، قبل أن يبلغ يثرب راية لحمزة وأرسله إلى سيف البحر من ناحية العيص فكانت:

«سرية حمزة بن عبد المطلب»

سارت هذه السرية وهدفها الوقوع على قافلة تجارية لقريش عائدة في الربيع أيضاً من الشام، ولكن لمّا كان المكان المرسوم للوقوع على هذه القافلة يقع في أرض جهينة، حيث ينحرف الطريق في مُحاذاة البحر مخترقاً وادي العيص إلى قلب الصحراء، لم تأت هذه السرية بثمرها المرتقب، فإن محمداً لم يبعث في هذه السرية مع حمزة إلاّ ثلاثين راكباً من المهاجرين لم يستطع بهم حمزة فحسب أن يصمد أمام أبي الحكم الذي له قد لاقى في ثلاثمائة راكب من أهل مكة وإنما لأن جهينة كانت قد واعدت قريشاً وأمنتها على قوافلها ومن ثم هبّ سيدها، مجدي بن عمر، فحجز بين الفريقين وحال بينهما والاصطدام وساعد على ذلك حب قريش للسلام حتى المدى الذي وُصفت فيه بالجبن...

وما انقضى على «غزوة الأبواء» من الزمن أكثر من شهر حتى خرج محمد بنفسه مرة أخرى غازياً فكانت:

«غزوة بواط»

إلى «بواط» من ناحية رضوى خرج محمد على رأس مائتين من المهاجرين ومعهم

الأنصار هذه المرة يريد قافلة تجارية لقريش عدتها ألفان وخمسمائة بعير يحميها مائة محارب ويقودها أُمية بن خلف بيد أن محمداً لم يدرك الهدف فقد تجنبته هذه القافلة التجارية واتخذت طريقاً غير الطريق المعبد الذي تعودت القوافل من قبل أن تطرقه وعبره بأموالها ألفت أن تسير. ولكن!. لئن تجنبت قريش محمداً وعلى قافلتها لم يقع.. فإنما قد حالفته «بواط»..

بيد أن صامتة ظلت قريش وفي انصراف ظاهريّ إلى حياتها العادية ظلّت منصرفة لتسير على هذا المنوال الأيام الأخيرة من السنة الأولى للهجرة وليستدير العام وتقبل السنة الثانية للهجرة ليخرج محمد بنفسه، أيضاً غازياً، فكانت:

«غزوة العُشّيرة»

في أكثر من مائتين من أتباعه سار محمد حتى نزل «العُشّيرة» من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالي جمادى الآخرة ينتظر مرور قافلة تجارية أخرى لقريش تسير في ألفي بعير وحمولتها تزيد على خمسين ألف دينار وعلى رأسها أبو سفيان، بيد أن فاته أبو سفيان وفاتته القافلة، لوصوله إلى مكانها بعد يومين من مرورها، إلاّ أنه بنزوله «العشيرة» قد حالفته، محالفة حلفائها بني ضمرة، بنو مدلج.

سياسة ولا شك دقيقة هذه التي راحت، بعد أن فاتتها القوافل، تُمهد للوقوع على القوافل التجارية بمحالفة هذه القبائل التي في أرضها هذه القوافل تسير، فمما لا شك فيه هو أن هدفاً من أهداف السياسة المحمدية في الفترة الأولى بيثرب كانت هذه السرايا وهذه الغزوات لتحمل إلى أفهام قريش أن مصلحتها لا تقتضي فحسب التفاهم مع محمد وإنما الرضوخ لإرادته المقرونة بإرادة اللّه، فقد أعقبت غزوة العُشيرة:

«سرية سعد بن أبي وقاص»

للوقوع على قافلة تجارية أرسل محمد في رهط من المهاجرين سعداً، هذا الذي كان قد أطلق أول سهم في الإسلام، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ولكنه عاد من حيث أتى خالي الوفاض لوصوله متأخراً عن اليوم المحدد لمرور هذه القافلة بيوم واحِد ومن ثم فاتته.

وأعقبت سرية سعد:

«غزوة وادي صفوان»

هذه الغزوة التي يعرفها التاريخ الإسلامي باسم «غزوة بدر الأولى» إنما غزوة خرج فيها محمد بنفسه أيضاً ولما يمكث في يثرب إلاّ ليالي قلائل بعد غزوة العُشيرة إلاّ أنه لم يدرك ما أراد وفاته «الفهري» فعاد...

ولكن... هنا يُطرق الفكر للحظات وهو يستعرض هذه السرايا وهذه الغزوات الأولى ليستقيم مقتنعاً بأن استهلال محمد حياة الغزو وإرسال السرايا المُسلحة إنما دليل محسوس على أن التفكير الجدي قد أثمر السعي العلمي بغية السيطرة على قريش فليست هذه السرايا وهذه الغزوات إلاّ مقدمات لبلوغ غاية سياسية قط لن تُبلغ إلاّ هذه الوسيلة الاقتصادية التي تتلخص في الوقوع على قوافل قريش في ذهابها إلى الشام أو في عودتها منها واحتمال ما يمكن احتماله من الأموال التي تُذهب بها هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها وبذلك تتهاوى القُوى من قريش وإذا ما تهاوت من قريش القُوى فحتماً ستهوي قريش على ركبتيها جاثية أمام السلطان المحمدي... ومن ثم فلئن فاتت حتى الآن هذه القوافل فإن في قطع الطرق على قريش في رحلتها إلى الشام بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطىء البحر الأحمر مما يسهل مهاجمة هذه القوافل دون أن تلقى في جوار هذه القبائل ما يحميها من محمد وأصحابه.

ويقيناً، إن هذه السرايا التي عقد محمد ألويتها لحمزة بن عبد المطلب ولعبيدة بن الحارث ولسعد بن أبي وقاص وهذه الغزوات التي خرج فيها محمد بنفسه وعاد منها بالموادعات والأحلاف إنما تؤيد الغاية السياسية المتلخصة في الانتصار على قريش. فهي إنما تدلنا على أن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ما إليه قد قصد محمد. وبالفعل فقد أخذ محمد بهذه الأحلاف طريق الشام على أهل مكة وهذه إنما سياسة إرهابية لشد ما تخافها قريش ومنها تخشى وتتوجس فإن تجارتها، أهم مرافقها الحيوية، تتعرض للخطر مما ستُنتج هذه الأحلاف من الغزوات والسرايا التي بدأ محمد يشنها على أموالها، فما أن وادعته ضمرة وحالفته مدلج إلاّ وأرسل، ولما يكتمل العام والنصف عام على وجوده في يثرب، ابن عمته في سرية أخرى مسلحة فكانت:

«سرية عبد اللّه بن جحش»

هبطت هذه السرية المؤلفة من المهاجرين أيضاً وليس فيهم من الأنصار أحد «نخلة» وفيها بين مكة والطائف مكثت تترصد قريشاً ولأخبارها تتجسّس وفي «نخلة» مرت لقريش عِيرٌ تحمل لها تجارة يقودها عمرو بن الحضرمي في قافلةٍ ليس فيها من الرجال إلاّ غيره ثلاثة وعلى الحضرمي أطلق المسلمون ثاني سهم في الإسلام ولكن.. هذه المرة لم يُخطىء السهم الهدف فأراق الإسلام أول دم لقريش!.

صريعاً بسهم التميمي هوى الحضرمي ففرّ واحد وتهاوى الآخران ووقع المال. وعلى الرجلين أقبل عبد اللّه بن جحش فقيّدهما أسيرين وقادهما حتى قدم بهما إلى محمد بالمال

الذي كان له قد جمع والذي، قبل أن يفرض في القرآن الخُمس من المغانم، قال عنه لرفاقه: إن لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما غنمناه، **الخمس**، وهكذا حجز ابن جحش لمحمد الخمس من المغانم وأما الباقي فعلى نفسه وعلى أصحابه له قد فرق...

ولكن!.. هذا السهم الذي قد رمى به التميمي الحضرمي فقتله إنما قد خرق للتقليد العربي سُنّة وتخطّى للعرف العربي قانوناً، فهذا الدم إنما قد أُريق في شهر رجب ورجب لدى قريش من الشهور الحرم شهر حرام وفي الشهر الحرام قد درجت على تحريم القتال وعن هذا القانون لم تخرج إلاّ مرة واحدة، أسمتها: «حرب الفجّار»!.

لا غرو من ثم أن يشتد بهذا الحدث استنكار قريش أمر محمد وأن تشتد بالتالي منه خيفة!. فسرية عبد اللّه بن جحش، آخر يوم من رجب ٢ هـ، إنما تمثل مفترق الطرق في السياسة المحمدية التي لا يستعرضها التفكير القريشي إلاّ ويجري لقريش منطق يؤكد أن محمداً دفعه شظف العيش في يثرب إلى أن يوجد مورداً للمعيشة عن طريق السيف، وبالتالي هو إنما يريد المال لتتمكن له في يثرب سيادة لن تتمكن إلاّ ويقبل على قريش محارباً، فالمال من ثم لمحمد إنما مطلب وهذه الغزوات والسرايا لم تكن إلاّ للمغانم!.

وحقاً لقد أوقد واقد التميمي بقتله عمرو الحضرمي ضريم العداء! فليس إلاّ منذ هذا الوقت كان أن بدأت في الانحسار فجوة الجفوة وليس إلاّ كنتيجة حتمية إزاء هذا الحدث كان أن انفجرت غضبة قريش وأطلقت صيحة راجت في أرجاء آفاقها تُردِّد:

«قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام! وسفكوا فيه الدم! وأسروا فيه الرجال وأخذوا فيه الأموال!..».

وكشرر تفجّر وراح يندلع لهيباً راحت الآفاق القريشية تردّد عن رؤوس قريش هذه الصيحة التي تبلورت في سؤال أتى من يثرب عنه الجواب الذي لئن زاد قريشاً بمنطقها إيماناً فليس إلاّ ليزيدها من محمد على فزع فزعاً:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾!.

الآية ٢١٧ من «سورة البقرة»

جواب به: شرع القتال

من يثرب إلى قريش تأتي، بهذه الآية، لغة الحرب منذرة بأن الآن قد آن لإظهار ما قد ضاقت بكتمه طويلاً الصدور!. فالآن إنما الآن الذي آن فيه أن ينطلق «الكلم» من شفتي محمد يقول لقد شرع القتال!.

والآن؟... الآن، أي شيء تستطيع قريش له عملاً أمام شوكة لمحمد في يثرب اشتدت وما اشتدت إلاّ وعلى إثرها شرع القتال؟!.

وحقاً أي شيء، وفي يثرب قد أصبح محمد مكيناً، تستطيع قريش أن تفعل إلاّ أن ترسل الصوت منها صيحة تدوي بأن محمداً قد استخف بالشهر الحرام استخفافه من قبل بأمر «القبلة» فتبعث بذلك من جديد ذكرى هذا التحول وتتخذه ضده حجة بها تتذرع منادية:

«إن محمداً يدّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته!»[1].

ولهذه الصيحة كان أثرها فقد راحت كالشرر اللاهب تلفح الذاكرة بنارٍ الذكرى! ولكن!. قريشاً لم تكن لتعلم بأنها بينما كانت تُرسل هذه الصيحة كان محمد يُفكِّر في أمر هذه «القِبْلة» تفكيراً ارتفع في أعقابه الصوت منه بنغمة لشد ما دهشت لها قريش ومنها بهتت وراحت من حولها مستفسرة وهي تصغي إلى الصوت الآتي من يثرب يقول بأن اللّه له يقول:

﴿... وما جعلنا القِبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾!

الآية ١٤٣ من «سورة البقرة»

لا ثمة شك في أن هذه نغمة تحمل إلى الأفهام بأن ما كان الانصراف القديم إلى «بيت المقدس» إلاّ لمعنى وإلاّ لفترة في نفس الوقت الذي تحمل في طياتها معنى جديداً يهيىء الأذهان لحدثٍ جديد ما لبث أن انفضّت عنه آية أخرى تقول:

﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾!

الآية ١٤٤ من «سورة البقرة»

عن هذا الأمر الجديد المتلخِّص في جديد تحوُّلٍ إلى «الكعبة» انفضت هذه الآية لتتحول قريش إلى نفسها مستفسرة ولكن لتغيض بين الصدور لأتباع موسى أفئدة بل وليجفو العين منهم الكرى ويجف منهم الريق وجفاً إذ لمحوا في هذا التحوّل عن «بيت المقدس» أن محمداً قد بدأ عنهم يتحوّل، بل وراح يؤيد ذلك لهم منطق استمد مدده لا فحسب من انصراف محمد عن عادات لليهود، كان قد اتخذها عاداتٍ له منذ حلّ بيثرب حتى هذه

---

(١) المسند، جـ ١.

الفترة التي انصرف عنها ونهى بدوره أصحابه عنها[١]، وإنما من «الكَلِم» الذي قد استرسل حاملاً جذوة الجفوة وصريحاً يقول:

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آيةٍ ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم﴾!

الآية ١٤٥ من «سورة البقرة»

إذن: **﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾!**

الآية ١٥٠ من «سورة البقرة»

كَلَمٌ، به سجّل التاريخ الإسلامي:

تحوّل القبلة من «بيت المقدس» إلى «المسجد الحرام» «شعبان ٢هـ» وإلغاء الصوم العبري للغفران واشتراع الصوم العربي رمضان

على رأس الشهر الثامن عشر من المقام بيثرب صرفت «القبلة» عن بيت المقدس في أورشليم إلى «بيت اللّه» في مكة وأُبطل الصوم العبري للغفران وشُرّع صوم الشهر العربي رمضان. وهذان إنما حدثان لهما عميق مغزاهما الذي دفع بكلٍ من «الأحمر» و«الأسود» من الناس أن يقف مبهوتاً ذاهلاً!...

ذاهلة وقفت قريش، أو الأسود من الناس، تتلفت من حولها أمام هذا التحوّل الجديد إلى بيتٍ تعتبره بيت إلهها حائرة بين أمرين فيما إذا كان هذا التحوّل إشعاراً لها من محمدٍ بأنه إلى شعائرها الدينية عائد أو أنها سياسة جديدة بها يأتي ذلك الموقف الدقيق الذي بدأت سياسته تستشعره الآن منذ وقفت موقف المصانعة لليهود[٢]؟.. بيد أن أمام ذكرى الدم القريشي الذي كان قد أريق في الشهر الحرام، بدون ما سبب ظاهر إلا للسلب، وقفت قريش من هذا التحول موقف الحذر تستعرض ثلاث عشرة سنة من حياةٍ عاشها محمد في مكة كان فيها مثلاً رائعاً للحلم والصبر والصفح الجميل لينعطف بها هذا الاستعراض إلى مقارنة ذاك الماضي بهذا الحاضر الذي يقف فيه محمد قوياً بما قد أصبحت له في يثرب من شوكة على إثرها شرع القتال لاغياً سياسة الصفح وناسخاً لها آياً بآي توالت تُعلن حكم السيف[٣]!..

---

(١) **حياة محمد**، للدكتور حسين هيكل.

(٢) **الناسخ والمنسوخ**، لأبي جعفر النحاس.

(٣) **سيرة ابن هشام**، جـ٢.

وذاهلة أيضاً وقفت اليهود، أو الأحمر من الناس، تتلفت من حول نفسها أمام هذا التحوّل الجديد عن بيتٍ تعتبره بيت إلهها لا ترى لتحول القبلة وإبطال صومها إلاّ عنها من محمد التحوّل ليشتد بها منه الحذر وهي تراه، في أوائل الخريف من السنة الثانية للإقامة بيثرب، يجمع رجاله لغزوة جديدة هدفها تلك القافلة التجارية التي كان قد آن موعد عودتها. تلك القافلة التي كان قد خرج بها أبو سفيان في تجارة كبيرة لقريش إلى الشام وفيها كانت قد اشتركت قريش جميعاً بمالها حتى قُوِّم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير والتي كان محمد قد أراد اعتراضها والوقوع على ما فيها حين خرج إلى «العُشَيرة» ففاتته وعقد حلفاً وبني مُدلج... هذه التجارة الكبيرة التي يحملها ألف من الجمال وتسير في ألفي بعير والتي قد فاتت محمداً في ذهابها، لوصوله إلى مكانها بعد يومين من مرورها، إنما قد آن موعد رجوعها في هذا اليوم الثامن من رمضان، كما إلى محمد كان قد جاء الخبر بمن بثّه من العيون التي كان منها بعض الخزاعيين في مكة نفسها ممن كانوا على اتفاق معه وله يُناصرون سراً انتقاماً من قريش التي أدال جدّها قصيّ دولة خزاعة. إلى محمدٍ أتى من هذه العيون الخبر بموعد رجوع هذه القافلة وأنه لا يحمي ما فيها من عير أو مال إلاّ قلة من الرجال عددهم ثلاثون يرأسهم أبو سفيان.. ومن ثم فقد آن الآن أن تُشحذ السيوف ابتغاء الوقوع على هذا المال... وابتغاء الوقوع على هذا المال صاح، بأصحابه، محمد:

هذه عير قريش، فاخرجوا إليها، لعل اللّه ينفلكموها **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن للّه خُمسه وللرسول﴾**!

الآية ٤١ من «سورة الأنفال»

وإلى أبي سفيان خرج محمد في مائة وأربعة عشر من المهاجرين والأنصار ولكل فريق رايته ليتجه بهما إلى الطريق المؤدي إلى مكة فعارجاً إلى اليسار ناحية البحر الأحمر حتى دخل الوادي الذي كان، منذ آمادٍ امتدت في رحاب الزمن، قد أشجره «ينبوع بدر».. وفي «بدر»، في هذا الوادي الشجير الذي كانت تعرج عليه القوافل لتذيب صدأ الريق وعلى ثأده وفي أحضان شجره المتأشب تستريح فتطفىء لظى الهاجرة وتروي حرور الهجير والذي كان في نفس الوقت مكاناً يقيم فيه أهل العيش الرهيد من قريش كل سنة سوقاً للهو والترفيه حُدّد له الأيام الثمانية الأُولى من الشهر الذي يسبق شهر الحج، تربّص مع رجاله محمد... ولكن!... لئن كان بمقدم أبي سفيان كان قد أتى محمداً الخبر فإن إلى أبي سفيان كان أيضاً قد طيّر الخبر وأتاه وهو في «الزرقاء» بأن محمداً إنما! برجاله لهذه القافلة متربص للسبب، خاف أبو سفيان عاقبة أمرين، أمره وأمر هذا المال وفي حراسة العيْر ليس هناك من

الرجال إلاّ ثلاثون، فأسرع بإرسال «ضمضماً الغفاري» رسولاً راح يسرع الخطى إلى مكة مستنفراً قريشاً أموالها يناديها:

«يا معشر قريش! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها!»

وهبّت قريش بكليتها، ولكل منها في هذه العير كان نصيب، تتصايح صيحة واحدة:

«أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير الحضرمي؟!... كلا واللّه! ليعلمنّ محمد غير ذلك!».

وتحت هزة من دافع عاملين، الزود عن أموالها ونجدة أبي سفيان، أسرعت قريش تتجهز للخروج إلى محمد تحت إمرة ساداتها وبقيادة حكيمها أبي الحكم «أبو جهل»، يحفزها على ذلك حياة سيدها وأهم مرافقها الحيوية وهي عليهما جد حريصة، ولكن!. بينما كان أبو الحكم يتجهز بقريش، وفيها عتبة بن ربيعة من كان قد شارف في هذه الفترة قرابة الثمانين من العمر وأخوه شيبة وابنه الوليد والأخنس بن شريق، كان أبو سفيان قد تجنّب محمداً وغيّر اتجاهه واتخذ طريقاً في محاذاة شاطىء البحر الأحمر، ولما علم أنه قد تجاوز منطقة الخطر أسرع بإرسال رسولٍ آخر إلى قريش يناديها:

«إنكم إنما قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد **نجاها اللّه فارجعوا!**»[1].

وقدم رسول أبي سفيان مكة بينما كان محمد قد عاد بعد أن فاته العير إلى يثرب وبينما كانت قريش قد تحركت للمصير وما بلّغها الرسالة حتى توقف الأخنس بن شريق ينادي بني زهرة وكان لهم حليفاً:

«يا بني زهرة! لقد نجّى اللّه لكم أموالكم.. فارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا!..».

ورجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريق بينما تصايحت قريش اغتباطاً بنجاة أموالها تقول:

«إذاً فلنبلغ بدراً نعلن اغتباطنا بنجاة أموالنا!...»[2] اقتراح، جاوبه أبو الحكم بالإيجاب:

«بلى واللّه لا نرجع حتى نَرِد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها!..».

---

(١) **سيرة ابن هشام**، جـ٢، ٢٠٩.

(٢) **سيرة ابن هشام**، جـ٢، ص ٢١٢.

وهكذا... بينما عاد البعض إلى مكة استأنف البعض الآخر المسير إلى «بدر» ليعلن اغتباطه بنجاة أمواله وليُري العرب هيبته فلا يجترىء منهم بعد ذلك أحد إلى قطع طرق تجارة «أهل اللّه» والوقوع على قوافلها...

ولكن!... إلى محمد كان قد طُيّر، خفية، الخبر بأن قريشاً تسير إلى «بدر»..

وهنا... هنا نلج إلى فترة زمنية أخرى من حياة محمد تزداد فيها شخصيته الفذّة على ظهورٍ ظهوراً، فبينما كانت قريش تواصل سيرها إلى «بدر» لتمرح لثلاثة أيام نرى محمداً طالعاً على أصحابه يقول إن بخبر هذا المسير قد جاءه «جبريل» وإن اللّه قد حمله إليه رسالة تقول:

«يا محمد إن اللّه يعدكم إحدى الطائفتين: **إمّا العير وإمّا قريشاً**!...»

صوت ما دوى إلاّ وعلى إثره نرى اليهود في يثرب قد انكمشت منهم الحنايا هلعاً، فقد بدأ في يثرب:

تكوّن الجيش المحمدي

يطالعنا محمد في هذه الفترة الزمنية تحت صورة مختلفة عن ذي قبل.. نراه قد هُيىء له درعاً وأُشحذ له سيفاً ونراه يطلع علينا قائداً يتجمع من حوله رجال يُنظمهم إلى صفوف ويُنظّم صفوفهم إلى أقسام ويجعل لكل قسم ألوية ورايات ويزودهم بملابس حربية يجيئنا عنها الشرح من صدور «كتب السيرة» بأنها كانت تغطي الجسم كله ما عدا الأقدام، وأما الخوذة فكانت تمتد إلى العنق ولا تترك من الرأس شيئاً ظاهراً إلاّ الأحداق ويُناولهم أسلحة اتقنت عملها اليد اليهودية وإن كانت لم تتقن استعمالها.. ولكن!... بالرغم من هذا الاستعداد نسمع هؤلاء الأتباع يتهيبون من التهيؤ لمقاتلة السادة من قريش لا يتساءلون: أنقاتل قريشاً؟! إلاّ لنسمع «الكلم» يتحدر ضارباً المثل يقول:

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم، ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل اللّه، قال هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله، وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾؟!

الآية ٢٤٦ من «سورة البقرة»

وفي نفوس المهاجرين، خاصة، عملت هذه الكلمة... بينما إلى أتباع التفوا من حول محمد يتساءلون، «لولا يُنزل علينا سورة بالقتال حتى نُقاتل؟» اتجه «الكلم» من شفتي محمد يقول:

﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة﴾.

الآي ٢٠ و٢١ من «سورة محمد»

خذوا مثلاً قوم إسرائيل! وليصغي منكم الجميع، مهاجرون وأنصار ومعكم هذا الذي كاد أن يكون عليكم ملكاً، فإنهم حين:

﴿... قال لهم نبيهم إن اللّه قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له المُلك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن اللّه اصطفاه عليكم... واللّه يؤتي ملكه من يشاء.. فلما فصل طالوت بالجنود.. قالوا لا طاقة لنا اليوم بطالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو اللّه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾!

الآي ٢٤٧ إلى ٢٤٩ من «سورة البقرة»

﴿فهزموهم بإذن اللّه وقتل داود جالوت وأتاه اللّه المُلك والحكمة﴾!

الآية ٢٥١ من «سورة البقرة»

إلى أتباع يصغون إلى هذا «الكلم» التفت محمد وهو يقول إن الله له يقول:

﴿فقاتل في سبيل اللّه.. وحرِّض المؤمنين، عسى أن يكف بأس الذين كفروا واللّه أشدّ بأساً وأشد تنكيلاً﴾!

الآية ٨٤ من «سورة النساء»

كَلِمٌ، له اهتزت السيوف في المغامد بينما استرسلت شفتا محمد تلقيان:

تعاليم الحرب

لا!. لا تهابوا قريشاً ولا تخافوها:

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾!

الآية ٤ من «سورة محمد»

فإن تولوا؟! **﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾!**

الآية ٨٩ من «سورة النساء»

﴿... فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾!

الآية ٩١ من «سورة النساء»

﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾!

الآية ٢٥ من «سورة محمد»

من ثم كان حتماً، أمام تحدر هذه الآي، أن تهتز السيوف في مغامدها لتُشهر بعد ذلك وتلوح متوعدة غير هيابة لمن ستلقى من السادات بينما استرسل «الكلم» من شفتي محمد يتدفق نافثاً في حاملي هذه السيوف روح الإقدام ويشحذ منهم النفوس بلهب الثبات منادياً:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾!

الآية ٢٤ من «سورة الأنفال»

ولكن!... إذا قُتِلْنا!؟ إذا قُتلتم؟!.. أي شيء تخافونه؟..

﴿والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم﴾!.

الآي ٤ و٥ و٦ من «سورة محمد»

إنها: **﴿جنّات تجري من تحتها الأنهار... فيها أنهار من ماءٍ غير آسن وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذة للشاربين وأنهارٌ من عسل مصفّى ولهم فيها من كل الثمرات﴾!**

الآي من ١٢ إلى ١٥ من «سورة محمد»

فيها: **﴿... فاكهة ممّا يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون﴾!**

الآي من ٢٠ و٢١ من «سورة الواقعة»

فإنما: **﴿الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أُكلها دائم﴾!**

الآية ٣٥ من «سورة الرعد»

وحرام هي على أولئكم ممّن جاء عنه القول:

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾!

الآية ١٢ من «سورة محمد»

يقيناً إن مَن يقاتل في سبيل اللّه ورسوله حتى يُقتل جزاؤه جنات سيكون وأصحابه فيها:

﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾.

الآية ٥٤ من «سورة الرحمن»

﴿عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلّوا أساور من فضة﴾!

الآية ٢١ من «سورة الإنسان»

وهم فيها سيجلسون: ﴿على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأباريق وكأس من معين﴾.

الآي ١٥ إلى ١٨ من «سورة الواقعة»

﴿ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً، قواريراً من فضة﴾!

الآي ١٥ و١٦ من «سورة الإنسان»

وفيها لهم: ﴿حور مقصورات في الخيام... لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾!

الآية من ٧٢ إلى ٧٤ من «سورة الرحمن»

فهن: ﴿قاصرات الطرف...﴾.

الآية ٥٦ من «سورة الرحمن»

و: ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾!

الآية ٢٣ من «سورة الواقعة»

وفيها سيقال لهم: ﴿إن هذا لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾!

الآية ٢٢ من «سورة الإنسان»

أيخشى، بعد، أحد القتل؟! والله يقول:

﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال..﴾؟!

الآية ٦٥ من «سورة الأنفال»

و: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول ولا تولوا عنه﴾!

الآية ٢٧ من «سورة الأنفال»

من ثم: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذٍ دبره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم..﴾!

الآي ١٥ و١٦ من «سورة الأنفال»

إذاً: ﴿فانفروا... انفروا جميعاً﴾!

الآية ٧١ من «سورة النساء»

هذه هي تعاليم الحرب كما جاءت بها آيات في يثرب نسخت ما كان قد جاء في مكة من آيات السلم وآي السلام... فلقد نسخت سياسة الحاضر سياسة الماضي ومن ثم فلا يصفحن أحد بعد الآن «الصفح الجميل» لا ولا يقولن أحد سلاماً لا ولا يصبرن منكم أحد ويردد ﴿**واصبر حتى يحكم الله**﴾ فإن للصبر وللصفح آيات قد نسختها آيات للقتال[1]!..

من ثم فأقدموا!.. ﴿**فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾!

الآية ١٢ من «سورة الأنفال»

أجل.. اضربوا فوق الأعناق، التي هي المذابح، لتطير الرؤوس، واضربوا أصابعهم حتى تتهاوى من حمل السلاح وبذلك يغدو قتلهم يسيراً.. من ثم:

﴿**أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين**﴾!

الآية ٦٠ من «سورة الأنفال»

من هم هؤلاء «الآخرون»؟.

ليس بعسير أن تفهم مَن هُم أولئك الذين عناهم «الكَلِم» بكلمة ﴿**عدو الله وعدوكم**﴾ وأمّا «الآخرون» فهذه إنما كلمة تفهمها يثرب بكليتها وإن اختلفت لها رنّة في مسمع كل فئة فيها عن الأخرى. فالآخرون إنما هم «الأحمر» من الناس.. هم مَن كانت قد انكمشت منهم الحنايا منذ بدأوا يرون محمداً قد كوّن من حوله جيشاً عنه يذود وبأمره يشحذ السيوف لقتال «الأسود» من الناس أو قريش.. ولكن!. هذه الحنايا وإن كانت قد انكمشت رهبة فإن هذه الرهبة لتتحول إلى هلع مصدره صيحة انطلقت لأول مرة وراحت ترجعها الآفاق دوياً:

﴿**قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾!

الآية ٣٩ من «سورة الأنفال»

إن شفتي محمد تحملان إلى المسمع من النغم ما لم تحملاه من قبل.. تحملان الآن **أنغام دين واحد**.. دين واحد يبطل إبطالاً أساسياً الحرية الدينية التي كانت عليها قد نصّت «الصحيفة» في أول المقام بيثرب.. ولكن!. في انصراف عن يهود ورجع الدوي في آفاقهم أصداء خرج محمد بهذا الجيش الذي قد كوّنه من المهاجرين والأنصار بعد أن عقد له رايتين سوداوين إحداهما للمهاجرين تحت قيادة علي بن أبي طالب والأخرى للأنصار تحت قيادة رأس الأوس سعد بن معاذ.

---

(١) سيرة ابن هشام.

وحلّ الجيش المحمدي، تحت قيادة محمد، بـ«بدر» وكمن يترقب في معتلياتها مقدم قريش..

واقتربت قريش من «بدر».. اقتربت لتمرح على هذه الأرض الثمراء وتسمر في ظلال النخل الحُشوش ثلاث ليال اغتباطاً بنجاة أموالها ولتُري العرب جاهها فلا تفقد بين القبائل مهابتها فهي قط لم تقبل «بدراً»، كما تؤكد ذلك كتب السيرة، إلاّ لتمرح لا لتقاتل فقد عُرض عليها وهي في طريقها إلى «بدر» السلاح والرجال فرفض رؤساؤها قائلين:

«لئن كنا إنما نُقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا نقاتل اللّه، كما يزعم محمد، فما لأحد باللّه من طاقة!»[١].

ومن ثم واصلت قريش مسيرها إلى «بدر» يتقدّم جماعتها الأسود بن عبد الأسد المخزومي وعمير الجمحي الذي ما استجال بفرسه يكتشف المكان إلاّ ليرى حمزة ينقض على الأسود، وكان قد انحنى يشرب من ماء بدر، فقتله! وإلاّ ليتلفت فيرى الجيش المحمدي مُتربصاً ـ عليهم الدروع والخوذات ورُكّع على ركبهم صامتين كان على رؤوسهم الطير ولا تظهر من خلال خوذاتهم إلاّ عيونهم وإلاّ ألسنتهم ممتدة علامة على اقتراب لحظة الانقضاض بينما تلتمع نصال سيوفهم مرهفة للاستعمال، فكان أن جَمَحَ الجمعي وانطلق عائداً إلى جماعته مبهور الأنفاس يقول:

«رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا! نواضح يثرب تحمل الموت الناقع! قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم!».

وبهتت قريش ومع قريش كنانة!...

بهتت قريش وشدهت فاهاً دهشة إذ أدركت أن محمداً إنما إلى «بدر» قد سبقها وأنه، برجاله الشاهري السيوف، لها متربص لترهص منها المسامع ناحيته ويأتيها منه صوته تحمله أصداء الصحراء إلى مسامعها دوياً وهو ينطلق في رجاله عنها يقول:

«اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتُكذّب رسولك!».

من البديهي كان أن يتوقف هذا الجمع عن المسير للتشاور في الأمر... ومن الطبيعي كان أن يقوم عُتبة بن ربيعة، كبير قريش المولعة بالسلم وسيدها، خطيباً يقول:

«يا معشر قريش. إنكم واللّه ما تصنعون بأن تلقوا محمداً شيئاً! واللّه، لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله أو رجالاً من

---

(١) المسند، جـ٣، ص ٣٥٠.

عشيرته، **فارجعوا**! وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون!».

ولكن!... بينما كان عُتبة يلقي في رجاله هذا القول كان الصوت من محمد ينطلق بين رجاله يقول:

«والذي نفس محمد بيده لا يُقاتلهم اليوم رجل فَيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلاّ أدخله اللّه الجنة!»[1].

من ثم فاقدموا!..«هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها!».

أجل.. بينما كانت قريش تتشاور أمرها وصوت عُتبة يرتفع فيها ناصحاً بالعودة كان «الكَلِمُ» من شفتي محمد يتتالى حاضاً الأتباع على القتال مُوقداً في النفس منهم له ضريماً لقاء جزاءٍ يأتي عنه مُفصحاً قول عمير بن الحمام وهو لمحمدٍ يسائل:

«فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلاّ أن يقتلني هؤلاء؟!» ولعمير يتبع عمر بن قتادة لمحمد سائلاً:

«يا رسول اللّه ما يُضحك الرب من عبده؟» ومن محمد جاءت الإجابة: «غمسه يده في العدو!» ولكن!.. حذار!... «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله... ومن لقي العباس، عم رسول اللّه، فلا يقتله!».

يقيناً إن للعباس في قلب محمد، دون سائر الأعمام، مكانة خاصة فهو إنما، دون أن تدري قريش، كان عيّن لمحمد عليها يُرسل إليه الأخبار ويُنبئه بالأمور ويطلعه على النوايا ومن هنا حتمت عليه سياسته أن يخرج في صحبة أهله من قريش يشاركهم احتفالهم بنجاة أموالهم في نفس الوقت الذي حتمت سياسته أن يظل صامتاً بينما كان الصوت من أبي الحكم يرتفع رافضاً رأي عُتبة.. فإن أبا الحكم، حكم قريش وحكيمها، قد أسعر غضبه عليه بما قد اعترض مقدمه «بدراً» ودفعته غضبته من قتل حمزة المخزومي إلى أن يعلق على اقتراح عُتبة بالرفض قائلاً:

«كلا واللّه! لا نرجع حتى **يحكم اللّه بيننا وبين محمد!**».

ومن ثم تقدم أبو الحكم الجمع المكيّ في مسيرة وفي مقدمته عُتبة بن ربيعة محفوفاً بأخيه شيبة وابنه الوليد وبهما أقدم ينادي محمداً:

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٢.

«يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا للمبارزة!».

وأمر محمد حمزة بن عبد المطلب وعلياً بن أبي طالب وعُبيدة بن الحرث بالخروج إليهم لتبدأ مبارزة لم يُمهل فيها سيف حمزة شيبة ولا سيف علي الوليد وليتحول، كلٌّ من حمزة وعلي يساعدان عبيدة على عُتبة حتى هوى تحت الأسياف الثلاثة صريعاً...

وهنا.. هنا قريش ترى أمامها عُتبة، الشيخ الذي فضّضت السنون شعره ونسجت يد الزمن في ظاهر كفيه الرواهش وهو يعد لديها بجيل ورميز وأريز، مُضرجاً بسيوف ثلاثة وهذا إنما تعتبره خرقاً لتقاليد المبارزة بين واحد وآخر، تصايحت صيحة جاوبها صوت محمد في أتباعه:

شُدُّوا! صيحة، بدأ على إثرها الجيش المحمدي ينحدر من الأعالي إلى مَن في المهابط... وهكذا أشعلت «بدر» واشتعلت وتأرّثت بين الطرفين النار وسجّل التاريخ:

غزوة بدر الكبرى «رمضان ٣ هـ يناير ٦٢٤» انتقال أمر الدعوة من الدين إلى السياسة

لثمان عشر خلون من رمضان التقى لأول مرة الجمعان ليشتد القتال وليسفر عن السنة المحتومة للكون فقد آن بَعد طويل إشراق تهافت شمس العصر القريشي وجنوحها نحو الغروب...

لا ثمة شك في أن عن السنة المحتومة في تاريخ الشعوب من غروب بعد إشراق أسفر القتال وبعد طويل هدوء آن أن تخفق في الآفاق العربية رياح مغرب العصر القريشي ـ ولكن مما لا جدل من حوله هو أن انتصار محمد في «بدر» كان انتصاراً إليه قد أدّت عدة عوامل وله قد هيأت جملة دوافع وأسباب تقف في مقدمتها:

الروح المعنوية وللروح المعنوية كان حتماً الأثر الأكبر في انتصار المسلمين على كنانة وقريش فقد حارب المسلمون بروح لم تتوفر لدى كنانة وقريش.. حارب المسلمون بشعور يقيني لا يعصف به شك أن بينهم «رسول اللّه» وهذا هو العامل الذي ثبّت أقدامهم وبثّ فيهم روح الإقدام وأوقد في النفس منهم مقدرة عجيبة على القتال فراحوا يضربون فوق الأعناق وراحوا يهوون على كل بنان حتى هوت رؤوس سادة مكة وأهل الشوكة فيها وحتى فتّتت سيوف المهاجرين إلى جانب سيوف الأنصار، أو «أهل الدم والحرب»، أفلاذ كبد مكة!..

ثم.. إلى جانب الروح المعنوية كان هناك؛ **الدافع العاطفي** وللدافع العاطفي كان حتماً أكبر أثر في انتصار المسلمين فقد حارب المسلمون بروح يقينية مؤمنين بأنه لا يحول بينهم

والجنة إلاّ الموت على هذه الصورة التي عُرفت بالاستشهاد وهذا الإيمان قد أرسل دفقة في مفاصلهم لم تتوفر لدى كنانة وقريش.. فإن الدين الذي يتخذ أصحابه اللاّت ومناة والعزى شفيعات إلى اللّه لا يعد جنة فيها كل تلك اللذائذ الحسية التي يعدها هذا الدين الذي يتخذ أصحابه محمداً شفيعاً إلى اللّه. وهذا هو الدافع الذي دفع المسلمين إلى الاستبسال في هذا السبيل حتى تهاوت الرؤوس القريشية تحت السيف المحمدي وحتى هوى سبعون رأساً من «أفلاذ كبد مكة» بسيوف من قد عاهدوا محمد «في البيعة الرسمية» على حربهم... وحتى على التراب راحت هذه الرؤوس تتدحرج وبدمائها في تمزغ تتضرج وبينها أُمية بن خلف. وأما رأس أبي الحكم فقد احتزّ وأُلقيت بين يدي محمد. وأما مَن بقي فليس إلاّ ليؤخذ أسيراً ومنهم العباس بن عبد المطلب والنضر بن الحرث وعقبة بن أبي المعيط..

ثم.. إلى جانب الدافع العاطفي كانت هناك: **القوة الحربية** وللقوة الحربية كان أيضاً أقوى أثر في انتصار المسلمين فقد حارب المسلمون بجيش منظم مزودين بأسلحة من يهود يثرب الذين كانوا يتقنون صنعها وإن كانوا لا يتقنون استعمالها ـ حاربوا وعليهم الخوذات والدروع وتحت قيادة قائد أعلى وهذا أمر لم يتوفر لقريش التي حاربت بدون نظام، بدون قائد، بدون أسلحة تلائم هذا المضمار، وبدون عتاد حربي يناسب هذه المناسبة، وبدون معقل دفاع، بل وبدون علم بخطط الهجوم وفوق ذلك فقد رأوا ثلاثة من زعمائهم قد وقعوا صرعى قبيل الالتحام!...

ثم... ثم إلى جانب الروح المعنوية والدافع العاطفي والقوة الحربية كان هناك عاملاً عظيماً ساعد على هذا الانتصار وهو: **المكان والزمان** فالمكان الذي اختاره محمد كان في الأعالي وأما قريش فكانت في المنخفض وبذلك سهل على محمد عليها الانقضاض. وأما الزمان فإن المسلمين كانوا في راحة من وعثاء السير ومشاق المسير وعندهم الماء بينما كانت قريش قد قطعت طريقاً جافاً وأقبلت على بدر عطشى تريد الماء.

ثم، هناك كانت: **القوة الجسمية** وللقوة الجسمية كان الأثر الأكبر في انتصار المسلمين فإن التفاوت في شتى الأعمار بين أصحاب محمد ورؤوس قريش كان كبيراً فالجل من قريش كانوا الأجلة من شيوخها بينما أصحاب محمد فأكثرهم كان شباباً!.

ولكن... هذه الروح وهذه الدوافع والعوامل وإن كانت بمجموعها سبباً للانتصار فإنما هناك كان عامل واحد هو الذي أسرع إلى هذه النهاية وهو: **الخوف القريشي** فللخوف القريشي من إراقة دم أحد من أبناء العم أو أبناء الخال أو أبناء العشيرة، كما نرى ذلك من كلام عتبة، بينما يقابله من الجانب الآخر بأن ما يضحك الرب من عبده إنما غمسه يده في

العدو، كما نرى ذلك من كلام محمد، هو العامل الذي أسرع بهذا الانتصار ـ فقد حارب المسلمون بإحساس أبى إلاّ التفاني في نصرة محمد حتى حد الفناء غير مبالين في هذا السبيل بأحد من الأقارب حتى ولو كان الأب أو الأخ!. وهذه إنما روح استبسالية لم تتوفر لدى قريش التي كانت، بسببها، قد رُميت طويلاً بالجبن!.

لهذه الأسباب الآنفة الذكر انتهى، سريعاً، عن هذه النهاية القتال وهوت من قريش رؤوس عددها سبعون لهويها طرب محمد وأشرق منه الوجه وخاصة لمشهد ابن مسعود مُردياً أبا الحكم يضع قدمه على عنقه وفي هذا العنق آخر الأنفاس تتردّد ليزداد الوجه من محمد إشراقاً احزاز هذه الرأس وإلقائها بين يديه لتغلب عليه نشوة الظفر فيهلل ويحمد ويأمر باحتفار «القليب» ويطرح فيه سادة مكة وليقف عليهم منتصراً يخاطبهم وهم جثث بدمائها مضرجة:

«يا عُتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة يا أُمية بن خلف يا أبا جهل بن هشام ـ يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم... كذبتموني وصدقني الناس!».

لهذا حاق بكم انتقام اللّه. فإنما اللّه، لا الأتباع، هو الذي قتلهم:

﴿فلم تقتلوهم ولكن اللّه قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى﴾!.

الآية ١٧ من «سورة الأنفال»

﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾!

الآية ٥٠ من «سورة الأنفال»

وأن يكون لهم عقاباً إلاّ هذا وهؤلاء هم من كذبوا محمداً كنبي واستنكروا له رسالة فأبوا تصديقاً لما ينطلق من شفتيه من «كلم» اعتبره أهل البلاغة منهم، من أصحاب القول الرصين واللفظ البليغ، على اللّه افتراء وادعاء؟!.

على هؤلاء انهالت رمال «القليب» والغسق يترامى على «بدر» ليقبل لهذا اليوم ليل قضاه محمد في الميدان ساهراً مع رجاله يحملون ما قد خلفته قريش من مال.. وكان المال كثيراً! وأمام المال الكثير اختلف الأتباع اختلافاً كبيراً لم يحسمه إلاّ «الوحي» بكلم أيدت ما قد كان اشترعه من قبل عبد اللّه بن جحش... وائتماراً «بالكلم» الذي تحدر من شفتي محمد آتياً بالتشريع المُسجّل في الآية الحادية والأربعين من سورة «الأنفال» بأن الخمس من المغانم للّه وللرسول حُسم النزاع وقام محمد يحتجز لنفسه الخمس ويقسم «النفل»، أو الغنيمة، على المحاربين بينما اللسان منه لهم يقول:

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾!.

الآية ٦٩ من «سورة الأنفال»

هذه هي في سجل التاريخ السياسي الإسلامي «غزوة بدر»..

غزوة، لا ثمة شك في أنه ليس هنا قط في تاريخ الإسلام غزوة منها أهم لأنها كانت مُفترق الطرق بين عهدين ـ من عهد ضعف إلى عهد قوة فقد أصبح محمد، بعد «بدر» مباشرة، مرموق الود من شيوخ القبائل المتاخمة ليثرب وعليه تتدفق منهم الهدايا أملاً في اكتساب رضاه[1] وبذلك بدأ استقرار الأمر لمحمد استقراراً عقبه تطور سريع في سياسته كما علينا سيطلع جلياً غداة عاد إلى يثرب قافلاً من «بدر» وفي ركابه يسير الأسرى وأهمهم أولئك الثلاثة: النضر بن الحرث وعقبة بن أبي المعيط والعباس بن عبد المطلب.

ولكن... هذا الانتصار لم يكن، كما قد سبق، إلاّ انتصاراً ساعدت فيه القوة المعنوية وساعد فيه المكان والزمان والقوة الجسمية للأتباع والبرهان على ذلك يأتينا ونحن نتبع محمداً في الطريق إلى يثرب ماراً بـ «الروحاء» حتى إذا هبطها أقبل عليه الناس يهنئونه بما «فتح اللّه عليه» انطلق صوت من صفوف رجاله يقول: «وما الذي تهنئونا به؟ فواللّه ما لقينا إلاّ عجائز صلعاً كالبدن المعلقة فنحرناها!» ـ إلاّ أن على شفتي محمد تلتمع ابتسامة عبرها ينطلق التعليق، ولكن: «أولئك: الملأ!».

حقاً! إن أولئك هم الملأ! فأولئك هم صناديد قريش من أرمض قتلهم مكة وأصابها كالرميض حتى ارتمض منها الكبد كمداً ـ ولكن اختنقت مكة في الحنجرة منها صرخة لوعة ملتاعة وكتمت في الصدر بكاء نحيطاً راح يتردد من غير أن يظهر كيلا يبلغ محمداً فيشمت بها إلاّ من أنّاتٍ انسابت من قلب محرور وفؤاد حسير.. بيد أن ما أخذ قتلهم ينتشر في أرجاء شبه الجزيرة إلاّ وانثجّ الدمع وسال ثجاجاً وإلاّ وتساجمت الدموع من عين قريش التي أمست بعد «بدر» سجول وسجوم وإلاّ وعلت المراثي من كل جانب واشترك اللسان الصابئي والحنيفي في رثاء يطلع علينا الواحد بعد الآخر ومنه هذا الذي راح يبكي:

على سُراة بني هصيص ... ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكيهم ولا تسمي جميعاً ... وما لأبي حكيمة من مديد

الأسود بن عبد المطلب

---

(١) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس.

ألا بكيت على الكرام بني الكرام أولي الممادح
القائلين الفاعلين الآمرين بكل صالح

أمية بن عبد اللّه

على «الملأ» بكت مكة وناحت وكرجع الصدى راحت أنحاء شبه الجزيرة تردّد عنها هذا النواح بل وعلى العربي من غير المسلم لم يقتصر هذا النواح فالأرجاء العبرية قد اهتزت لخبر مقتل «أولئك الملأ» فتنادت بلسان سيد النضير:

«أو حق هذا؟! أترون محمداً قتل هؤلاء؟!.. هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس! واللّه! لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها!»

كعب بن الأشرف

ولكن!.. لينح من شاء ما شاء له النواح ولتسل السجم كل عين ثجوج وسجوم فقد قُتل «الملأ» وعلى صناديد قريش قضت هذه الغزوة وما تركت منهم على قيد الحياة إلاّ أسرى مقيّدين يسيرون في ركاب السيد المنتصر مغادراً «الروحاء» ومارًا بـ «الصفراء» حيث ما أناخ فيها إلاّ ليفرغ، دون سائر الأسرى الذين اقتادهم للافتداء، لأسرى ثلاثة فأما العباس وللعباس مكانة خاصة لأنه كان قد أسلم منذ كان في مكة وكان يكتم إسلامه عن قومه[1]، فعنه انطلق من شفتي محمد القول:

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى، إن يعلم اللّه في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾.

الآية ٧٠ من «سورة الأنفال»

وهنا، أعلن العباس جهارة اتباعه محمداً..

وأما الأسيران الآخران، النضر وعقبة، فأمرهما إنما غير أمر العباس وغير أمر الباقين من الأسرى ومردّ ذلك إنما إلى أن الواحد كان ينفي عودة «قصص الأولين» إلى مصدر قدسي ويقول عنها بأنها أساطير الأولين!. وأما الآخر فكان يرمي محمداً بالافتراء على اللّه!... ثم إن أمرهما غير أمر الباقين من الأسرى لأن كلاً منهما إنما في قومه مسموع الكلمة ورأس شامخة من الرؤوس القريشية ومن ثم فما أناخ محمد بـ «الصفراء»، حتى أمر فمثل أمامه ربيب مدرسة «جنديسابور» ذلك الذي كان يبتاع الكتب من الروم والفرس وعرب الحيرة ويقص ما تحتويه من قصص ويقول بأن إذا كان محمد يأتي بقصص هي علامة على معرفة

---

(١) سيرة ابن هشام.

الوحي بالغيب فإنما عنده من القصص ما هي منها أحسن، ليحدجه محمد بنظرة على إثرها أمر علياً بن أبي طالب بقتله وقُتل النضر ضرباً بالسيف!

وأما الأسير الآخر فإن محمداً ما ارتحل عن «الصفراء» مُيمماً شطر يثرب ماراً بـ «الظبية» إلاّ لينخ فيها وإلاّ ليأمر أن يمثل أمامه عقبة من يأتينا عبر التاريخ الإسلامي صوته، وقد أدرك أن نصيبه حتماً سيكون نصيب النضر، مستصرخاً يستغيث بمحمد: «فمن للصبية يا محمد؟!» وجاءه، وهو بدمائه يتخبط، صوت محمد يقول: «النار»!.

وعن «الظبية» إلى يثرب ارتحل محمد بالباقين من الأسرى وقد جُمعت أيديهم بحبال إلى أعناقهم وسيقوا في الركب المنتصر بينما كان يطرق مسمع محمد عنهم من الأتباع الاقتراح وراء الاقتراح فعُمَر يقترح أن تُضرب أعناقهم وعبد اللّه بن رواحة يقترح أن يُحرقوا بالنار. ولكن!... أي شيء يمكن أن يجني من قتلهم والدوافع الاقتصادية تُحتم أن يُحجزوا للافتداء؟!...

وعلمت مكة بالأمر!... وأرسلت ترسل المال إلى محمد تفتدي أسراها حتى اجتمع لمحمد من هذا المال لا أقل من مائة ألف درهم إذا كان قد حُدد لكل أسير مبلغ أربعة ألف درهم ـ إلاّ أن بينما أسرعت قريش فأرسلت المال إلى محمد مفتدية من قد أسر من رجالها فإنما أمام قتل هذين الأسيرين كان حتماً أن تثور. فإن العرب القريشية لا تقتل أسيراً!... ولكن. هنا يرتفع للإسلام صوت يقول: إنهما قد شاقا محمداً طويلاً غضون تلك الفترة التي كانت عاملة فيها آيات الصفح والسلام وأيام كان العقاب يُرجأ إلى «فيما بعد...» وأما الآن.. الآن وقد نسخت آيات السيف آيات الصفح والسلام فحتماً لا يمكن أن يكون العقاب إلاّ القتل!..

بيد أن في انصراف عن هذا الصوت أرسلت قريش صوتها يرج أرجاء شبه الجزيرة ويعلنها بأن محمداً لم يعتد فحسب بحرب عليها وإنما قد خرق للحرب قانوناً بقتله الأسرى!...

ولكن.. بينما كانت مكة قد أصعقها خبر قتل النضر بجانب خبر قتلاها والإهانة التي لحقتها بدفن أشرافها في «القليب» على تلك الصورة. وبينما كانت قد أسرعت فأرسلت المال لمحمد تفتدي أسراها وبينما كانت تطرق ذاهلة من أمر هؤلاء الذين كانوا حتى الأمس القريب منها يتهيبون ولها يهابون وأصبحوا اليوم بها يتحرشون ولها يُحاربون، كانت سياسة محمد في يثرب تتطور بعد «بدر» تطوراً سريعاً حتى أمست لا فحسب سياسة مطلقة تتسم بسمة الشدة والقضاء الحاسم البتّار وإنما أمسى قضاء محمد هو القضاء وحكمه هو الحكم

وعلى أصحابه ووزيريه، أبو بكر وعمر، تنفيذ هذا القضاء وهذا الحكم فهذا عمر، من شدّ محمد إليه منه الوثاق بعد «بدر» بـ «حفصة» التي ضمّها إلى زوجتيه سودة وعائشة، يتشح بسيفه ويضرب عنق كل من يرى فيه «نفاقاً» متنادياً: «هكذا أقضي لمن لم يرد بقضاء اللّه ورسوله!»

ويقيناً لقد استتبّ بقتل صناديد قريش الأمر في يثرب لمحمد فقد أمسى سلطانه ونفوذه وأمره موضع الاحترام الوليد الرهبة والخوف، فالسيطرة الإسلامية، بعد بدر، تتخذ نطاقاً أوسع والسياسة المحمدية تتخذ دوراً أكبر وأشمل وكلمة محمد قد أمست موضع الطاعة مؤيدة بما قد تدفق في غضون هذه الفترة من «كلم» توالى يقول:

﴿ما أرسلنا من رسول إلاّ ليُطاع﴾؟

الآية ٦٣ من «سورة النساء»

﴿من يُطع الرسول فقد أطاع اللّه﴾!

الآية ٨٠ من «سورة النساء»

فإنما: **﴿.. كان قول المؤمنين إذا دُعو إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾.**

الآية ٥١ من «سورة النور»

من ثم: **﴿... أطيعوا الرسول لعلكم تُرحمون﴾.**

الآية ٥٦ من «سورة النور»

يقيناً إن هذه النغمة التي تأتي في يثرب إنما كل الجدة جديدة وليس فيها من النغم المكي رنة كلا ولا صدى!... ولكنها نغمة هي ولئن رضي بها المقربون فإنما لا ترتضيها فئات أخرى في يثرب يؤلفها مَن ينعتهم محمد بأصحاب «الكتاب الأول» ومن بينه وبينهم كان قد عقد معاهدة ودّ وجوار ومن ثم كان حتماً أن يشتد ذعر هؤلاء الذين كانت نبضات القلب منهم قد بدأت تتسارع خوفاً، منذ رأوا محمد يحوّل «القبلة» عن «بيت المقدس» إلى «المسجد الحرام»، وهم يرون أن بعد «بدر» قد تطورت سياسته هذا التطور السريع لتؤكد لديهم هذا الذعر تلك النغمة التي كانت قد انسابت من شفتيه وهو ينظم صفوف جيشه ـ النغمة التي جاءت لحرية المعتقد الديني تلغي ولآيات «الصفح الجميل» تنسخ قائلة:

﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه﴾!

الآية ٣٩ من «سورة الأنفال»

منذ انسابت هذه الجملة والقلب في يثرب يخفق فرقاً فإنما هي جملة لئن حمل مقطعها الأول تحذير الأتباع من أن تفتنهم قريش فإن مقطعها الأخير إنما يُبطل نصوص المعاهدة التي قامت على الحرية الدينية يوم لم تك هناك السلطة التنفيذية قد قامت ويوم لم تك السلطة التشريعية قد تكونت ويوم لم يكن بعد قد تكون هذا الجيش الذي من حول محمد يلتف رؤساؤه وقواده شاهري السيوف يُنفذون أمره في مَن يأمرهم بقتله!...

على صفحات السجلات الإسلامية، دينية وسياسية، تنتشر هذه السلطة التنفيذية والتشريعية وتنتشر قوية مطبوعة بطابع المطلقية فمما لا جدل من حوله هو أن بعد «بدر» قد عزّ جانب محمد بينما ذلّ جانب قريش إذلالاً من أثره كانت هذه السلطة المطلقة التي يفصح عن مداها ما قد تحدّر غضون هذه الفترة من «كلم» يقول:

﴿قل اللّهم مالك الملك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذلّ من تشاء﴾!.

الآية ٢٦ من «سورة آل عمران»

لا غرو من ثم أن تهتز بالفزع جوانب في يثرب مخافة أن يصيبها ما قد أصاب قريشاً ببدر بل وأن تعقد في نفسها عقدة الخوف وتحكم له عقدة نغمة أخرى جديدة تحمل إلى الأفهام الهدير المدوي بدين واحد هو هذا القائم على الاعتراف بأن محمداً رسول اللّه وفي هذا ترى اليهود نصاً يلغي إلغاء تاماً الحرية الدينية المنصوص عليها في «الصحيفة» فهو إنما إعلان صريح يُنادي بأن: **﴿الدين عند اللّه الإسلام...﴾**!

الآية ١٩ من «سورة آل عمران»

بديهياً من ثم أن ترجف إلى النغمة الجديدة أسماع مَن في يثرب من يهود وأن يطرق مطارق التفكير منهم الحذر من محمد أمام «كَلِم» يتتابع منذراً:

﴿أفغير دين اللّه يبغون، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾؟!

الآية ٨٣ من «سورة آل عمران»

يقيناً، لقد قيل من قبل: **﴿لا إكراه في الدين﴾**.

الآية ٢٥٦ من «سورة البقرة»

ولكن!.. هذه كلمة قد نسخت في هذه الفترة الجديدة بالجديد من «الكلم» الذي انطلق قوياً يُعلن:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(١)!.

الآية ٨٥ من «سورة آل عمران»

يقيناً. لقد قيل من قبل: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله... لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**.

الآية ٦٢ من «سورة البقرة»

بل ولقد قيل من قبل: **﴿كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾**؟

الآية ٤٣ من «سورة المائدة»

بل ولقد قيل من قبل: **﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون...﴾**!

الآية ٤٧ من «سورة المائدة»

ولكن!... كل هذا «الكلم» قد نُسِخ بـ «كلم» يقول: **﴿صَدَقَ الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾**!

الآية ٩٥ من «سورة آل عمران»

لا ثمة شك في أن هذا «الكلم» يحمل إلى المدارك معنى جلياً يتلخص في إلغاء الوحدة القومية وإبطال الحرية الدينية واستبدالها بوحدة سياسية ووحدة دينية. فلا غرو أن تطرق الرؤوس العبرية في يثرب موجسة تُفكِّر لتزيد من مخاوفها تلك الكلمة التي ألقاها محمد بين أتباعه واهتزت لها تأهباً السيوف!... تلك الكلمة التي فهم مغزاها تمام الفهم أولئك الذين عاهدوه في «البيعة الرسمية» على حرب «الأسود والأحمر من الناس» وهو لهم يقول:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدواً لله وعدوكم وآخرين﴾!.

الآية ٦٠ من «سورة الأنفال»

لا جدال في أن «الآخرين» هم اليهود... من ثم فمن الطبيعي أن تلاحق العين العبرية، وهي ترى محمداً قد شرع القتال، تحركات المسلمين ومن الطبيعي أن يرهف المسمع العبري ويُتابع ما يتتابع من شفتي محمد من «كلم» هو هذا الذي يؤذن باتجاه جديد تفصح عنه

---

(١) سيرة ابن هشام.

سياسة له جديدة هي لسياسته في الأيام الأولى من المقام بيثرب مُغايرة ومن ثم من الطبيعي كان أن تكون:

الحرب الجدلية بين محمد و«أهل التوراة»

على محمد، بأحبارها، أقبلت اليهود.. أقبلت وفي مسامعها يتردّد ما قد كان من قبل قد قيل:

﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة... من قبل هُدى للناس﴾.

الآي ٣ و٤ من «سورة آل عمران»

و: **﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾.**

الآية ٤٤ من «سورة المائدة»

على محمد أقبلت اليهود والمخيلة منهم لا تستعرض القريب من ماضي الأحداث إلاّ لترى فيه اختصاص محمد بالتقرب إليهم دون سائر الأديان حتى الدرجة التي اتخذ فيها «بيت المقدس» قبلة وحتى المدى الذي صام فيه «صوم الغفران» إلى جانب اتخاذه الكثير من حدود دينهم وتشاريعهم لدينه حدوداً وتشاريع باعتبار أنهم هم أصحاب «الكتاب الأول» مما يجيء بالأدلة على أنه لم ينافرهم في دينهم قط وليس هذا فحسب وإنما هو في معتقداتهم الدينية قد أيد لهم عقائد ومعتقدات ولكن!... لم تمض من الزمن شهور قلائل في يثرب إلاّ وتكوّن من حول محمد جيش، ما عاد ظافراً من «بدر» إلاّ وأسفرت سياسة محمد عن تطور جديد تُسجله شفتاه لحظة أرسلتا في الآفاق نغمة تدوي بدين لا فحسب جديد وإنما دين **واحد** لا يعترف بصحة أي دين سواه!...

بين استعراض هذه الصور التي رسمتها ريشة الأحداث على لوحة الماضي وراحت تجريها على لوحة الحاضر وبين مقارنتها بعضها ببعض أقبلت على محمد الرؤوس من أصحاب «الكتاب الأول» وفي تتابع تتابعت الوفود من «بني القينقاع» ومن «بني قريظة» ومن «بني ثعلبة» وفي مقدمتهم ذاك الذي كان يُعرف بأنه أعلم «علماء التوراة» عبد اللّه بن صوريا. ومن «بني النضير» وعلى رأسهم ذاك الذي فزع لمقتل «أشراف القوم وملوك الناس» سيد النضير؛ كعب بن الأشرف وسيد النضير الآخر حُيي بن أخطب...

كل الرؤوس من القبائل العبرية التي يعج بها ما حول يثرب أقبلوا لتدور بينهم وبين محمد البحوث الطويلة التي يطول في هذا الصدد سردها واحدة واحدة من ثم نكتفي بأن نصغي إلى واحدة منها، كما يسجلها مرجع من مراجع السيرة، وهي هذه التي تقول بأن حُيَيّاً قد سار إلى محمد يسأله:

«يا محمد لم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك «ألم».

فأجابه محمد: بلى.

فيسأله: أجاءك بها جبريل من عند اللّه؟

فأجابه: نعم.

فقال: لقد بعث اللّه قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبيٍّ منهم ما مدة ملكه وما أكل أمته غيرك؟

ثم أقبل حُييٌّ على من معه قائلاً: الألف واحد، واللاّم ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعين سنة. أفتدخلون في دين إنما مدة ملك وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟

ثم أقبل حُيي على محمد كرة أخرى يسأله: يا محمد هل مع هذا غيره؟ فأجاب: نعم «المص».

فقال: واللّه هذه أثقل وأطول!. الألف واحد، واللاّم ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟

فأجابه: نعم «ألر».

فقال: هذه أثقل وأطول الألف واحد، واللاّم ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان. هل مع هذا يا محمد غيره؟

فأجابه: نعم «المر».

فقال: هذه أثقل وأطول! الألف واحد، واللاّم ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان سنة!.

لقد التبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً[1]!..»

وانصرف حُييٌّ عن محمد يطلق في الأرجاء العبرية صرخة راحت تتنادى:

«كيف نأتمر بأمره وقد تشابه علينا أمره؟!.

كيف؟!. وهو علينا يتلو حيناً «ألم» وحيناً «ألمص» وحيناً «ألر» وحيناً «ألمر؟!»».

ولصرخة واحد كحيي كان الأثر. فمن حيث أقبلت هذه الرؤوس إلى محمد راحت عنه منصرفة وحجتها أن انصرافها عنه يعود بأسبابه إلى نسخ آية بآية وأن الآيات إنما ينسخ بعضها بعضاً حتى أنها تتعارض تعارضاً ملحوظاً!... ومن ثم ارتفاع الصوت من هذه الرؤوس يُحاج:

---

(١) سيرة ابن هشام.

«ألا ترون إلى محمد يأتي أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً»؟

وعبر شفتا محمد جاء الرد:

﴿ما ننسخ من آية أو نُنسها نأتِ بخير منها أو مثلها﴾!

الآية ١٠٦ من «سورة البقرة»

ولكن!. هذا الرّد الذي جاء مشابهاً لما من قبل كان قد جاء من ردّ حين راح الصوت من سادة مكة يُطبِّق الآفاق نداء مكة: «إن محمداً يسخر بأصحابه!.. يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون، إنما هو مفتر!.» ... إنما قد دوّى في المسامع من جديد هذا القول:

﴿وإذا بدّلنا آية مكان آية واللّه أعلم بما يُنزّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾!

الآية ١٠١ من «سورة النحل»

ومن ثم لم تحم بين محمد وأهل التوراة حُمى الجدل إلاّ وأعقبتها إشاحة الرؤوس ومن تنعتهم يثرب بعقلائها عن محمد إشاحة أسفر بها الإنكار اليهودي رسالة محمد وبالتالي استنكار سلطته التنفيذية بينما استدارت هذه الرؤوس من حول نفسها مقتنعة بمنطق راح يجري على نفس اللوالب التي جرى عليها منطق لقريش من قبل جاء مؤكداً بأن محمداً إنما على اللّه بهذه الرسالة قد افترى وأنه إنما يتخذها وسيلة إلى غاية هي الآن قد اتضحت وأنها لا تنحصر مداها الحقيقي إلاّ في إقامة دولة وامتلاك في ملك الحجاز!..

إلى هذه النهاية انتهى الجدل الديني بين محمد وأهل التوراة واستحال إلى نزاع تحوّل إلى عداء اتخذ أول مظاهره في مقاطعة محمد لليهود ومنعهم من دخول مسجده فهذا سلسلة بن برهام وكنانة بن صوريا ورافع بن حريملة وعمرو بن قيس لا يدخلون المسجد إلا ويأمر محمد أتباعه بإخراجهم منه إخراجاً عنيفاً كان من جرائه أن قام الأتباع يلطمون وجوه هؤلاء ويأخذون بلحيهم ويلدمونهم في صدورهم.. وفي هذا إنما الدليل القاطع على احتدام العداوة التي أعقبت هذا الجدل الديني الذي كان أشد لدداً من ذلك الجدل الذي كان بينه وبين قريش.. بيد أن لئن بلغ الجدل بين محمد وأتباع موسى القمة من الشدة فإنه ما بلغ الدقة التي بلغها بينه وأتباع يسوع غداة وَفِدَ إلى يثرب الوفد التي سجلت بمقدمة يد الزمن:

الحرب الجدلية بين محمد و«أهل الإنجيل»

إبان هذه الفترة الزمنية التي انطلقت فيها من شفتي محمد أنغام دين واحد يحمل معنى إلغاء الوحدة القومية وإعلان الوحدة الدينية وبسببها احتدم الجدل الديني بينه و«أهل التوراة» كان حتماً أن يُرهف المسمع المسيحي في أرجائه العربية وخاصة في «نجران»، حيث تنتشر المسيحية على أشدها، وأن يروح يلتقط في استيعاب هذه الأنغام التي ما وعاها الوعي المسيحي تمام الوعي إلاّ ولجّ إلى القلب المسيحي منها الوجل... للسبب، وفد على محمد من نجران وفد يكوّنه أميرهم «العاقب» وعُمدتهم «السيد» وأسقفهم «أبو حارثة».. وعلى محمد أقبلت هذه الرؤوس من نجران وحجتها لديه هي أنه قد سبق واعترف بشرعية دينها وإن من «الكَلِم» الذي جاء عبر شفتيه من قبل يجيء البرهان بأنه إنما لصحة الجوهر من العقيدة المسيحية المصاغ من الشخصية اليسوعية قد أيّد وقول المسيحية قد قال بأن «ابن مريم» إنما: **ابن عذراء**.

وإن ابن العذراء إنما: **روح اللّه**، وإن روح اللّه إنما: الكلمة وإن ابن العذراء، روح اللّه، الكلم: **المسيح**.

﴿.. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه...﴾!

الآية ١٧١ من «سورة النساء»

وعلى دعائم هذه الشهادة لابن مريم راحت المسيحية تتخذ لدى محمد حجّتها بأنه قد وافق المسيحية على الجوهر من عقيدتها التي رغم تفرقها إلى مذاهب متباينة، لا تختلف قط في صحتها، فإنما محمد يلتقي وإياها عند هذا الجوهر الذي عليه، كأساس، يقوم صرح دينها ويرتكز وقولها إنما يقول بأن ابن مريم هو «المسيح» وأنه «الكلمة» وأنه من اللّه الروح التي نُفخت في مريم:

﴿... التي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾!.

الآية ٩١ من «سورة الأنبياء»

لا ثمة شك في أن محمداً لم يعترض على هذا المعتقد الأساسي لسائر المذاهب المسيحية ولكنه، والمسيحية إنما مذاهب اختلفت نظرتها في «الطبيعة اليسوعية» واختلفت من حول «الكلمة» كلمتها، ترى المسيحية أنه قد مال إلى مذهب دون مذهب وأنه قد أيّد الاتجاه النسطوري، المستقر في البصرى ومصدره ما قد كان هناك على تخوم الشام من دير للرهبان النساطرة كان ينزل فيه بصحبة أبي طالب في ترحالاته التجارية في ضيافة بحيرا وسرجيوس... وتتخذ المسيحية على ذلك دليلاً «الكلم» الذي تحدر مؤيداً تأييداً تاماً المعتقد

النسطوري الذي يختلف اختلافاً جوهرياً عن المعتقد الراسخ لليعقوبية المستقرة في نجران، فإن اليعاقبة إذ تقول، اعتماداً على القول بأن يسوع هو كلمة الله، إن طبيعة المسيح طبيعة محض إلهية وإنه، وهو الروح من الله، إنما نفس الإله الذي حلّ في جسدٍ ولدته مريم التي لن تكون على هذا الأساس المنطقي إلاّ أم الإله تجيء النسطورية فلا تستنكر هذه العقيدة استنكاراً باتاً فحسب وإنما ترميها بالكفر وتصفها ببدعة بينما تقف هي عند الاعتراف بأن يسوع ليس إلاّ ابن عذراء بتول، وهو وإن كان «روح الله» و«كلمته» «المسيح» فإنما ليس بنفس الإله ومن ثم ليس ابن مريم إلاّ صاحب طبيعتين: إلهية لأنه روح الله وبشرية لأنه ابن مريم مما يغدو به من الكفر نعته بالإله ونعت مريم بأم الإله!..

ومن «الكَلِم» الذي تحدّر من قبل تتخذ المسيحية دعامة لمنطقها وتقول إن للمعتقد النسطوري قد أيّد محمد ومجافاة تامة للمعتقد اليعقوبي قد جافى فلم يثر ذلك في نجران من فيها من يعاقبة!.. كلا!.. وليس هذا فحسب وإنما على النقيض فهي قد هشّت «للكلم» الذي جاء مؤيداً العقيدة القائلة بوفاة «المسيح» قبل «الارتفاع إلى السماء» عندما قال بأن ابن مريم قد قال حين وُلد:

﴿والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت...﴾.

الآية ٣٣ من «سورة مريم»

وإن له: **﴿... قال الله يا عيسى إني مُتوفيك ورافعك إليّ..﴾.**

الآية ٥٥ من «سورة آل عمران»

بل وحتى وهم يسمعونه يقول: ولكنهم:

﴿... ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم... وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾!.

الآي ١٥٧ و١٥٨ من «سورة النساء»

كلا. لم يثر هذا في نجران اليعاقبة!..

وإنما!. إنما وهذه أنغام «دين واحد» تنطلق وتُدويّ ويتجاوب صداها في المسمع منهم نذيراً بإلغاء كل دين آخر غير الإسلام فليس إلاّ ليثر فيهم ثائرة الوجل وليس إلاّ ليدفع بوفدهم إلى يثرب وهدفه تقصي الحقيقة واجتلائها من وراء هذه الأنغام وتبين الموقف مُتخذاً لذلك حجة الجدل الديني الذي استمر من حول مشكلة «الطبيعة اليسوعية» ومشكلة «التثليث» وعقيدة «الصلب»!...

ولكن!.. إذا كان حتماً أن يحتدم بين محمد ووفد نجران سعير الجدل الديني متخذاً

الشكليات من حول هذه المشكلات فإنما الجوهر في حقيقته كان شيئاً آخر!. كان هذا الدين الذي راح محمد يعرض على هذا الوفد اعتناقه بينما راح هو يُقدّم حجته بأن المسيحية إنما دين حق له محمد، نفسه، كان قد أيّد، وعلى ذلك يتخذ أهل الإنجيل بلسان هذا الوفد حجة «الكلم» الذي يقول بأن اللّه إذ يقول بأنه قد أرسل موسى فإنما يقول:

﴿قفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾.

الآية ٢٧ من «سورة الحديد»

وإن اللّه لابن مريم قد قال:

﴿... وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة..﴾!

الآية ٥٥ من «سورة آل عمران»

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه...﴾.

الآية ٤٧ من «سورة المائدة»

وإن: **﴿... من لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الفاسقون﴾.**

الآية ٤٧ من «سورة المائدة»

لأن كما قد سبق القول: **﴿... الإنجيل فيه هدى ونور..﴾!**

الآية ٤٦ من «سورة المائدة»

بل وليس هذا فحسب وإنما لأن «الكلم» قد قال بأن ما يأتي به محمد، نفسه، إنما مصدق لما في الإنجيل:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾.

الآية ٤٨ من «سورة المائدة»

كلا... من حول «كتاب» لا يعترف العالم المسيحي بسائر مذاهبه المختلفة بأنه قد أُنزل من اللّه ويؤلفه لديهم أناجيل أربعة كتبت بيد أتباع ليسوع بعد أن لفته بين طياتها يد الزمن لم يستعر الجدل، و«الكلم» من شفتي محمد قد توالى مقدساً ابن مريم حتى الدرجة التي رفع بها «العهد الجديد» ووضعه في مرتبة التنزيل وإنما.. إنما أمام آي توالت تقول بأن على أهل الإنجيل أن يحكموا بما فيه وإن من لم يحكم بما فيه فأولئك هم الفاسقون كان لا بد أن يجري المنطق المسيحي يقول. كيف، وهذا إنما نص صريح بأن على أهل الإنجيل أن

يحكموا بما فيه وإلاّ كانوا فاسقين يمكنهم بعد ذلك التخلي عن دينهم واتباع ما يأتي به محمد من دينِ المحور منه لا فحسب للمحور من دينهم مخالف وإنما التعاليم والمبادىء والتشاريع منه كل الاختلاف عنه تختلف كما على ذلك تجيء من الأحكام البراهين الشتى وفي مقدمتها قانون القصاص وشريعة «المِثْل بالمِثْل»؟!...

بمددٍ من هذه الحجج جرى المنطق المسيحي ليتخذ مداه قائلاً: .. ثم إذا كان اللّه قد أنزل على موسى التوراة وقال:

﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس...﴾.

الآية ٩١ من «سورة الأنعام»

وقال: **﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين﴾.**

الآية ٤٩ من «سورة الأنبياء»

وقال: **﴿ولقد منّنا على موسى وهارون... وآتيناهما الكتاب المستبين﴾.**

الآي ١١٤ و١١٧ من «سورة الصافات»

فإنما هذا «كلم» يجعل موسى صاحب دين للّه وبالتالي إذا كان على ابن مريم قد أنزل الإنجيل وهذا يجعل ابن مريم صاحب دين للّه، وإذا كان كل منهما صاحب دينٍ للّه فهذا يجعل الموسوية ديناً للّه وبالتالي يجعل المسيحية ديناً للّه، فكيف من ثم يكون الدين فقط عند اللّه هو الإسلام؟!.

للمسيحية منطق كان لا بدّ أن يأتي بهذه الحجة ومن ثم فإذا كان قد استعر بين محمد ووفد نجران الجدل متخذاً الشكليات من حول «الطبيعة اليسوعية» ومشكلة التثليث وعبودية المسيح للّه أو بنوته فإنما الجوهر كان هذا الشيء الآخر، كان هذا النغم الذي انطلق حاراً من شفتي محمد منادياً بدين واحد يُعلن بأن:

«الدين عند اللّه **الإسلام!**» للسبب قدم وفد نجران يترعه اليقين بأن محمداً إنما في الحقيقة يُقيم دولة أسسها عقيدة تنحصر في الاعتراف به كرسول وللسبب انتهى الجدل عن سؤال اتجه به هذا الوفد إلى محمد:

«أما تعرض علينا سوى هذا؟..».

وجاء الجواب:

«**الإسلام أو الجزية والحرب!..**».

كلا!.. لم يرضَ وفد نجران الإسلام ومشفقاً على نفسه بالحرب لم يرض، ومن ثم كان

عليه أن يطأطىء الرأس قبولاً بالجزية. وهكذا انصرف الوفد النجراني عائداً إلى بلاده على أن يؤدي إلى محمد في كل عام ألفا حلة ألف حلة في صفر وألف في رجب وبذلك صالحهم محمد بدلاً من الإسلام.

ولكن!... بينما عاد وفد نجران إلى نجران تاركاً يثرب فإن في يثرب كان أهل التوراة قد استشعروا ما جاء به هذا الجدل من نتيجة فرضت الجزية وهددت بالحرب وهذه إنما نتيجة يرونها تكاد بالتالي أن تحدق بهم وعليهم تطبق لا سيما وهم الذين قد ثار بينهم وبين محمد من قبل الجدل ورفض «عقلاؤهم» له دعوة رفضاً كان من جرائها أن تحول عنهم ومنعهم من دخول مسجده بشدة استمدها من سلطة تجلّت تجلياً تاماً منذ عودته من «بدر» منتصراً.. فمن «بدر» استمد محمد قوة استشعرت في نفسها سيادة مطلقة ما لبثت أن تنفست عن:

«غزوة بني فزارة»

يقيناً لقد كانت هذه الغزوة، التي أرسل فيها محمد زيداً بن حارثة في جيش قتل بـ «وادي القرى» من قتل وأسر من أسر، سبباً في ازدياد انكماش اليهود. فقد انكمشت اليهود في أعقاب هذه الغزوة انكماشاً وضعت فيه يدها على الصدر منها رهبة وتوجساً أمام ما تراه من سلطة مطلقة لا يحول بينها وإعلانها كاملة في يثرب إلاّ القينقاع ولا يحول إلاّ وجود هذه القبيلة العبرية الثرية بالذهب والمستقرة في يثرب عن أن تغدو يثرب مدينة محمد..

ترى.. أي جديد ستنحسر عنه سجف الغد ولا شيء هناك يحول بين محمد والوقوع على هذه القبيلة التي وإن قورنت قصورها بقصور أمراء الحيرة وغسان فإنما من حول محمد قد تكون جيش تحت سيوفه تهاوت رؤوس سادة قريش؟!..

للسبب، بدأ الرعب من هذه القوة الطالعة يلج القلب من القينقاع ليتحول فيه إلى خيفة أخذت تشتد! ولا غرو أن تشتد خيفة القينقاع وتتوقع أن يقع بها ما قد وقع بقريش لتسير بها أيام قلائل ما لبث بعدها أن تحقق ما قد توقعته فوقع بالفعل، فإن محمداً لم يلبث إلا قليلاً بعد هذه الغزوة إلاّ ليتحول ويتجه ذلك الاتجاه الذي امتدت به يد التاريخ فسجلت:

غزوة بني القينقاع «٣هـ ـ ٦٢٤م»

إلى بني القينقاع، ويهود يثرب إنما بنو القينقاع، خرج محمد ولهم في سوق القينقاع جمع وناداهم:

«يا معشر يهود! احذروا من اللّه مثل ما نزل بقريش من النقمة، وسلموا!. فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل!».

كالرميض أصاب هذا النداء القينقاع لتلتفت إلى مصدره في تحد تجيب: «يا محمد لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنّا واللّه لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس!»[1].

ولكن!.. التحدي القينقاعي لم يقابل إلاّ باللامبالاة فما أبه محمد لتحديهم نقمته وما كان له ليأبه لجموعهم ونشوة «بدر» قد فصلت بين عهدين وأوسلت دفقة القوة تجري في المفاصل!.. ومن ثم حاصرهم في ديارهم وعليهم ضيق تضييقاً تضيق بذكره مرجع المراجع من «كتب السيرة»[2] لتذكر بأن لم يبق للقينقاع تجاهه إلاّ النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه الذي قرر بعد مشورة وزيريه وكبار المحمديين، قتلهم جميعاً!. وصدر الأمر المحمدي بقتل بني القينقاع!

أمام هذا الحكم يطرق الفكر للحظة مستوعباً منه المعنى ليراه خطوة سياسية لها في التاريخ السياسي الإسلامي عميق مغزاها وبعيد مرماها ولها الآثار التي ستترتب عليها من إرساخ السلطان، المحمدي في يثرب وتوطيد الوطاد من هذا السلطان، فبإبادة القينقاع، ولا يهود في يثرب سوى قينقاع، ستستأصل شأفة اليهود في يثرب ومتى ما استأصلت هذه الشأفة فستصبح يثرب مدينة لمحمد وليس إلاّ لبلوغ هذه الغاية، بجانب الوقوع على الذهب والسلاح، كان قد أصدر محمد أمراً بقتل القينقاع.

ولكن!.. هذا حكم لم تستطع القينقاع أن تقف أمامه مكتوفة اليدين تنتظر أن يهوي على رقابها لمحمد سيف سلّ وارتفع عالياً لينقض بليغاً وإنما هو حكم تجاهه كان حتماً بأن تستصرخ الخزرج، فالخزرج إنما للقينقاع كانوا حلفاء. والقينقاع إذ للخزرج تستصرخ فإنها إنما تستصرخ عبد اللّه، ذاك الذي كاد أن يكون على الخزرج والأوس معاً ملكاً ومن كان لا يزال صاحب نفوذ فيها ونفسه حليف المسلمين معاً واليهود...

من صدور سجلات التاريخ الإسلامي ينبعث الاستصراخ القينقاعي ممزوجاً بنحيب النساء وبكاء الأطفال، محدقاً بعبد اللّه أن يحمي القينقاعي نقمة محمد، كما عن هذا الحدث يتحدث مرجع المراجع لكتب السيرة[3] ليحدثنا بأن عبد اللّه قد هبّ وأقبل على محمد له يقول:

«يا محمد أحسن في موالي»!.

---

(١) **سيرة ابن هشام.**

(٢) **حياة محمد،** للدكتور حسين هيكل.

(٣) **الواقدي وسيرة ابن هشام.**

وتستطرد المراجع الإسلامية وفي مقدمتها مرجعها في سرد تفاصيل هذه المقابلة فتقول:

إن محمداً قد أعرض عن هذا الرجاء إعراضاً به تمسك وعليه أصرّ إصراراً عنه لم يتخل حتى أدخل عبد اللّه يده في جيب درع محمد، من للأمر غضب حتى رُئي لوجهه ظللاً وحتى بعبد اللّه صاح: «أرسلني! ويحك أرسلني»!..

بيد أن عبد اللّه يأبى من محمد إلاّ للقينقاع إحساناً:

«لا واللّه لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ!. أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوا من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة!؟ إني واللّه امرؤ أخشى الدوائر»!.

حينذاك قال محمد: «هم لك»! وحينذاك أُلغي الأمر المحمدي بقتل القينقاع.

ولكن!... الغاية التي رُمي إليها من وراء قتل القينقاع، لم تكن إلاّ غاية مزدوجة الغايتين قُصد بها امتلاك المال القينقاعي وبالتالي إخلاء يثرب من القينقاع، ومن ثم فإن الغاية التي أريد بها اتخاذ القتل إليها وسيلة يمكن أيضاً أن تُبلغ بغير هذه الوسيلة عن طريق إقصاء القينقاع عن يثرب...

وصدر الأمر المحمدي بإجلاء القينقاع عن يثرب!..

وفي أمر الجلاء القينقاعي عن يثرب حاول عبد اللّه التحدث إلى محمد مرة أخرى بيد أن حال ومقصده أحد الأتباع حتى اشتجرا وحتى امتد هذا الاشتجار من اللّسان إلى الأيدي وحتى شُجّ رأس عبد اللّه لتحيط به القينقاع تتصايح من حوله قائلة:

«واللّه لا نُقيم ببلدٍ تُشج فيه يا عبد اللّه ولا نستطيع عنك دفاعاً»!

وذليلة تسللت في انسحاب مهين القينقاع فارتحلت تاركة وراءها ما كان لها من عرض الحياة الدنيا من عريض مال انحصر في الذهب والسلاح..

لمحمد تركت القينقاع سلاحها وذهبها كما خلفت وراءها قصورها وما فيها من زينة الحياة الدنيا من ترف الرياش وعن يثرب جلت إلى حيث حملها الترحال إلى حدود الشمال ومشارف «أرض الميعاد»..

والآن؟.. الآن ولمحمد قد خلت يثرب بعد جلاء القينقاع عنها فليس إلاّ لتبدأ صفحة جديدة في سجل الدين الإسلامي يُسطرها محمد من مادة هذا الجلاء الذي يأتينا بالدليل الوافي بأن إجلاء القينقاع عن يثرب إنما تصرف سياسي فذ لبسط السلطان المحمدي على يثرب التي أصبحت عقب هذا الجلاء مباشرة لا تُعرف إلاّ باسم المدينة أو مدينة محمد. وليس هذا فحسب وإنما هو تصرف سياسي آية في الدلالة على بُعد النظر وامتداده إلى أبعادٍ

بعيدة المرمى، فهو مقدمة لم يكن منها بدّ للآثار السياسية التي ترتبت بعد ذلك عليها خُططِ لمحمدٍ فأولاً امتلكت يده من السلاح ما قد يستطيع به أن يتزوّد للمستقبل، ومن المال ما يُمكّنه، لفترة، من الإنفاق على المهاجرين الذين كانت قد فترت مع مرور الأيام معونة الأنصار لهم. وبالتالي لم يعد يهمه أن «يصانع» اليهود[1] وليس ذلك فحسب وإنما على النقيض أصبحوا موضوعاً لعداوته الدينية كما أصحبت سلطته في المدينة في نفس الوقت سلطة مطلقة انكمش على إثرها غير المسلمين من أهل المدينة انكماشاً كان حتماً أن يرفّ به على أنحاء المدينة وجومٌ من مظاهره كانت تلك السكينة في المظهر التي تعقب أبداً كل عاصفة وكل إعصار.. ومن الطبيعي كان أن يمتد هذا الوجوم إلى اليهود بقبائلها المنتشرة حول المدينة وخاصة «النضير» وهي إلى المدينة من كل هذه القبائل أقرب ليطرق منها الرأس مُفكراً في مصيرٍ للقينقاع قد يكون في الغد للنضير نفس المصير وليهب على إثر ذلك هذا الرأس يحثّ الخطى إلى مكة.. وأما ماذا قد دار هناك بين سيد النضير كعب بن الأشرف وبين قريش فصامتٌ إنما التاريخ إلاّ من القول بأن الخيفة من محمد قد امتدت إلى مكة حتى باتت ساهرة الجفن فرقاً!. ولا غرو في ذلك فقد كان من الطبيعي أن تمتد هذه الخيفة إلى مكة، فإن من في مكة قد رأى أن محمداً أصبح، بعد القينقاع، سيداً منه صولة السلطة المطلقة تخشى، لا سيما وأن من مظاهر هذه السلطة المطلقة إشهار السيف المحمدي واتجاهه ناحية الرؤوس العبرية، فليس إلاّ في هذه الفترة قد سجّلت:

«بعثة الأوس لقتل سيد النضير»

ناحية كعب بن الأشرف، هذا الذي كان قد جزع لمصرع «أفلاذ كبد مكة» وصاح صيحة أطلقت عليهم الدمع ثُراً غير ثُرد وراحت من حول محمد تُدوي:

قتلت سراة الناس حول حياضهم — لا تبعدوا أن الملوك لتُصرع!

اتجه لمحمد صوت ما زال يتردّد على صفحات كتب السيرة مجلجلاً: «مَنْ لي بابن الأشرف؟».

وهبّ، من بين الأتباع، محمد بن سلمة مجيباً: «أنا لك يا رسول الله أنا أقْتُلُه»!

ولكن... ابن سلمة ظلّ أياماً لا جرأة له وحده على قتل «سيد النضير» فشدّ محمد أزره بثلاثة غيره من الأتباع وأوفدهم وهو لهم يقول: «انطلقوا على اسم اللّه ـ اللّهم أعنهم ـ »!.

(١) الواقدي وسيرة ابن هشام.

وعاد رُسل محمدٍ إليه وهو قائم يُصلّي في ليلةٍ شاع في صبحها أن ابن الأشرف قد أُخرج من فراشه ليلاً إلى حيث صُرع بسيف محمد قتيلاً!.

مقدرة سياسية لا ثمة شك وحنكة فذة عجيبة هذه التي أشارت بقتل سيد النضير، إذ أن بقتله قد خاف أمر محمد كل فرد من أبناء النضير خوفاً ترك النضير ضعيفة الروح معنوياً.. وأنّى كان يمكن ألاّ تتهاوى الروح من النضير وعلى رأس سيدها قد هوت السيوف الأوسية، ليلاً وغيلة، فهوى من النضير الرأس وتركها ذليلة ترسل أنّات الألم وأنين الجزع عويلاً؟!

ولكن.. إذا كنا قد استبنّا المقدرة السياسية الفذة التي يأتينا عنها الدليل من قتل سيد النضير، كما تتجلّى لنا ونحن نقلّب صفحات التاريخ الإسلامي سعياً وراء خطى محمد، فليس إلاّ لنقف للمحة يستغرقنا خلالها التأمل العميق في هؤلاء الأتباع الذين بلغ من مدى تفانيهم في إرضاء محمد إلى الحد الذي راحوا يقتلون في سبيله كل من بقتله هو يأمر ويرون في ذلك فخراً لهم عليه يتحاسدون فيما بينهم، كما على هذا يأتينا البرهان بالأوس التي أصابت بقتلها سيد النضير فخراً لدى محمد حسدتها عليه الخزرج فأبت إلاّ أن يكون لها مثله لا سيما وهناك من الرؤوس العبرية من هي بابن الأشرف شبيهة فليس إلاّ لهذا السبب كانت سجلت يد الزمن:

«بعثة الخزرج لقتل سيد خيبر»

إلى قتل سلاّم بن أبي الحقيق خرجت الخزرج.. وعلى سلاّم هوت السيوف الخزرجية، أيضاً ليلاً ولكن وهو في فراشه إلى النوم قد استسلم، فهوى من خيبر الرأس..

وكفخر الأوس أصابت الخزرج بقتلها «سيد خيبر» فخراً انطلق على إثره شاعر محمد يسجّل هذين الانتصارين:

للّه در عصابة لاقيتهم — يا بن الحقيق وأنت يا بن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم — مرحاً كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم — فسقوكم حتفاً ببيض ذنف

حسان بن ثابت

لا ثمة شك في أن من هذين الحدثين يأتينا الدليل الساطع على مدى السلطة المطلقة التي غدت لمحمد بعد جلاء القينقاع. فهذان الحدثان، بالإضافة إلى حدث القينقاع، إنما مظاهر من هذه السلطة المطلقة التي تعلن عن نفسها بنفسها والتي أخذت من جرائها تُظلّل أرجاء شبه الجزيرة سكينة الوجوم. فلقد تداولت أنباء محمدٍ ألسنة العرب جميعاً ليلج إلى القلب منهم الوجل من هؤلاء المسلمين الذين كانوا إلى يوم «بدر» ضعافاً وأمسوا بعده وبعد

«القينقاع» أقوياء، يقفون في وجه قريش!. طاردوا أبا سفيان وقتلوا سادة قريش وحكموا على القينقاع بالقتل واضطروهم إلى الجلاء وجندلوا سيد النضير وخيبر ويظهرون الآن تحت مظهر قط لم يك لهم من قبل مألوفاً!..

كلا!... بمفردها لم تعد اليهود تخشى الآن محمداً وإنما أرجله شبه الجزيرة بدأت الآن منه تخشى!.. فأما القبائل القريبة من المدينة، عبرية وعربية، فقد بدأت ترى جلياً ما يتهدّد مصيرها من قوة محمدٍ ورجاله وأصحابه. وأما القبائل العربية القريبة من مكة فبدأت ترهبه وتخشاه لما ترى من تعادل قوته في المدينة وقوة قريش في مكة تعادلاً أمست تخشى منه النتائج لا سيما وأمامها قد تحدّد الهدف من وراء إجلاء القينقاع الذي لم يكن إلاّ مقدمة للآثار السياسية التي ترتبت عليها خطط محمد فلم يكن هذا الجلاء إلاّ مقدمة لإيقاع:

الحصار الاقتصادي لمكة

إلى هذا الحصار كان لا بد أن يُظّل السلطان المحمدي القبائل المتاخمة للشاطىء إلى الشام وذلك عن طريق الشاطىء إلى الساحل وهو الطريق المطروق لقوافل مكة التجارية والذي في مرورها به كانت هذه القبائل تفيد فائدة اقتصادية كبرى. فإنه إذا ما انبسط السلطان المحمدي على هذه القبائل هدّد بذلك الطريق وعرّض رحلة الصيف لمخاطر ستضطر حيالها قريش، حتماً، إلى أن تهوي على ركبتيها جاثية أمام السلطان المحمدي!..

وإلى هذه الغاية اتخذ محمد الوسائل التي تمثّلت في الغزوات التي تلاحقت والتي احتمل منها الأموال. فهذه «غزوة بني سليم» وهذه «غزوة ذي أمر» وهذه «غزوة الفرع من بحران»... وكلها إنما غزوات من الواحدة بعد الأخرى يأتينا الدليل على ما أصاب القلب القبلي من الفزع من تلك السلطة الطالعة من قلب المدينة... ففي غزوة «ذي أمر» التي خرج فيها محمد بنفسه غازياً في رجاله يريد «غطفان» نرى محمداً لا يبلغ مقرهم إلا ليجدهم قد فروا بأنفسهم إلى رؤوس الجبال تاركين له المال وفي «غزوة الفرع» نرى نفس المشهد. فقد كان شأنهما شأن سائر الأعراب في فزع مستمر من هذه القوة الجديدة وفي قلق بالغ على مصيرهم، تختلج قلوبهم خلجات الهلع لمجرد سماعهم بسيرته ويجن جنونهم بمجرد علمهم بسيره للقائهم!..

ولكن... هنا تمتد يد الزمن وتنشر لنا في سجل التاريخ الإسلامي صفحة جديدة مادتها هذا الحصار الاقتصادي الذي طوّق به محمد مكة لتقول إن أمام هذا الحصار الاقتصادي وتجاه هذا التهديد لحياة القبائل، ومكة القريشية والقبائل المتاخمة لها إنما من التجارة تعيش فإذا لم تجد الوسيلة إليها تعرّضت لضائقة لا تتعرض لها مدينة مثلها وهذا الحصار إنما القضاء

في نفس العرب على مكانة قريش، اضطرت قريش إلى العدول عن متاخمة الشاطىء في قوافلها التجارية وتجنّبت اللقاء بمحمد ولكن!. لم يُجد قريش تجنبها طريق التجارة القديم فمحمد إنما لا يترك قافلة إلاّ ولها يخرج ويلاحقها برجاله وعليها يقطع طريق تجارتها ويسلبها أموالها!. أي شيء من ثم يمكن لقريش أن تفعل أمام هذا الحصار الاقتصادي؟!. وماذا يمكن أن تصنع قريش بتجارتها إلى الشام، أهم مرافقها الحيوية، ومحمد قد أخذ عليها هذا الطريق؟!.

من ثم كان حتماً أن تطرق قريش تفكر في مصيرها وفيما عساه أن يصيبها من أثر هذا الموقف الجديد الذي لم يكن في مخيلتها بالجديد، فقد كان قد ارتسم في مخيلتها من قبل قُبيل ارتحال محمد إلى يثرب، ليرتفع الصوت القريشي بلسان صفوان بن أمية يقول:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا! فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوا محمداً ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسكن؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء!».

وفي قلقٍ تلفتت مكة تستعرض فيافيها وأنجادها لتجد نفسها تجيب نفسها بصوت الأسود ابن المطلب يقول مقترحاً:

«تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق...».

وصادف الاقتراح الارتياح فبالإيجاب أجابت قريش بلسان دليلها فُرات بن حيان:

«طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد فإنما هي أرض نجد وفياف!».

ولكن!.. أينفع مكة حذرها؟!

كلا!. إن احتياط قريش وتجنبها محمداً واختيارها طريقاً آخر لم يطأه أحد من قبل لم يجد نفعاً. كلا ولن يجدي نفعاً، فمحمد في المدينة إنما قد غدا غيره في مكة لم يعد فرداً مهيض الجناح وإنما أصبح سيداً منتصراً وعلى قدم المساواة تقوم سيادته وسيادة سيدٍ في مكة!. ومن ثم فلم تستهل قريش في هذا الطريق النائي لها تجارة جهزت فيها إلى جانب الفضة الكثيرة ما قيمته مائة ألف درهم يقودها بنفسه سيدها أبو سفيان برجال قليلين دليلهم فرات بن حيان إلاّ وإلى محمد يحمل الخبر من كان قد بثّه من العيون وإلاّ ليسرع إثر ذلك بإرسال مائة راكب من رجاله يرأسهم زيد بن حارثة ليقطع على هذه القافلة التجارية الطريق فكانت:

«غزوة القردة من مياه نجد»

عند «القردة»، ذلك الماء من مياه نجد، اعترض رجال محمد التجارة القريشية التي ما لمح رجالها رجال محمد حتى ولّوا فراراً ناجين بأرواحهم تاركين لهم ما يحملون من مال أصاب رجال محمد العير وأعجزهم رجالها إلاّ دليل القافلة الذي قيّده زيد أسيراً وعاد إلى محمد به وبالمال، فأما المال، الذي تحدثنا عنه كتب السيرة في صدد تحدثها عن هذه الغزوة وتصرح بأنها أول غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون، فقد خمّسه محمد فاحتفظ لنفسه بالخمس، كما كان قد استنّ ذلك ابن جحش وكما شرعه بعد ابن جحش «الوحي» وأما فرات فعرض عليه محمد أن يسلم لينجو.. فأسلم!..

ولكن!... استفزت هذه الغزوة غضبة قريش!

لقد تجنّبت قريش محمداً وكي لا تصطدم به وتلتقي ورجاله اتخذت طريقاً غير الطريق المألوف، ولتسلم تجارتها وتنقذ أموالها من قطع الطريق عليها من أصحاب محمد طرقت هذا الطريق الغير مطروق!... إلاّ أن مرة أخرى يتحرش بها محمد وعليها يقطع رجاله الطريق ويسلبونها أموالها، وليس هذا فحسب بل وراحوا بعد هذه الغزوة يُنددون بها تنديداً يسجله شاعر محمد بشعر راح يستفز من قريش المشاعر، فقد راح يدوي في الآفاق العربية محقراً قريشاً رامياً رجالها بالجبن لتجنبهم الطريق المطروق واتخاذهم هذا الطريق النائي البعيد ويناديهم بصفة التأنيث:

دعوا فلجات الشام قد حال دونها	**جلاد كأفواه المخاض الأوارك**
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم	**وأنصاره حقاً وأيدي الملائك**
إذا سلكت للغور من فوق عالج	**فقولا لها ليس الطريق هنالك!**

حسان بن ثابت

يقيناً! أية سبة قد أصاب بها محمد قريشاً؟!...

يقيناً لقد نكأت مياه نجد الجرح القديم عند «ماء بدر»!.

من البديهي من ثم كان أن يطالنا في أعقاب هذه الغزوة:

تحرك قريش للثأر

لقد ثارت قريش من قبل ولكنها من قبل لم تثأر!.. ثارت يوم «بدر» يوم خرجت تحمي سيدها وأموالها ولكنها قط كاليوم لم تثر من قبل!... كلا وكالآن لم يسبق لها في آنٍ أن غضبت!. الآن قد أدركت تمام الإدراك أن محمداً لا يدعها ولن يوادعها!..

منذ يوم «بدر» لم يهدأ لقريش بال وأنّى كان يمكن أن يهدأ من قريش الجأش فينسى

منها البال قتلى بدر وهم أشراف مكة وساداتها وذوي النخوة والمروءة من كبارها؟ أنى لقريش نسيانهم وما تزال في مكة كثيرات إلى جانب هند بنت عتبة وقتيلة أخت النضر تذكر في القتلى لها ابناً أو أخاً أو زوجاً أو قريباً هي له تتوجع وعليه تُطلق وجيعة الألم رثاء يرن في الآفاق عويلاً؟!

من ثم كان حتماً أن تنكأ «مياه نجد» الجرح القديم عند «ماء بدر» كما كان حتماً أن تهب مكة، وهي بعد المستعرة الحشا سعيراً والمتأججة الدمع أجيجاً والواجفة القلب منذ غيّب ساداتها «القليب»، تستشعر في دمائها نداء الثأر!... فإن على مكة لم يطلع خبر هذه الغزوة التي فقدت فيها قافلتها ما تحمله من فضة ومال بتجارة قطع عليها رجال محمد الطريق إلاّ وأطلقت صيحة ثكلى أثقلها الشكل:..

«يا معشر قريش!»

«إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم!، أعينونا بالمال على حربه فلعلنا نُدرك منه ثأراً بِمَن أصاب منا!..»

وفي الأفق المكي دوّت صرخة قريش وراحت من حول سيد مكة تحوم وتلتف ليجد أبو سفيان نفسه حيالهم، وهو الذي وجد نفسه بعد «بدر» سيد مكة، أن كل العيون إليه تتجه وكل الأفئدة به تعلق وكل الألسنة من حوله تلهج تطالبه بمطلب واحدٍ هو أن يقدوها للثأر من محمد!..

ومن الأفق المكي إلى قبائل كنانة وعمائر تهامة سرت هذه الصرخة الاستصراخية وسرت كلهبٍ يلفح الذاكرة بنار الذكرى وتتجاوب بها فسحات البوادي إيجاباً لم يكن رجع صداها إلاّ تآصر هذه القبائل ورصد مال تلك التجارة السابقة، التي كانت السبب في واقعة بدر الكبرى، للثأر من محمد!..

وللثأر من محمد، بعد حول تام من يوم بدر، خرجت قريش في ثلاثة ألوية عقدتٍ في «دار الندوة» تقصد المدينة حتى بلغت «العقيق» ونزلت عندِ بعض السفوح من جبل «أُحد» حيث تراهصت الصخور وتراصت ثابتة لا يهمها أن «أُحداً» ليست بالأرض الثَبِرة أو السهلة. كلا ولا أنها ليست كبدر بالأرض الثامر، فكل همها قد انحصر في أن تلقى محمداً وتنال منه ثأراً غير عالمة بأنه قد سبقها إليه عين من عيونه يخبره بمسيرها وبعدتها وعديدها. كلا ولا تعلم أن محمداً قد هبّ على إثر ذلك يجمع جيشه ويعده لملاقاة الفلول القريشية حتى لا يؤخذ على غرة.

يقيناً لأول مرة تجهزت قريش وخرجت لمحاربة محمد ولم تخرج إلاّ طلباً للثأر مما قد

أصابها.. وليس إلاّ للسبب خشي محمد والمسلمون عاقبة هذه الحرب التي أعدت لها قريش خير ما أعدت في تاريخ حروبها، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بينما انبثَّ أفراد الجيش المحمدي يحرسون المدينة من أطرافها طيلة الليل وحتى بلغ من حذر محمد أنه لم يكتف باستشارة أهل الرأي من المسلمين فحسب وإنما من المتظاهرين بالإسلام، ممن يسميهم «المنافقين» والذين تحمل إحدى سور القرآن اسمهم، للتدبر في ملاقاة عدو عنه انفرجت شفتاه بهذا الكَلِم:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل اللّه فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون﴾!.

ولكن!.. بينما إلى هذا الوعد الإلهي كانت قد اطمأنت القلوب من الأتباع كان ذاك الذي منع محمداً من إيقاع القتل بالقينقاع والذي يسميه محمد «رأس المنافقين» يشير عليه بأن «أقم بالمدينة» لا تخرج إليهم. وفواللّه ما خرجنا إلى عدو لنا إلاّ أصاب منا ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه دعهم، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم».

ولكن!... هذا الوعد الإلهي الذي قد نفث في الأتباع روح الإقدام كان العامل الذي دفع الأتباع إلى الإحاطة بمحمد يقولون:

«يا رسول اللّه اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جبنا عنهم وضعفنا!».

وأمّا محمد... محمد قد أطرق إطراقة هبّ في أعقابها و«الكَلِم» من شفتيه يتحدّر والعين منه صوب تلك الأرض الزوراء تتجه:

﴿قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر اللّه لكم ما قد سلف... فقد مضت سنّة الأوّلين...﴾!

ولكن.. هذا «الكلم» القائل بأن الله يغفر ما قد سلف وأن على قريش من ثم أن تعود من حيث أتت لم يُقنع الفكر القريشي، كلا. ولم يُسكن من قريش الجأش هذا القول الذي يعني قتلى بدر ويقول بأن بهم قد مضت سنة الأولين، بل على النقيض كان هذا التذكير إلهاباً لذكراهم فذكرهم إنما يؤجج عنه الذكرى ويطلق سعيراً نيران اللوعة بين الجوانح. وقريش بعد لم تُقبل بحدها وحديدها وخيلها وأحابيشها ومن تابعها من أهل كنانة وتهامة يقود ألويتها الثلاثة سيدها أبو سفيان إلاّ والوجدان منها قد أترعته المواجد!.

من ثم أنّى كان يمكن لقريش أن تعود وقد أقبلت في ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنّبوها فجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي الحكم؟..

بل وأنّى لها أن تعود وقد نزلت عند «العينين» ببطن «السيخة» من «قناة» على شفير الوادي من «أُحُد» مقابل المدينة والأصوات منها تنطلق طالبة الثأر من محمد؟!..

وهنا.. هنا كان حتماً، تحت ضغط الأتباع، أن يخرج سيد المدينة إلى سيد مكة...

وإلى سيد مكة في جيشه خرج سيد المدينة بجيشه المكوّن من ألف رجل ثلثهم من أتباع ذلك الذي أشار عليه بعدم الخروج ليرى محمد بنفسه قريشاً قد انتشرت على هذه الأرض الحزَن يترعها الحزْنُ لذكر قتلاها فقد التقطت مسامعه أصواتها وهي تذكر بدراً وتتذاكر قتلاها وتُحرّض رجالها على الثأر وتستعد وتتأهب للقتال... رأى محمد كثرة قريش وقوة جيشها وطرق مسامعه طرق دفوفها وتهوجت عينيه بوهج نيرانها، بل وإلى هذه المسامع حملت نسائم الصحراء خفق ألويتها وصهيل خيلها وأسماء جديدة تلتمع لفتيان مكة الذين كانوا صبية عندما استهلّ محمد دعوته وأصبحوا الآن رجالاً ليتحول فيرى أن عبد اللّه، هذا الذي كان قد نصحه بعدم الخروج لملاقاة هذا العدو الثائر، قد انخذل عنه بثلث الناس وعاد بهؤلاء الذين قد تبعوه من قومه «من أهل النفاق والريب» ـ كما تسميهم كتب السيرة ـ ليتحول بعد ذلك محمد ويواصل المسيرة بجيشه حتى نزل الشعب من «أُحُد» في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل ظهره وجيشه إلى «أُحُد» وهناك دفع اللواء إلى مُصعب بن عمير مَن كان شديد الشبه به حتى الدرجة التي يصعب فيها بينهما التمييز...

وهناك.. هناك تحوّل محمد يقارن برجال العدو رجاله ويرى قلة عددهم، وما كان عددهم يومذاك إلاّ السبعمائة بينما كان عدد العدو ثلاثة آلاف من الرجال، إلاّ ويرفع صوته ينفث فيهم روح الاستبسال هادراً يقول:

﴿ولقد نصركم اللّه ببدر وأنتم أذلة فاتقوا اللّه﴾!

الآية ١٢٣ من «سورة آل عمران»

من ثم لا تخشوا من العدو عدده!. كلا. وليس لكم أن تخافوه واللّه إنما قد أمدّكم بالملائكة يحاربونهم معكم:

﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾؟

الآية ١٢٤ من «سورة آل عمران»

أقليل؟! **﴿بلى إن تصبروا... يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾.**

الآية ١٢٥ من «سورة آل عمران»

وفي نفوس المسلمين نفث هذا الوعد روح الإقدام فانطلقوا وعلى رأسهم حمزة يصيح مُردداً شعار محمد في هذا اليوم:

«أمِت! أمِت!».

صيحات، تتابعت من حنجرة حمزة في انطلاق دوّت بِرَجْع صداها سفوح هذه الأرض الجهاد ليلتقي الجمعان وليبدأ جهاد من مادته سجلت يد الزمن:

واقعة أُحُد «٣ هـ ٦٢٥ م»

عن «أُحُد» تحدثنا مراجع السيرة[1] لتُصوِّر لنا المشاهد من هذه الواقعة وهي تصفها قائلة إن الفئة الثائرة وإن كانت أكثر عدداً وأشد عدة من المسلمين فإنما قد تقدّم الصفوف القريشية حملة اللواء من فرع عبد الدار يقابلون بمفردهم المسلمين الذين انقضوا عليهم ليمر هذا اللواء من يد إلى أخرى من فرع عبد الدار حتى هوى هذا الفرع إلى فناءٍ تحت أسيافهم والذي في تكسرٍ راح به الريح الرامس على سفوح «أُحُد» هشيماً!.

وهنا... هنا وقريش ترى أن سيف محمد قد بَتَر من الشجرة القريشية فرع عبد الدار تحولت تتراجع في انسحابٍ تاركة عتاد الحرب في ميدان القتال.. وهنا تبدى لمحمد أن الغلبة التي التمعت على جبينه قد تحققت وسرعان ما انقض رجاله يجمعون هذا العتاد. ولكنه كان الفخ!. لم يكن هذا العتاد المطروح إلاّ خطة مرسومة للإيقاع بالمسلمين الذين ما بدأوا يجمعون هذه المخلفات إلاّ وانقضّ عليهم خالد تلك الانقضاضة التي وجد المسلمون نفسهم أمامها قد حاصرتهم قريش وحصرتهم النيران من كل جانب!

وانفرط عقد النظام وانكشف المسلمون فأصابت فيهم قريش حتى تمكنت أن تخلص إلى محمد وما كان خروجها إلاّ لتخلص إليه وتأخذ، بقتله، منه ثأرها..

ويقيناً لقد خلصت قريش إلى محمد فقد استطاع عُتبة بن أبي وقاص أن يكسر رباعيته ويجرح شفته. واستطاع عبد اللّه بن شهاب أن يشجه في جبهته. واستطاع عبيد اللّه بن قمئة أن يجرح وجنته حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته... ولكن! بينما كان محمد قد وقع في حفرةٍ جريحاً وبينما كان قد أسرع إليه عليّ وطلحة بن عبد اللّه يخرجانه ليسرع إليه أبو عبيدة بن الجراح فينزع الحلقتين من وجهه نزعاً سقطت بسببه ثنيته الواحدة وأعقبتها الأخرى ليغدو بعد ذلك محمد ساقط الثنيتين.. بل وبينما كان على

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٢، ص ٤١١.

محمدٍ قد انكفأ بعض الأتباع يحمونه من النبل وأبرزهم أبو دجانة الذي أخذت النبل تتساقط على ظهره حتى ملأته وهو لا يتحرك... بينما كان كل ذلك سريعاً يجري كانت اللوالب الفكرية لمحمدٍ أيضاً سريعة تجري لترسم أمامنا مشهداً عجيباً نقف أمامه للحظةٍ تكتنفنا فيها أشد انفعالات الذهول إذ تتجلّى على أتم وضوحها الحنكة السياسية ودقة الخطط الحربية التي تميز بها محمد. فنحن لا نرى محمداً يخلع، بالرغم من شديد جروحه، لباسه الحربي ويستبدله مع آخر إلاّ لنرى مصعباً بن عمير يبرز لقريش. ولما كان مصعب صورة تكاد أن تكون مطابقة لمحمد في الشكل والشبه حتى ليصعب بينهما التمييز نفهم لماذا قد دفع بهذا الفدائي إلى المقدمة. فإن ابن قمشة الذي ككرةٍ أخرى يريد بها إنجاز المأرب القريشي بقتل محمد قد وجد أمامه مصعباً وحسبه محمداً، ومن هنا نتبيّن شدة الشبه لأن ابن قمشة لم يستطع التمييز بينهما وهو الذي كان قد جرح محمداً منذ لحظات، فوقع عليه ليعود إلى أبي سفيان يبلغه خبراً انطلقت على إثره صيحة الميدان تجلجل:

«إن محمداً قد قُتِل!...».

وكأن ذلك كان خطة مقدورة لإنهاء القتال.. قد رفّت هدأة فيها تراخت الأيدي القريشية عن السيوف وأخذت عنها تتخاذل، فإنما الأمر الذي كان قد أقبلت بسببه قد أنجزته!... ومن ثم فلا حاجة لها باستمرار قتال أتباع هي لا تحمل لهم ضغينة وحسبها أنها قد ثأرت لكل واحدٍ من قتلاها في «بدر» بواحدٍ من المسلمين. فحسبها أنها، ولما يقتل المسلمون منها إلاّ اثنين وعشرين، قد قتلت سبعين واحداً من المسلمين، وهو نفس العدد الذي هوى من رؤوس سادة مكة يوم «بدر» ثأر لكل واحد من قتلاها في «بدر».. بل وحسبها أن على أرض «أُحُد» قد مات هذا الذي صاح بها «أمِت!»!...

ولكن... بينما كانت قد تراخت الأيدي القريشية وبينما كان قد اكتنف القتال هذا الفتور الذي جاءت به هذه الصيحة بأن محمداً قد قُتل يطرق الفكر للحظة أخرى يستغرقه فيها التأمل العميق في المصدر الذي صدر عنه هذه الصيحة التي كانت سبباً في تحوّل قريش وانسحابها راجعة إلى ديارها ليراها فيراها صيحة ليست في مداها الحقيقي إلاّ خُطة دقيقة من الخطط الحربية الفذة في تاريخ الحروب والجديرة بطويل التفكير. فإن محمداً كان يعلم تمام العلم أن قريشاً لم تقبل إلاّ للثأر وللثأر منه هو بالذات وأنها لن تبرح مكانها في «أُحُد» ولن تكف عن القتال حتى تخلص إليه وتقتله، ومن ثم كان حتماً أن يفكر ويُقدِّر ويختط الخطط أولاً لإنقاذ نفسه من المخلب القريشي وبالتالي إنقاذ دعوته من الانهيار وليس إلاّ للسبب كان حتماً أن يحدث كل ما قد حدث...

ومن ثم فإن هذه الصيحة التي تقول عنها كتب السيرة[1] بأنها «صرخة الشيطان» لم تكن في الحقيقة إلاّ الإنقاذ!. فإنها وإن كانت صيحة قد هزت المسلمين بهزة الجزع فإنما قد شلّت يد قريش عن القتال!... ولأي شيء ستواصل قريش بسببه القتل وقد أنهت مهمتها ولم يعد أي سبب لاستمرار القتال؟...

وهكذا بذوْب النهار ذاب القتال وما بدأ الليل يتراخى إلاّ واستثمرت قريش آن الآن قد آن لتعود إلى بلادها فقد أرضت نداء الشرف وثأرت وقتلت، كما قد توهمت، محمداً!...

وهذه هي الحقيقة التي أسلمت هذه الواقعة إلى نهايةٍ أعلنت بها أنفاس الزمن انحسار «أُحُد» عن:

الثأر القريشي والانهزام المحمدي

ثأرت قريش أو بالأحرى حسبت أنها قد ثأرت وأنها في ثأرها ظفرت وأن عليها لم تكتب الغلبة. أشفت غليلها وثأرت لنفس العدد بنفس العدد، ومن ثم بدأت تجمع جموعها لتعود إلى مكة وقد أثملها الوهم بأنها قتلت محمداً بنشوة الانتصار حتى قام أبو سفيان، وهي بالانصراف قد همّت، وأشرف على الجبل يصيح بالمسلمين بأعلى صوت:

«يوم بيوم بدر! وإن موعدكم بدراً للعام القابل»!

وإلى مكة قفلت قريش تضرب دفوف النصر وتتغنى:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر..

وخلت «أُحُد» من قريش...

ولكن!.. بينما كانت قريش وهي في «الروحاء» قد بلغها أنها قد أخطأت محمداً بمصعب كان محمد قد هبط السفح من هذه الأرض الجهاد بعد جهاد أجهد فيه الأتباع الجهاد، هبط يجول بين من قد جُندل من أصحابه حتى وقف أمام حمزة يقول:

لئن أظهرني اللّه على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم!.».

عن مدى اللّوعة التي عرفها قلب محمد تأتينا كدليل هذه الجملة التي ما انطلقت إلاّ لتعقبها إطراقة من محمدٍ طويلة انفرجت على أثرها شفتاه عن قول إزائه يطرق التفكير إطراقة طويلة وهو يستوعب منه الفقرات التي تُسجل:

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾.

لا ثمة شك في أن هناك معنى أعمق بما يُلمس في الظاهر من هذه الكلمة التي أطلقها

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص ٤٢٩.

محمد وهو في سفح «أُحُد» بعد هزيمة لا شك أن وطأتها كانت عليه شديدة. فلا ثمة شك أن وطأة الهزيمة كانت على كاهل محمد ثقيلة وإن ثقلها قد حزّ في نفسه حزاً عميقاً. ولكن وقوعها كان أشد وطأة على نفوس رجال ينادونه بـ «رسول اللّه» حتى المدى الذي أمسى محمد نفسه يخشى منهم له هزيمة وبعد الإيمان به عنه ردّة لا سيما وقد أسفرت أقوالهم عن مقدار وقع هذه الهزيمة في نفوسهم سفوراً تفتق عن ألوانٍ بدأت تُلقي عليهم ظلل التململ!.. والتململ؟. التململ إنما ظاهرة نفسية أبداً تعقبها ظاهرة الملل!... والملل؟ الملل إذا ما إلى النفوس دب منه الدبيب فليس إلاّ لتعقبه ظاهرة الضجر وليس إلاّ ليستسلم الضجر إلى الانشقاق!. الانشقاق إنما خطير ظاهرة ليس إلاّ لدرئها كانت أن انفرجت شفتا محمد في هذه الفترة الزمنية تلقيان من «الكلم» كلاماً لا ينطلق إلاّ لتخفق قلوب من حوله خفقة الندم على ما قد وسوست به الصدور!..

ويقيناً لم يكن إلاّ رداً على تناوب الأتباع أنين التململ وإحباطاً لظاهرة الضجر التي انتابت منهم النفس فأطلقت الصوت منهم يقول: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا!» انفرجت شفتا محمد عن:

﴿... يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾!

الآية ١٥٤ من «سورة آل عمران»

فيقيناً: **﴿.. ما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن اللّه كتاباً مؤجلا﴾!**

الآية ١٤٥ من «سورة آل عمران»

فإنما: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾!**

الآية ٧٨ من «سورة النساء»

من ثم: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا! ليجعل اللّه ذلك حسرة في قلوبهم واللّه يحيي ويميت﴾!**

الآية ١٥٦ من «سورة آل عمران»

ويقيناً لقد: **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾.**

الآية ١٤ من «سورة آل عمران»

ولكن.. ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا واللّه عنده حسن المآب﴾.

الآية ١٤ من «سورة آل عمران»

بل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم﴾؟!

الآية ١٤٢ من «سورة آل عمران»

من ثم: ﴿ولئن قُتلتم في سبيل اللّه أو متم، لمغفرة من اللّه ورحمة خير عما يجمعون﴾!

الآية ١٥٧ من «سورة آل عمران»

ولكن!.. ما زالت في نفوسكم من ألم الهزيمة مرارة وليس إلاّ على عاتقكم وحده تقع الجريرة!. فإنكم لو استبسلتم لتبدل الأمر غير الأمر!. ومن ثم فما لكم تتساءلون أنّى كان يمكن هذا؟.

﴿أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾!

الآية ١٦٥ من «سورة آل عمران»

فإنه: ﴿ما أصابك من حسنة فمن اللّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾!

الآية ٧٩ من «سورة النساء»

ومن ثم يقيناً: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن اللّه وليعلم المؤمنين﴾!

الآية ١٦٦ من «سورة آل عمران»

ولكن!. ﴿.. وإن تُصبهم حسنة يقولوا هذه من عند اللّه وإن تصبهم سيئة يقولون هذه من عندك! قل كل من عند اللّه﴾!

الآية ٧٨ من «سورة النساء»

من ثم قل لهؤلاء: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾!.

الآية ١٦٨ من «سورة آل عمران»

بل وعلام كل هذه الضجة من حول القتل والاستشهاد؟

«إن إخوانك بأُحد جعل اللّه أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأْكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فيطلع اللّه عزّ وجل عليهم اطلاعة فيقول: «يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم؟» فيقولون ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة نأكل منها

حيث شئنا إلاّ أن تردّ أرواحنا في أجسادنا ثم نُرد إلى الدنيا فنقاتل فيك حتى نُقتل مرة أخرى!».

محمد

بلى..: «لمّا أصيب إخوانكم بأُحُد جعل اللّه أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش. فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقبلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع اللّه بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب! فقال اللّه تعالى: **﴿فأنا أبلغهم عنكم﴾**.

محمد

ومن ثم فإن اللّه إنما لكم يقول: **﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم اللّه من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**!

الآي ١٦٩ ـ ١٧٠ من «سورة آل عمران»

من ثم كفاكم جدلاً!.. كفاكم أن اللّه قد منّ عليكم فبعث فيكم من أنفسكم رسولاً؟!

﴿لقد منّ اللّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾!

الآية ١٦٤ من «سورة آل عمران»

وعمل هذا «الكَلِم» الذي تتابع من شفتي محمد عمل البلسم في النفوس المتأججة لأتباعِ سرعان ما إليه ركنوا وعليه ارتكنوا وسرعان ما عادوا كرة أخرى إلى ما يدعو إليه محمدٌ يبذلون النفس في سبيله في تفانٍ حتى حد الفناء... ومِن ثم قفل محمد بهم عائداً إلى مدينته التي لئن ملأت جانبيه فيها غيوم الحزن من يوم «أُحُد»، فإن بين هذه الجوانب كانت تلتمع ومضات الارتياح لفناء فرع عبد الدار لا.. وليس هذا فحسب بل ويثلج من محمد الصدر قتله، بيده[1]، اثنين ممّن كان بأسهما على دعوته شديداً وهما:

أُبي بن خلف بن وهب بن حذافة وعمرو بن عبد اللّه بن عمير بن وهب بن حذافة.

ويقيناً لقد كان في قتل هذين انتصاراً لمحمد خرجٍ به من «أُحُد» وخاصة وقد سحب أبا عزة الجمحي في ركابه أسيراً ما حلّ به في المدينة إلاّ وإلى الزبير آمراً التفت: «اضرب عنقه يا زبير!».

---

(١) **سيرة ابن هشام**، ج٣، ص ٤٩.

ولكن!.. كل هذه المصارع لم تشف إلاّ الطفيف مما تضمه الصدور، فقد كان أثر «واقعة أحد» في نفس محمد مريراً لا سيما وهو يدخل مدينته مهزوماً لتجابهه فترة داكنة تبدّى فيها المركز الإسلامي في المدينة قد تزعزع تزعزعاً محسوساً وإن بقي سلطان محمد فيها السلطان الأعلى..

ويقيناً لقد تزعزع المركز الإسلامي بعد هذه الواقعة تزعزعاً ملموساً، فإن المسلمين الذين عادوا من أُحُد إلى المدينة قد رأوا أن لهم قد تنكّر الكثيرون من أهلها وخاصة من هذه الطبقة التي تظاهرت بالإسلام، دون ما اعتناق للإسلام، فإن «المنافقين» بدأوا يظهرون السرور لما أتت به هذه الواقعة من نتائج بل وبدأت ترتفع منهم الرؤوس في استخفاف مباشر بالمسلمين وغير مباشر بسلطان هو في المدينة قد أمسى الأعلى. فلا غرو من ثم أن يسل هذا السلطان سيفه وعلى بعض الأعناق من أفراد هذه الطبقة يهويَ.. فكان:

مصرع الحرث بن سويد بن الصامت

على الحرث، والحرث إنما ابن صاحب صحيفة لقمان، صدر حكم سيد المدينة بالقتل. وإلى عثمان بن عفان أشار آمراً بتنفيذ الحكم، فضرب عثمان عنق الحرث...

ولكن!... لمصرع واحد كالحرث كان لا بدّ أن تهتز بعض النفوس وبشتى الأحاسيس تضطرم لترسل في الآفاق لهب الحزن الذي مثله أوفى تمثيل أبو عفك... وواحد كأبي عفك، هذا الرأس من بني عمرو بن عوف والذي تخطى من العمر المائة من السنين، إذا ما أرسل نحيبه شعراً يرثي الحرث فليس إلاّ ليترك، حيثما راح صداه، أثراً لم يبدده إلاّ صوت محمد وهو بأصحابه يصيح: «مَن لي بهذا الخبيث؟!».

صيحة، سجل في أعقابها التاريخ الإسلامي:

سرية سالم بن عمير لقتل أبي عفك

إلى أبي عفك سار رسول سيد المدينة لتحدثنا مراجع السيرة بأن رسول محمد قد أغمد سيفه في أبي عفك وقتله غيلة فأخمد إلى الأبد هذا الصوت الثائر الذي كان قد انطلق قائلاً:

لقد عشت دهراً وما أن أرى	من الناس داراً ولا مجمعا
أبر عهوداً وأوفى لمن	يعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولادي قيلة في جمعهم	يد الجبال ولن يخضعا
فصدعهم راكب جاءه	حلالٌ حرامٌ لشتى معا!

ولكن!... لمصرع واحد كأبي عفك كان لا بدّ أيضاً أن تهتز بعض النفوس وأن تعتمل منها الجوانب بأحاسيس مثلتها صيحة عصماء بنت مروان. وصيحة تطلقها عصماء فليس إلاّ

ليتردد صداها في عشيرتها من بني أمية وفي أصهارها من بني خطمة. ومن ثم كان حتماً أن تخنق في مهدها هذه الصيحة التي انطلقت شعراً راح في الآفاق عويلاً لم تكفه إلاّ من محمد في أصحابه صيحة عَلَت تجلجل:

«ألا آخذ لي من ابنة مروان؟!».

صيحة، سجل على إثرها للإسلام تاريخ:

غزوة عمير بن عدي لقتل عصماء بنت مروان

إلى عصماء سار رسول سيد المدينة لتحدثنا مراجع السيرة بأن عميراً قد سَرى عليها ليلاً فانهال عليها وهي في فراشها إلى النوم قد استسلمت... وفي أحشائها أعمل عمير سيفاً عاد به إلى محمد يقول:

«يا رسول اللّه إني قد قتلتها!».

وانفرجت شفتا محمد عن:

«نصرت اللّه ورسوله يا عمير!».

لردع نساء قد تستفيض مشاعرهن فتفيض أشعارهن في الغد بالهجاء وبالنقد كان حتماً قتل عصماء!.. فلم تُقتل عصماء إلاّ لأنها انتقدت الإسلام وعابت أهله من خلال صيحة الرثاء التي أطلقتها على أبي عفك تنادي:

يا ست بني مالك والنبيت ... وعوف ويا ست بني الخزرج

أطعمتم أتاوى من غيركم ... فلا مِن مراد ولا من مذحج

ترجونهم بعد قتل الرؤوس ... كم يرتجى مرق المنضج

لهذا السبب كان حتماً أن تقتل عصماء وهذه إنما أيضاً حنكة سياسية تفصح عنها سياسة محمد في هذه الفترة التي استقرت له فيها السيادة في المدينة، فقد استتبع ذلك أن أسلم في نفس اليوم رجال من بني خطمة لم يكن لإسلامهم أي سبب إلاّ ما تبينوه، من خلال قتل هذه السيدة من سيداتهم، من قوة الإسلام وعزته، ومن هنا يتضح لنا أن قتل عصماء إنما خطة إرهابية كانت حتماً لكف كل هجاء هي ولئن تجلّت الآن بقتل عصماء فإنما عليها لم تقتصر، فقد عُمل بها من بعد بل ومن قبل كما في غزوة زيد بن حارثة لبني فزارة التي سُجل غضونها:

قتل فاطمة بنت ربيعة

غداة بعث محمد إلى بني فزارة زيداً في غزوة قُتل فيها بوادي القرى من قتل وأسر فيها

من أسر إنما كان قد أسر بين الأسرى فاطمة بنت ربيعة، هذه التي يصفها التاريخ الإسلامي بأنها «كانت عجوزاً كبيرة» وأنها كانت في بيت شرف في قومها تضرب العرب بعزها وبعزه المثل.. وأمر زيدٌ قيساً بقتلها فقتلها قيس قتلاً تذكره كتب السيرة بأنه... «كان عنيفاً»[1]!

وهنا...

ثمة سؤال قد يتساءله في هذا الصدد سائل: كيف تُقتل فاطمة بدون ما ذنب له جَنَت؟...

عن هذا السؤال يأتي الجواب بأن لمصرع عقيلة من عقائل العرب هذه مكانتها له أثره الإيجابي في إلقاء الرعب في قلوب غير المسلمات أملاً في أن تنعطف منهن الأعطاف بالانعطاف إلى هذه الدعوة التي وإن عاد صاحبها من «أحد» مهزوماً فإنما ما زالت منيعة كما من هذه المصارع يوافينا الدليل الأوفى على استتباب السلطة المطلقة وعلى بقاء السلطان الأعلى لمحمد في المدينة بالرغم من تزعزع المركز الإسلامي بعد «أُحد» وبالرغم من ارتفاع الصوت القريشي مُدوياً بأنغام الانتصار وهو يسترسل شعراً في أرجاء شبه الجزيرة مُرجّعاً لضرّار بن الخطاب قوله:

وقد ناشدناهم بالله قاطبة	فما تردهم الأرحام والنشد
حتى إذا أبوا إلاّ محاربة	واستحصدت بيننا الأطغان والحقد
سرنا إليهم بجيش في جوانبه	قواف البيض والمحبوكة السرد
وقد تركناهم للطير ملحمة	وللضباع إلى أجسادهم تغد

ويقيناً إن ذكر «أُحد» في أرجاء الجزيرة يدوي. أجل لقد عاد سيد مكة من «أُحد» إلى مكة وقد سبقته إليها أخبار النصر وإلى المدينة عاد سيد المدينة وقد سبقته إليها أخبار الهزيمة حتى إذا بلغها وجد من فيها من غير المسلمين له قد تنكّر وإن بقي فيها سلطانه السلطان الأعلى، كما على هذا تأتي، كما قد سبق، الأحكام بالقتل وتسارع الأتباع إلى تنفيذه هذه الأحكام، ولكن!.. دقة الموقف إنما عن عيني محمد، وهو السياسي الفذ، لا تغيب. فقد شعر محمد بدقة الموقف بل واستشعر حرج المركز لا في المدينة وحدها فحسب وإنما في سائر القبائل العربية ممن كان الرعب منه قبل «أُحُد» قد داخل منهم القلب. فقد لمحت عيناه المرهفتان أن إلى هذه القبائل قد ردّت واقعةُ أُحُد من السكينة ما قد يسمح لها أن تُفكِّر في معارضته وعليه تتألب!..

---

(١) سيرة ابن هشام.

من ثم كان حتماً أن يطرق الفكر من محمد إزاء ذلك إطراقة تسارعت خلالها منه اللوالب جرياً لتستقر عند الاقتناع بأن إلى هذه النفوس يجب أن تعود ما قد ضيعته فيها «أُحُد»!

كلا!... ليس بالعجيب في محمد هذا الإلمام الشامل بالنفوس كلا ولا بالفذة فيه هذه المعرفة العميقة بالنوايا. فليس إلاّ كنتيجة لهذا الإلمام وليس إلاّ كأثرٍ لهذه المعرفة تنتشر في تاريخ تكوّن الإسلام كدين صفحة جديدة تطالعنا عليها:

السياسة المحمدية بعد «أُحُد»

تتجلّى السياسة المحمدية أشد وضوحاً الآن عن ذي قبل، فليس إلاّ ابتغاء محو أثر «أُحُد» كان، ولما يمض إلاّ القليل من الزمن بعد أُحُد، أن سجل التاريخ الإسلامي:

«سرية أبي سلمة إلى بني أسد»

في هذه السرية تتجلّى دقة التفكير المحمدي في رسم الخطوط الحربية، فهو إذ يدعو إليه أبا سلمة ويعقد له لواء هذه السرية فليس إلاّ ليأمره بالمسير ليلاً والاستخفاء نهاراً وسلوك الطريق الغير مطروق لمفاجئة بني أسد بالإغارة عليهم على غرة منهم...

لا ثمة شك في أن هذه السرية كانت وسيلة إلى غايةٍ أبعد هي هذه التي تتلخص في ردّ مهابة سيد المدينة في نفوس ما يجاور المدينة من قبائل.. ومن ثم فإذا كان لهذه السرية أثرها بانقضاضها على بني أسد وفوزها بهم وعودتها إلى محمد بالغنيمة التي نُحي له فيها، كالعادة، الخمس، بينما اقتسم الباقون الباقي فإنما بعودتها إلى المدينة ظافرة قد أتت بنتيجتها التي إليها قد هدف محمد، إذ بدأت تعود إلى النفوس من هيبة المسلمين مشاعر كانت قد ضيعتها «أُحُد»!..

ولكن... لئن تجلت في هذه السرية دقة التفكير المحمدي في رسم الخطوط الحربية، فإنما لم تكن إلاّ مقدمة لغزوة تقف بين البراهين الشتى البرهان الواقعي على مدى المقدرة السياسية التي اتصف بها محمد وهي هذه التي يُسجلها التاريخ الإسلامي تحت اسم:

غزوة عبد اللّه بن أُنَيس إلى بني لحيان من هذيل لقتل «سيد هذيل»

لعبد اللّه بن أُنَيس نادى محمد وعن خالد بن سفيان، سيد هذيل، له قال:

«إنه قد بلغني أن ابن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني وهو بنخلة... فأته فاقتله!...».

وائتماراً بالأمر الصادر من شفتي سيد المدينة حمل أنيس فجأة على خالد، فهوى رأس هذيل بسيف محمدٍ قتيلاً..

ثمة سؤال قد يجيء في هذا الصدد يتساءل: أية غاية هذه التي قصد إليها محمد بهذه الوسيلة التي ما علم بتنفيذها إلاّ وصاح بأنيس صيحة الغبطة تناديه: «أفلح الوجه!...»؟!..

لا ثمة شك في أن الجواب عن هذا السؤال يأتي بأن لمصرع سيد هذيل سترتد القبائل العربية فزعة وسيملأ الرعب منها الجوانب بل وسيقض مضجعها الإدراك أن سيف محمد ما زال قوياً يستطيع أن يهوي على الرؤوس متى شاء القوم من مشاء وحيثما شاء وأنّى شاء، وفي هذا ما فيه من الدلالة على أن سلطان محمد يفوق كل سلطان قَبَلي فتفزع القبائل عائدة إلى سابق انكماشها...

وفي الواقع أثار مقتل سيد هذيل الفزع في القلب القبلي. بيد أن هذا الفزع لم يكن إلاّ للحظة انتفضت على إثرها بعض القبائل مضمرة أن تضع حداً لهذه السلطة الطالعة. فكان رداً على مصرع سيد هذيل:

يوم الرجيع «٣ هـ ـ ٦٢٥ م»

من تلك القبيلة المجاورة هذيلاً أقبل على محمد وفد يقول: «إن فينا إسلاماً فابعث معنا بنفرٍ من أصحابك... يعلموننا شرائع الإسلام». وأرسل محمد معهم ستة من رجاله. ولكنه كان الثأر!.. فما بلغ الوفد «الرجيع»، وهي ماء لهذيل، إلاّ واستصرخ هذيلاً التي سرعان ما انبرت وأعملت سيوفها ثأراً لسيدها في ثلاثة من أصحاب محمد، وأما الثلاثة الباقين فأخذتهم إلى مكة إلاّ واحداً تمرّد في الطريق فَقُتل.. بينما دُفع الاثنان إلى قريش فقتل أحدهما ثأراً للحرث بن عامر ودفع الآخر إلى صفوان بن أمية ليقتله ثأراً لأبيه أمية بن خلف.

إزاء هذا الحدث الذي حمل مفهومه إلى فهم محمد المعنى المتلخص في استخفاف القبائل المحيط بمكة بأمره كان حتماً أن يُطرق محمد إطراقة ما استقام في أعقابها إلاّ وسجل التاريخ:

«بعث عمرو بن أمية لقتل سيد مكة»

إلى الضمري، عمرو بن أمية، صدر أمر سيد المدينة بالمسير إلى مكة لقتل أبي سفيان سيد مكة..

وخرج الضميري مصحوباً بجبار الأنصاري إلى مكة... ولكن!. عاد الضمري ليقص على سيد المدينة فشل البعثة لقتل سيد مكة...

أمرٌ، أخذ محمداً إلى عميق تفكير انتهى إلى:

يوم بئر معونة «٣ هـ ـ ٦٢٥ م»

إلى نجد بعث سيد المدينة بعثة، فيها أيضاً الضمري، بكتابٍ إلى عامر بن الطفيل...

وكأنما هذه البعثة قد أدركت أهمية ما تحمل إذ أنها لم تسر حتى بلغت «بئر معونة»، وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سُلَيم، إلاّ وبعثت برسولٍ يحمل كتاب محمد إلى ابن الطفيل الذي لم يلق عليه نظرة فهم بها منه الفحوى إلاّ وقتل الرسول واستصرخ بني عامر وبالتالي قبائل من بني سُليم!...

ثمة سؤال آخر يجيء هنا متسائلاً: أي ريح هذا الذي قد فاح من هذا الكتاب حتى بسببه استعرت هذه القبائل بسعير الهياج وحتى استصرخ بعضها بعضاً وحتى تجاوبت أنجاد نجد بصرخات هذه الاستصراخات؟!...

صامت إنما التاريخ الإسلامي إلاّ من القول بأن هذه القبائل قد أحاطت بهذه البعثة وأنها لما رأت المسلمين يحملون سيوفهم قاتلتهم حتى قتلتهم ما عدا واحداً والضمري الذي استطاع فراراً لا يلوي على شيء حتى أفقده الهلع التمييز بين فرد وفرد، ودلالة على ذلك قتله ذينك العامريين اللذين لقيهما في الطريق. فقد حسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فقتلهما وتابع مسيره إلى محمد الذي ما علم أن الرجلين إنما عامريان، وهو إنما بينه وبين بني عامر معاهدة جوار، إلاّ وانطلق صوت بني عامر ينادي محمداً بأداء ديّة القتيلين!...

عن إصابة الهدف انحرف السهم ولم يصب يوم «بئر معونة» ما أراد به التفكير المحمدي من هدف وليس هذا فحسب وإنما!... إنما بيوم «بئر معونة» رجعت إلى الذاكرة المحمدية ذكرى «يوم الرجيع» وإلاّ واستفزت الذكرى ذكرى «أُحُد» وإلا وبذكرى «أُحد» عاودت الذاكرة مرير الذكرى بالهزيمة. وبالرغم من هُوِي السيف المحمدي على بعض «المنافقين» وبالرغم من إرسال السرايا لقتل الرؤوس من العبريين ومن العرب فإن أمر الدعوة قد أمسى عرضة لاستخفاف «المنافقين» عامة وسخرية قريش خاصة والقبائل العربية كافة... من ثم يقيناً إن هزيمة كالهزيمة لن يبددها من ذاكرة العرب إلاّ نصر جديد!...

لا بدّ من نصر جديد يمحي هزيمة «أُحد» وما قد ترتب على هذه الهزيمة من آثار!... نصر جديد يرد إلى المسلمين قوتهم المعنوية ويدخل إلى روع «المنافقين» الرهبة من محمد ويقذف في القلب القريشي خوفاً جديداً يحفظ سلطان محمد على «المؤمنين» وسلطته التنفيذية المطلقة في المدينة...

وهنا... هنا تنتشر صفحة جديدة عليها تتجلّى مرحلة أخرى من مراحل السياسة المحمدية التي أعقبت إطراقة طويلة جرت خلالها اللّوالب الفكرية من محمد تطرّق شتى الفِكر. وكان حتماً أن تجري هذه اللّوالب إزاء دقة الموقف وحرج المركز وأن تسترسل تُفكر،

كعادتها، تفكيراً دقيق النظر بعيد مرامي الرأي لتعود مؤمنة بأنه لو كان لدى الأتباع من السلاح ما كان لدى قريش يوم «أحد» لكانت الآية قد انعكست تمام الانعكاس!...

وتقلبت عينا محمد بين القبائل لتستقر على:

النضير

إن في النضير، هذه القبيلة اليهودية المتاخمة المدينة، الغلال والسلاح. وفي النضير أيضاً ضعف معنوي بأسبابه يعود إلى مقتل سيدها، فمنذ تلك الليلة التي قُتل فيها ابن الأشرف أصبح كل فرد من أبناء النضير يخاف محمداً خوفاً هو هذا الذي طبع النضير بهذا الضعف المعنوي...

وهنا تنحصر سجف التاريخ عن هذه الشخصية السياسية الفذة وخططها الدقيقة الصائبة المرمى. فإن محمداً إذ تستقر عيناه على النضير فليس إلاّ ليختط خطة تقف البرهان الدامغ على ما اتصف به من الاضطلاع بأمور السياسة... فإن النضير إنما حلفاء بني عامر وبينها عقد حلف وبني عامر التي رفعت صوتها تُطالب محمداً بدية ذينك القتيلين اللّذين قتلهما الضمري... وهنا تزداد سجف التاريخ انحساراً ونحن نرى محمداً يتوجّه إلى «النضير» طالباً منها معاونتها له في دية هذين القتيلين العامريين...

إلى «النضير» خرج محمد مستصحباً معه عشرة من كبار المسلمين فيهم عليّ وفي مقدمتهم وزيريه أبو بكر وعمر... وهناك، في «محلة النضير» عقد مع سادة «النضير» مجلساً طلب فيه منهم ما خرج إليهم بسببه...

وأجابت «النضير» محمداً بالإيجاب:

«نعم يا أبا القاسم نُعينك على ما أحببت مما استعنت به علينا»[1].

ولكن... هنا يسترسل التاريخ الإسلامي يحدثنا أن محمداً قد انسحب من مكانه تاركاً أصحابه يظنون أنه قد قام لبعض أمره وأنه إليهم عائد حتى استبطأوه فقاموا في طلبه ولكن ليلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن محمداً قد دخلها وأنه قصد تواً إلى المسجد. فذهبوا إليه يستفسرون منه أمر انصرافه فجأة ليجيئهم منه الجواب بأن إليه قد أتى الخبر من السماء بأن «النضير» قد تآمرت على أن يصعد واحد منهم إلى جنب جدار من بيوتهم ويلقي عليه صخرة وأن لذلك يجب التهيؤ لحربهم والسير لقتالهم وغزو ما لديهم من غلال وسلاح!..

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص ٨٢.

ونادى محمد إليه محمداً بن سلمة، هذا الذي كان محمد قد أوفده من قبل لقتل «سيد النضير» قائلاً:

«اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول اللّه أرسلني إليكم أن **اخرجوا من بلادي!** لقد نقضتم العهد الذي كان بينكم جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي. **لقد أجلتكم عشراً**. فمن رُئي بعد ذلك **ضربت** عنقه!».

وصعقت «النضير» وفي تجمع اجتمعت تتشاور أمرها لتستقر على رأي كبيرها وسيدها حينذاك حيي بن أخطب وهو يقول:

«**أنا مُرسل إلى محمد إنّا لا نخرج من ديارنا وأموالنا** فليصنع محمد ما بدا له! إن عندنا من الطعام ما يكفينا سنة وماؤنا لا ينقطع. ولن يحصرنا محمد سنة كاملة!».

ولكن!...

سيد المدينة لم يمهل «النضير» إلاّ عشراً!...

وسريعة في «النضير» ومتثاقلة في المدينة انقضت هذه «الأيام العشرة» التي ضربها محمد ليضرب بعدها العنق ممن لم يطع الأمر!... انقضت هذه «الأيام العشرة» ولم تخرج «النضير» من ديارها وعن أموالها لم تتخل... وهنا صاح محمد برجاله صيحة سُلّت على إثرها السيوف من مغامدها لتسجل يد الزمن:

غزوة النضير «ربيع الأول ٤ هـ ـ ٦٢٥ م»

برجالٍ صاح فيهم محمد صيحة الحرب سار إلى «النضير» فحاصرها حصاراً تحصنت في غضونه بما لديها من آطام ليهب محمد آمراً بقطع وتحريق ما قد انتشر على أرض النضير من نخيل...

وانهالت معاول الرجال على النخل الحُشوش تقطيعاً وتحريقاً... حينذاك نادت «النضير» محمداً:

«يا محمد! يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟!..».

فكان الجواب: ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه**﴾!

الآية ٥ من «سورة الحشر»

بإذن اللّه قطع الرجال النخيل وبإذن اللّه أحرقوها... بيد أن ما الهدف من هذا وما الغاية من هذه الوسيلة؟!..

كلا!.. إن محمداً لا يطلب من «النضير» الإيمان باللّه... فالنضير إنما أهل التوراة ولا يمكن لأهل التوراة أن تعد كافرة ولكن!. أمام قوة بقوتها تعصف تمكن الرعب من قلب «النضير» لتتسارع من هذا القلب النبضات تسأل محمداً سؤال القينقاع من قبل لينطلق من وراء جدران أطامه صوت النضير ينادي محمداً:

«يا محمد! كف عن دمائنا ولك أموالنا».

وأجيب النداء بالإيجاب... فقد ارتضى محمد أن يكون كمآل القينقاع، مآل النضير. فحقن دماءها على أن تجلو وتترك له ما لديها من الغلال والسلاح وأن تكون له هذه الأموال خاصة يضعها هو حيث يشاء!...

وارتحلت النضير وعلى رأسها سادتها.. ومن وراء حيي بن أخطب سار في استسلام ذليل الجميع حتى هبطوا المقر اليهودي الآخر «خيبر» وذلك قبيل أن يسير منهم البعض إلى الشام. وأما الأموال فخلت لمحمد الذي وقف يشيعهم بنظرة خلالها كان «الكلم» يتحدر من شفتيه مسجلاً:

﴿سبح للّه ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من اللّه، فأتاهم اللّه من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾!

الآي ١ و٣ من «سورة الحشر»

وسخياً راح «الكلم» يسترسل:

﴿.. لولا أن كتب اللّه عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾!

الآية ٣ من «سورة الحشر»

فإن:

﴿... اللّه يسلط رسله على من يشاء﴾!

الآية ٦ من «سورة الحشر»

وأمام ما تركت «النضير» من الأموال استرسلت شفتا محمد:

﴿ما أفاء اللّه على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب... ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى، فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل

كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللّه، إن اللّه شديد العقاب﴾!.

الآي ٦ و٧ من «سورة الحشر»

هذه هي «غزوة النضير» كما نراها منتشرة في سجل التاريخ الإسلامي على صفحات تسترسل عبرها أنفاس التاريخ فتحدثنا بأن محمداً قد وضع الأموال حيث يشاء إلاّ **الأرض...**

كلا... لم تُقْسّم أرض النضير، وكانت خير ما غنم المحمديون... لا ولم تُعْتَبر أسلاب حرب، وإنما كانت لسيد المدينة خالصة...

وهكذا أبرأت «غزوة النضير» ما كان قد أصاب النفس بـ «أُحُد»!...

ويقيناً، يقيناً لقد أعادت «النضير» إلى محمدٍ عزة الموقف، فهذا إنما انتصار له في سجل التاريخ السياسي بعيد مغزاه وعميق أثره، إذ أن بهذه الأموال التي تركتها «النضير» من سيوف ودروع سوف يستطيع محمد أن يتزوّد ويعد العدة لملاقاة من في مكة. فالأيام إنما قد استدارت وأتمت قريش عدتها للثأر مما أصابها «يوم بدر» بيوم في «بدر» آخر. فصوت سيد مكة إنما يرنّ في مسمع سيد المدينة صادراً:

«يوم بيومِ بدر وموعدكم بدراً العام القابل!».

ولكن!.. حتى الموعد المضروب ما زالت من الزمن فترة يمكن خلالها التزوّد بأكثر ما يمكن من المال والسلاح. هذه هي الفترة الزمنية التي اتجهت خلالها عينا محمدٍ إلى: **نجد**

وسجل التاريخ الإسلامي:

غزوة ذات الرقاع «٤ هـ»

إلى نجد، غازياً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، خرج محمد برجال شاهري السيوف يتقدمهم هو بسيفه المحلى بالفضة... ومُحكمة كانت هذه الغزوة! فعلى غرة انهال محمد برجاله على هاتين القبيلتين اللتين لم تريانه من بعيد إلاّ وفرّتا إلى رؤوس الجبال ناجيتان بنفوسهما تاركتان له كل ما لديهما من مالٍ ومتاع. .

وغانماً عاد محمد من هذه الغزوة إلى مقر الحكم ليقيم في المدينة فترة قصيرة من الزمن حلّ في نهايتها موعد «العام القابل»...

والآن... الآن وقد استكمل لمحمد من السلاح ما به يستطيع من محاربة قريش بثقة وباطمئنان... الآن وبعد القينقاع والنضير قد غدا محمد سيداً في المدينة تتساوى في نظر

القبائل مكانته وسيد مكة... الآن ولم يعد في أرجاء هذا الجانب من شبه الجزيرة إلاّ سيداً في مكة وسيداً في المدينة وعلى سيادة القبائل تتنافس بينهما السيادة... الآن وقد اكتملت لمحمد العدة فقد آن الآن لإظهار هذه القوة وليس هناك من وسيلة يراها محمد لإبراز هذه القوة إلاّ أن يبعث إلى أبي سفيان يستنجزه وعده بدراً!...

وامتدت يدُ الزمن تسجل:

غزوة بدر الآخرة «شعبان ٤ هـ»

إلى «بدر» خرج بجيشه سيد المدينة وبها أقام ثماني ليالٍ خلالها ظلّ ينتظر على مضضٍ مقدم سيد مكة...

ولكن!... أنّى كان يمكن أن يتقدم سيد مكة ويُقدم على مقابلة سيد المدينة ومن العام الماضي كان قد تغيّر من أمر سيد المدينة الأمر!... لم تكن النضير قد هوت ولسلطان محمد لم يكن سلطان أبناء الحُقيق قد دان!. كلا ولم تكن الهامة من حُيَي بن أخطب لمحمد، بعد، قد انحنت... كلا. لم يكن لمحمد كل هذا السلاح وكل هذا المال!. كلا ولم تكن بعد قد اكتملت له كل هذه العدة!.. ومن ثم فإذا كان سيد مكة قد خرج بقريش يقودها إلى بدر إيفاء بوعده فليس إلاّ ليتمهّل وليس إلاّ لينادي فيها بالعودة.. قدر أبو سفيان موقفه الحربي من موقف محمد فرجع بقريش متراجعاً ومن ورائه تجري يد الزمن تُسجل:

الانتصار المعنوي للإسلام والهزيمة المعنوية لقريش

في تراجع أبت به الاصطدام بمحمد رجعت قريش لا غرو من ثم أن يعود محمد بجيشه من «بدر» إلى عاصمة حكمه ويدخلها ظافراً منتصراً يقف بين يديه شاعره يرسل إلى قريش، التي كان من قبل قد أنّت رجالها، سهام المذمة التي تتالت تنهال على سيدها وهي بشرر القدح تقدح قائلة:

فأبلغ أبا سفيان عني رسالة فإنك من غرّ الرجال الصعاليك!

حسان بن ثابت

ولكن!... بينما كان التراجع القريشي قد حمل إلى الأفهام هزيمة لقريش معنوية فإنما محمد، وحده، هو الذي كان قد فهم المعنى من وراء هذا التراجع الذي لم يكن بالجبن وإنما كان التجنب. والذي لم يكن الخوف وإنما كان الحذر. فهم محمد، وحده، ذلك ففهم أن لقريشاً قد تكون بعد ذلك لقدرة. ومحمد إذ يفهم ذلك فليس إلاّ ليشتد منها به الحذر اشتداداً راح به يبث عيونه عليها في كل متجه ويمد سيطرتا حيثما امتد هذا المتجه... ومن مظاهر هذا الامتداد كانت:

غزوة دومة الجندل «ربيع الأول ٥ هـ»

إلى تلك الواحة الواقعة على الحدود ما بين الحجاز والشام، المنتصفة الطريق بين البحر الأحمر والخليج الفارسي، خرج محمد غازياً ولكن. لم تجد هذه الغزوة!.. للقبائل التي أراد مقاتلتها لم يجد.. لم يجد إلاّ الديار فراغاً!. فراغاً إلاّ من: المال!...

لماذا؟...

هذا سؤال آخر لا يأتي عنه الجواب أيضاً إلاّ من كتب السيرة التي تقول بأن هذه القبائل ما لبثت حين سمعت باسم محمد وعلمت به عليها مقبلاً أن أخذها الهلع فولّت فراراً بأرواحها تاركة له ما كان لديها من مالٍ وإلى عاصمة حكمه عاد محمد بهذه الأموال التي تحدثنا عنها كتب السيرة بأنها كانت غنيمة ذات قيمة!...

حتى المدى امتد لمحمد سلطان... حتى المدى امتد سلطان محمد وحتى المدى اتسع النفوذ من هذا السلطان. فحتى هذا التحديد الجغرافي اتسعت لمحمد سيادة مقرها المدينة، عاصمة سيادته، حيث فيها راحت الأيام بعد غزوة «دومة الجندل» تتلاحق وتُكوِّن عدة أشهر في غضونها أقام محمد القواعد وسن النظام الاجتماعي الإسلامي واتسع حريمه لأكثر من زوجة. فليس إلاّ في أعقاب هذه المغانم كان أن ضمّ، إلى سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، تلك التي كانت سبباً لمبدأ جديد وتشريع جديد كانت له من قبل تستنكر العرب القريشية ومنه تنفر: «زينب بنت جحش»...

ويقيناً إن زواج محمد من زينب إنما قصة. والقرآن أو «الوحي المنزّل» إنما سجّل هذه القصة! فلقد تدخّل «الكلم» كما في كل شأن ومناسبة من حياة محمد، في الحياة الخاصة لمحمد في هذه الفترة فحلّ في هذا الصدد مشكلة من مشكلات العاطفة استعصي حلّها إلاّ عن طريق إلغاء عُرفٍ لا فحسب كان معروفاً وإنما كان مرعياً!. فليس إلاّ غداة تأججت من محمدِ الضلوع برغبة مستعرة يحول دون بلوغها تقليد كان في غضون العصر القريشي من قوانين الناحية الأخلاقية قانوناً مرعياً. وهو هذا القانون الذي يُحرِّم الزواج من أزواج الأدعياء، كان أن تدخل «الكَلِم» فقال كلمته الحاسمة!.. فإن زينب كانت عند زيد بن حارثة وزيد بن حارثة لمحمد إنما دعيٌّ.. فلزيد كان محمد قد تبنّى حتى غدا زيد يعرف بـ «ابن محمد»...

ولكن!.. «الكَلِم» كان بمحمد دائماً رحيماً فللإشكال العاطفي حلّ ولمحمد حلّل ما إليه قد هفا منه القلب. فحلّ عقدة زينب من زيد وحلّل لمحمد الارتباط بهذه التي إليها كانت

قد انعطفت منه العاطفة عَبْر «آي» انطلق يلغي التبنّي ويُعلن جَهْراً ما قد تلظّت، خشية الناس، بكتمه الضلوع!..

ولكن... قط لن يُتاح لنا أن نفهم تمام الفهم المعنى من وراء هذا التشريع الجديد ما لم نعد إلى الأحداث التي كانت له سبباً. ومن ثم يجب أن نعود إلى تلك اللحظة التي تلفت فيها محمد من حول نفسه مُدركاً أنه ولئن غدا سيداً يمتد سلطانه هذا المدى ولا تحد مخيلته عن الخارج الحدود من شبه الجزيرة فإنما هذه السيادة لم تقم إلاّ بسواعد أتباع لها مهدوا واجتهدوا ومن أجلها عملوا وجاهدوا، ومن ثم فإنه إذا ما وجد نفسه عن نفسه يقول بأنه قد غدا «سيد العرب» فليس إلاّ ليرشح بلالاً، الحبشي، لمُلك الحبشة. وسلمان الفارسي، لملك فارس. وصهيب الرومي، لملك الروم. وأما هذا الذي كان قد أعمل صوته في مكة سياطاً جمعت الموالي والعبيد إلى داخل الحظيرة المحمدية عن طريق ترديده في مسامعهم كلمة محمد «اتبعوني أجعلكم أنساباً» فليس هناك من مكافأة أعظم شأناً من رفعه إلى مرتبة أصحاب النسب!. وأما كيف؟... فليس إلاّ أن يربط محمد صلته به برباط المصاهرة. ومن ثم خطب إليه، ابنة عمته، زينب بنت أميمة ابنة عبد المطلب..

وهنا يتولى التاريخ الإسلامي الشرح فيحدثنا بأن زينب كرهت ذلك وأظهرت الامتعاض وشاركها الامتعاض أخوها عبد اللّه بن جحش.. كرها أن تزفّ الشريفة القريشية إلى مولى من الموالي هو مهما علت مكانته فلن ينسيا أنه كان في بيتهما عبداً!. ومن ثم فزعا إلى محمد يسألانه ألا يلحق بهما مثل هذا العار فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالي وإن أُعتقوا وتبنوا!.. وطال بينهما ومحمد نقاش لم يذعنا فيه للين الحديث ومحمد يُحدثهما عن مكانة زيد منه ومن الإسلام، ومن ثم كان حتماً أن يتدخل «الوحي» وإليهما من شفتي محمد يتجه قائلاً:

﴿.. ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمراً أن يكون لهما الخيرة من أمرهم، ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾.

الآية ٣٦ من «سورة الأحزاب»

ورضوخاً لأمر «الوحي» تزوجت زينب زيداً...

ولكن!.. الشريفة القريشية لم تنس قط أنها الشريفة القريشية وأنها على ما قد كرهت قد أكرهت!. كلا لم تنس هذا الأمر الذي على قبوله قد أكرهها «الوحي»!... كلا!. قط لم تنس الشريفة العربية أنها على أمرها قد غلبها لمحمد أمرا!.. ومن ثم فإنه لما كان هذا أمر

له زينب لم تستسغ فقد ظلت في الطوايا منها تعتلج عوامل حتى كان يوماً حدث فيه ما يرويه «الطبري»:

حدث يوماً أن محمداً افتقد زيداً فجاءه منزله ليطلبه. فهرعت زينب لاستقباله وقد أعجلتها اللّهفة عن استكمال ثيابها.. ورآها محمد وهي على هذه الصورة فرآها كما لم يرها قط من قبل!... ووقع حبها في قلبه مخترقاً الشغاف ومستقراً في السويداء حتى لم يتمالك وهو إليها بنظره يرنو مُودعاً أن يقول: «سبحان اللّه مُصرِّف القلوب!»..

وأقامت زينب مكانها بعد انصراف محمد تُفكِّر... وجاء زيد ليطالعه وجوم ما استفسر منها عن سرّه إلاّ وله روت ما قد سمعته من محمد... وهنا كان حتماً أن يُطرق زيدُ يفكِّر تفكيراً حتّم عليه أن يهبّ على فوره ويجيء محمداً وهو في المسجد ويقترب منه قائلاً:

«بلغني أنك جئت منزلي...».

ثم أضاف متسائلاً: «أفارقها؟..».

ونظر محمد إلى زيد نظرة صاحبها الجواب:

﴿.. أمسك عليك زوجك واتق اللّه﴾.

الآية ٣٧ من «سورة الأحزاب»

ولكن!..

«الوحي» إنما بما بين الضلوع قد استعر لا بدّ لغرضٍ له كان أن يفصح ومن ثم انفرجت في الحال شفتا محمد عن:

﴿وإذ تقول للذي أنعم اللّه عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق اللّه وتخفي في نفسك ما اللّه مُبديه وتَخشى الناس واللّه أحق أن تخشاه﴾!

الآية ٣٧ من «سورة الأحزاب»

وأدرك زيد الأمر فطلق زينب...

ولكن!.. كيف يمكن أن يتم زواج محمد ممن كانت زوجة «ابن محمد»؟..

كيف سيتلقي الملأ من قريش وسائر العرب النبأ وقد جرت التقاليد القُريشية على أن يلصقوا المتبنَّى بالمُتبنِّي ويجعلوا له كافة حقوق الابن وحرمة النسب؟!... للسبب كان لا بدّ أن يتدخل «الوحي» أيضاً في هذا الشأن حتى شغل في هذا الفترة الزمنية بهذا الأمر الذي استهله بتشريع جديد هو:

إلغاء التبنّي

ناحية اتباعِ المسمع منهم إلى «الكَلِم» المتحدر من شفتي محمدٍ أبداً مُرهف اتجه من محمد الوجه وانطلق الصوت منه لهم يقول:

﴿.. ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق﴾!

الآية ٤ من «سورة الأحزاب»

﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾!

الآية ٥ من سورة «الأحزاب»

والآن؟.. الآن، ومنذ فارق زيد زينب قد مرت من الأيام أيام ما انتهت إلا وقد أكملت زينب عدتها، قد آن الآن لأن تنفض أردية الغيب عن ما إليه كان «الوحي» قد هدف من غايةٍ كان بإلغاء التبني إلى بلوغها قد مهّد ومن ثم:

﴿.. فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولاً﴾!.

الآية ٣٧ من سورة الأحزاب

إنه أمر الله!.

من ثم فإذا ما دوّت أرجاء شبه الجزيرة مستنكرة وإذا ما راحت برجع الصدى منها الجوانب بالاستنكار تُدوّي بأن سيد المدينة قد تزوج امرأة دعيّه، يجيب «الوحي»:

﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾.

الآية ٣٨ من «سورة الأحزاب»

كلا!.. **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾!**

الآية ٤٠ من «سورة الأحزاب»

وهنا... هنا يطرق الفكر للحظات يستعرض خلالها، من خلال الآي، هذا الحدث الذي لم يسلم من نقد عائشة التي اندفعت تقول لمحمد: «ما أرى ربك إلاّ يوافق هواك!»... والذي أرسل فيه محمد زيداً نفسه ليخطب إليه زينب... والذي استطاع فيه محمد، بما كان قد اكتسبه من المال الوفير عن طريق الوقوع على القوافل التجارية، أن يحتفل بهذه العروس فالذبائح تُذبح والولائم تُقام والمدينة بكليتها تبيت ساهرة تشارك سيدها أفراح ليلة عرسه والاحتفاء بهذا العرس الجديد..

ولكن... إذا كان الفكر قد أطرق للحظاتٍ مستعرضاً هذا الحدث فليس إلاّ ليطرق مفكراً في هذه الكلمة التي تطالعنا لأول مرة بهذه النغمة:

محمد خاتم النبيين

نغمة جديدة عن محمد لا ثمة شك هذه التي للمسمع العربي الآن تطرق لها يتنبّه الوعي العربي وفيها مُفكِّراً يطرق!..

ويقيناً إن هذه النغمة إذ تنساب من شفتي محمد وتتردّد فليس إلاّ لنفهمها من خلال فهم عصره.. عصر إلى انتحال «النبوة» و«الرسالة» بدأ فيه أفراد من العرب، في غير قريش، يتوثبون وإن كانت لم تتجلّ بهم هذه الظاهرة وتتضح على أشدها إلاّ فيما بعد... وأما الآن فلا تدلنا إلاّ على مدى إرهاف الوعي المحمدي وامتداد تقديره إلى البعيد من الأحداث في هذه الفترة الزمنية من السنة الخامسة للهجرة التي كان قد امتد فيها له سلطان وفي المدينة رسخ رسوخاً كان عاملاً من عوامل إرساخه إجلاء النضير..

ولكن!.. مكة التي كانت قد علمت، غداة راحت عن «أُحد» وأناخت تستريح في «الروحاء» وبأنها لم تنل ثأرها كاملاً ولم تشف غليلها فلم تقتل محمداً، لا بدّ لها من غدرة!... ولغدرة العدو إنما محمد دائماً حذر!. عيونه أبداً مبثوثة وأرصاده في أنحاء شبه الجزيرة ينقلون إليه أخبار ما يأتمرون به هناك فيمهدون له بذلك دائماً فرصة الأهبة لرسم الخطط!. بل وإلى جانب ذلك محمد إنما خبير بالغريزة البشرية والطبيعة العربية الحريصة على الثأر، فالقينقاع والنضير وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة للشام كل واحدة منها لها عند محمد ثأر وكل واحدة منها تتربص به وبأصحابه دورة الدوائر!.

ويقيناً إن واحداً كحُيي بن أخطب، وحُيي المرجع لقومه إذا ابتغوا المرجع والسند إذا أعوزهم السند والذي كان قد أقبل على محمد من قبل وعاد عنه يعلن أن عليه قد تشابه أمره.. واحداً كحُييّ، وهو المعروف بأنه «سيد الحاضر والبادي»، يَخْرج بقومه «النضير» مهزوماً تحت هذه الصورة من الهزيمة لا يمكن قط إلاّ أن يحمل في نفسه لمحمد عداء هو إن لم يكن سافراً فدفيناً!. من ثم كان بديهياً أن تتولّد في نفسه فكرة الاستنصار بقريش وبالتالي فكرة تأليب من يستطيع من قبائل العرب وهذه إنما فكرة ما تولّدت في نفس حُييّ إلاّ وصادفت في نفوس سادة النضير مرتعاً وإلاّ وسريعة نَمَتْ وإلاّ لتنفيذها أخرج حُييّ بن أخطب مستصحباً سادة النضير من أبناء الحُقَيق...

إلى قريش فإلى غطفان من قيس عيلان فإلى بني مرة فإلى بني فزارة فإلى بني أشجع

فإلى بني سليم فإلى بني سعد فإلى بني أسد، وإلى مَنْ مِنْ سواهم مِمّن كان لهم، كهؤلاء، عند محمد ثأر خرج بأبناء الحقيق حُييّ...

ولكن!... إلى حُييّ لم تصغ قريش إلاّ وتردّدت وتساءلت: أتقدم أم تحجم؟

إلى الإحجام يدفعها سبح الخيال بأن ليس بينها وبين محمد خلاف عقيدي جوهري إلاّ على الدعوة إلى «رسالته»!... وإلى الإقدام تدفعها صدمات الواقع وقطع محمد عليها، لتجارتها، الطريق من كل جانب!.

وبين سبح الخيال وصدمات الواقع أيقنت قريش بأن مما لا جدل من حوله هو أنها قد خرجت من «أُحُد»، سواء أقُتِل محمداً أم لم يُقتل، منتصرة، ولكن!. طالما أن محمداً على قيد الحياة فلن تأمن على قوافلها وتجاراتها، كلا. وليس هذا فحسب وإنما لن تأمن منه على نفسها غائلة المستقبل!.

ليس إلاّ تحت ضغطٍ من هذه المشاعر وليس إلاّ بعاملٍ من هذا الدافع تهيأت قريش لحرب هذا الفرد من عبد مناف وعلى رأسها أبو سفيان.

أجل... وتحدت الحالة المتشابهة بين «الأحزاب» واطمأن كل إلى مناصرة صاحبه فقد عقدوا معاهدة تحت ستار «بيت اللّه» على أن يجتمعوا على الثأر من محمد طالما ظلّ أحدهم على قيد الحياة، ولتطلب ثأرها من محمد خرجت «الأحزاب» إلى محمد بعشرة آلاف محارب!.

ولكن!... إلى محمدٍ كان قد طُير الخبر واتصل به أمرهم في غضون هذه الفترة التي كان قد هنأ فيها القلب منه بزينب... فأسرع، في اتباع لرأي سلمان الفارسي وأمر بحفر: «الخندق»...

وحُفر «الخندق» حول المدينة وهذا أسلوب حربي لم يك من قبل للعرب معروفاً. وبنفسه عمل محمد في الحفر مُستحثاً رجاله، وقد اكتمل له الآن ثلاثة آلاف محارب عنه يدافعون، بكلم انطلق يُكون آياً من «سورة النور»، كما انطلق أحاديث يُسجل عن سلمان الفارسي هذه الرواية:

«ضربت في ناحية من الخندق فغلظت على صخرة ورسول اللّه قرب مني فلما رآني أضرب ورأى غلظة المكان نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت من تحت المعول بَرْقَة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحتها برقة أخرى، ثم ضرب به فلمعت تحته برقة أخرى!... قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه ما هذا الذي رأيته لمع تحت المعول؟ قال رسول اللّه: أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت: نعم. قال: أما الأولى فإن اللّه فتح علي بها اليمن،

وأما الثانية فإن اللّه فتح علي بها الشام. وأما الثالثة فإن اللّه قد فتح علي بها المشرق!..»[1].

وفرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول «الأحزاب».

وأقبلت قريش وأحزابها من قبائل سُلَيم وفزارة وأشجع ومرة ومن تبعها من عرب كنانة وتهامة ونزلت في مجمع «الأسيال» من «رومة» قبل وصول غطفان ومن تبعها من نجد ونزولها بـ «ذنب نقمى» »إلى جانب «أُحد». وامتدت يدُ الزمن تسجل:

غزوة الأحزاب «شوال ٥ هـ»

على محمدٍ أقبلت بجموعها «الأحزاب» ولكن!... وجدت أن بينها ومحمد تميد هوة الخندق!...

ويقيناً إن احتفار «الخندق» من المدينة مقدرة عجيبة، فهو من الاستحكامات الحربية التي لم تعرفها العرب من قبل والتي جابهت الأحزاب غداة أقبلت على المدينة فوجدته شقة حائلة تحول بينها وبين محمد وقط على تخطيه هي لا تقدر!..

وجدت «الأحزاب» أن «الخندق» يطوّق المدينة وكأنه نذير يعلنها بأن الشقة بينها ومحمد قد مادت إلى أعماق أبعد!.. ومن ثم ضربت على المدينة حصاراً حصرتها به من كل جانب وليقذف هذا الحصار، الذي تطاول إلى حوالي الشهر من الزمن، الجزع في نفوس المسلمين والذي اشتد اشتداداً يصوره قول معتم بن قشير:

«كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر!. وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»!

وكشررٍ لاهب سرى في الهشيم سرى، بهذا القول، في الجبهة المحمدية همس التمرد!..

ولكن!.. همس التمرد بين جموع الجيش المحمدي إذ ينساب متسارراً فليس إلاّ ليدوي في المسمع المحمدي هديراً يهدد بتألب يكاد أن يصطفق به الموج العارم في الطوايا مفصحاً عن ما تجيش به الصدور لهذه الجموع التي كان قد أثر فيها الجوع والبرد تأثيراً تشتد به شدة الانتظار على محمد لتنتشر في سجل التاريخ الإسلامي ناحية دقيقة في تاريخ محمد السياسي.. سطورها:

الايقاع بين الأحزاب

لا ثمة شك أنها ناحية دقيقة من السياسة المحمدية هذه التي تتجلّى عبرها خطة الإيقاع بين الأحزاب!.. فليس إلاّ عن ناحية عميقة من الطوية المحمدية تكشف لنا هذه الخطة التي

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص ٨٨.

استطاعت أن توقع شقاق الوقيعة بين «الأحزاب» وأن تشق بينهم فجوة الجفوة... فلقد أقبلت قريش من عرب كنانة وتهامة وهي تتوقع لقاء محمد في «أُحد» فخاب توقعها وفاجأها «الخندق»! واجهها هذا الأسلوب المجهول لها في الدفاع فتحولت إلى «مجمع الأسياد». وأقبلت غطفان ومن تبعها من نجد لتجد نفس ما وجدت قريش فعادت إلى «ذنب نقمى» وسكنت على مضض إلى جانب أحد.

وبدأت الأيام تنصرف وما كانت لتنصرف الأيام إلاّ لتولد في الجبهة القريشية وفي جبهة غطفان اليقين بأن «بالأحزاب» سيطول المقام أمام «الخندق» في هذا الشتاء القاسي البرد العاصف الريح دون أن يستطيعوا له اقتحاماً. فهذا «الخندق» يحول بينهم وبين محمد طالما أن هناك مدداً لمحمد يأتي وهذا المدد مصدره: **قريظة**.

حتى الآن كانت «قريظة» محتفظة بما قطعته على نفسها من عهد بنصوص «الصحيفة» القائمة على حسن المودة بينها وبين محمد وأبرز مثل على ذلك كان إشاحتها عن صوت «النضير» عندما بها «النضير» كانت من محمدٍ قد استصرخت!.. حتى الآن ما زالت «قريظة» تمد محمداً بالمؤونة إمداداً يُطيل مقاومته «للأحزاب» ردحاً من الزمن قد يمتد شهوراً!.. وهذا إنما أمر ينادي «الأحزاب» بأن خيراً «للأحزاب» أن تعود على أن تعود، إذا شاءت، لحرب محمد مرة أخرى...

ولكن!.. هذا الأمر المنادي «الأحزاب» بالعودة إنما أمر أشعل في نفوس سادة «النضير» ثورة إذ حمل إلى مفاهيمهم أن فرصة الانتقام من محمد تكاد من أيديهم أن تضيع!. فانسحاب «الأحزاب» وتخاذلهم ليس إلاّ انتصاراً لمحمد وليس إلاّ خذلاناً لليهود!..

وهنا!.. هنا كنا حتماً أن يجري التفكير النضيري ليستقر عند منطق يقول: إن «قريظة» إنما إحدى القبائل اليهودية. وإن باليهود قد طوح السيف المحمدي فاقتلع واستأصل وأبرز الأدلة على ذلك «القينقاع» و«النضير»، ومن ثم فلا ثمة شك أن دور «قريظة» آتٍ حين يؤن أوان هذا الدور!. إذاً. أي شيء هذا الذي تنظره «قريظة» ودورها، كما على ذلك تدل مدلولات الأحداث، إنما حتماً آت؟!... لماذا إذاً لا تنقض عهد موادعتها لمحمد وتثأر لبني جنسها فتنضم إلى سادة النضير وبذلك تتآصر و«الأحزاب» وليس إلاّ بهذا الانضمام، الذي سينقطع به المدد القريظي عن محمد ويسهل «للأحزاب» الطريق لدخول المدينة، يمكن لـ «قريظة» أن تدرأ عن نفسها غائلة المستقبل؟!..

وإلى هذا القرار سكنت النفس النضيرية وعليه استقرت ليهب على إثر ذلك حُييّ بن أخطب «سيد النضير»، وإلى كعب بن أسد «سيد قريظة» يذهب لتنتشر صفحة في سجل

التاريخ جديدة عبرها نرى عوامل العصبية تعتمل وتعمل وثورة القومية تشتمل وتلتهب!. فنحن نرى نيران العصبية في النفس القريظية قد تأججت ونحن نسمع خلجات القلب القريظي قد تسارعت نبضاته هلعاً!.. ونحن نصغي إلى صوت التاريخ يحدثنا بأنه ليس إلاّ استجابة لعصبية في النفس تحركت وليس إلاّ تحت دافع من وجل إلى أعماق الجوانح، لجّ كان أن نقضت «قُرَيْظة» عهدها وانضمت إلى «الأحزاب».

وسريعاً اتصل بمحمد نبأ انضمام «قريظة» إلى «الأحزاب» فاهتزت منه المشاعر وشاركه هذا الاهتزاز من حوله رجال خشوا العاقبة من هذا الانضمام وخافوا أن تنالهم من وراء هذا الانتصار مغبّة. ولكن!.. اللّوالب الفكرية من محمد أبداً على صحيح التقدير تجري وأبداً تطوي الحاضر إلى الغد البعيد وعليه تستقر على جناح اليقين. وللسبب أرسل محمد سعداً ابن معاذ «سيد الأوس» الآن وسعداً بن عبادة «سيد الخزرج» الآن إلى كعب بن أسد مستفسراً، فكان جواب سيد قريظة لسيد المدينة أن هناك شرطاً لمواصلة المدد وهو أن يردّ محمد إلى اليهود مِن بني النضير ديارهم!.. ورفض محمد...

إزاء هذا الرفض أعلنت «قريظة» انضمامها الرسمي إلى «الأحزاب» وإزاء هذا الانضمام ارتفعت الروح المعنوية للأحزاب فأعظمت نيرانها إضعافاً لروح الإسلام المعنوية التي سرعان ما تناولها الهلع بل وعصف بها الخوف حتى المدى الذي سحب على الجباه سحب القلق!..

من ثم فَلتكُن: **الخدْعة!**.

ناحية نعيم بن مسعود امتدت يد محمد تشير مشيرة إلى «الأحزاب» يصحبها من شفتيه القول آمراً:

«خذِّل عنا!. فإن الحرب خدعة!».

في سجلِّ التاريخ الإسلامي منتشرة الوسائل التي سُلكت إلى هذه الخدعة[1] التي عملت عملها وجاءت بأثرها والتي كنتيجة حتمية لها عادت «الأحزاب» المتحالفة من حيث أتت وكأن تجمعها لم يكن إلاّ سحابة صيفٍ علقت في أفق الفضاء لهنيهة!...

ولكن!... ما بلغت الرؤوس القريشية ديارها إلاّ وقد أدركت هذه الخدعة التي أشعلت بين جوانحها للغيظ نيراناً اندلعت من أفواهها ألسنة تصيح:

«واللّه!. إن هذه لمكيدة ما كانت العرب لتكيدها!.».

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣.

ويقيناً!... يقيناً إن هذه المقدرة في مفاوضة «غَطفان» والتخلي عنها وهذه القدرة في التفريق والوقيعة بين «الأحزاب» من ناحية و«قريظة» من ناحية أخرى إنما قدرة فذة ومقدرة عجيبة، بل وإرادة قاهرة تُجْلي لنا ناحية عميقة من حياة محمد هي هذه الناحية التي تزداد عَبْر مسير الأيام على جلاءٍ جلاءً وخاصة ونحن نتبع محمداً بعد جلاء «الأحزاب» فنراه لا يكاد يعود إلى المدينة ويصلها ظُهْراً إلاّ ويقف بين أتباع امتلكت يمينه من أعنتهم العنان محدثاً بحديث سرعان ما تناقلته سريعة الشفاه وسرعان ما راح في آفاق المدينة رجعُ صداه يُدوي بهذه الرواية القائلة بأن:

الآن... الآن ظُهْراً... «أتى جبريل رسول اللّه مُعْتَجراً بعمامة من إستبرق وراكباً على بغلة عليها رحلة عليها قطيفة من ديباج فقال:

«أو قد وضعت السلاح يا رسول اللّه؟ قال: نعم. فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد! وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم! إن اللّه عزّ وجل **يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة**. فإني عامد إليهم فمزلزل بهم!..».

وسلّت من جديد السيوف وارتفعت نواهل تُلوِّح بينما كان الأمر المحمدي ينطلق من المئذنة وفي ترديدٍ بالمسلمين يصيح:

«مَن كان سميعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلاّ ببني قريظة!..» صيحة، على إثرها سجّلت يدُ الزمن:

غزوة قريظة «٥ هـ ـ ٦٢٧ م»

إلى قُريظة، وعلى غرة كعادته، خرج محمد بالمحمدِّيين. وما على أرضها أشرف ولديارها استشرف حتى صاح صيحة ارتجت بالارتجاج منها الأرجاء القريظية هلعاً وتصدعت منها الجوانب فرقاً. فالصيحة المنطلقة من حنجرة محمد قد راحتْ في هذه الأرجاء تتردّد وتطرّق المسمع القريظي بمطارق الفناء:

«يا منصور أمِت!».

وفي تسارع أسرعت «قُريظة» إلى حصونها بها تحتمي وفيها تتحصّن ليسرع محمد بدوره فيحاصر هذه الحصون ولتطل عليه منها «قريظة» تستطلعه الأمر. ولكن لتسمعه لها ينادي:

«يا إخوان القردة!. هل أخزاكم اللّه وأنزل بكم نقمته؟!..»؟

نداءٌ، عليه أجابت قُريظة:

«يا أبا القاسم. ما كنت جهولاً!..».

وهنا... هنا كان حتماً أن يجري الفكر القريظي مستعرضاً سنوات خمس انصرمت من عمر الزمن...

سنوات خمس حتى الآن من عمر الزمن قد طُويت منذ أقبل محمد وبينهم حلّ ولكنها سنوات تغيرت في غضونها الأحوال عن ذي قبل وتبدّلت خلالها الأمور تبدلاً بدّل أمر محمدٍ من ضعفٍ إلى قوة، حتى أن حصونهم قد غدت الآن لهم منه طويلاً لن تحصن. فإن قريظة وإن خلدت إلى حصونها بها تعتصم ومعها سادة النضير وعلى رأسهم حُييّ بن أخطب، الذي وفّى بعهده وأبى إلاّ أن يصيبه ما قد يصيبها، فليس إلاّ لتدرك أن محمداً مُحاصراً وأنها أمام حصاره لن تصمد طويلاً، وفي الواقع فإن هذا ما قد حدث بالفعل فإنما مرور الأيام قد راح يزيد قريظة بيقينها هذا يقيناً. فإن محمداً إذ يحاصرها خمساً وعشرين ليلة فليس إلاّ ليزيدها بإيمانها إيماناً بأن إلى النهاية قد آل مصيرها، فليس إلاّ خلال هذه الأيام كان الصوت مِن محمدٍ إليها يصل وهو برجاله يصيح:

«مَن ظفرتم به من رجال يهود **فاقتلوه!**».

وضاق الأفق الزمني أمام قريظة!. جهدها الحصار وأجهدها التفكير وأدركت أن محمداً غير منصرف عنها حتى يناجزها!..

وهلعة إلى الأوس، والأوس لقريظة حلفاء، التفتت بنسائها وأطفالها قريظة واستنجاد القَيْنقاع من قبل بحلفائها من الخزرج استنجدت قُرَيْظَة بالأوس استنجاداً جيء إليها على أثره بأبي لبابة الأوسي الذي لم تره قريظة، كما تحدثنا كتب السيرة، إلاّ «وقام إليه الرجال وأجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقَّ لهم»[1]...

أجل... على أبي لبابة أقبلت برجالها ونسائها وأطفالها قريظة تسأله ما حكم محمد فيها؟. وإلى قريظة أشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: **«إنه الذبح!»**

وهنا تسترسل المصادر الإسلامية فتحدثنا قائلة: وعرضت قُرَيْظَة على أبي لبابة أن يتركها محمداً وتترك هي له، مقابل ذلك، **أموالها وما تملك**...

ولكن... اعترض محمد على هذا العرض وأبى إلاّ أن تنزل قريظة على حكمه.

كلا!... إن أبا لبابة لا يستطيع أن يفعل الآن ما قد فعله عبد اللّه من قبل... لا ولا يستطيع أحد الآن حتى ولا عبد اللّه نفسه أن يُدخل يده في جيب درع محمد يهزه

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣.

وبلحيته يمسك ويطلب مطلباً عليه ينزل محمد ـ كلا!. الآن قد تغير الزمن ولا حليف لقريظة يستطيع الآن أن يقول لمحمد «أحسن في موالي». ومن ثم نزل القُريظيون على حكم محمد الذي استنزلهم من حصونهم فحبسهم بالمدينة في حراسة بني النجار ـ ثم خرج محمد إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ما انتهى من حفرها إلاّ وتواثبت الأوس من حوله تقول:

«إنهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس! ما قد علمت!».

ونظر محمد إلى الأوس نظرة عبرها تنحسر ناحية سياسية جديدة من نواحي محمد حين نراه يأتيهم منه الجواب:

«ألاّ ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟!.» إليكم، فهو ذاك!... إنه سيدكم:

«فذاك سعد بن معاذ».

وهبّ سعدٌ، ولسعد مكانة خاصة في قلب محمد، فحكم قائلاً: «يُقتل الرجال، وتُقسّم الأموال، وتُسْبَى الذراري والنساء!..».

حُكْمٌ، طرب له سيد المدينة وعليه صادق فإلى سعد الأوس التفت به هاتفاً: «لقد حكمت فيهم بحكم اللّه من فوق سبع أرقعة!».

وأمر سيد المدينة بإنزال الرجال إلى الخنادق لتضرب أعناقهم فأنزلوا ومعاصمهم مجموعة بحبلٍ إلى أعناقهم وكانوا نحواً من التسعمائة في مقدمتهم كعب بن أسد وعزال بن السموأل و«سيد الحاضر والبادي» حُييّ بن أخطب[1] هذا الذي ما أمر به محمد فمثل أمامه ويداه مجموعتان بحبل إلى عنقه إلاّ لتلتقي نظرة التمعت بنشوة الانتصار بنظرةٍ مغلوبة الأمر أفصح اللسان من صاحبها بما كان يعتلج به من أحاسيس منه الصدر. فما نظر صاحبها إلى محمد إلاّ وانطلق من شفتيه الشعور هادراً يقول: «أما واللّه ما لمت نفسي في عداوتك!».

ثم... ثم إلى قومه التفت حُييّ يقول: «أيها الناس. إنه لا يأس بأمر اللّه كتاب وقدر وملحمة كتبها اللّه على بني إسرائيل».

ثم... ثم جلس حُييّ لتضرب عنقه!...

وهنا...

هنا تواثب الرجال، «رجال الحرب» خزرجاً وأوساً، يضربون الأعناق من رجال قريظة

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص ١٣٣.

ومحمد يوجههم مرشداً يقول: «**ليضرب هذا وليذفف ذاك!**».

تاللّه إنه لمشهد تاريخي عجيب لا يستطيع الفكر إلاّ أن يتمهّل أمامه، لا للحظة وإنما للحظات، فيه مُفكّراً كما لا تسع المشاعر إلاّ أن تستشعر الانفعالات التي اهتزت بها من محمدِ المشاعر. فمشهد كالمشهد لا بد كان أن يخفق له قلب محمد خفقة الفرح التي ولّدها هذا الانتصار لا سيّما وأمامه قد جلس حييّ بن أخطب، هذا الذي كان يوماً للنضير سيداً ومن كانت تنعته العرب «سيد الحاضر والبادي»، ثم في رسف الأسر ذليلاً ويداه إلى عنقه مشدودتان بحبل ينتظر بين لحظة وأخرى أن يهوي عليه السيف ثخيناً!

ويقيناً! على عنق حُييّ هوى السيف المحمدي بليغاً وبليغاً على أعناق قريظة هوى حتى بلّل الثرى لقريظة دم تتفق كتب السيرة على أن تجعله في عنق حُييّ...

والآن... الآن، وقد فُرغ من الرجال، جاء دور الذراري من الصبية والأطفال.. فأما الذراري فإن محمداً: «قد أمر بقتل كل من أنبت منهم».

وتبعاً لهذا الحكم، الذي حتمته سياسة محمد التي ارتأت استئصال قريظة، هوى السيف المحمدي على مَن نبت من قريظة صبية وأطفالاً!...

والآن... الآن، وقد فُرغ من أمر الذراري، جاء دور الأموال والنساء...

فأما الأموال فجمعت واستخرج منها محمد لنفسه الخمس، فالخمس إنما «للّه وللرسول»، وأمّا الباقي فقد فرّقه على الأتباع...

والآن... الآن، وقد فُرغ من الأموال، جاء دور النساء..

فأما النساء فقد جمعن وحشدن بين يدي محمد سبايا حسيرات يبكين قتلاهن وحُسراً يبرز الحزن مفاتنهن لتجول بينهن عينا السيد المنتصر جولة استقرتا بها على ريحانة بنت عمرو بن خناقة، وارتدّت الأعين عن ريحانة التي فضّلت أن تظل محظية يهودية لمحمد على أن تكون له زوجة رسمية فقد عرض عليها محمد الزواج ولكنها أبت أن تضم إلى الزوجات ومن ثم ظلت في ملكه برابطة حللها «الكَلِمُ» بصدد هذا الحدث الذي انفرجت بسببه شفتا محمد عن:

﴿يا أيها النبي إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء اللّه عليك﴾.

الآية ٥٠ من «سورة الأحزاب»

لا ثمة شك في أن هذه الرابطة قد شرّعها «الكَلِمُ» بسبب ريحانة وإن كانت على

ريحانة لم تقتصر فإنما هذه رابطة قد أباحها «الكَلِمُ» لمحمد نتيجة لظاهرة بدأ ظهورها في هذه الفترة الزمنية ظهوراً أخذ يزداد وضوحاً بازدياد تألق نجم محمد في أفق التاريخ، فإن مِن «المؤمنات» مَن قد بدأن يتهافتن على سيد المدينة ويهبن أنفسهن له. وليس إلاّ بسبب ذلك كان أن استرسل «الكَلِمُ» يقول:

﴿يا أيها النبي أنّا أحللنا لك أزواجك اللائي أتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك مما أفاء اللّه عليك... وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنّبي﴾.

الآية ٥٠ من «سورة الأحزاب»

ومن ثم فإن هذه رابطة وإن كان «الكَلِم» قد شرّعها بسبب ريحانة فإنما عليها لم تقتصر وإن كان محمد لم يختر من السبايا في هذه الغزوة إلاّ هذه التي اصطفاها لنفسه وأمّا الأخريات من نساء قريظة فما جمعهن إلاّ ليفرقهن سبايا على المسلمين. ثم ليجمعهن في النهاية. وليبيعهن، بعث بهن إلى نجد. فباعهن إماء وابتاع بثمنهن خيلاً وسلاحاً[1]...

حقاً لقد انتصر محمد!...

يقيناً إن على قريظة قد انتصر محمد انتصاراً فذاً!.. فلقد ذُبحَ الرجال وقُتِل من أنبت من الرجال ولقد غُنمت الأموال ولقد سُبيت النساء ومن جذورها استؤصلت قريظة تمام الاستئصال!.. وهكذا طوت راحة المنى مَنْ طوت مِن قريظة كما من قبل نثرت رياح الزمن مَنْ نَثرت من النضير والقينقاع ـ أهل التوراة ـ الذين إليهم كان محمد قد حمل حينما عليهم قدم وبينهم حلّ:

﴿طسم، تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين...﴾!

الآي ١ و٢ و٣ و٤ من «سورة القصص»

لا جدال في أن استئصال قريظة بذبح أبنائها ومَن قد أنبت من أبنائها كان أمراً أمام محمد محتوماً، فما كان لمحمد أن يمنح قريظة الجلاء كما من قبل قد فعل مع النضير وكما من قبل النضير كان قد فعل مع القينقاع، لأنه لو فعل الآن ما قد فعله من قبل لكان في بقاء قريظة ما قد يثير في الغد القلاقل، وليس هذا فحسب وإنما لم يكن هناك أي رد على قريش أبلغ من إفناء قريظة فهو إنذارها بأن سيف محمد قد غدا مسلّطاً على كل مَن له

---

(١) **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن، جـ١، ص ١٩٧.

يتحدّى. ومن هنا نفهم كيف أن الانتصار المحمدي على قريظة كان لا فحسب عجيباً وإنما مثيراً لما ترتب عليه من آثار تبدأ تطلع علينا ونحن نقفو محمداً فنراه يقف في أعقاب هذا الانتصار يقول:

﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾.

الآي ٢٦ و٢٧ من «سورة الأحزاب»

يقيناً إن هذا لكلمٌ يعد بغزوٍ جديد. ولكن!. تُرى؟!. أي أرض هذه التي لم تُطأ بعد؟... سؤالٌ، يأتينا عنه الجواب ونحن نتبع تحول العين من محمد واستقرارها ناحية:

«خيبر»

ولكن!... دون الوقوع على «خيبر» يحول حائل لو أنه قد زال لعُبِّد إليها الطريق ولسهلت إليها الغاية!.. إذاً لا بدّ من إصابة القوة المعنوية لخيبر بضربةٍ تشل منها الأوصال ومن ثم كانت:

غزوة عبد اللّه بن رواحة لقتل «سيد خيبر»

بنية قتل اليسير بن رزام، سيد خيبر، بعث محمدٌ بهذه الغزوة يتزعمها عبد اللّه بن رواحة وفيها عبد اللّه بن أنيس، وهنا نترك «كتب السيرة» تحدثنا عن مقدم رجال سيد المدينة على سيد خيبر:

«فلما قدموا عليه كلموه وقربوا له وقالوا: إنك إن قدمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم استعملك وأكرمك» فلم يزالوا به حتى خرج معهم في نفر من اليهود حتى إذا بعدوا عن خيبر ابتدره عبد اللّه بن أنيس فضربه بالسيف ومال كل رجل من المسلمين على رجل من اليهود...».

وهكذا كما قُتل من قبل سيد النضير وسيد خيبر الأُسبق قُتل، سيد خيبر الحالي...

خطة سياسية محكمة لا ثمة شك إنما هذه الخطة إذ أن بها قد أصاب الضعف المعنوي «خيبر» وليس هذا فحسب وإنما بها أصبح الانضمام إلى محمدٍ مدعاة مفخرة فليس إلاّ في هذه الفترة الزمنية نرى تحول الرؤوس من القبائل إلى الالتفات إلى هذه الشمس الطالعة من المدينة والتحوّل عن الشمس الغاربة في مكة، فهذه هي الفترة التي سُجل خلالها:

إسلام عباس بن مرداس

إلى محمد أحنى العباس بن مرداس، وابن تماضر الخنساء، منه الرأس، وواحد كالعباس إذ

ينحني إلى محمد منه الرأس فليس إلاّ لتنحني في اتباعٍ له الرؤوس من بني سُلَيم وليس إلاّ لنعرف بالتالي أثر هذا الانحناء من قبيلة تغطي فروعها المتآشبة مساحة شاسعة من أرض الحجاز...

ولكن!... لئن بدأ الرأس القَبَلي ينحني أمام سلطان محمد وله يتبع ولئن كانت قد خَلَت المدينة من أهلها الأوّل وتحولت إلى عاصمة سياسية لسيادة جديدة، فإنما إلى هذه السياسة الجديدة ما زالت لم تدن مكة وإلى محمد ما زالت لم ينحن منها الرأس!.

يقيناً لقد قُتل الشيوخ من قريش. ويقيناً إن من قريش قد أخذ المال تارة غزواً وتارة سلباً ولكن!.. ما زالت قريش في ديارها منيعة الجانب وما زالت مكينة الأمر وما زالت ذات مجد وسيادة، ومن ثم كان حتماً أن تجري اللّوالب الفكرية من محمد وتستقر عند اليقين بأن ليس هناك من وسيلة أنجز لإضعاف الروح المعنوية منها من أن يعرض عليها قوته وأن يريها عن كثب مهابته وأن يتصل بمسمعها صليل سيوفه وأزيز حرابه ونباله، ولذلك كانت:

«غزوة بني لحيان»

على رأس الشهر السادس من «غزوة قُريظة» خرج محمد في مائتين من رجاله قاصداً غزو بني لحيان لتطالعنا بهذه الغزوة طريقة جديدة من طرق الهجوم، فإن مساكن بني لحيان تقع في الجنوب، إلاّ أن محمداً اتجه إلى الشمال تمويهاً ليأخذ القوم على غرة... فهو لا يترك «غراب» ذلك الجبل بناحية المدينة في طريق الشام، إلى «المخيض» إلاّ ليصل إلى «البتراء» وإلاّ لينحرف من عند «البتراء» عائداً إلى الجنوب ليمر على «سخيرات اليمام» ثم «المحجة» عن طريق مكة ولينقضّ على «غرّان» هذا الوادي بين «أمسج» و«عسفان»، وليغير على «سابة» بلدة بني لحيان... ولكن!. ما بلغ محمد الديار إلاّ ليجدها فراغاً من القوم ومن المال!... فإلى القوم كان قد طُير الخبر بأن محمداً إليهم يسير ومن ثم ساقوا إبلهم وتحصنوا بالجبال!.

وهكذا لم تأت هذه الغزوة، بعد قطع طويل الشقة وبعد تذليل الصعب من المشاق بما كان مرتقباً بل على النقيض فقد انعكست الآية انعكاساً تاماً تصوره شفتا محمدٍ وهو برجاله إلى عاصمته يعود: «أعوذ باللّه من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال!».

ويقيناً إن بعد مدّ جاءت هذه الغزوة بجذرٍ كان حتماً أن ترده يد محمد بغزوة جديدة تعيد إلى الأذهان مجد السلطان المحمدي... ومن ثم كان حتماً أن تجيء تلك الغزوة التي قفت «غزوة ذي قرد»... تلك الغزوة التي امتدت بها يد الزمن تُسجِّل:

غزوة المصطلق أو المريسيع «شعبان ٦ هـ»

إلى بني المُصطلق، وبنو المصطلق إنما فرع من خزاعة وحُلفاء بني مدلج وبالتالي هم مَن عندهم الكثير من الإبل، اتجه محمد...

وإلى الحرث بن ضرار «سيد المصطلق» سار سيد المدينة غازياً برجاله شاهري السيوف، مهاجرين وأنصاراً، مستصحباً معه في هذه المرة عائشة، فقد كان من عادة محمد أن يأخذ في كل غزوة فيها يطلع من عليها يقع سهم الاقتراع من نسائه، ولما كان على عائشة قد وقع في هذه المرة سهم الاقتراع بالخروج فقد انطلق محمد بعائشة حتى لقي بني المصطلق على «المُرَيْسيع»...

وعلى المُريسيع، الماء الجاري بقرب «القديد»، انقض على بني المصطلق المسلمون وشعارهم في هذا اليوم كان أيضاً: «**يا منصور أمِت!. أمِت!**».

كلا!. لم يكن هذا الانقضاض على «المصطلق» بالعسير على محمدٍ وله قد اكتملت الآن العدة وتوفّر العدد والسلاح ممّا أسرع بالانتصار على المصطلق عقب قتال دار بين الفريقين رحاه قتل فيه المسلمون من قتلوا واستولوا فيه على ما كان لدى «المصطلق» من المال والنساء فقد نفل محمد «أبناءهم ونساءهم وأموالهم»[1].

وجُمعت أمام محمد أموال المصطلق وكانت ألفين من الجمال وخمسة آلاف من الغنم. وجمعت نساء المصطلق وأُوقفن بين يديه سبايا... وبين السبايا كانت: جُويرية بنت الحرث ابنة سيد المصطلق وزوجة مسافع بن صفوان المصطلقي...

وإلى محمد، مستنجدة، هرعت جُويرية وبمحمدٍ علقت في رجاءٍ عينا هذه الشابة الخزاعية التي كانت في نحو العشرين من العمر والتي، كما تصفها كتب السيرة: «كانت حلوة ملاحة لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه».. استنجدت به من مهانة السبي وذل الرق أملاً أن تعود إلى زوجها سيدة حرة.. ونظر إليها محمد نظرة أعقبها الجواب:

«فهل لك في خير من ذلك؟!... أقضي عنك كتابتك وأتزوجك!..».

وأعلن النبأ أن السيد المطلق قد تزوج ابنة سيد المصطلق!.

ولكن!. بقدر ما خفق قلب محمد بحب جويرية خفق قلب عائشة بالكراهية لجويرية وفي الجائشة منها جاشت الغيرة حتى المدى الذي اعتكرت به ليالي محمد في المصطلق وحتى المدى الذي تلبدت به في آفاق النفس منه غيوم الكدر التي زادتها على تلبدٍ تلبداً ما

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣.

قد جاءت به هذه الغزوة من حدثين لهما أهمية كبرى في التاريخ الإسلامي لما قد ترتّب عليهما من خطير آثار سجّلت:

«النزاع بين الأنصار والمهاجرين» و«حديث الإفك»

يقيناً إن لهذه الغزوة، غزوة المصطلق، أهمية كبرى في التاريخ الإسلامي أولاً في حياة الدعوة من جهة وبالتالي في حياة محمد الشخصية من جهة أخرى، فمن أول آثارها أنه قد وقع، بسبب توزيع المال، النزاع بين الأنصار والمهاجرين وقوعاً أدّى إلى الاشتجار بالأيدي اشتجاراً كاد يؤدي إلى انفصام عرى الوحدة بين المسلمين فقد شهر كلاهما السلاح في وجه الآخر في غمرة السبي وتحت تأثير بالغٍ من الإفراط في الخمر.. الأمر الذي كان سبباً لتشريع جديد سنّ:

تجنُّب الخمر

قرابة عشرين عاماً من الزمن، حتى غزوة المصطلق، قد انقضت منذ قام محمد إلى «دعوته» يدعو لم يتناول خلالها الخمر بتشريع.. ففي ضحى «الدعوة» في مكة نسمعه يقول وهو لأهله يُخاطب:

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

الآية ٦٧ من «سورة النحل»

ثم هو في الفجر الأول من المقام بالمدينة، ومن المسلمين مَن كان يقضي ليله في احتساء الخمر حتى إذا ما ذهب إلى الجامع صبحاً ذهب نشواناً وقال في صلاته ما لا يعلم، نسمعه يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾.

الآية ٤٣ من «سورة النساء»

والآن.. والآن قد وصل الأمر في أعقاب الانتصار على «المصطلق» إلى الإفراط في الشراب حتى الحد الذي كادت به أن تتصدّع القوة الرابطة بين المسلمين، فليس إلاّ لتنفرج شفتا محمد عن تشريع جديد لا يُحرّم الخمر وإنما يوصي بتجنّبها:

﴿يا أيها الذين آمنوا... إنما الخمر.. رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر﴾.

الآي ٩٠ و٩١ من «سورة المائدة»

كلا!. لم يُحرِّم «الكَلِمُ» الخمر تحريمه الدم والميتة ولحم الخنزير وإنما في غير تحريم جاء الكلم ناهياً إلاّ عن تجنّب الخمر نهياً لم يكن له من سبب إلاّ إشهار كل فريق من المهاجرين والأنصار السلاح في وجه الآخر إشهاراً لم يكن إلاّ بسببه همس ذاك الذي كاد من قبل أن يكون ملكاً على الخزرج والأوس معاً وهو إلى المهاجرين يشير:

«لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلاّ كما قال الأولون سَمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل».

وسرعان ما اتصل بمسمع محمد هذا القول فثار وثار لثورته عمر وأشار عليه بقتل عبد الله، ولكن!... سياسة محمد تأبى في هذا المضمار إلاّ الصبر وللسبب كان أن التفت إلى عمر قائلاً:

«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه؟!».

كلا!... إن محمداً لن يقتل الآن عبد الله!. إن محمداً لا يقتل إلاّ أعداءه وليس هناك إلاّ مضمر العداء بينه وبين عبد الله، وهذا إنما أمر لا يبرّر بحالٍ من الأحوال القتل. بل ولِمَ الإسراع إلى ذلك والعين من محمد قد شارفت مستقبلاً فيه طوت راحة المُنى عبد الله ولعمر يرى نفسه فيه سيقول متذاكراً أمر عبد الله:

«أما والله لو قتله يوم قلت لي أقتله لأرْعَدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته!».

كلا. إن محمداً لن يقتل الآن عبد الله... وهذا إنما مَثلٌ، بين أمثلة عدة، يُسفر عن الناحية الفذة في شخصية محمد بإرجائه قتل عبد الله في هذا الظرف الدقيق الذي لو كان قد قتله فيه لأرعدت له أنوف الأنصار!... لا غرو من ثم أن نرى السعي في إصلاح ذات البين بين عبد الله وبين محمد الذي ارتحل، وقد هدأت الفتنة بين المهاجرين والأنصار، عائداً إلى عاصمة سيادته..

هذا هو الحدث الأول الذي عكّر صفو الليالي في «المصطلق» وأما الحدث الآخر فقد حدث بعد عودة محمدٍ إلى المدينة وسجله:

«حديث الإفك»

حديث «الإفك» إنما حديثٌ محوره صفوان بن المُعطّل وعائشة ابنة أبي بكر فقد عاد محمد ومعه جويرية إلى المدينة، ولكن.. في الركب العائد لم تعد عائشة التي كانت قد استبدت بها من جويرية الغيرة وعصف بها على مكانتها لدى محمد القلق!. كلا ولا عاد مع الركب المنتصر ابن المعطّل.. لم تعد عائشة ولا عاد صفوان إلاّ في فجر اليوم التالي

لتراهما المدينة وتسألهما أين كانا قد تخلفا؟ ولكن!. لم يقنع المدينة من هذه الفتاة التي كانت تجتاز الخامسة عشرة من العمر والمُحبة للزينة والتزيّن قولُها بأنها قد تأخرت عن الركب العائد لانهماكها في جمع حبات عقدها الذي قالت عنه إنه كان قد انفرط وعلى الرمل قد انتشرا!. كلا ولا أقنع المدينة من ابن المعطّل، هذا الشاب الذي كان بالحسن قد عُرف وبالوسامة الفائقة قد اشتهر، قوله بأنه قد تأخر أيضاً لأنه راح يساعد عائشة في جمع حبات العقد المنفرط. كلا لم يقنع المدينة منهما هذا القول فراحت تلوك اسميهما معاً حتى اشتعل قلب محمد غضباً ممزوجاً بالغيرة والقلق! ومن الطبيعي كان أن تشتعل الجوانح من محمدٍ غيرة على من إلى قلبه كانت أحب الزوجات!..

يقيناً. لقد تزوج محمد على عائشة وما تزوج على خديجة من قبل... لقد تزوج على عائشة حفصة وجاءت بعد حفصة زوجات أخريات وامتلكت يمينه غير الزوجات نساءً امتلأت بهن بيوته، فهذه زينب بنت جحش الهاشمية وهذه هند بنت المغيرة العربية الأصيلة والمترفعة الحسناء، وهذه ريحانة بنت عمرو حسناء قريظة وهذه جويرية بنت الحرث سيد المصطلق التي تأخذ العين فتنة ولكن، بالرغم من تعدد الزوجات وغير الزوجات ممن وهبن أنفسهن لمحمد كانت عائشة، المحبة للزينة والتزين، الحبيبة المفضلة!. ثم هي بدورها أشد نسائه غيرة عليه ونضالاً في سبيل الاستئثار بحبه ثم هي ابنة أبي بكر!. ومن ثم كان حتماً أن يطرق محمد إطراقة عملت فيها اللّوالب الفكرية منه مدفوعة بعوامل المنطق لتنتهي على إثرها للعقل منه غضبة ولتهدأ في أعقابها للنفس منه ثورة، فقد تدخل «الوحي» في حياة محمد العاطفية مرة أخرى بكلم تحدّر يقول:

﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم... لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾!.

الآي ١١ و١٢ من «سورة النور»

وكفّت الألسن وخمدت الأقاويل وهدأت الثائرة...

ويقيناً!... يقيناً لقد كان حتماً أن يتدخل «الوحي» ليقول كلمته الحاسمة في هذا الصدد لتكف الألسن وتخمد الأقاويل وتهدأ الثائرة لأنه لو كان «الوحي» قد صمت لكانت الشفاه قد راحت تُؤيِّد هذا الحدث!. وحدث كالحدث ليس بالسهل ولا التغاضي عنه بناجع علاج فإنما اللغط فيه سيحدث حتماً تفرقة بين محمد وأبي بكر وهذه التفرقة ستؤدي بدورها حتماً إلى انشقاق في الجبهة الإسلامية حتماً سيكون نُواة لحرب أهلية ستُعرِّض «الدعوة» إلى أشد عاصفة يمكن أن تتعرّض لها ليس إلاّ للسبب كان حتماً أن يتدخل الوحي ويقول كلمته

لحسم كل أمر.. ومن ثم فبينما كان القول من عائشة بأن قلادتها قد انفرطت لم يقنع محمداً فجفاها حتى انتقلت إثر ذلك إلى بيت أبيها، وبينما كانت الألسن تلوك سيرتها وفي مقدمة هذه الألسن كان لسان حسّان بن ثابت الأقذع حتى أن عليّاً نصح محمداً بطلاقها كان محمدٌ يفكّر موتور القلب مُتوتر النفس وكغيمة داكنة ثقيلة كانت تطوف على جبينه ظروف هذا الحدث، بينما كان كل ذلك يجري كان «الكَلِمُ» يتجمّع ليتحدّر مبيداً ما قد علق في أرجاء النفس من غيوم ومُبدداً ما به كانت قد اعتكرت من شكوك!... ما تحدّر إلاّ وعاد إلى الفكر الهدوء وعاود النفوس الصفاء...

وهكذا انتهت هذه المحنة الأخرى التي أعقبت «المصطلق» أنهاها «الوحي» بكَلِمٍ أثلج لأبي بكر قلباً وردّ إلى عائشة مكانتها التي ما كانت لتلوكها الألسن لولا واحدٍ كصفوان الذي سرعان ما قُتل بعد ذلك والذي سرعان ما سَرَى عنه من بيت عائشة الهمس يُردّد عنها القول:

«لقد سُئل عن ابن المعطّل فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتي النساء!».

ولكن! هذه المحنة وإن كانت قد مرت بسلام فإنما قد جاءت بأثرٍ كان السبب لتقليدٍ في الإسلام جديد. فليس إلاّ في أعقابها يطالعنا هذا التقليد الجديد الذي به قد شرّع:

«ضرب الحجاب»

ليس إلاّ غداة إلى بيت عائشة انفرجت شفتا محمدٍ عن:

﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن اللّه خبير بما يصنعون﴾.

الآية ٣٠ من «سورة النور»

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها... وليضربن بخمرهن على جيوبهن... ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو آبائهن... ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى اللّه جميعاً﴾.

الآية ٣١ من «سورة النور»

والآن؟.. الآن وقد ضُرب الحجاب وهدأت الجائشة وسكن الجأش يعود التفكير بمحمد، والأيام تقترب من موسم الحج، إلى مجريات عالمه السياسي في استعراضٍ لما قد مضى حتى الآن من أحداثٍ... ليرى أن الآن، وقد دانت المدينة لسيفٍ أقصى «النضير» و«القينقاع» وجندل «قريظة» وقتل سادة النضير وخيبر وأظلّ «المصطلق» إنما آن لهذا

السيف أن يُلوِّح لقريش عن قربٍ تلويحاً يسبر به من قواها القوي ولمدى استعدادها وعدتها يختبر..

وانفرجت شفتا محمد عن:

﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والرّكع السُّجود، وأذِّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللّه في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهُم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق، ذلك ومن يعظّم حرمات اللّه فهو خير له عند ربه... ذلك ومن يعظم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى، ثم محلها إلى البيت العتيق، ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم اللّه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد!..﴾.

الآي من ٢٦ إلى ٣٤ من «سورة الحج»

في استفسارٍ للمعنى من وراء هذا «الكَلِم» التفت إلى محمد الأتباع لا يتساءلون ما القصد إلاّ ليأتيهم الجواب:

«إنكم ستدخلون المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين مُحلقين رؤوسكم ومُقصرين لا تخافون!».

ويقيناً!.. يقيناً إن الآن قد آن لسيف أقصى القينقاع والنضير وجندل قريظة وسادة خيبر والنضير وارتفع فوق المصطلق أن يلوح لقريش ويسبر منها القوى ولمدى استعدادها عن قرب يختبر لا سيما وأن الشيوخ القدامى من قريش، أولئك الذين كانوا قد رموا محمداً بالافتراء على اللّه، كانت قد طوتهم منذ أمد بعيد راحة الزمن وأنبتت بعدهم نشئاً جديداً منهم مَن كان عند قيام «الدعوة» صبياً ومنهم من كان بعد لم يُولد!... ومن ثم فيقيناً إن الآن قد آن للنشء الحديث من قريش أن يحس بهذه القوة الطالعة حتى يذعن لها وحتى، في تداعٍ، لها يدعو ويتبع..

لا ثمة شك في أن هذه هي الفكرة الجوهرية التي اختمرت في الذهن المحمدي غضون هذه الفترة الزمنية التي أعقبت العودة من المصطلق، فليس إلاّ في غضون هذه الفترة كان قد دوى الصوت من محمد بين الأنصار والمهاجرين بأنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين.. غير مُقاتلين... لا يخافون!.

كيف؟! سؤال بين الطوائف المحمدية دار وعنه من شفتي محمد جاء الجواب مؤذناً، في

شهر ذي القعدة، بالتجهز للخروج إلى الحج ليرسل محمد في أعقاب ذلك رسله إلى القبائل المحيطة بالمدينة يستنفر غير المسلمين من العرب ومَن حوله مِن أهل البوادي من الأعراب يدعوهم إلى الاشتراك وإياه في الخروج حاجين معه إلى «بيت اللّه» خشية من قريش إذا ما خرج وحده برجاله أن تصده بعد كل الذي قدكان!...

إلى خطة سياسية ليست هي فحسب غاية في الدقة وإنما المنتهى من الحنكة هدف بهذا الخروج محمد. فهذه إنما وسيلة ابتغى بها أن تعلم العرب كافة أنه قد خرج في الشهر الحرام حاجاً لا غازياً ولا فاتحاً!.. أراد أن تعلم العرب أنه قد أتى زائراً بيت الإله. إلههم وإلهه!.. أراد أن تعلم العرب قاطبة أنه قد أتى يُؤدي فريضة حجهم وفريضة حجه!... وأراد أن تعلم قريش، خاصة، أن الأشهر التي تعتبرها حراماً هي لديه أيضاً كانت حراماً!...

أما ما الغاية من وراء هذه الوسيلة؟. فسؤال عنه يأتي الجواب باليقين بأن الغاية ليست إلاّ فكرة تطوف في وضوحٍ على جبين محمد وهي من الممكن أن تمتلك يده، بهذا الخروج، العنق من قريش. وإلى هذه الغاية ليست هناك وسيلة إلاّ الخروج على هذه الصورة التي لن يمكن بها قط لقريش بأي حال من الأحوال أن تصد محمداً رسمياً وهو إنما قد جاءها زائراً «بيت اللّه» ومؤدياً فريضة الحج!...

ويقيناً!. بأي حجة يمكن لقريش أن تصد الزائر بيت اللّه؟!.. قط لن تستطيع قريش أن تحول بين محمد وأداء فريضة الحج!. قط لن تستطيع قريش أن تحول دونه ودخول مكة في أحد الأشهر الحرم وهي لو فعلت وحالت دونه واضطرتها هذه الحيلولة إلى مقاتلته في الشهر الحرام ومنعته من أداء ما يؤديه سائر العرب على اختلاف نحلهم ومذاهبهم لما وجدت قريش من العرب مَن يؤيدها في موقفها كلا ولا وجدت من القبائل من يعينها على قتال المسلمين!.

ويقيناً!. أي اعتراض تستطيع أن تعترض به قريش لمنع قوم جاءوا مُحرمين لا سلاح معهم إلاّ سيوفهم في غمودها، وهو ما يحمل المسافر عادة، يتقدمهم الهدي الذي له سينحرون وهذا إنما أوفى دليل على أنهم قد جاءوا لا غرض لهم إلاّ أن يقوموا بتطواف «البيت العتيق» وأداء فريضة تؤديها العرب كافة وتقوم بها جميعاً؟...

وهكذا... في مُستهل ذي القعدة من السنة السادسة للتاريخ الهجري خرج محمد بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من غير المسلمين مستجيباً لندائه من الأعراب والعرب يتقدمهم على ناقته «القصواء» وأمامه قد أرسل الهدي حتى إذا ما بلغ «ذو الحليفة» أناخ وأحرم بالعمرة لا فحسب ليأمن الناس من حربه وإنما ليعلمهم بأنه لم يخرج للقتال كلا ولا يريد قتالاً وأنه خرج زائراً بيت اللّه الحرام وله معظِّماً!...

ومن بعيدٍ أرسل محمد عيونه من الخزاعيين تستطلع عمّا إذا كان قد بلغ مكة خبر مسيره؟. وعادت إليه هذه العيون بالأنباء بأن قريشاً قد بلغها أن محمداً قد خرج إليها، بعد سنوات ست انقضت منذ ارتحاله عنها خلالها كانت الأيام قد سارت عن مستمر غزو وسبي وقطع الطرق على القوافل التجارية، بعدد يقرب من الألفين «أقبلوا حاجين» ولكنها قط لا تقتنع بأنه قد جاء، حقيقة، حاجاً وإنما جاءها من منطقها الإقناع بأنه إنما جاء يتخذ الحجّ حُجّة إلى الدخول عليها عنوة وأنها لذلك قد جمعت قوة كبيرة وحشدتها استعداداً لمقابلته كما وضعت للسبب عينه حراساً على مدينتها، بل وعسكرت خارجها والبرهان على ذلك هو أنها قد أرسلت خالداً على رأس مائتي فارس إلى «كراع الغميم» ينتظرون محمداً!...

وأطرق محمد يفكر بينما كان بشر بن سفيان الكعبي يقص عليه ما قد عاد به عن قريش ليشتد إلى بشر المسمع مِن محمد إرهافاً وإليه يصغي وبشر يسترسل قائلاً:

«هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا! معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور! وقد نزلوا بذي طوى **يعاهدون الله** لا تدخلها عليهم عنوة أبداً! وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم!».

وهنا كان حتماً أن تجري اللّوالب الفكرية من محمدٍ تتساءل: أحتى المدى امتد الخوف بقريش من محمدٍ؟!...

أجل... حتى المدى امتد الخوف بقريش من محمد وحتى المدى عصف بالقلب القريشي هذا الخوف الذي جاءت عنه مُعبِّرة هذه الكلمة التي انطلقت من شفتي محمد وهو مطرق يفكِّر:

«يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب!».

وحقاً!... حقاً يا ويح قريش فلقد أكلتهم الحرب!. فإن قريشاً ما علمت بمسير محمد إليها على رأس هذا العدد من الرجال إلاّ وأطرقت تحت مطارق التفكير تُفكِّر وإلاّ ليطرق منها التفكير الأمر على شتى وجوهه، فلم تر إلاّ أن محمداً يريد أن يحتال على دخول مكة وأنها **الحيلة!**

لا ثمة شك في أن على دعائم من مظاهر الأحداث جرت اللّوالب الفكرية من قريش ليستقر بها المنطق عند اليقين بأن محمداً قد احتال عليها بهذه الحيلة وليس إلاّ للسبب ارتفع الصوت منها معلناً:

«إن محمداً يريد أن يدخل مكة **عنوة**!.. **فوالله** لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك هنا العرب!..».

وبالصوت القريشي كان حتماً أن تتجاوب الآفاق المكية إيجاباً زاد قريشاً بمنطقها إيماناً وبتفكيرها اقتناعاً لا سيما وهي التي نحو محمد قد تحسست من حناياها المشاعر فوجدت أن إلى محمد لا يطمئن منها القلب وأن من محمد توجس النفس منها وتخشى فإنما عهدها «بالخدعة» بها ليس ببعيد وبالوقيعة بين «الأحزاب» ليس بعهيد!..

ثم.. ثم إن قريشاً ما زالت تذكر تحول محمد في صلاته عن «المسجد الحرام» إلى «المسجد الأقصى» وهذا إنما أمر لذكراه ما زال يستعر بنيران الموجدة منها الحشا ولذكره ما زال القلب منها بلهب الغيظ يتلظّى!..

كلا!. إن قريشاً لا تستطيع أن تنسى لمحمد هذا التحوّل عن بيت إلهها غضون تلك الفترة من الزمن التي كان قد أقبل خلالها على المسجد الأقصى وهو وإن عاد وبقبلته عدل إلى المسجد الحرام فإنها قط لن تنسى هذا التحوّل كلا ولا يحولها عن هذا الرأي انطلاق «الكلم» في تتالٍ من شفتي محمد لما قد كوّن الكثير من متتابع الآي، الذي تدفق يشير بحرمة «البيت» كمسجد حرام جعله اللّه مثابة للناس وأمناً!. فإنما هي قد وقفت عند الاقتناع بأن محمداً قد افترى على اللّه وأن الذين تابعوه قد كفروا، ومن ثم استقرّ بها هذا الاقتناع عند اليقين بأن ليس إلاّ واجباً دينياً عليها صد محمد ورجاله عن بيت اللّه!.

للأمر، كما يُسجل للإسلام تاريخ، رأت قريش حرمان محمد ورجاله من الحج حتى يثوبوا ويتوبوا!..

وهنا.. هنا كان حتماً أن يطرق محمد مرة أخرى وأن تجري اللّوالب الفكرية منه ترى: ماذا لو أخذ مكة على غرة وانقض على قريش من حيث لا تحسب ولا تحتسب؟.. ليس إلاّ بدافعٍ من هذا التفكير هبّ محمد على إثر ذلك برجاله يصيح: «من رجل يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هم بها؟!».

ووراء دليله اتجه برجاله محمد سالكاً ذلك الطريق المتعرج من خلال مضيق «ذات الحنظل» قاطعاً بصبر عجيب هذا الطريق الوعر الأجرل بين «شعاب» حتى إذا ما أفضى إلى تلك الأرض السهلة بين ظهري «الحمض» سلك «ثنية المرار» هابطاً أسفل مكة حتى بلغ «الحديبية» ولكن!.. ليجد أن قريشاً قد أدركت خطته وصمدت من هذه الناحية استعداداً لمقابلته...

ومن ثم كان حتماً أن يتوقف محمد في «الحديبية» وأن ينيخ فيها ليفكّر في الأمر وفيه يتدبّر.. فكانت تلك الإطراقة التي رأى خلالها محمد أن، وإن كانت خطة الانقضاض على

قريش بغتة قد فشلت، فإنما دعوة الحج ظلّت قائمة. فماذا لو ظلّ في «الحديبية» لفترة يعرض خلالها على قريش قوته وما قد أمسى له من جاهٍ ومهابة؟!..

من ثم ليرسل محمد الصوت منه ليتصل بمسمع قريش يقول: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إياها!».

أمام تجاوب هذا الصوت في الآفاق المكية كان حتماً أن تطرق قريش وتفكّر تبتغي لهذا الإشكال الطارىء حلاً فلا يثنيها عن رأيها إحرام محمد بالعمرة وإذاعة رجاله في أنحاء شبه الجزيرة كلها أنهم قد أقبلوا لا تُحركُهم إلاّ العاطفة الدينية من أن محمداً يريد قهرها ليدخل مكة عنوة ومن ثم قررت الحيلولة التامة بين محمد ودخول مكة!.

ويقيناً إن دخول محمد مكة على هذا النحو إنما أمر ترى فيه قريش سافر استخفاف بها وهذا إنما يحمل في طواياه من المعاني معاني لا تجهلها هي ولا تجهلها العرب قاطبة فإن دخول محمد مكة عنوة على قريش إنما أمر يعني **الانتصار المعنوي لمحمد على قريش** وانتصار محمد هذا اللون من الانتصار إنما معناه القضاء على مهابة قريش عند العرب قضاءً أخيراً وفي هذا ما يعُرِّض قريشاً إلى مهانة حتماً ستدول بها دولتها وحتماً بها سيمتد ظل محمد من المدينة إلى مكة!..

ولكن!... لماذا لا تلجأ قريش إلى التفاهم مع محمد والسلم إنما يبدو، في هذه الفترة، من خطط محمد الخطة؟!. ومن ثم فإلى التفاهم مع محمد لا يدعوها فحسب التفكير وإنما يحتمه الواقع عليها تحتيماً رأت قريش نفسها تجاهه تُرسل إلى محمدٍ رسولاً بعد رسول يسأله ما الذي، حقيقة، به قد جاء؟!... من خزاعة إلى محمد أرسلت قريش رسولاً فخرج إليه: بُدَيْل بن ورقاء وبعد ابن ورقاء أرسلت رسولاً آخر فخرج إليه: مكرز بن حفص بن الأخيف وبعد ابن حفص أرسلت سيد الأحابيش يومئذٍ: الحلَيْس ولكن!.. لم يرَ محمد الحليس إلاّ وحرص على أن يرى هذا الرسول البرهان على أنه لم يجيء إلاّ زائراً «بيت اللّه» بما قد ساقه معه من الهدي لأداء أُصول هذه الزيارة، فهو إلى رجاله يلتفت قائلاً: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه!».

وكان حتماً أن يجيء هذا العمل بنتيجة فما رأى الحليس الهدي يسيل عليه عرض الوادي إلاّ وعاد إلى قريش مقتنعاً يحاول بدوره إقناعها بأن محمداً لم يأت يريد حرباً وإنما جاء لا يريد إلاّ **زيارة «البيت العتيق»**.

ولكن!... لئن كانت قريش قد اتهمت «بديلاً» و«مكرزاً» بالمحاباة فليس إلاّ لتصف «الحلَيْس» بأنه أعرابي لا علم له بباطن الأمور ولا قدرة له على استقصاء الأقصاء من الضمير

المحمدي.. ليس إلاّ للسبب رأت قريش أن ترسل رسولاً منها تعوّد الوفود على الملوك والأمراء وحكيماً تطمئن إلى حكمه منها القلوب فأرسلت: عروة بن مسعود الثقفي.

وإلى محمد سار عروة وله قابل تلك المقابلة التاريخية التي تتحدث عنها كتب السيرة قائلة إن حكيم قريش قد خرج إلى سيد المدينة وعليه أقبل ولكن ليجد أن على رأسه يقف المغيرة بن شعبة وهذا إنما يعرفه عروة بن مسعود إذ كان قد دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قَتْلى كان المغيرة قد قتلهم لتسترسل كتب السيرة وتحدثنا عن مجريات هذه المقابلة التي ذكر خلالها عروة لمحمد أن مكة بيته وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها بِمَنْ جَمَع حوله من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه، كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد نفسه!. فهو له يقول:

«يا محمد! أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟!. إنها قريش قد خرجت معها العود المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون اللّه لا تدخلها عليهم عنوة أبداً!. وايم اللّه لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!.».

وهنا تستطرد كتب السيرة وتسترسل في سرد مجريات هذه المقابلة فتقول: عند ذاك صاح أبو بكر بعروة مستنكراً أن ينصرف الأتباع عن رسول اللّه وهم الذين، كما يراهم الآن عروة، لا يتوضأ محمد إلاّ ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلاّ ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه!... ولكن!. تسترسل كتب السيرة فتحدثنا بما يأتينا بالدليل بأن عروة لم يتأثر بهذه المشاهد إذ جعل يتناول لحية محمد وهو يكلمه ومحمد له يقول بأنه لم يأت يريد حرباً ولكن ليعود بعد ذلك عروة إلى قريش يصف لها صورة هذه المقابلة قائلاً:

«يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني واللّه، ما رأيت ملكاً في قومٍ قط مثل محمد في أصحابه!...

فروا رأيكم..».

ولكن... بينما كانت قريش تتشاور أمرها وعلى ما قد سبق من رأي لها استندت تتشبث بمنع محمد من دخول مكة. كان محمد قد رأى أن يرسل إليها مبعوثاً من لدنه يؤكد لها أنه لا يُعْلن حرباً!.. إلاّ أن مكة عن خراش بن أمية الخزاعي أشاحت!...

وأطرق محمد وأراد إرسال عمر ولكن كان ردّ عمر:

«إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها!. ولكني أدلّك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان...».

وإلى أبي سفيان، سيد مكة، وإلى مَنْ حوله من أشراف قريش انطلق عثمان رسول سيد المدينة انطلق عثمان لا ليبلغ قريشاً وإنما ليقنعها بأن محمداً لم يأت يريد حرباً وأنها قط ليست بالحيلة كلا ولا بالخدعة!.

ولكن... طالت في مكة إقامة عثمان فقد طال الحديث بين الجهتين أو بالأحرى قد طال النقاش بين الجبهتين قريش من ناحية تُقسم باللّه أن لا يدخل سيد المدينة مكة هذا العام ورسول محمد من ناحية أخرى يصر على أن يدخل سيد المدينة مكة هذا العام وأن يطوف بالبيت العتيق ويؤدي فريضة هم لا يستطيعون منع أحد من تأديتها!.. وليؤدي بالناحيتين هذا الحوار إلى التفاهم وإلى البحث عن تنظيم العلاقات.. لذلك طالت بعض الشيء إقامة عثمان ولكن!.. ليعلن في المعسكر المحمدي خلال هذه الغيبة أن قريشاً قد قتلت عثمان!.. وكان لهذا الإعلان الذي انطلق بين جموع المحمديين أثره فيما قد ترتب على ذلك من آثار وكأنما هذه الغيبة كانت في ضمير الأيام خطة مقدورة، فلم يكن هذا الإعلان إلاّ السبب الذي شدّت به اليد المحمدية عنان المسلمين ببيعةٍ جديدة:

بيعة الرضوان «٦ هـ ـ ٦٢٨ م»

تحت الشجرة، في هذه المرة أيضاً، بايع المسلمون محمداً بيعة جديدة ثبّتت فيهم الإيمان ودعّمته بدعائم اليقين ـ بايعوه ـ وكل ثابت الإيمان ممتلىء عصبية للانتقام، على الانتقام من «قتلة عثمان»!... بايعوه على ألاّ يفروا حتى الموت وحتى تتم لهم مناجزة قريش «قتلة عثمان».

تماماً كبيعة «العقبة الكبرى» تقف في التاريخ الإسلامي «بيعة الرضوان» فقد أوثقت هذه البيعة الجديدة الوثاق بين محمد وأصحابه بلحمة اللاّ انفصال. فهي وثيقة على الرجال أُخِذت على إقدامهم على خوض مخاطر الموت في سبيل محمد الذي ما انتهت مراسم هذه البيعة له إلاّ لتطأطىء أمامه الرؤوس وترهف إليه المسامع وهي تصغي إلى «الكلم» المتحدر من شفتيه يقول:

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه يد اللّه فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾!

الآية ١٠ من «سورة الفتح»

﴿لقد رضي اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها﴾!.

الآي ١٨ و١٩ من «سورة الفتح»

وأدرك المسلمون أن محمداً قد اعتزم فتحاً **قريباً** وأنه يعدهم مغانم كثيرة.. أدرك المسلمون أن الحرب تكاد من شفتي محمد أن تُعلن وأن المغنم من هذه الحرب إنما الكثير فاهتزت السيوف في غمودها وأرهفت المسامع تنتظر إعلان الأمر ولكن! بينما كان قد انطلق للرجال خيال يرقب يوماً إما فيه ستكون لهم في مكة سيادة وإما فيه سيكون لهم الاستشهاد فيكون لهم عوضاً عن هذه السيادة الجنة، جاء، بعد أن تمت «بيعة الرضوان» عثمان!.

عاد عثمان يخبر سيد المدينة أنه قد أقنع سيد مكة وأشرافها بما خرج إليه من أمر وأنه ليس لديهم الآن ظلال ريبة في أن المسلمين قد جاءوا **حاجين مُعظّمين البيت**، ولكن!. هم وإن كانوا يعلمون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم إلاّ أنهم يرون إذا تركوا محمداً يدخل، بعد الذي قد كان، لتحدثت العرب بأن قريشاً هُزمت أمام محمد، ولتضعضعت في نظر العرب لقريش مكانة ولسقطت لها **«كأهل اللّه»** هيبة ومهابة ولذلك هم يصرّون من موقفهم هذا العام إبقاءً على هذه المكانة واستبقاءً لهذه الهيبة، ومن ثم فإن على محمد أن يفكر، وهذا موقفه وموقفهم، في مخرج من الموقف الحرج وإلاّ فليس إن دخل مكة في هذا العام إلاّ إشهار السلاح في وجهه وهم للأمر كارهون في هذه الأشهر الحرم تقديراً لحرمة مكة الدينية، ولكنهم إلى ذلك سيضطرون اضطراراً!.

ومن جديد عادت المفاوضات بين سيد مكة وسيد المدينة لتنتهي بآخر رسولٍ أرسلته قريش إلى محمد فقد خرج: «سهيل بن عمرو» وفي مسمعيه تدوي كلمة قريش:

«ائت محمداً **فصالحه** ولا يكن في صلحه إلاّ أن يرجع عنا عامه هذا، **فواللّه لا** تحدّث العرب عنا أنه دخلها علينا **عنوة أبداً**!.».

وهنا تزيح لنا كتب السيرة عن ناحية دقيقة تتوهّج لنا من خلالها وقدة الذكاء المحمدي وهي تحدثنا بأن محمداً حين رأى سهيلاً قادماً قال:

«قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل!».

وبين سهيل ومحمد جرت: تحت جنح تلك الليلة من عمر الزمن، محادثات نُوقشت خلالها للصلح دقيق شروط كان المسلمون من حول محمد يسمعونها ويضيق بعضهم بأمرها ضيقاً لتشدد سهيلٍ في مسائل كان محمد يتساهل في قبولها ولولا «بيعة الرضوان» لما كانوا قد ارتضوا ما قد تم عليه بين سهيل ومحمد الاتفاق، بل ولولا «بيعة الرضوان» لقاتلوا ليدخلوا مكة!.. فلولا «بيعة الرضوان» لما كانت قد تمت الهدنة بين محمد وقريش ولما كانت قد سُجلت هذه الهدنة التي سجلت بها يد الزمن:

عهد الحديبية «٦ هـ»

الاعتراف الضمني لقريش بقيام الدولة المحمدية

لكتابة الهدنة وتسجيل شروطها تناولت يد علي بن أبي طالب القلم واستهلت شفتا محمد إملاء ما قد نصّ عليه هذا العهد من شروط...

«باسمك اللّهم!. هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه سهيلاً بن عمرو».

ولكن!... هنا صاح سهيل: امسك! «لو شهدت أنك رسول اللّه لم أقاتلك! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك!».

عند ذاك التفت محمد إلى عليّ قائلاً: «اكتب:

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه سهيل بن عمرو ـ اصطلحا ـ:

١ ـ على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٢ ـ من أتى محمداً عن قريش بغير إذن وليه رده عليهم.

٣ ـ ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٤ ـ إن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم أدخل فيه.

٥ ـ أن يرجع محمد هذا العام من غير عمرة **على أن يأتي في العام التالي** فيدخل مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش ويقيم بها ثلاثة أيام، وليس معهم من السلاح إلاّ السيوف بالقرب».

هذه هي نصوص الهدنة التي بما قد جاء فيها من شروط تمّ الصلح بين قريش والمسلمين!.

من ثم لم يبق الآن على المسلمين إلاّ أن يتركوا «الحديبية» إلى المدينة على أن يعودوا إلى مكة في العام التالي فيدخلوها ولكن!. إلى المدينة عزّت العودة على المسلمين بعد أن ملأ الوجدان منهم اليقين بأن وعد اللّه قد جاءهم على لسان محمد يعدهم فتح مكة!... ليجيء هنا التاريخ الإسلامي فيقول بأن الشيطان كاد ينزغ بين المسلمين في هذه المرة وأن نفوس المسلمين قد ثارت حتى أخذوا يتهامسون فيما بينهم لولا رباطة جأش محمد التي عالجت هذه الثورة النفسية للأتباع والمندلعة ضده بحكمةٍ حتّمت عليه ألا يعاتب الشّاكين من أصحابه إلاّ عتاباً ليّناً يعيد إليه مَنْ عنه قد تحوّل حتى استطاع بذلك أن يتوجه بهم إلى

المدينة وهم من حوله يلتفون والمسامع منهم تلتقط «الكلم» الذي تحدّر في الطريق من شفتيه وفي اتجاهِ إليه يقول:

﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك اللّه نصراً عزيزاً﴾.

الآي ١ و٣ من «سورة الفتح»

بل وناحية الأتباع راح «الكَلِم» يسترسل سخياً ويتحدّر قائلاً:

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وللّه جنود السموات والأرض وكان اللّه عليماً حكيماً، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويُكفِّر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند اللّه فوزاً عظيماً، ويُعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانّين باللّه ظنّ السوء عليهم دائرة السوء وغضب اللّه عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً﴾!.

الآي ٤ و٥ و٦ من «سورة الفتح»

ويسترسل: **﴿لتؤمنوا باللّه ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه يد اللّه فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيأتيه أجراً عظيماً﴾!.**

الآي ٩ و١٠ من «سورة الفتح»

لا ثمة شك في أنكم قد:

﴿.. ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلي أهليهم أبداً وزيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً ومن لم يؤمن باللّه ورسوله فإنّا اعتدنا للكافرين سعيراً، وللّه ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾.

الآي ١٢ و١٣ و١٤ من «سورة الفتح»

بل ولم كان ظنّ السوء:

﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾!.

الآية ٢٤ من «سورة الفتح»

أم كان ظن السوء لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام وقالوا بأنكم قد كفرتم ولن تدخلوه حتى تثوبوا وتتوبوا؟.

كلا!. إنهم: **﴿هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل اللّه في رحمته من يشاء أو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً، إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان اللّه بكل شيء عليماً﴾**!

الآي ٢٥ و٢٦ من «سورة الفتح»

ومن ثم فكفوا عن التهامس فيما بينكم قد عدتم فاشلين وأنتم الواثقون من قبل بأن اللّه قد وعد محمداً فتح مكة في رؤيا لئن كانت قد قُصّت عليكم، أيضاً، من قبل فإنما لكم الآن يؤكدها «الكَلِمُ» وهو يقول:

﴿لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون! فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾!.

الآية ٢٧ من «سورة الفتح»

صبراً!.. يقيناً إنكم ستفتحون مكة من ثم فلا يلجنّ بكم اللّجج وإلى لُجج الشك بكم يلج!... فإن محمداً بصلح الحديبية لم يذلّ لكم عنقاً وإنما على النقيض كان هذا الصلح بمثابة الاستسلام السلبي السبّاق للانقضاض، وهذه إنما سياسة حكيمة لئن ارتضت الآن شروطاً كالشروط فإنها في الواقع إنما تخفي تحت وميض النواجز ما في داخل النفس من مضض عاصف ومضيض يأبى الآن إلاّ أن يتجلى تحت مظهر الصبر الجميل!

بل وماذا كان يمكن لكم حيال ذلك أن تفعلوا إلاّ التعلّق بحبال الصبر لا سيما وأنكم قد رأيتم قريشاً قد أظهرت بمنعكم من دخول مكة، **منعة**!. ومن ثم فلا قِبَل لكم كان، وأنتم إنما بجانب قريش قلّة، على قتال قريش في داخل ديارها!.. أما رأيتم أن لدى قريش الحد والحديد وأن لها يؤازر مَنْ حولها من القبائل وعددهم إنما عديد؟!.

ما لكم لا تتنبهون؟!. ألا ترون أن قريشاً قد استسلمت من حيث لا تعلم إلى الاعتراف بسلطان محمد وسلطان محمد إنما لكم سلطان؟... أم تراجعت منكم المدارك عن إدراك ما يحمله صلح «الحديبية» من معنى يتجلى في: **الاعتراف الضمني لقريش بالدولة الإسلامية وقيامها؟**

ويقيناً!. يقيناً إن صلح «الحديبية» إنما اعترف لمحمد أنه لقريش ندٌّ وليس هذا فحسب وإنما هو اعتراف صريح بمولد الدولة الإسلامية وقيامها وليس أدلّ على ذلك من أن نرى محمداً، في أعقاب عودته إلى المدينة، يُعلن قيام هذه الدولة الجديدة ومظهر ذلك كان:

صنع خاتم الدولة الجديدة يحمل اسم سيدها ومكانته الدينية

للدولة الجديدة القائمة باسم الدولة الإسلامية صاغ مؤسسها لنفسه خاتماً من الفضة يحمل اسمه بالإضافة إلى مكانته الدينية، كرسول اللّه ليمهر به رسائله إلى الملوك والأمراء يعلنهم بقيام هذه الدولة ذات الصبغة الدينية الجديدة المستمدة من الاعتراف به رسولاً إلهياً مطالباً إياهم في نفس الوقت لا فحسب بالاعتراف بقيام هذه الدولة وإنما بالاعتراف بمكانته الدينية اعترافاً يطلب الانضمام ويطالب بالانضواء.

ولكن بينما كانت الأقلام تُبرى كانت أنفاس الزمن تروح مُترددة بين دولتين.. بين دولة في مكة سيدها أبو سفيان ودولة في المدينة سيدها محمد بن عبد اللّه بالرغم من أن الأيام بعد صلح «الحديبية» كانت قد سارت هادئة الاستهلال غداة استهلها محمد على تنظيم الشؤون الداخلية للمدينة وترتيب أمر بث الدعوة في الخارج.

ويقيناً... يقيناً لقد استقرت بعد «الحديبية» العلاقات بين محمد وقريش التي اعترفت له، بهذه المعاهدة، الاعتراف الضمني بقيام دولة في المدينة يرأسها هو كسيد مطلق الحكم ودينها المسمى بالإسلام أساسه الاعتراف به كرسول اللّه.. فقد انصرفت قريش بكليتها إلى سياستها الاقتصادية تحاول استعادة ما قد فقدته في الماضي حين قطع محمد عليها طريقها إلى الشام... ولكن! ما استقرّت هذه العلاقات إلاّ بعض الوقت الذي عن سير الأحداث خلاله تحدثنا «كتب السيرة» لتحدثنا بأن بينما كانت قريش قد انصرفت بعملها إلى هدفها الاقتصادي كان محمد قد اتجه بتفكيره إلى إتمام نشر دعوته اتجاهاً به تنتشر صفحة في سياسته جديدة عليها ترتسم بوضوح تام ما عليه كانت تشتمل شخصية محمد من قدرة فائقة على دقيق التصرف ووضع محكم الأحكام في نطاق المضمار السياسي. فالشخصية منه في غضون هذه الفترة الزمنية إنما تطالعنا بمخيلة ارتسمت على صفحتها شبكة من الخطط متواصلة الخطوط، فالآن وقد قامت هذه الدولة الجديدة، التي كان من أثر قيامها في نفوس بعض القبائل أن قدم «وفد جذام» على محمد يعلن له الطاعة ويهدي إليه سيدها رفاعة بن زيد غلاماً، فإنما قد آن الآن لأن يبعث محمد إشعارات إلى سائر الملوك والأمراء بقيام هذه الدولة الجديدة ويطلب منهم إليها الانضمام وله إسلاس العنان...

هذه هي الفترة الزمنية من السنة السادسة للهجرة التي سجّل خلالها التاريخ الإسلامي:

إرسال محمد الكتب إلى الملوك والأمراء يعلمهم بنفسه ويدعوهم إلى طاعته

إلى الملوك والأمراء أو بالأحرى إلى أولئك الملوك والأمراء الذين يسميهم التاريخ

الإسلامي بملوك الخائبين أو الكفار[1] بعث محمد يعلنهم بقيام الدولة الإسلامية ويدعوهم إلى طاعته برسائل تحمل خاتم الدولة الجديدة الحامل بدوره اسم سيد الدولة والمكانة الدينية لمؤسسها.

إلى الفرس وإلى الرومان إلى مصر وإلى الحبشة إلى غسّان وإلى اليمن تتابعت من المدينة رسل محمد يحملون هذه الرسائل التي لم يحتفظ لنا التاريخ إلاّ بواحدة في صدر مصر... فلم يحفظ لنا التاريخ من هذه الكتب، التي لم تصل إلى أصحابها إلاّ بعد «غزوة خيبر» مع أخبار هذه الغزوة نفسها، إلاّ كتاب محمد إلى المقوقس ولكن!.. ليحدثنا هذا التاريخ بأنه إذا كان هرقل لم يعبأ برسالة محمد وإذا كان كسرى قد أرسل إلى عامله على اليمن بأن يبعث إليه «برأس هذا الرجل الذي بالحجاز»، فإنما المقوقس قد أبدى الاهتمام وأعمل الفكر في ما هو دائر في شبه الجزيرة بسبب محمد، وللسبب فما وافاه حامل رسالة سيد الدولة الناشئة إلاّ وكان ردّه رداً لبقاً عاد به حامل الرسالة إلى محمد بما لم يعد به أحد، فقد عاد إليه محملاً بالهدايا وحاملاً إليه، على رأس هذه الهدايا، جاريتين...

وتأمل محمد سيرين ومارية ابنتا شمعون القبطي تأملاً على أثره أهدى سيرين إلى حسّان، شاعره، واحتفظ بمارية لنفسه ليطير النبأ إلى دائرة الحريم من بيوت الزوجات أن شابة مصرية سمراء حلوة جذابة الملامح قد جاءت من أرض النيل كهدية أهداها سيد إلى سيد ما عليها وقعت عيناه إلاّ وبها علقتا وإلاّ وإعلاء لمكانتها اختار لها بيتاً في «العالية» بعيداً عن منازل الزوجات.

ويقيناً لقد شغف محمد بمارية حباً حتى كان يقضي عامة ليله ونهاره عندها في بيتها بالعالية بعيداً عن حريم الزوجات، مما كان حتماً أن يثير غيرتهن حتى المدى الذي اكفهر به أفق الحياة الخاصة لمحمد بداكن الغيم...

ولكن... إلى جانب مشاغل الحياة الخاصة لمحمد كانت هناك مشاغل الحياة السياسية وشواغلها التي استغرقت منه التفكير، فهو ما توجه إلى المدينة بعد «الحديبية» إلاّ وشرع في انتهاز فرصة هذه الهدنة لبث الدعوة في الخارج والعمل على تنظيم شؤون الدولة الناشئة في الداخل في نفس الوقت الذي لم يعد شاغله إلاّ تقوية العدة للغد وإلاّ التهيؤ لفتح في الغد مكانه مكة بدليل ما تحدّر من شفتيه من وعدٍ يعد بهذا الفتح القريب وبتلك المغانم الكثيرة التي إليها ستمهد أرض لم تسر عليها من قبل للأتباع أقدام...

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٧٢.

ومن ثم فلئن كانت الأيام في أعقاب «الحديبية» قد استهلت هادئة المسير فليس إلاّ لتعتكر فجأة لحظة استقرت عين محمد على هذه «الأرض» استقراراً به امتدت يد الزمن تسجل:

غزوة خيبر «المحرم ٧ هـ ـ ٦٢٩ م» وانهيار السلطان السياسي اليهودي في شبه الجزيرة

إن «خيبر»، تلك البلدة اليهودية الواقعة في شمال المدينة، تُعد أغنى قرى الحجاز طُراً لا فحسب لأن الواحات التي تحف بها قد عرفت بالخصب والنماء وإنما لأن اليد اليهودية قد تعهدت تربتها بفائق عناية حتى اشتهرت زراعتها التي امتدت إلى أبعاد شاسعة تترامى دون حصونها اشتهار هذه الحصون بوفرة المال، فإنما خيبر بلدة هي بالحصون المكتنزة بالمال محصنة ومترعة، ومن شهير هذه الحصون: حصن الزبير وحصن نطاة وحصن الوطيح وحصن السلالم وحصن الصعب بن معاذ وحصن الناعم. وأما أهم هذه الحصون، التي ما زالت بعض المعالم منها تقف أثراً حتى اليوم، فقد كان حصن القموص وهو حصن ابن أبي الحُقيق.

للحصول على ما تضمه خيبر من المغانم، ويهود خيبر أغني الطوائف اليهودية مالاً وأكثرها سلاحاً، أمر محمد ولما يمض على صلح «الحديبية» إلاّ حوالي الشهر من الزمن بالتجهّز لغزو خيبر على ألاّ يغزو معه إلاّ من شهد «الحديبية»...

وائتماراً بأمر محمد وبقيادة محمد نفسه تحرك الجيش المحمدي مؤلفاً من ألف وستمائة من المشاة ومائة فارس وليس بينهم إلاّ من شهد الحُديبية، فهؤلاء هم مَن بهم انطلق محمد للحصول على المغانم وهؤلاء هم مَن إليهم تحوّل «الكَلِمُ» يحدثهم عن أولئك الذين كانوا من قبل عن الحديبية قد تخلفوا:

﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام اللّه قل لن تتبعونا كذلكم قال اللّه﴾!

الآية ١٥ من «سورة الفتح»

لا ثمة شك في أن لغزو خيبر كان السيف المحمدي قد مهّد من قبل الطريق غداة إلى صاحب حصن القموص «سلاّم بن أبي الحقيق» ومن بعده إلى «اليسير بن رزام» كان هذا السيف قد امتد فجندل «اليسير» ليلاً وقتل في فراشه ليلاً «سلاماً»، ومن ثم فقد غدا غير عسير على محمد المسير بجيشه إلى خيبر وإن كان هذا المسير يستغرق ثلاثة أيام لئن كان قد قطعها محمد مع الذين شهدوا الحديبية بخطى حثيثة غير وئيدة فإنما خلالها كان حتماً أن تحسّ «خيبر» بأن محمداً إليها يزحف.! ومن ثم استنفرت قبائل غطفان، وهم جيرانها

وحلفائها وبالتالي هم أعداء محمد، أن يتهيأوا لمؤازرتها لحظة يطلع عليها بجيشه محمد ولكن!. إذا كان محمد قد اعتزم غزو خيبر فليس إلاّ ليحسب للأمر دقيق حسابه الذي حتّم عليه أن يسير تبعاً لما قد رسم من خطة، فهو لا يسير فيسلك على «عصر» ثم على «الصهباء» إلاّ ويهبط الرجيع، ويمضي في هذا الوادي الحائل بين خيبر وغطفان تلك الليلة من عمر الزمن التي لم تكن إلاّ ليلة فاوض فيها غطفان على ألاّ تتدخل واعداً إياها مقابل ذلك بعض المغانم.

خطة سياسية محكمة لا جدال إنما هذه التي اختطها محمد فليس إلاّ بانتهاء تلك الليلة كان قد أسفر على «خيبر» ذلك الصبح الذي رأت فيه أمامها الجيش المحمدي وبها من كل جانب قد أحدق، بينما ترى غطفان تتخاذل عن مساعدتها في نفس الوقت الذي أصمّ فيه مسمعها الدوي المُنبعث من الجيش المحمدي بصيحة واحدة لئن كانت ليست إلاّ رجع الصدى للصوت الهادر من حنجرة محمد فإنما قد راحت في ترجيع رهيبٍ تتجاوب:

«أمِت.!. أمِت.!.» صيحة وبها طلع على خيبر صبح كان أسوأ ما طلع عليها من صبح جاء بيومٍ كان أشد ما جاء صبح بيوم بل واتصل هذا اليوم بأيام كانت أقسى ما عليها من أيامٍ قد مرّت، فإن محمداً لها يُحاصر ولا يوقع الحصار إلاّ ويهاجم لها الآطام والحصون بسواعد رجالٍ بهم يصيح:

«اللّه أكبر خُربت خيبر! إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين!...»[1].

ويقيناً.. لقد ساء صباح خيبر من كل صوب زحف الجيش المحمدي على خيبر حتى بدأت في انهيار تتهاوى أمام محمد الحصون.

إن محمداً يهاجم الآن الحصون وأمام السيف الإسلامي يتهاوى الحصن بعد الحصن وللقوة الحربية الإسلامية يستسلم حتى تهاوت الحصون كلها وحتى راحت تلقي بين يدي محمد كل ما كانت قد اكتنزته من الكنوز وكل ما كانت قد حوته من المغانم...

إلى محمد فضّت الحصون كل ما به من ذخائر كانت تذخر لحظة على حصن «ناعم» ثم حصن «القموص» استولى محمد استيلاءً له تداعت، تبعاً لذلك، بقية الحصون حتى لم يبق إلاّ الوطيح وإلاّ السلالم وفيهما كان قد اعتصم وعنهما في الدفاع، خوفاً على أرواحهم استبسلوا لا يرتضون تسليماً!..

حينذاك قطع محمد عنهم الماء!.. وحينذاك، أيقن الخيبريون بالهلاك، طلبوا من محمد

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣.

أن يحقن منهم الدماء وله مقابل ذلك كل ما لديهم من الأموال على أن يبقيهم على خيبر يزرعونها ويكون له نصف ما تغله الأرض...

وارتضى محمد هذا العرض وعنه لم يعرض فلم يعترض على إبقاء أهل خيبر على هذه الأرض التي آلت ملكيتها الخالصة إليه شخصياً بحكم الغزو ولكن!. سبق هذا القبول هذا الشرط:

«على أنّا إذا شئنا أخرجناكم!.» هنا، حتماً للفكر أن يتساءل: لماذا ارتضى محمد هذا العرض ولماذا لم يكن، كنصيب قريظة، نصيب خيبر؟..

سؤال، لا يجيء عنه الجواب إلاّ إذا ألممنا بسياسة محمد تمام الإلمام وإلاّ إذا بتفكيره البعيد الصائب المرمى والمحدد الهدف أحطنا، فإن محمداً لا بدّ أنه كان قد فكّر في ما إليه سيؤول أمر هذه «الأرض» التي آلت إلى يده ملكيتها إذا ما غادرها عائداً إلى عاصمة حكمه وهي عن خيبر لا فحسب كل البعد بعيدة وإنما في فمَن ذا الذي سيستطيع أن يتعهدها والخيبريون وحدهم إنما يتعهد تربة خيبر خيبريون ولا أحد يضارعهم في هذا المضمار؟!.

للسبب، خوفاً على أرض خصبة تُعد زراعتها أغنى محصولات الحجاز طراً، من أن تصبح بوراً، قرر محمد إبقاء أهلها الأول على قيد الحياة مقابل أن يتعهدوا زراعة الأرض ولهم نصف أرباحها وأما النصف الآخر فله خالصاً، وبذلك أصبح الخيبريون أجراء يعملون في أرض آلت ملكيتها إلى محمد...

يقيناً لقد أصاب محمد الهدف وامتلك هذا المغنم العظيم الذي تستفيض «كتب السيرة» في الحديث عنه لتدلنا كيف أمسى محمد بعد خيبر ثرياً ثراءً عجيباً كان المدد الذي سيمكنه في الغد من منح المِنَح وإعطاء العطايا لتأليف القلوب، وكان المدد الذي مكّنه في الحاضر من التزوّد بأدوات حربية كانت على العرب لا فحسب غريبة وإنما عجيبة!..

ويقيناً لقد كانت غزوة خيبر مفترق الطرق في التاريخ الاقتصادي للدعوة المحمدية لأنها قد بدّلت القلق المادي إلى استقرار بدّل العيش الرمق إلى عيش رغيد، فقد أصبح هناك مدد لا ينقطع بدأ تدفقه لحظة على ركبتيها أمام محمد جاثية هوت «خيبر» وتحت ظلال السيف المسلّط صاغرة استسلمت دون أي شرط غير ما قد تقدم من الشرط، فلم يطلب محمد من «خيبر» اعتناق الإسلام وإنما على دينها ظلّت هذه «الأرض» التي أصبحت ملكاً لمحمد وأهلها أجراء فيها له يعملون!..

وهنا... هنا حتماً يجد الفكر نفسه يستعيد هذا المشهد التاريخي ويستعرض مراحله حتى المرحلة الأخيرة التي وقف فيها محمد وهو يتدنّى الحصون ولمال بعد مال يجمع ومن حوله

تتجمع أنفاس التاريخ الإسلامي لتأتينا بالحديث قائلة إن بعد أن فتح محمد الحصون وجمع مال حصن بعد مال حصن سار إلى حصن القموص، حصن بني أبي الحقيق، وفي الحصن كان كنانة بن أبي الحُقيق وزوجه صفية ابنة حُيي بن أخطب، مَن كان للنضير سيداً ومن كان قد قُتل في «غزوة قريظة»، حيث رأى الفاتح المنتصر صفية فوقعت من نفسه موقع الاصطفاء!.

لنفسه اصطفى محمد من بين السبايا صفية ومن ثم أمر فحيذت خلفه وخلع عليها له رداء، ثم متحولاً إلى زوجها يسأله عن ما لديه من مال النضير أو بالأصح قولاً عن تلك الأواني الفضية، التي كانت صفية قد ورثتها عن أبيها والتي بها كانت قد اشتهرت عائلتها، أين قد أودعها فدافعاً به إلى الزبير بن العوام قائلاً:

«عذّبه حتى تستأصل ما عنده!..» ويسترسل للإسلام تاريخ... يقول: وجعل الزبير يقدح بزنده في صدر كنانة حتى أشرف على نفسه ليدفعه بعد ذلك إلى محمد الذي أمر محمداً بن سلمة أن يضرب عنقه!.

وقُتل كنانة واستولى محمد على ما أبى كنانة أن يتخلّى عنه لمحمد من مال ولامرأة كنانة زوجة اختار من بين السبايا اللّواتي كثرن يوم خيبر فما من غزوة من قبل قد فشى بها السبي بقدر ما فشى يوم خيبر الذي انطلق فيه الجيش المحمدي يسبي بإفراط نساء أهل «الكتاب الأول» حتى اضطر محمد نفسه أن يقف في رجاله: «ينهاهم عن إتيان الحبالى من السبايا» هاتفاً بهم:

«لا يحلّ لامرىء يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره!...»[1].

ويقيناً!. يقيناً إن الصيحة التي كان محمد قد أطلقها وهو على «خيبر» يزحف قد صدقت فلقد خُربت خيبر.. سُبي من نسائها من سبي وقُتل من رجالها من قُتل وأُخذت كل أموالها التي استخلص محمد لنفسه منها الخمس وأعطى من الباقي مَن كان إلى المال أكثر حاجة، ولما كانت الأقارب يومذاك أكثر حاجة فقد أعطاهم محمد الأكثر من العطاء الذي شمل كل نسائه ومن نسائه الآن صفية من راحت تحدث محمداً أن زواجها منه كان أمنية بين الضلوع مطوية منذ كانت لكنانة زوجاً من عليه كانت قد قصت يوماً رؤيا، بعد استماع إليها قال لها كنانة:

«ما هذا إلاّ أنك تمنين ملك الحجاز محمد!» محمد، ملك الحجاز؟..

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٤٢.

أجل... النظرة، غدت نظرة العرب إلى محمد في غضون هذه الفترة من الزمن، بل وإلى محمد راحت من العرب تتأكد هذه النظرة وهم يرون «خيبر» تترنّح لضربة سيفه وبمسامعهم يتصل عويل نسائها يرتفع لرجاله سبايا وهذه هي الصيغة التي أضفتها عليه أرجاء من شبه الجزيرة ولديها راحت تؤكدها عودته من «غزوة خيبر» إلى المدينة بطلاً مظفراً بين يديه أموال «خيبر» وفي ركابه تسير سباياها وفي حريمه ابنة حُيي زوجاً جديدة.

ويقيناً لقد عاد محمد من «خيبر» منتصراً انتصاراً فذاً كان الجزاء عليه أن يجد المدينة بكليتها قد هبّت لاستقباله ولقاء جيشه وقد أعدّت له مفاجأة تدخل إلى قلبه فرحة جديدة كانت الوسيلة إليها عودة ابنة سيد مكة من الحبشة لكي تُزف إلى سيد المدينة وتدخل إلى حريمه زوجة جديدة... فليس إلاّ بينما كان محمد في «خيبر» كان مهاجرو الحبشة، ممن كان قد تبقّى هناك من المهاجرين الأوُل، قد جاءوا وبين المهاجرات العائدات كانت رملة ابنة أبي سفيان سيد مكة!. فإن رملة وهي التي كانت قد تبعت زوجها عبيد اللّه بن جحش، أخا زينب بنت جحش، إلى الحبشة والتي كانت قد فارقته هناك إنما قد وجدت نفسها لا تستطيع العودة إلى مكة بعد خروجها منها على هذا الوجه وإلاّ فأين تراها تقيم بمكة وقد أغضبت أباها واتبعت زوجها الذي كان قد اتبع في مكة محمداً لفترة انتهت في الحبشة بدخوله في المسيحية؟...

أجل... إن محمداً نفسه كان قبل خروجه إلى «خيبر» قد بعث إلى رملة وهي في الحبشة يخطبها لنفسه... ولكن. وها هي ذي إليه لقد جاءت لتحتفل المدينة، ولم يكن قد مضى على زواج محمد بعقيلة بني النضير سوى أيام معدودات، بدخول ابنة سيد مكة بيت سيد المدينة!.

ويقيناً كان حتماً أن تحتفل المدينة بهذا الحدث الذي كان له بعيد مغزاه وعميق أثره. فقد أُولمت وليمة حافلة نُحرت فيها الذبائح وأُطعم فيها الناس ،باتت المدينة من أطرافها طرفي الليل ساهرة تبارك العرس الجديد وتشارك سيدها أفراح ليلة عرسه!..

ولكن!... كالمدينة، باتت مكة ساهرة إلاّ أنها مؤرقة الجفن قد باتت ساهرة تشارك سيدها ما قد أتى به إليه هذا النبأ من كدر لنفسه أقهر بل وإليه في بالغ صمتٍ راحت تنصت وهو عن محمد تسمعه يحدث نفسه قائلاً:

«هذا الفحل لا يُجدع أنفه!» ويقيناً لقد باتت مكة ساهرة مؤرقة الجفن يشغلها من أمرِ محمد أمر بعد أمر؛ أمر زواجه من بنت سيدها وغزوة خيبر وما إلى يده قد صار بعد هذا الغزو من أموال وسلاح... فإنما لقريش قد استرسل منطق راح يجري مستمداً يقينه من هذه

الأحداث ليقول بأنه ليس هناك من الأسباب سبب يمكن أن يُتذرع به لغزو خيبر فإنما خيبر مدينة تبعد كل البعد عن «المدينة» ولم يرتكب أهلها في حق محمد ولا في حق أحد من أتباعه خطأ يُعتبر تعدياً منهم جميعاً يدعو للنقمة والانتقام، ومن ثم ليس هناك من سبب منطقي للإغارة على خيبر إلاّ جمع السلاح وهذا المغنم من المال الذي لن ينضب كما ينضب مال الغزوات السابقة لأن أهل خيبر قد ظلوا فيها يعملون لمحمد ويأتي عملهم بموردٍ لمحمد لا ينقطع وهذا المورد المادي غير المنقطع هو الذي سيمكّن محمداً من محاربة قريش!

وعلى هذه الدعائم من مظاهر الأحداث استرسل المنطق القريشي يؤكد لنفسه هذا اليقين ليعود مؤمناً بأن الهدف من غزوة خيبر ليس إلاّ لأن محمداً قد أراد ما في خيبر من مال وسلاح حتى يتمكن أولاً من فتح مكة ثم مواصلة الفتوح خارج الحجاز، وأنه إلى هاتين الغايتين قد اتخذ القضاء على اليهود في شبه الجزيرة وسيلة، فهذه «خيبر» لا تتهاوى في استسلامٍ سَلسٍ تحت سيفه إلاّ لتُسجل يد الزمن:

استسلام فدك للسيف المحمدي

إلى «فَدَك» أرسل سيد المدينة مبعوثه يُخيرهم بين أمرين إمّا: «**أن يسلموا برسالته أو يُسلّموا أموالهم!**» لا ثمة شك في أن القلب الفدكي كان قد أحزأل حزناً ممزوجاً برُعب مبعثه «خيبر» منذ إلى «فدك» ترامت الأنباء بما قد أصاب خيبر. ولكن من هذا القلب أخذت تتسارع النبضات هلعاً مصدره لفدك منطق اتخذ من مظاهر الأحداث يقينه بأن، وأمر خيبر الأمر فإنما دور «فدك» بعد خيبر لا محالة آتٍ!... وفي الواقع فإن هذا ما قد حدث بالفعل وما قد توقعته «فدك» لقد وقع ليسلمها هذا إلى الوقوع على ركبتيها راكعة في توسلٍ أمام «مَلِك الحجاز» تعرض عليه التخلي له عن كل ما لديها من الأموال دون ما أدنى قتال ودون ما إراقة قطرة من دمائها!

وقَبِل «سيد المدينة» عَرض «فَدَك».. ولكن... لما كانت «فدك» قطعة من الأرض عليها لم يجب الأتباع بخيل ولا سيف ولا في سبيل استخلاصها أحد منهم كان قد قاتل فقد أصحبت، كخيبر، أرضاً **خالصة لمحمد**...

ليس إلاّ للسبب، باستسلام فدك هذا اللون من الاستسلا م، تأكدت إلى محمد، كملِك، من اليهود النظرة، بل وبهذه النظرة استمسكت العرب ولديها تأكدت غداة بعد «فدك» امتدت يد الزمن تُسجل:

استسلام تيماء للسيف المحمدي

صاغرة وفي استسلام ذليلٍ تَبِعت «تَيْمَاء» «فَدَكْ» وعلى مثل ما صالحت عليه «فدك»

محمداً صالحته «تَيْماء» وكدفع «فدك» المال من غير حرب ولا قتال، دفعت «تيماء» المال إلى محمد من غير حرب ولا قتال...

والآن؟... الآن قد تهاوى للسلطان المحمدي لليهود سلطان!... القينقاع فالنضير فقُريظة فخيبر ففدك فتَيْماء... كل هذه المواطن اليهودية إنما للسيف المحمدي قد تهاوت ولم يعد من المواطن اليهودية قائماً إلاّ: **وادي القُرَى**

من ثم كان حتماً أن يجري في «وادي القرى» للعبريين منطق راح على سلاسل فكر ما استرسل في مستعرض التاريخ المحمدي يستعرض هذه الأحداث إلاّ ليعود مؤمناً بأن محمداً إنما يقيناً قد تغير تغيراً محسوساً منذ مقدمه عليهم ومنذ كانت «المدينة» ما زالت يثرب، غضون هذه السنوات، التي قاربت الاكتمال إلى السَبْع، قد طرأ على سياسته تغير واضح غاير سياسة أيامه الأولى بينهم عندما أعلن التكفل بالحرية الدينية لكل ذي دين غير الإسلام يوم كان قد شمل التسامح الديني لا اليهود فحسب تبعاً لنصوص ما قد جاء في «الصحيفة» من أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم» وإنما الصابئين والنصارى وكل ذي دين آخر غير الإسلام مُوْصِياً ألاّ يتعرض لهم أحد بسوء...

والآن؟... الآن مجرد القول بأن جماعة يهودية أو غير إسلامية يعتبر كافياً لشن الغارة عليها وقتل رجالها وسبي نسائها وسلب أموالها. وأبرز الأمثلة في هذا الصدد، كما كان حتماً أن ترى «وادي القرى» إنما «خيبر»... فهذه «خيبر» إليها محمد قد سار وأنزل بها من الغارات غارة لا يرى فيها المنطق غير الإسلامي من أهل شبه الجزيرة إلاّ حجة يتذرّع بها مؤسس الدولة الإسلامية للحصول على المال الذي إليه، ككل دولة فتية وناشئة، إنما هذه الدولة الفتية الناشئة في حاجة، فإن محمداً قد عاش سنوات ست لا ينفق على نفسه وعلى الأتباع إلاّ من غزوات متتالية، وفي هذه كانت له حجته وهي أنه قد اضطر للخروج من مكة بل وحتى مع «قريظة» كانت له حجته ولكن!. «خيبر» ما الحجة إلى غزوها وإذلال أهلها وهي التي تبعد كل البعد عن المدينة وأهلها لم يتعرّضوا له بسوء ولا بمساءةٍ تعرضوا لأحد من أصحابه؟!.

إن خيبر لم تُهاجم إلاّ بحجة أن أهلها غير مسلمين وهذا إنما تطور سريع في تاريخ الدعوة منذ أيامها الأولى حينما كان التسامح الديني النص الجوهري من نصوص «الصحيفة».. ومن ثم فليس من وراء ذلك، كما يَسْتَرسل المنطق العبري، إلاّ أن محمداً إنما يسعى إلى القضاء التام على اليهود وهدم سلطانهم السياسي ليستقيم سلطانه السياسي المُعضّد القوائم بسلطانه الديني...

ولكن!. لشد ما تأبى «وادي القرى» الإذعان لإذلال كالإذلال والاستسلام لمصير كالمصير!...

ولكن!... أنّى لوادي القرى، وقد غاضت من اليهود القوة، أن تشمخ؟! كفاها أن يجول بخاطرها هذا الخاطر حتى يكون لها العقاب:

هوي السيف المحمدي على وادي القرى

على «وادي القرى» أعظم واحةٍ في أرض الحجاز وأنضرها هوى السيف المحمدي في طريق عودته إلى المدينة هُوِّياً أذعنها به لإذلال كانت تخشاه حتى ذليلة ساقها إلى مصير كانت الرهبة منه بين جانبيها تعصف وكأنما كانت قد أدركت ما قد كان في ضمير الأيام مُضمر بل وحتى لكأنها كانت تصغي إلى ذلك النداء الذي عن محمد ردده من بعد الإسلام:

«لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان!».

والآن؟... الآن لسلطان محمد بن عبد اللّه قد تهاوى لليهود سلطان فليس إلاّ ليتجلّى محمد على التاريخ السياسي مجلياً جديداً قط لم يتجلّه من قبل!. فهو الآن السيد المطلق مَن لسيفه تهاوت قبائل إسرائيل في شبه الجزيرة قبيلة قبيلة وهوت وآخرها «وادي القرى» التي بهويها لم يهو فحسب تمام الهُوِّي لليهود سلطان وإنما اقتلعت الجذور من شبه الجزيرة العربية كامل الاقتلاع!

ويقيناً... يقيناً إن بانهيار سلطان اليهود وبما تركوا من مالٍ وخاصة خيبر، التي أمست لمحمد مورداً مادياً لا ينقطع، اكتسبت الدولة الناشئة شوكة وعزة بهما استتبّ لمؤسسها سلطان لم يبق عليه إلاّ بلوغ الهدف الأكبر الذي لم يكن استئصال الشأفة اليهودية إلاّ إليه من الوسائل وسيلة، فقد امتد على اثر ذلك الظلّ من هذا السلطان امتداداً له الآن ترجف قريش وله بكليتها تفزع مكة لما حمله هذا الامتداد من معنى عليهما معاً لم يخف، فإن لامتداد هذا السلطان قد أدركت مكة عامة وقريش خاصة خطورة بدأت تستشعرها يقيناً لا فحسب منذ إليها ترامى الخبر بأن السيف المحمدي قد أرضخ خيبر وإنما غداة أسرعت إلى الحجاج بن علاط وكان قد جاء مكة، تستطلعه الأمر غير عالمة أنه إلى محمد أيضاً كان سراً قد انضم وأنه إلى العباس كان قد جاء يزف بشرى الانتصار، تسأله وهي التي تعتبر محمداً قاطع طريق وتسميه «القاطع» قائلة:

«قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر؟!» ولكن! الحجاج إذ لقريش بالجواب المبهم يجيب فليس إلاّ ليدلف سراً إلى العباس وإليه يسر:

«.. ولقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم، صفية، ولقد افتتح خيبر وانتفل ما فيها! وصارت له ولأصحابه، **فأظهر أمرك**»[1].

وهنا كان حتماً أن يُظهر العباس لقريش أمره لتراه قريش يخرج آتياً الكعبة مرتدياً حلّته الرسمية، التي لا تُرتدى إلاّ في رسمي المناسبات، فتبتدره وهي التي لا تعلم أنه كان قد أعلن إسلامه هناك بين الأتباع لا ولا تعلم أنه كان طيلة ما قد مضى من الأعوام عَيْناً لمحمد عليها:

«يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة؟!».

ولكن!.. جفلة ارتدت قريش من العباس مرتعدة فقد فاجأتها مجاهرته بالارتداد عنها وإعلانه أمامها بأنه لمحمد قد اتبع فالرّد منه يأتيها قائلاً:

«**كلا والله الذي حلفتم به!** لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه!».

إذاً... إذاً لقد تغيّر الأمر وعلى كفةٍ قد رجحت كفة!... أمر له ذهلت قريش، وجمع، والأيام تسلم بعضها إلى بعض، مجتمعاتها عند يقينٍ أطاف بمخيلتها هذا السؤال:

لا ثمة شك في أن انتصار محمد على «خيبر» هو الدافع الذي سبب إطلاق ما قد ضاق بكتمه صدر العباس طويلاً، فمما لا شك فيه هو أن فتح خيبر قد زاد الإسلام لا فحسب شوكة وتمكناً وانتشاراً وإنما أكسب الإسلام مركزاً قبل «خيبر» لم يكن، فللدولة الجديدة بعد خيبر، إلى جانب توافر الرجال، قد توفر **المال والسلاح**، ومن ثم أيكون جهر العباس بانضمامه إلى محمد إنما صريح الإعلان الذي يحمل إلى الفهم القريشي المعنى بأن فرع عبد مناف قد شارف الهدف الذي إليه منذ «قُصي» كان يسعى، وبذلك تكون «خيبر» ليست إلاّ المقدمة لنتيجةٍ حتمية تتلخص في فتح مكة؟!..

ويقيناً، يقيناً إن بعد «خيبر» قد توفر لمحمد، إلى جانب توافر الرجال، والسلاح والمال فلقد أصبح محمد ثرياً ثراءً مدده لن ينفد كما نفدت من قبل مغانم كل غزوة، أولاً لأن أهل خيبر قد ظلوا في أرضها يعملون أجراء وبالتالي لأن لمحمد النصف مما تغله هذه الأرض التي أصبحت له خالصة وفي هذا إنما مورد مادي لا ينقطع هو الذي مكّن محمداً من الإنفاق بسخاءٍ لا فحسب على مَن في كنفه ولا فحسب على من حوله وإنما على المعدات الحربية وإعداد العتاد والعدة استعداداً لفتحٍ في الغد هو الهدف الذي إليه محمد كان يرمي!..

---

(١) **سيرة ابن هشام**، جـ٣، ص ٢٤٤.

للسبب، دبّ إلى المفاصل القريشية دبيب الوهن الذي سرعان ما سرت به في هذه المفاصل رعدة الضعف حتى شلّ منها القوى. وليس إلاّ للسبب جثمت قريش عن كثب، مترقبة، ترقب محمداً كما راحت اللّوالب الفكرية منها سريعة تعمل لا تعلّل معاملته لليهود وتغلّب سلطانه السياسي عليهم إلاّ أنه قد غير مع اليهود له سياسة طبعتها الشدة وهو شديد عنه والجناح منه مهيض[1]... وهذه إنما ظاهرة لشدّ ما توجس منها قريش ولشد ما من بطش هذا العضد المشتد تخشى!...

ولكن!.. ألم يُعاهد محمد قريشاً هدنة؟!.. يقيناً إن محمداً قد عاهد قريشاً هُدنة قامت على ألاّ تشتعل غضون سنوات عشر بينهما لهب الحرب ولكن! الآن ولم يمض من عمر المعاهدة إلاّ بضعة من عام فقد غدت مكانة محمد غيرها يوم «الحديبية»!... يوم «الحديبية» لم يأت محمد إلا بجيش عن الألفين يرتد منه العدد، وأما الآن، الآن إذا ما شاء محمد التحرّك نحو مكة فليس إلاّ ليسير إمرته جيش قط لن يكون عدده، على أصح تقدير، أقل من عشرة آلاف محارب!...

من ثم تُرى؟.. أي حدث من الأحداث عنه ستنفض طيات الغد وقد استدار العام وأقبل أول موسم للحج بعد «الحديبية» فأقبل زمن فيه غدا محمد في حلّ من الدخول بأصحابه إلى مكة ومن زيارة بيت اللّه؟...

هذه هي الفترة الزمنية التي ارتفع خلالها لمحمد صوت يعلن الأتباع بالتجهز للخروج إلى:

عمرة القضاء «٧ هـ»

ومعتمراً، إلى مكة خرج محمد لتراه مكة يفي بوعده لها ويقيم ما بينه وبينها من عهدٍ فهو يأتي، وفاءً لعهد قريش، بِمَن به أتى من المهاجرين والأنصار في عددٍ لا يزيد على الألفين وليسِ بينهم من يحمل سلاحاً إلاّ السيف في قرابه فقابلت قريش الوفاء بالوفاء وعن مكة، نزولاً على العهد، جلت قريش إلى التلال المجاورة حيث ضربت الخيام وحيث إلى «قُبَيْس» و«حراء» و«دار الندوة» آوت تجنُّباً للاصطدام وتوخياً له واتقاءً لكل احتكاك!..

ولكن!.. إلى محمدٍ من «دار الندوة» كان حتماً أن تتطلّع قريش ترقب تحركاته وتتبع تنقلاته لتعلق به منها العين في دهشةٍ ولتنفرج منها الشفاه في ذهول!. فقد أذهلها أن تراه، وهي التي تعتبره خارجاً عن دينها، يقيم الشعائر من دينها وعلى المناسك كل المواظبة في دقةٍ يواظب، فلقد رأته يقبل بأصحابه إلى «بيت اللّه» ويدخل المسجد الحرام حتى يستلم

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص ٢٤٢.

«الركن الأسود» ورأته يطوّف الدورات السبع... رأته ينحر «الهدي» عند «المروة» ورأته يحلق رأسه ورأته يتم بذلك فرائض العُمرة...

وانقضت أيام ثلاثة من عمر الزمن وقد خلت من أهلها مكة فانقضت بذلك «الأيام الثلاثة» المفروضة في «عهد الحديبية»، انقضت هذه «الأيام» وبسوءٍ لم يتعرّض أحد لمحمد وأصحابه... خلت خلال هذه «الأيام الثلاثة» مكة لمحمد وأصحابه فراحوا يجوسون فيها أنّى شاءوا يعمهم المرح الذي اشتدّ بهم بنبأ راح إلى قريش يترامى بأن العباس لم يترك هذه المناسبة أن تمر دون أن يُدخل إلى قلب محمد فرحة جديدة، فقد عقد لمحمد على ميمونة بنت الحرث بها أضاف محمد إلى زوجاته زوجة جديدة...

والآن.. الآن وقد انقضت «الأيام الثلاثة» المفروضة في «عهد الحديبية» فقد آن لمحمد، طبقاً للعهد، أن يغادر مكة. إلاّ أن محمداً لمكة لا يريد أن يغادر!.. ليس إلاّ للسبب أقبل على محمدٍ من قبل قريش حُوَيْطب بن عبد العُزى لمحمد يقول:

«إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا» ولكن... جاء من محمد الجواب:

«ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟!.».

جواب، لم يعد به حُويطب إلى قريش إلاّ لتحسبه حيلة جديدة حتماً ستتفتق عن جديد خدعة ليس إلاّ لتجنّبها جاوبه لسانها به يصيح:

«لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا!» وخرج محمد من مكة ولكن من ورائه ظلّ في آفاقها رَجْعُ الصدى يُحوِّم وتجاوبه يُدوي بجملةٍ أرسلها قبيل رحيله وهو مضطجع بردائه في ساحة المسجد الحرام:

«رحم الله امرءاً **أراهم اليوم من نفسه قوة!**» هذا هو الأثر الذي تركته «عُمْرة القضاء» كما فهمه تمام الفهم الفهم القريشي وكما للمعنى من ورائه استوعب هذا الفهم كامل الاستيعاب حتى استقرّ عند اليقين بأن مقدم محمد لم يكن في مداه الحقيقي إلاّ حملة إرهابية تعرض لقريش لمحة من القوة المحمدية!...

وفي الواقع كان أثر «عمرة القضاء» عظيماً فقد أتت هذه العمرة بما أراد به من أثرٍ عَقَد في الوجدان القريشي الإيمان بأن مكة إنما تُجابه قوة لن تستطيع أن تصمد أمامها طويلاً فالقوة المحمدية، ولئن كانت فتية، فإنما قوة قد ساندها المال وسندها الرجال مما به تتجمّع أمام قريش الدلائل على أن شمس مجد مكة السياسي قد بدأت تتهاوى أمام إشراق شمس هذه الدولة الناشئة، والبرهان على ذلك هو أن الفتيان من أهل مكة قد بدأوا في التحوّل عن الشمس المتهاوية إلى الشمس الصاعدة، فلقد مال من أهل مكة من مال، من مال، غضون

تلك الثلاثة واستجابة لطبيعة الطبيعة البشرية، الكثيرون، ممن بشوكتهم اشتدت الشوكة الحربية للإسلام وأشدهم على صفحة التاريخ السياسي بروزاً كان: خالد بن الوليد وعثمان ابن طلحة وعمرو بن العاص..

ومن ثم فيقيناً إن «عمرة القضاء» قد جاءت بأثرها الذي تركه محمد في قريش غداة خرج من مكة وبين ضلوعه قد تسكن اليقين بأن الزمن الآن قد تغيّر منه اللون عن ذي قبل تمام التغير!.. للزمن الآن يرى محمد إقبالاً، للزمن الآن يلمس محمد وداعة ودعة. تودّع في النفس منه اليقين بأن في صفه تسير من الأحداث أحداث إليه تُوحي بأن فتح مكة قد أصبح وشيك الحلول!...

يقيناً ليس إلاّ خضوعاً لنصوص «الحديبية» كانٍ قد خرج محمد من مكة إلى مقر سيادته ولكنه كان بذلك قد خرج إلى حيث أطرق يُفكّر ومن حوله أتباع تلحظهم عيناه فتلحظ استنجازهم إياه الوعد القديم بتمليكهم «كنوز كسرى وأموال قيصر» بينما تطرق مسامعه حثّهم الحثيث بإيفاء الوعد الجديد الواعد فتح مكة...

ويقيناً هل تقاس أموال «القينقاع» و«النضير» و«قريظة» بل و«خيبر» بكنوز كسرى وأموال قيصر؟...

ولكن!... كيف يمكن فتح مكة دون الاستزادة من العتاد والتزوّد بزاد السيوف؟...

ليس من مكان فيه تُطبع السيوف مثل تلك القرية من قوى البلقاء على حدود الشام فإليها تُنسب «المشرفية» من السيوف... واستقرّت عينا محمد على: **«مؤتة»** وللسبب، سجل الزمن:

غزوة مؤتة «٨ هـ»

إن هذه الغزوة ليست إلاّ قصة الاصطدام بين محمد وبيزانطة. فإلى «مؤتة» أرسل محمد بجيشه وعلى رأسه زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد اللّه بن رواحة وفي يقين كل فرد من أفراد هذا الجيش قد بُذر اليقين بأنه أما كنصيب قريظة أو كمآل خيبر أو كنهاية كنصيب فدك وتيماء ووادي القُرى سيكون «لمؤتة» حتماً المصير...

وتحت ضغطٍ من هذا الإيمان قذف المسلمون بأنفسهم، وهم جيش تعداده لا يربو على ثلاثة آلاف، إلى جيش عدده يربو على المائة ألف، للسبب ولّى المسلمون، فراراً تاركين في ساحة القتال قتلاهم وتحت جنح الليل انسلوا ليعود منهم من استطاع العودة من حومة الوغى إلى محمد بيد أن ليجدوا المدينة تستقبلهم استقبالاً أثقل منهم النفوس!...

ولكن!... أي شيء من هذه الهزيمة يخشاه محمد على الدولة الناشئة وسلطانه إنما يمتد

على كثير من القبائل العربية وفي هذه القبائل آلاف من المحاربين وهؤلاء، إنما رهن إشارته وتحت إمرته وصيحة الحرب المنطلقة من شفتيه إنما فيهم تُدوي نغماً؟

ولكن!. هزيمة كالهزيمة إنما تنادي بالإسراع إلى انتصار جديد ليس له من مكان الآن إلاّ:

أم القرى: **مكة**، ولكن... بين محمد وبين قريش إنما يقوم عهد سجلته «نصوص الحديبية»... والعهد؟ العهد لن يُنقض إلاّ **بسبب**!...

من ثم فإذا ما تجمع أهل المدينة يحثون على الجيش العائد التراب وينادونهم «يا فرّارا!.» فإنما لهؤلاء «الفرّار» كرة لا تلتمع على جبين محمد إلاّ ويعلو صوته على الأصوات قائلاً: «ليسوا بالفرّار ولكنهم الكرّار!»، أم ليسوا هم مَن ارتعدت أوصال شبه الجزيرة لمسيرهم حتى المدى الذي أطلق لسان كاهنه حدس بلغة السجع الديني تصفهم وتحذر قومها من «بطن غنم» منهم قائلة: «أنذرتكم قوماً خزراً، ينظرون شزراً، ويقودون الخيل تتراً، ويهرقون دماً عكراً!»؟..

وهنا.. هنا تمتد يد خفية فتأتي في صف محمد بالجديد من الأحداث فقد حدث بين بني بكر وبني خزاعة أخذ بثأر تراجعت منه قريش فزعاً، وجفلة هزّت رأسها به مُتبر بل وعند هذا الحدّ لم تقف، فلقد هبّ سيد مكة وأسرع خارجاً إلى محمد ليشرح له موقف قريش السلبي إزاء هذا الأمر...

أجل... إن بين بني بكر من كنانة وهم أبناء عبد مناف ومن إلى قريش يوم «الحديبية» كانوا قد انحازوا، وبين بني خزاعة وهم مَن كانت منهم عيون محمد على قريش ومن إلى محمد في نفس ذلك اليوم كانوا جهارة قد انحازوا، كان يقوم ثأر قديم يعود تاريخه إلى ما قبل «الدعوة» وهذا الثأر إنما يتلخص في أن بني خزاعة كانوا قد اعتدوا على تاجرٍ من بني بكر فقتلوه وسلبوا ماله... بل وعند هذا الحد لم تقف خزاعة فقد استرسلت وأعادت الكرة فاعتدت على «الدّيلي»، من كانت تنعته كنانة «مفخرة كنانة»، بل وفي تماديها استرسلت خزاعة فراحت تنال بالقتل كل من استطاعت قتله من أشراف كنانة فقتلت، بعد مالك بن عياد والديلي، سلمى وكلثوم وذؤيب... وكان بعد ذلك أن جاء «يوم الحديبية»... جاء هذا اليوم وكنانة موتورة النفس على قتلاها لا يقرّ لها بال حتى تنال من خزاعة لقتلاها ثأراً هو هذا الذي ما سنحت فرصته عند «الوتير»، ذلك الماء من مياه خزاعة بأسفل مكة، إلاّ وأصابت من خزاعة فرداً واحداً بدل أكثر من واحدٍ من رجالها ولكن!... للأمر فزعت قريش وخشت غضبة محمد من أن يتخذ من هذا الحدث، البسيط في نظرها والخارج عن إرادتها، ذريعة للبطش بها والتذرع به للتحلّل من «عهد الحديبية»...

وهنا.. هنا لا يسع الفكر إلاّ أن يتمهل، للحظة، ويقف ذاهلاً أمام هذا الخوف الذي

أصاب قريشاً من القوة المحمدية حتى المدى الذي جعلها لا تطمئن إلى إيفاد أي رسول إلى محمد للتفاهم وإياه إلاّ سيدها!... ومن ثم سجل الزمن:

خروج سيد مكة إلى المدينة لمقابلة سيد المدينة

سفيراً للسلام اتجه أبو سفيان بن حرب إلى المدينة تملأ الثقة منه القلب بأنه بخروجه على هذا النحو سيصل حتماً إلى نتيجةٍ مرضية في نفس الوقت الذي راح فيه كاظماً، ولا جدل، عوامل نفسية كانت لا بدّ أن تعترم بين ضلوعه مصدرها إدراكه تمام الإدراك بأن خروجه إلى محمد تحت هذا المظهر من الخروج إنما الإعلان الصارخ بأن قريشاً قد تهافتت منها القوة المعنوية تمام التهافت أمام قوة محمد السياسية!...

ويقيناً!... يقيناً... لقد قُرعت بهذا «الحدث» نواقيس الخطر في مسمع مكة وجمع منها الرؤوس يتشاورون في أمر هذا الخطر الذي يُوشك أن ينقض عليهم ولا قِبل لهم به!. لقد كانوا من قبل، بل وقبيل قليل من الزمن، يستهينون بمحمد وأما اليوم!. اليوم وقد بلغ محمد من القوة ما قد بلغ وصار له السلطان الأكبر في شبه الجزيرة فقد تبدّل الأمر غير الأمر وغاير الحاضر الماضي وغدا اليوم غير الأمس!... ليس إلاّ للسبب استقرّ رأي قريش على أن يخرج سيد مكة بنفسه إلى سيد المدينة لأكثر من سبب؛ أولاً ليشرح له ظروف الحدث وبالتالي ليبلغه أن الهدنة إنما قائمة في نفس الآن الذي يُقدِّم له الاعتذار عن هفوة هفاها من كنانة أفراد ثأروا!..

ولكن!. ما قدم سيد مكة المدينة إلاّ ليجد من سيد المدينة إشاحة ولدتها الموجدة القديمة التي بدورها نمت إلى هذه الجفوة وهذا الجفاء!.. فلقد راح سيد مكة يُكلم سيد المدينة واسترسل يكلمه ويكلمه وسيد المدينة عنه وجهه يشيح وبكلمة واحدة له لا يجيب!...

مشهد تاريخيٍ فذّ لا ثمة شك وعجيب إنما هذا المشهد الذي ارتسم على صفحة التاريخ السياسي مسجلاً مثول سيد مكة بين يدي سيد المدينة ولسيد مكة بكلمة واحدة سيد المدينة لا يجيب!.

أمام هذا المشهد التاريخي لا يسع الفكر، أيضاً، إلاّ أن يطرق لا للحظة وإنما ملياً مقارناً بين موقف محمد في هذه الفترة الزمنية وموقفه في فترة من الزمن أخرى تاريخها يوم القينقاع... يوم القينقاع استطاع عبد اللّه أن يمسك برداء محمد يهزّه ويرفع في وجهه صوته حائلاً بين هوي سيفه على رقاب القينقاع وأما اليوم!. اليوم فإليه يسعى بنفسه سيد مكة وصاغراً يُقدِّم اعتذاره عن ثأرٍ أخذته بنو بكر لنفسها ولم تقتل إلاّ رجلاً واحداً ثأراً لرجال لها قتلتهم خزاعة!

ولكن!... تجاه هذه المقابلة التي عملت خلالها عوامل الموجدة فسادتها الجفوة وانعدم فيها التفاهم أطرق سيد مكة إطراقة هبّ على إثرها متجهاً إلى الجامع ينادي الملأ من أهل المدينة ونيابة عن قريش ويرفع صوته بهذا الإعلان: إن قريشاً لا دخل لها بثأر ثأره أفراد من كنانة وإن قريشاً بعهدها إنما مستمسكة!...

ثم... ثم إلى مكة قفل سيد مكة عائداً وفي ركابه تسعى الهزيمة ويسعى الفشل.

وهنا كان حتماً أن تطرق قريش تُفكّر وأبو سفيان عليها يقص ما قد حدث لتروح اللّوالب الفكرية منها سريعة تعمل لا تستقر إلاّ على هذا السؤال:

ترى؟!. أسيتخذ محمد هذا الحدث حجة لفتح مكة وهي التي إليه قد خرج سيدها ليقدّم إليه أولاً اعتذاره عن فعلة من بني بكر استفزّت غضبة قريش وأسعرت غضبها بل وأثارت سخطها وبالتالي ليؤكد له تمسكها بعهدها؟!...

ولكنِ!... عند هذا السؤال لا ينعقد من قريش التفكير إلاّ وتقطب الجبهة المكية بقاتم غيوم الفِكَر، فإن إشاحة سيد المدينة عن سيد مكة إنما ظاهرة تحمل في ثناياها شيئاً له ترتعد فرائص قريش ومنه يُسهر مقلتيها القلق!...

ومؤرقة الجفن راحت عن قريش تنصرف أيام كان في غضونها ينساب من شفتي محمد الدعاء همساً:

«اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش **حتى نبغتها في بلادها!**». وبينما كان هذا الدعاء يتردد همساً كان يتبعه في الأتباع النداء جهراً:

﴿آمنوا باللّه ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير وما لكم ألاّ تنفقوا في سبيل اللّه لا يستوي منكم مَن أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد اللّه الحسنى﴾.

الآي من ٧ إلى ١٠ من «سورة الحديد»

«كلم» ما تحدّر من شفتي محمد والتقطته مسامع الأتباع إلاّ وفي تسارع أسرع مَن استطاع الإنفاق من الأتباع في الانفاق...

وقام محمد يُنظّم الأتباع من جديد إلى كتائب مُسلّحة ويكونهم إلى جيش يؤلفه الآن عشرة آلاف محارب ما اكتمل تنظيمه وتمّ انتظامه إلاّ ليقوده بنفسه ويسير به متجهاً، وعلى «عهد الحديبية» لم ينقض غير العام الواحد، يريد مكة... وبهذا السير سجلت يد الزمن:

نقض العهد «رمضان ٨ هـ ـ ٦٣٠ م»

احتلال محمد مكة، غروب العصر القريشي، قيام الدولة الإسلامية، وانتشار الدين الإسلامي في شبه الجزيرة

إلى مكة تحوّل محمد وإلى محمد تحولت مكة لترى أن منها الأفق المتلبد قد ازداد على تلبد تلبداً منذراً بأن ما قد أقضها الأعوام الطويلة، من أمر محمد قد أصبح الآن أمراً واقعياً وواقعاً محسوساً!. وأن دولة قريش تدول لدولة رأسها هذا الفرد الذي ولئن كان منها فإنما هو من فرع عبد مناف وبيت هاشم. هذا الفرد من قريش والخارج على قريش والذي لا تراه قد تحول إليها مقبلاً بجيش يبلغ تعداده الآن عشرة آلاف إلاّ لتفهم بأن إقباله على هذه الصورة إنما معناه **نقض العهد**!...

ولكن!... أي شيء يمكن لقريش، الآن، أن تفعل؟!... لردّ محمد وصدّه لا سبيل قط، الآن، لقريش!... أمر، منه الآن قد تحققت قريش تمام التحقق ومنه أيضاً، تحقُّق قريش، قد تحقق كل فرد في مكة، ومن ثم فليس هناك إلاّ الرضوخ للواقع وإلاّ الاستسلام للقوة الزاحفة ولكن!.. يقيناً لئن دخل محمد مكة دون أن تأتيه قريش فتستأمنه على نفسها فإنه لهلاك قريش!. ليس إلاّ للسبب خرج سيد مكة في حمى العباس إلى سيد المدينة يستطلعه الأمر ويسأله: لماذا كان نقض العهد؟...

وهنا يتولى التاريخ الإسلامي سرد مجريات هذه المقابلة التي اتخذت مكانها على أبواب مكة ليقول بأن سيد المدينة قد أمر أن يجيء بأبي سفيان إلى مضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة حتى تمر به كتائب المسلمين فيراها ليعود بعد ذلك فيحدِّث بها قومه عن بيّنة!.

واستعرض سيد مكة جنود سيد المدينة فاستعرض جيشاً مُنظماً تخفق في نشوة ألوية له ورايات وتنتظمه كتائب مسلحة أهمها «الكتيبة الخضراء»، كتيبة محمد التي نعتت بالخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، وأما الجنود من هذا الجيش فلم يرَ أبو سفيان منهم إلاّ الحدق من الحديد!.. ليسترسل بعد ذلك التاريخ الإسلامي فيحدثنا بأن عند ذاك لم يتمالك سيد مكة إلاّ أن يلتفت إلى العباس يقول:

«يا عباس، ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة!. واللّه يا أبا الفضل لقد صبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!».

ولكن!... العباس ما زال يذكر أن مكة إنما لقاح وبقيام مَلِك عليها لا تعترف ومن ثم لم تفته هذه اللفتة من التعليق عليها قائلاً:

كلا!... «إنها النبوة!» ويقيناً ما «المُلك» بجانب «النبوة»؟!.. وهل تقاس بِمُلك النبوة؟!.

إن الأمر الصادر من شفتي مَلِك ليس كالأمر الصادر من شفتي نبيٍّ!. الأمر الصادر من شفتي ملك له مردٌّ وأما الأمر الصادر من شفتي نبيٍّ!. فليس له مردّ لأنه أمر اللّه!..

ليس إلاّ بدافع من هذا الإدراك انفرجت شفتا أبي سفيان عن: «فَنِعْمَ إذن!» وهنا... هنا استدار سيد المدينة ناحية سيد مكة يسأل:

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلاّ اللّه؟..» سؤال، جاءت من سيد مكة عنه الإجابة:

«.. واللّه لقد ظننت أن لو كان مع اللّه إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد!» إذاً!...:

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول اللّه؟!» سؤال آخر، لم يجيء عنه من سيد مكة الإجابة إلاّ:

«.. أما هذه واللّه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً!...» ولكن!.. إجابة كالإجابة لها خطير أثرها الذي أدركه العباس إدراكاً كان من أثره أن تدخّل مُوجّهاً القول إلى أبي سفيان:

«ويحك أسلم!.. **اشهد أن محمداً رسول اللّه** قبل أن تُضرب عنقك!» ومستدركاً تحول العباس إلى محمد قائلاً:

«يا رسول اللّه إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً!..» وهنا جاء من سيد المدينة الوعد بأن:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن!».

إزاء هذا الوعد، بأن لقاء انفراج شفاه سيد مكة في اعترافٍ لسيد المدينة بأنه حقاً رسول اللّه ستُحْمَى مكة **وسيحقن لها وله دماء** انفرجت شفتا أرومة الدولة الأموية عن قول أضاف به إلى عقيدته المنحصرة في أنه حقاً لا إله إلاّ «اللّه» الشهادة بأن محمداً رسول اللّه...

لا ثمة شك في أنه لا قِبَل لنا قط على استقصاء ما قد أضمره ضمير أبي سفيان إلاّ أن في الوقت نفسه تقودنا ظروف الأحداث إلى أن نشك تمام الشك في مضمرات هذا الضمير حتى المدى الذي يعطينا الحق بأن نحكم بأن سيد مكة لم يشهد هذه الشهادة إلاّ اضطراراً للواقع وإلاّ خضوعاً للظرف وهذا يقودنا بالتالي:

إلى أن نحكم بأنه قد تصرّف القائد السياسي اللبق أمام حدث يضعه موضع الاختيار أمام أمرين: إما التمرد والعصيان ونتيجة ذلك القتل له ولقومه وإما الاستسلام والامتثال ونتيجة ذلك أن يأمن على نفسه وعلى قومه. وما كان موقف أبي سفيان إزاء محمد، في هذه اللحظة التاريخية، إلاّ هذا الموقف وهو المدرك تمام الإدراك بأنه لا قبل له الآن بمقاومة من ظل يقاومه طوال مراحل العمر. كلا لا قبل له إلاّ إرسال الاعتراف من خلال النواجز مُقراً بدعوةٍ عمل إزاءها جاهداً طوال حياته مستنكراً ورامياً القبائل بها بأنه قد افترى على اللّه!.

وهنا.. لم يبق ما يدعو إلى بقاء أبي سفيان في المعسكر المحمدي من ثمَّ فليعد إلى قومه يعلمهم، وقد رأى ما رأى، بالاّ قِبل لهم بمقاومة محمد ويدعوهم إلى الاستسلام إذا أرادوا النجاة وإلا يفنوا عن بكرة أبيهم! ومن ثمّ هبّ خارجاً وفي مسمعيه صوت العباس يُدوّي:

«النجاء إلى قومك!».

وعلقت مُقْلَة، مكة بسيدها، وهي تراه يهبط عليها من تلال الشمال الشرقي، تتنسم الأمر والمسمع منها مرهف يصغي فلا يصغي إلاّ إلى:

«يا معشر قريش!. هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به! فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن!».

ورفّ سكون واجم وعصرت الأفئدة استكانة مريرة فرقت الناس إلى دورهم وإلى المسجد وإلى دار أبي سفيان. وأغلقت الأبواب على نفوسٍ سرت فيها رعدة الانكماش!..

ورفّت، لآنات من الزمن، هدأة وجوم قطعها وقع أقدام الجيش الزاحف من على تلال الشمال الشرقي إلى مكة لترى أمُ القُرى نفسها متهافتة الأوصال تتهاوى في استسلام ذليل للفاتح المنتصر!..

هذا هو في سجلات التاريخ الإسلامي:

فتح مكة..

فتح، به تتجلّى تحت أجلى معانيها قوة الشخصية المحمدية وما قد كان لهذه الشخصية الفذة من حنكة سياسية خارقة وقدرة على تصريف الأمور عجيبة!. فهذه الحنكة في إخراج سيد مكة إلى حيث انتُزع منه الاعتراف بدوال دولته لدولة جديدة وهذه القدرة في إرضاخ مكة إلى قبول هذا اللون من الاستسلام إنما، ولا شك، مقدرة خارقة هي في نفس الوقت تدلنا على حنكة سياسية أرادت، ولا شيء هناك على النفس أشد من إرضاخها إلى قبول ما لا طاقة لها به، الإمعان في إذلال قريش فعملت على أن تجعلها تجثو على ركبتيها تعلن رضوخها إلى ما لا طاقة لها به وتعلن له في سلاسة صاغرة تمام استسلامها!

ويقيناً! يقيناً لقد كان هذا الاستسلام أشدّ على مكة إيلاماً من وقع القتال كما كان بالتالي أعظم انتصار لمحمد عليها وهي التي راحت، من حيث كانت قد انكمشت، تتطلّع إليه فتراه يسير إلى «بيت اللّه» محفوفاً بحاشية من الأتباع وفي مقدمتها، إلى جانب وزيريه، يسير العباس بن عبد المطلب من، ولا ثمة شك، كانت الذاكرة منه في هذه اللحظة تطوف بتلك الليلة التي رافق فيها محمداً إلى «بيعة العقبة الكبرى» ومن بلا شك كان حتماً أن يقارن تلك الليلة بهذا اليوم الذي تطوّف فيه منه العين فترى محمداً قد حقّق حلم عبد مناف وأن فيه قد تحققت أمنية كانت، منذ ثوى قُصي، لهذا الفرع من قريش، وخاصة لبيت هاشم الهدف!. ولكن. مكة إذ يطمئن منها القلب وهي ترى محمداً يسير إلى «بيت اللّه» فيطوف به التطواف القديم وعلى «الحجر الأسود» لاثماً يقبل فيوليه نفس تقديس القدم فليس إلاّ لترتد جفلة واجفة الفؤاد وهي تراه إلى جدران الكعبة يتجه فيطْمس ما قد نقشته يدُ القِدَم على هذه الجدران من صور تمثل الملائكة من الشفعاء والوسطاء من النبيين ثم ليكب على ظهورها ما قد أقامه القدامى حول الكعبة من تماثيل ترمز إلى هؤلاء الشفعاء والوسطاء ومن بينها كان تمثال إبراهيم وإسماعيل ومريم وابن مريم!. ولمكة كان حتماً أن تجفل ويذوب منها الفؤاد وجفاً إذ ليس المعنى من وراء ذلك إلاّ لتفهم أن الحكم الجديد قد سلخ شفاعة «الشفعاء» ووساطة «الوسطاء» سالخاً بذلك لهم ديناً بدين يقوم محمد فيه وحده، بدلاً من هؤلاء الشفعاء والوسطاء، الوسيط والشفيع ولكن! مكة إذ تفهم ذلك إلاّ لتفهم في نفس الوقت أن الجوهر من دينها ما زال هو الجوهر من الدين الجديد لم يُمس بخدش ولم يحتجب منه اللون إلاّ بلون يترامى عليه جديد مادته سلخ الوساطة القديمة بوساطة جديدة تتمركز في شخصية محمد تحت صيغة الاعتراف بأنه رسول اللّه فإن اللّه الممثل المحور من الدين القديم ما زال هو هو المحور من الدين الجديد وشعائر التعبد إليه بطقوسها ومناسكها في الدين القديم هي هي في الدين الجديد لم تختلف شعيرة عن شعيرة ولا عبادة عن عبادة إلاّ بالطفيف من الشكليات التي قط لم تمس الجوهر من المعتقد الإلهي والعقيدة الدينية فليس هناك من ثمة اختلاف بين الدينين إلاّ في المظهر! فلم يختلف المظهر من الدين الجديد عن المظهر من الدين القديم إلاّ بسلخ الوسطاء بوساطة جديدة ونفي الشفعاء بشفيع جديد وإن كان هذا المظهر نفسه يمثل الهوة الفاصلة التي شقّها الأصل الأول من أصول الدين الجديد، هذا الأصل الأول المتمركز في الاعتراف لمحمد فقط بالشفاعة لأنه حقاً رسول اللّه...

ويقيناً! يقيناً إنه لبون بيّن بين الدين القديم والدين الجديد بهذه الهوة الفاصلة التي شقّها هذا الأصل فاصلاً ذاك الماضي عن هذا الحاضر الذي حتّم على أهل مكة جميعاً أن يخرجوا

إلى حيث يقف محمد يمرون أمامه زرافات بينما تنطلق أصواتهم بالمبايعة عليهم سيداً تحت صيغة الاعتراف له بالرسالة. فنحن لا نرى محمداً يسير إلى «الصفا» إلاّ لنرى مشهداً في تاريخ مكة فريداً! فالشعب المكي بمجموعه «برجاله ونسائه» راح أمامه يمر تعلن أصواته المعترفة له «بالرسالة» مُبايعته على مكة سيداً!

وهكذا في أرجاء مكة صاح مدوياً الاعتراف الرسمي بأن محمداً رسول اللّه بينما بالأصداء راحت تخفق رياح الزمن وتتجاوب ريح الصحراء أن لمحمد قد دان ملك مكة!

من ثنايا التاريخ ينبعث صدى هذا الدوي المنطلق بأصوات المبايعة كما راحت تُردده رياح شبه الجزيرة وبه تتجاوب وكما راحت إلى خارجها منه أصداء لرجعها، حتماً، يطرق الفكر ويجد نفسه يستعرض السبب الذي ساعد بل وأدى إلى احتلال محمد مكة بهذه السهولة ليرى أن هذا السبب إنما يعود بجوهره إلى أن الذين لم يؤمنوا بمحمد من سادة قريش عند قيام محمد بدعوته كانوا وقتذاك شيوخاً وكانوا وقتئذٍ قد ثووا وأصبح النشء، الذي كان صغيراً وفتياً، شباباً هم ساداتها الآن وهؤلاء قد نموا وسطوة محمد السياسية تنمو حتى ملأت شبه الجزيرة، فالسيف يهوي على كل من لم يلن منه الجانب لمحمد وانتصارات محمد الحربية قد توالت وأمره قد عظم في نفوس جميع القبائل العربية، ومن ثم أخذ الشبان وذوو المطامع يترددون ويتساءلون عن أي الأمرين هو الأنسب؟ فقد رأى هؤلاء الشباب من سادة قريش وأشرافها موقف محمد وجيشه ورأوا في نفس الآن وهن موقفهم السياسي وضعفهم الحربي فكانوا يرون لو انضموا إلى هذه القوة الطالعة، وهي بعد الرأس من بيوتاتهم لاستفادوا لا سيما وليس هناك بارقة أمل يمكن أن تُتّخذ دليلاً على عودة مجد دولة قريش ثم هم وإن كانوا يخشون في الماضي قومهم إياهم وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية فإنما الآن شيئاً لا يخشون! فمن هؤلاء الفتيان من كان قد جازف وذهب إلى المدينة، كخالد بن الوليد... ومنهم من كان قد اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً حتى إذا وضح الأمر وتبين أن أمر محمد قد ظهر على قريش أسرع فأصاب الفرصة قبل فواتها، كعمرو بن العاص.. إلاّ أن كل هؤلاء لم يكونوا إلاّ مدفوعين بعمل الفكر فإنما كل هؤلاء قد وثقوا بأن الإسلام لن يكون مقصوراً على بلاد العرب وحدها بل هو متجاوزها إلى خارجها، فإن من هؤلاء مَن قد تنبأ بما سيكون للدولة الإسلامية في الغد من فتوح شأن!..

هذا هو السبب الجوهري الذي يمثل يقظة الفكر والذي أدّى إلى فتح مكة بهذه السهولة ليجيء بعد ذلك السبب الآخر الذي امتلك الوجدان الجماعي فكان من أكبر الأسباب التي ساعدت على انتشار أمر الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، فلقد اعتقدت القبائل

العربية التي كانت قد رفضت من قبل الاعتراف لمحمد بالرسالة الإلهية بأن المسلمين، بهذا الفتح، إنما تلحظهم العناية الإلهية ومن ثم سارعوا إلى اعتناق الإسلام يملأ جوانبهم اليقين بأن محمداً **لا بدّ** أن يكون «رسول اللّه»!

ثم... إلى جانب العامل الفكري والعامل الوجداني كان هناك العامل العقيدي الذي وطّد قيام الدولة المحمدية في مكة وعمل على استتبابها في أرجاء شبه الجزيرة وهذا العامل ليس فحسب الاستمرار في إقامة الشعائر الدينية والحرص على المناسك تمام الحرص وإنما بقاء العقيدة الجوهرية كما هي. فالعقيدة الجوهرية، المنحصرة في الاعتراف بألوهة هذه القدرة العليا التي يعرفها اللّسان العربي تحت اسم «اللّه» هي هي فاللّه المتفرِّد بالألوهية خلال العصر القريشي هو هو المتفرّد بالألوهية في العصر الإسلامي ومن ثم لم يعد من العسير، بعد الفتح، استبدال التوسط بالملائكة وما دون الملائكة من شفعاء بالتوسط بمحمد والاعتراف به كرسول لهذه القدرة العليا التي قد تفرّدت، ليس فحسب خلال العصر القريشي وإنما خلال كل ما قد سبق العصر الإسلامي من عصور، بالألوهية!...

ولكن... إلى جانب هذه العوامل التي تنوعت إلى الشتى من الأسباب كان هناك عامل آخر هو الذي عَمِلَ عَمَلَ السياط في إطلاق الأصوات من الحناجر ألاّ وهو عامل الخوف، فإن محمداً إذ يدخل مكة وفي أرجائها يجلجل وعده، بأن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل الكعبة فهو آمن، فليس إلاّ ليستثني من هذا الوعد بعض أفراد عليهم كان حتماً أن يهوي السيف المحمدي ومن هؤلاء إنما من كان بينه والدعوة سافر جفوة كانت قد سبقت!... وهنا تتولّى أنفاس التاريخ الإسلامي الحديث قائلة بأن محمداً ولئن عهد إلى أُمرائه من المسلمين بأن لا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم إلاّ أنه قد عهد إليهم في نفر سماهم وأمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة!».

وعلى «هؤلاء» صدر حكم محمد بالقتل، ومن هؤلاء الذين صدر عليهم حكم محمد بالقتل: عبد اللّه بن سعد وتهمته هي أنه كان قد آمن لأول وهلة بتنزيل الوحي على محمد ثم عاد وبعد فترة أعلن أن ما قد ظنه لأول الأمر الحقيقة فإنما في حقيقته على اللّه افتراء!.. إلاّ أن بين عبد اللّه والقتال حال مجيء عثمان بن عفان به إلى محمد مستأمناً له منه لتصمت شفتا محمد طويلاً قبل أن يجيب عثمان بالإيجاب نظر خلالها إلى الأنصار نظرة لم يفصح عنها إلاّ بعد أن خرج عثمان وهو إلى الأنصار يقول: «لقد صمّت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه!»[1].

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص ٢٧٦.

ومن هؤلاء الذين كان حتماً أن يرتفع الصوت المحمدي آمراً بقتلهم كان: عبد اللّه بن خطل وتهمته هي أنه كان قد أسلم ثم عن محمد ارتدّ وإلى قريش عاد. وفي هذا نفّذ حكم محمد بالإعدام سعيد بن حريث وأبو برزة الأسلمي واشتركا، كما تقول كتب السيرة، في دمه.

وكذلك صدر أمر محمد بقتل قينتين لابن خطل إحداهما «فُرتيني» التي استُؤمن لها فأمنها محمد وأما الأخرى فلم تنتظر وفرّت وتهمتهما أنهما كانتا تتغنيان بهجاء محمد.

وكذلك صدر الأمر المحمدي بقتل: الحويرث بن نقيذ وتهمته أنه كان يؤذي محمداً عندما كان محمد في مكة وقد نفّذ فيه حكم الإعدام عليّ بن أبي طالب.

وكذلك صدر حكم محمد بقتل: زهير بن أمية بن المغيرة وعكرمة بن أبي الحكم «أبو جهل» وسارة مولاة بيت عبد المطلب وسواهم.. أمر، سمعته مكة وله حتماً كان أن يطأطىء في خضوعٍ منها الرأس وهي ترى محمداً وقد وقف بباب الكعبة يقول:

«ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين!».

قول أعقبته، حينذاك، التفاتة محمد إلى قريش يقول وبكليتها هي تحت ظل سيفه قد جثت:

«ماذا ترون إني فاعل فيكم؟».

سؤال، قط لا يمكن أن يكون جوابه إلاّ:

«خيراً!. أخ كريم وابن أخ كريم!».

إجابة، قط لا يمكن أن يكون عليها الرد إلاّ:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء!».

يقيناً لقد أطلقت نشوة الانتصار من شفتي محمد منحة الأمان لقريش وعبّرت عن فرحة يصطفق هديرها بين الضلوع وقط لا يمكن أن تُقارن بها فرحة أخرى! فأية فرحة تضارع فرحة الانتصار على قريش وأية فرحة تعادل فرحة فتح مكة؟!...

ولكن!... بينما كانت مكة تستجمع قواها في هذا اليوم الأول من عصرها الجديد انقضت من عمر الزمن ليلة أسفر صبحها على أول هياج أحدثته خزاعة في مكة، فقد امتدت يدها بالقتل تطعن بالسيف البطون من «هُذيل» وبصوت نجيد بن عمران الخزاعي راحت تمتدح الحكم الجديد وتتغنى:

ومن أجلنا حلّت بمكة حرمة لندرك ثأراً بالسيوف القواضب!

أمرٌ، هبّ على إثره محمد ينادي:

«يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل!..».

ولكن: «يا أيها الناس. إن اللّه حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة. فلا يحل لامرىء يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً!.. لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ولا تحل لمحمد إلاّ **هذه الساعة غضباً على أهلها**! إلاّ ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس!».

وتراجعت الأيدي الخزاعية ورجعت هذه السيوف الإسلامية إلى غمودها ورفّت هدأة بدأت خلالها تنصرم عن محمد في مكة من الزمن أيام قليلة تهامس خلالها «أهل الدم والحرب» فيما بينهم: أترون[1] محمداً، وقد بلغ بسواعد الأخوال الهدف وله دان بعضدهم وتعضيدهم ملك مكة، سينضم إلى الأعمام تاركاً المدينة إلى مكة؟..

سؤال، بين الأنصار ما دار همساً إلاّ ولمحته من ثنايا شفاههم العين اليقظة من محمد ومن ثم تحوله إليهم مستنكراً هذا الظن:

«معاذ اللّه! المحيا محياكم والممات مماتكم!».

ولكن.. حتى العودة إلى المقر الرسمي للحكم إنما تحول أُمور يتحتم قبل ترك مكة إنجازها إذ لن يستتب إلاّ بتذليلها توطيد مُلك مكة وهذه تتلخص في إعلان القبائل التي ظلّ موقفها من محمد موقفاً سلبياً إعلاناً رسمياً بقيام الدولة المحمدية وظهور الدين الإسلامي ودعوتها في نفس الوقت إلى الانضمام تحت لواء الحكم الجديد ومن ثم بدأ محمد يبعث، من طبقة الأمراء التي كوّنها، إلى هذه القبائل أمراء... سجّل أولاها:

«مسير خالد بن الوليد إلى بني جذيمة من كنانة»

إلى بني جذيمة بعث محمد هذا الأمير الجديد ومعه من قبائل العرب: سُلَيْم ومُدلج، ولكنه لم يبعثه مُقاتلاً إلاّ أن خالداً لم يقترب بجيشه من بني جذيمة ألا ليرى القوم قد أخذوا السلاح ولم تثنهم صيحته فيهم: «ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا!» عن أن تنادي جذيمة بعضها بعضاً بنداء يفصح عن مدى الرعب الذي أصاب هذه القبيلة العربية من هذه القوة الطالعة:

«ويلكم يا بني جذيمة!.. إنه خالد واللّه! ما بعد وضع السلاح إلاّ الإسار وما بعد الإسار إلاّ ضرب الأعناق!».

---

(١) **سيرة ابن هشام**، جـ٣، ص ٣٠٢.

بيد أن سرعان ما استوعبت جذيمة صيحة خالد فألقت جانباً السلاح ولكن!.. ما استسلمت جذيمة وما ألقت جانباً السلاح إلاّ وأمر خالد فكتّف رجالها ثم عرضهم على السيف واحداً بعد واحد فقتل منهم من قتل وأطاح بكل رأس فيهم من الرؤوس!

وسرعان ما اتصل بمسمع محمد الخبر فقد انفلت رجل من جذيمة وإلى محمد أسرع يحث الخطى يخبره بصنيع خالد وكأنما ما قد صنع خالد كان في ضمير الزمن خطة مقدورة تزداد بها في التجلّي الحنكة السياسية التي كان عليها محمد وما قد كان عليه من دقة التفكير، فإن محمداً يهبّ مستنكراً صنع خالد ومنه يبرأ فالسيف الإسلامي لا يهوي إلا على رقاب من لا يؤمن بمحمد ولا يطوح إلاّ بأعناق على من لا ينضوي تحت لواء دولته وهؤلاء إنما قد ألقوا السلاح واستسلموا!...

من ثم فلتدوّ أرجاء شبه الجزيرة ولترجّع آفاقها في مسمع القبائل القصية القول:

إن سيف محمدٍ لا يطوح إلاّ برقاب غير المؤمنين بأنه رسول اللّه!...

وإن رجال محمد لا يسلبون إلاّ أموال غير المؤمنين بأنه رسول اللّه!...

وإن جيش محمد لا يسبي إلاّ نساء أقوام لا يؤمنون بأنه رسول اللّه!...

قول، ما به دوّت الأرجاء العربية وراح رَجْعُ صداه يتجاوب من كل جانب فيها وما استوعبه عالم شبه الجزيرة تمام الاستيعاب إلاّ ليسجّل الزمن:

تهاوي شبه الجزيرة العربية للسلطان المحمدي

يقيناً إن بسقوط مكة واستيلاء الإسلام على قبضة الحكم السياسي فيها قد بدأ يدين لمحمد مُلْك شبه الجزيرة فليس إلاّ بعد هذا الاستيلاء بدأت تتداعى أرجاء شبه الجزيرة لهذه الدعوة وبدأت الأركان القبلية من الصحراء تنهار ركناً فركناً وتكوّن أحجارها الأساس من الصرح الجديد وإن كانت لم تشذّ عن هذه السُنة إلاّ بعض القبائل المنيعة التي راحت تشمخ في إباء يأبى هذا الإذلال وتترفّع في ترفّع يأبى الخضوع لهذا الإخضاع كما لصده بدأت من محمد تتحصّن وسباقة إلى هذا كانت:

هوازن

أصاب خبرُ فتح مكة المسمع من هوازن برجةٍ بها ارتجت منها الضلوع فهبّت تنادي بلسان سيدها، مالك بن عوف، ثقيفاً وسرت الهزة في جوانب ثقيف فهبّت بدورها تنادي بلسان سيدها، قارب بن الأسود، جشماً ورجعت الهزة جشم فهبت تنادي بلسان سيدها، دريد بن الصمّة، نصراً وهلالاً وسعداً!...

وتجاوبت بالهلع الآفاق من كل هذه القبائل فراحت تجمع بعضها إلى بعض ومن القوة الطالعة تتحصّن؛ أدركت هوازن، وهي التي كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقي، أن دورها إنما آتٍ وأن المسلمين سيقتحمون عليها منازلها ففكّرت فيما يمكنها أن تصنع لاستبقاء استقلالها ولذلك استصرخت هذه القبائل التي أدركت بدورها نفس ما قد أدركته هوازن وليس إلاّ بدافع من هذا الإدراك اجتمعت كل هذه القبائل ومعها النساء والأطفال والأموال ونزلت بسهل «أوْطاس» بين «الطائف» و«حنين» حيث أمر مالك بن عوف الناس أن ينحازوا إلى قمم «حنين» وبالتحديد عند مضيق الوادي حتى يمكنهم أن يصدوا أي هجوم عليهم من محمد قد يطرأ...

وأرهفت أُذنا محمد إلى الضجيج المنبعث من هذا التجمُّع فاكفهرّ منه الوجه وراحت سحب الأسى على الجبين منه تتلبّد بهذا التبلّد الذي حاكته يدُ مالك بن عوف في قمم حُنين..

وللحظة، كان حتماً أن يطرق محمد إطراقة هبّ على إثرها، ولما ينصرم على سقوط مكة من الزمن إلاّ وجيزه، خالعاً عنه الرداء الديني وعلى نفسه خالعاً رداء الحرب ليسير ومن ورائه تجري يد الزمن تُسجل:

غزوة حنين «٨ هـ ـ ٦٣٠ م»

على مكة أناب محمد «عتاباً» أميراً وخرج، بعد أسبوعين من مقامه في مكة، على رأس عدة قط لم ترَ شبه الجزيرة مثلها من قبل!... سار يريد هوازن وعليه الدرع وفي يده السيف يقود اثني عشر ألفاً من المقاتلين، ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه، وكلهم على أتم استعداد للحرب وكلهم تلمع دروعهم وفي مقدمتهم الفرسان ووراءهم الإبل تحمل الذخيرة والميرة ويتقدم كل قبيلة لواؤها... ولكن!. ما بلغ محمد حنيناً إلاّ والغسق يُوشِّحُ الأفق بوشاح لاهب رهيب..

من ثم كان حتماً أمام أخاديد هذا الوادي من أودية تهامة أن يُرجيء محمد الهجوم ولا يهاجم إلاّ في «عماية الصبح».. وفي «عماية الصبح» من اليوم التالي تحرّك الجيش الإسلامي للهجوم تلحظه عينا محمد من الخلف ـ ومن مضيق «حُنين» إلى سهل «أوطاس» راح هذا الجيش يخترق الطرق ـ ولكن!.. بينما هو كذلك إذ شدّت عليه هذه القبائل بإمرة مالك بن عوف شدة رجل واحد وأصلته وابلاً من النبال به من كل جانب حفّت وأحدقت!. حينذاك اختل توازن الجيش الإسلامي فولى مهزوماً ومع الفجر الطالع طلع الخبر أن هوازن قد هزمت محمداً!...

ولكن!... خلال هذه اللحظات التي اختل فيها توازن هذا الجيش وتبدّت في غضونها

أن الهزيمة قد نزلت بالمسلمين كانت اللّوالب الفكرية من محمد سريعة تجري تتساءل:

أيمكن أن يضيع عبثاً في هذه اللحظات مجهود عمر انحسرت منه الأعوام عن متواصل سعي لبلوغ الهدف المرسوم؟!

دوّت صرخة كان جوابها استجماع الجيش المحمدي قوته ومن ثم كرّ من جديد لتنحدر إليه هوازن من مكامنها وتواجهه وجهاً لوجه وهنا كان حتماً أن يبدأ الصدام ليشتد شدة رأى خلالها محمد رجاله وخاصة «أهل الدم والحرب» منهم وقد استقبلوا هذه القبائل وأخذوا يطيحون بخصومهم انفرجت بسببه شفتاه عن هذه الكلمة: **«الآن حمي الوطيس!»**...

وحقاً لقد حمي في «أوطاس» الوطيس حتى أن هوازن وثقيفاً ومن معهما ما لبثوا حين رأوا كل مقاومة غير مجدية أن فروا، إلاّ البعض منهم الذي وقع أسيراً، لا يلوون على شيء تاركين وراءهم لا فحسب الأموال وإنما الأبناء والنساء!...

وهنا تتولى أنفاس التاريخ الإسلامي الحديث قائلة بأن مغانم حنين كانت وفيرة فقد وقع يومئذٍ ليد محمد: اثنان وعشرون ألفاً من الإبل وأربعون ألفاً من الشاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة وسُبي كثير من الذراري والنساء غير الرجال من الأسرى وعددهم ستة آلاف...

وبين يدي محمد وقفت نساء حنين سبايا حواسر كما وقف أمامه الأسرى مكتفين بينما أُلقيت تحت أقدامه الأموال والفضة... لتجول منه العين جولة انفرجت على إثرها منه الشفاه آمرة أن تحمل السبايا والأسلاب والأسرى إلى «الجعرانة»، ذلك الماء بين الطائف ومكة، حتى يعود، فقد أزمع على مطاردة المنهزمين واللحوق بهم إلى حيث رحلوا ملتجئين بثقيف في الطائف...

وإلى الطائف من حنين انطلق محمد مطارداً الملتجئين وصوته في رجاله يدوي: **«من قتل قتيلاً فله سلبه!»**

ووراء الصوت المنطلق انطلقت الفلول المحمدية ليطلع علينا محمد بين هذه الفلول صلباً صلابة كان من أهمّ مظاهرها ظهور طريقة له في السياسة جديدة وهي سياسة التخريب والهدم، فهو لا يمر في مسيره هذا على «ليّة» إحدى المحلات بين حنين والطائف حيث يقوم حصن مالك بن عوف، إلاّ ليأمر بهدم هذا الحصن... وهو لا يمر على «نخب» وينزل فيها تحت سدرة يقال لها «الصادرة» قريباً من مال رجل من ثقيف إلاّ ويرسل إليه يقول: «إمّا أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك» وأبى الثقفي الخروج خوفاً فخرب عليه حائطه...[1]

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٠٠.

تحت مظهر من الصلابة جديد تجلّى محمد وهو بهذه القوة الزاحفة يسير في جموع جيش لم يتخلّف فيه من أصحابه إلاّ عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة ائتماراً بأمره، فقد أرسلهما في مطلب الدبابات والمجانيق والضبور ليبتاعا له هذه الأدوات الحربية الجديدة على العرب، وبهذا الجيش الذي لم تشهد شبه الجزيرة العربية في ماضي تاريخها جمعاً مثله بلغ محمد الطائف ليسجل الزمن:

حصار الطائف «٨ هـ ـ ٦٣٠ م»

من حول الطائف، والطائف مدينة محصنة شامخة الأسوار منيعة الحصون ولها أبواب تُغلق عليها، كأكثر المدن العربية في العصر القريشي، طوّف محمد، برجاله ثم راح يُطوقها ولها لسبع عشرة ليلة يحاصر والحصار إنما خطة حربية صائبة استعملها محمد من قبل في قريظة ومن بعد قريظة في خيبر.. ولكن! الطائف لم تكن كقريظة كلا ولا كانت كخيبر!

إن الطائف ذات ثروة طائلة مصدرها الحقول المديدة التي بها تحف ومن ثم شمخت منها الأسوار وحصّنتها أمنع الحصون! ثم إن أهلها ذوي دراية بحرب الحصار وهذه الدراية هي التي جعلت محمداً يبتعد بجيشه قليلاً ليطرق مفكراً وليهب على إثر ذلك مقتنعاً بأنه ليس من اليسير أن يقتحم جيشه هذه الحصون المنيعة وليس من السهل أن يهدم هذه الأسوار المكينة إلاّ بوسيلة غير تلك التي استعملها في حصار قريظة وخيبر. فيقيناً إن السيف وحده لا يكفي ويقيناً إنه كان على صواب حين أرسل رسوليه في مطلب الدبابات والمجانيق...

من ثم فليستنجز رسوليه وليرسل مما قد استُولي عليه •ن أموال اليهود إلى بني دَوْس، تلك القبيلة المقيمة بأسفل مكة، ثمناً لما لديها من هذه الآلات الحربية الغريبة على شبه الجزيرة العربية..

ليس إلاّ تحت ضغطٍ من هذه الظروف انطلقت رسل محمد لتأتي إليه بهذه الأدوات ولتمر من عمر الزمن أربعة أيام ومحمد خلالها ينتظر وصول هذه العدة... أربعة أيام انتظرها محمد على مضض ومن حوله أتباع يملأهم اليقين بالانتصار فنحن نسمعهم يطالبونه بأن يعدهم بعضاً مما سيناله من أموال ثقيف بل ويحددون له ما يشتهون!. فهذه خويلة بنت حكم له تقول: «أعطني إن فتح اللّه عليك الطائف حُليّ بادية بنت عيلان أو حلي الفارعة بنت عقيل!» وهذا عيينة بن حصن لأصحابه يقول: «إني واللّه ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأُصيب من ثقيف جارية أطأها!».

بيد أن لئن كانت الأماني بالمغانم قد ملأت قلوب الأتباع في غضون هذه الليالي الأربع فإنما هذه الليالي نفسها كان قد أقضّت مضاجع أفراد كان عليهم حتماً أن يخرجوا مع

محمد في مسيره هذا. فليس إلاّ خلال هذه الأيام الأربعة، كما يحدثنا التاريخ الإسلامي، كانت قد وجفت قلوب من كان قد صحبهم محمد معه من أجلة قريش فأبو سفيان، سيد مكة الأسبق الذي أمسى يسير في ركاب سيد مكة الحالي، يخشى على ابنته آمنة، زوج عروة بن مسعود سيد ثقيف، من السبي وعلى ابنته الأخرى ميمونة، زوج أبي مرة الثقفي، من السبي والمغيرة بن شعبة يخشى على الفراسية بنت سويد وعلى أميمة بنت الناسىء من السبي...

هذه إنما لمحة مما كان يحدث غضون هذه الليالي الأربع التي ما انقضت حتى وصلت الدبابات ووصل الضبور ووصل المنجنيق... وأمام منيع الأسوار نُصبت هذه الآلات الحربية وصدر الأمر المحمدي بالهجوم وبإطلاق النيران!...

وحفّت الدبابات بالأسوار تحاول اختراقها بينما كان محمد يطلق على هذه الأسوار حمم المنجنيق ومن حوله تجري يد الزمن تسجل بأنه كان أول من استعمل المنجنيق من العرب!

ولكن! الأسوار المنيعة ما زالت منيعة أمام محمد!

وأطرق محمد للحظة وسريعة خلالها جرت اللّوالب الفكرية منه تستمد من تجاربه القديمة مدداً جاء إلى مخيلته بذكرى انتصاره على النضير وتمكنه منها بإحراق نخيلها! إذن! ها هي ذي كروم الطائف أمامه أكبر قيمة من نخيل النضير ولها من الشهرة وبعد الصيت في جميع أرجاء شبه الجزيرة ما تفخر به الطائف وتعتز! ولولا هذه الكروم لما كانت الطائف أخصب بلاد العرب قاطبة بل لما كانت الواحة الخضيرة وسط لوافح هذه الصحارى المحرقة!

وهبّ محمد من إطراقته يطلق الصوت في الأتباع آمراً بتقطيع كروم الطائف وبإحراقها...

وانهال الجيش المحمدي على هذه الكروم تقطيعاً وإحراقاً!

وارتفعت النيران من الكروم لافحة فتراجعت ثقيف فزعاً ووضعت اليد على الصدر منها شفقة ووجفاً!... عزّ عليها أن ترى كرومها تُتلف وهي العزيزة عليها فبعثت إلى محمد أن يأخذ لنفسه ما شاء وأن يدعها للّه وأن يوادعها للرحم لما بينه وبينها من قرابة ولكنها له لن تستسلم!

ولكن. جاء بالسلب الجواب وطار أمد الحصار وقارب الشهر من الزمن والطائف لا تجثو على ركبتيها أمام محمد! هنا كان حتماً أن تتفتق القريحة المحمدية عن خطة جديدة فالصوت من محمدٍ يرتفع منادياً من في ثقيف من العبيد بأنه معتق من العبودية كل من إليه من الطائف يلتجىء ويجيء!

وكان حتماً أن يجيء هذا النداء، الواعد عبيد الطائف عتقاً من العبودية، بنتيجته الحتمية فقد بدأ في أعقاب ذلك تسلل من استطاع التسلل من عبيد الطائف إلى محمد وبذلك أصاب محمد الغاية من وراء هذه الخطة التي تفصح عما عليه كان من خارق ذكاء فلم تكن هذه الخطة في مداها الحقيقي إلاّ وسيلة إلى غاية... إذ لم يكن إلاّ عند هؤلاء العبيد الخبر اليقين عمّا لدى ثقيف من المؤنة والذخيرة وليس إلاّ من هؤلاء العبيد عرف محمد مقدار ما في هذه الحصون من المؤنة والذخيرة فعرف أن هناك من المدد ما يكفي أهل الطائف أمداً طويلاً!

من ثم فإن الحصار سيطول أمده والطائف لن تجثو على ركبتيها ذليلة أمام محمد بل أبية ستشمخ طويلاً وشامخة في منعة سترفّع أمداً مديداً!

حقيقة، دفعت بمحمد إلى طويل التفكير لا سيما وأن من حوله رجال يتعجلون العودة إلى «الجعرانة» لاقتسام الفيء الذي غنموا وكل واحد منهم يتوق شوقاً إلى ما سيكون لهم من سبايا حنين كنصيب...

وانقضت من عمر الزمن ليلة طلع محمد في صبحها على أصحابه يقول إنه رأى رؤية تفسيرها بأن الآن لم يئن بعد لفتح الطائف وإنما آن ذلك كرة أخرى...

وهكذا آثرت السياسة الدقيقة رفع الحصار عن الطائف ليعود محمد بجيشه، وكان هلال ذي القعدة قد هلّ، معتمراً بعد أن دوّى صوته في أرجاء الطائف بأنه إليها عائد في نهاية الأشهر الحرم!

وعن الطائف انصرف بجيشه محمد قافلاً إلى «الجعرانة» حيث كان قد ترك الغنائم من الفضة والنياق والشاء وحيث كان قد ترك الأسرى من الرجال وحيث كان قد ترك السبايا من النساء...

وفي «الجعرانة» جلس محمد يحتجز لنفسه الخمس ويُوزِّع الباقي على الأتباع ثم لينعطف ناحية السبايا ويبدأ يهبهنّ لرجاله... فهذه ريطة بنت هلال لعليّ بن أبي طالب وهذه زينب بنت حيان لعثمان بن عفان وهذه الحسناء الهوازنية لعمر بن الخطاب...

ولكن!... بينما كان محمد يمنح المنح ويهب عقائل هوازن لرجاله جواري كانت هوازن قد جُنّ جنونها مما قد أصابها في نسائها ومما قد أصاب نساءها من هوان السباء لتجد نفسها تهب مُتجهة إلى محمد يدفعها إليه اليقين بأنه ليس من وسيلة لدفع هذا الهوان إلاّ إعلان الطاعة لهذه القوة الطالعة بالاعتراف لمحمد بأنه رسول الله.

وسجّل الزمن:

قدوم وفد هوازن لمصالحة محمد

إلى «الجعرانة» وفد على محمد وفد هوازن يُعلن بالنيابة عن هوازن له الطاعة ويناديه بنداء انطلق من شفاههم يعلن الاعتراف له بالرسالة ودخولهم في الإسلام ويناديه:

«يا رسول اللّه إنّا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا!».

وبلسان أبي صرد استرسل هذا الوفد يقول:

«يا رسول اللّه إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائي كن يكفلنك ولو أننا ملحنا[1] للحرث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منّا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا. وأنت خير المكفولين!».

ويقيناً لم يخطىء وفد هوازن في تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم «فقد كان بين السبايا «الشيماء بنت الحرث» أخته من الرضاعة والتي عَنُف عليها الجند المسلمون وجاءوا بها محمداً فعرفها؛ وهنا التفت محمد إلى وفد هوازن يقول:

«أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟!».

يقيناً إن الأبناء والنساء أحب من الأموال... ومن ثم لم يسع هذا الوفد إلاّ أن يطأطىء الرأس يقول:

«يا رسول اللّه: خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا. بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا!».

ومن ثم احتجز محمد المال وردّ إلى هوازن الأبناء والنساء..

والآن... الآن وقد تمّ، بعد أن استحرّ القتال واستعر، انضواء هوازن تحت اللواء المحمدي فليس إلاّ لتطوف في المخيلة المحمدية تلك القوة الذهنية التي تلألأت ساطعة في مالك بن عوف النصري، هذا القائد الحربي الفذ الذي استطاع أن يجمع الجموع من هوازن بقبضة أسلست لها هذه الجموع الاستسلام حتى المدى الذي بأمرته شدت هذه القبائل في «حنين» على الجيش المحمدي شدة رجل واحد بها اضطرب توازن هذا الجيش واختل اختلالاً لم يكن له من سبب إلاّ تفنن هذا القائد الحربي الذي قد احتمى الآن بالطائف في ثقيف وإليه هناك لا يستطيع السيف المحمدي الوصول ولكن المخيلة المحمدية إذ تستعرض ذكرى مالك فليس إلاّ ليهتدي التفكير من محمد إلى وسيلة يستطيع بها أن يمتلك «مالك» حتى يكون منه الساعد لساعده ساعداً وليس إلاّ عبر هذا الاستعراض يطلع علينا لون آخر من ألوان السياسة الفذة التي تميزت بها شخصية محمد. فنحن نسمع محمداً يطلب إلى وفد هوازن

(١) أرضعنا.

أن يبلغوا «مالكاً» بأنه إن أتاه طائعاً ردّ عليه أهله وماله وليس هذا فحسب وإنما أعطاه، بالإضافة إلى ذلك، مائة من الإبل!

وأمام وعدٍ برد الأهل والمال ومضاعفته بمائة من الإبل وأمام وزن دقيق لمجرى الأمور السياسية الدالة على أن تيار الحكم السياسي لشبه الجزيرة إنما في صف محمد حتماً يسير وجد سيد هوازن أن الأسلم إنما الاستسلام ومن ثم سرعان ما أسرج فرسه ولحق بمحمد!

ويقيناً لقد كان لهذا الإغداق بالمال على «مالك» أثره فيه بل الطوق الذي جعل العنق منه ينحني لمحمدٍ اعترافاً بالجميل، إذ أن محمداً قد ضاعف هذا الإغداق بالمال بالإنعام عليه بالمرتبة إذ ولاّه عاملاً من لدنه على من أسلم من قومه وسيداً على قبائل سلمة وفهم وثمالة وليس إلاّ كأثر لهذا كان أن راح ابن عوف يقاتل بهذه القبائل ثقيفاً! لا يخرج لثقيف سرح إلاّ أغار عليه حتى ضيق عليهم ضيقاً توالى يُضعف منهم الروح المعنوية ويُمهّد لانقضاض السيف المسلّط. ولكن حتى يحين الحين نرى تطوراً سياسياً جديداً في حياة هذه الشخصية الفذة كما تفصح عنه وسيلة هي كل الجدة جديدة، فلقد وجد محمد أن بالعطاء قد اكتسب «مالكاً»... إذن!... فلتطبق هذه السياسة على سائر الرؤوس العاصية ولتُستعمل هذه الوسيلة في إمالة النفوس الجافية فلا شيء كالمال يمكن أن يستميل ما قد جنح من القلوب ولا شيء كالمال يمكن أن يُحوِّل اللسان من الانطلاق بالقدح إلى الانطلاق بالمدح بل واللهج بجميل الثناء!.. وسجّل الزمن:

منح المنح وإعطاء العطايا «للمؤلفة قلوبهم»

ليتألّف محمد القلوب من رؤوس كانت، إلى أيام قليلة، أشدّ الناس له عداوة جلس يتناول من المال الذي غنم في «حنين»، الذي بلغ ما لم يبلغ «فيء» من قبل قط، ومنه يمنح «المؤلفة قلوبهم» من أشراف قريش ورؤساء العشائر من قبائل العرب وكان عدد هؤلاء الأشراف ورؤساء العشائر عشرات! فهناك أشراف قريش من بني أمية ومن بني عبد الدار وبني مخزوم وبني عدي وبني جمح وبني سهم وبني قيس وبني بكر وبني عامر وبني كلاب وبني سُلَيْم وبني تميم وبني غطفان وإلى جانب هؤلاء كان هناك العشرات من رؤساء العشائر.

إلى كلِ رأس من أشراف قريش ورأس من رؤساء العشائر منح محمد منحة ساواها بما منحه لأبي سفيان فلكل من هؤلاء أعطى مائة من الإبل، وأما سائر الأشراف فقد أعطى، محمد لكلٍ، خمسين من الإبل.

يقيناً إن هذه العطايا للألوف من أشراف العرب ورؤساء القبائل تدلنا على وفرة غنائم

«حنين» التي يمكن لنا حصرها من مبلغ العطايا التي أُعطيت من هذا المال بيد أن هناك مغزى أعمق من وراء ذلك، وهو الهدف المقصود به من بذل هذا المال الذي جعل محمداً يبدو يومئذٍ غاية في السماحة والكرم والذي بالتالي جعله محمد وسيلة تتآلف بها القلوب، فلم يكن الهدف إلاّ لترى شبه الجزيرة أن في اتباعه إنما سعادة الدنيا وهذا هو المنتهى من بعد النظر ومن حسن السياسة التي مكّنته من أن يعود بهذه الألوف من العرب وكلهم راضية منه النفس مطمئن منه القلب إلى حاضر هادىء ومستقبل أمين. هذا هو الأثر الذي لم يجعل فحسب من أعداء الأمس القريب أصدقاء الحاضر والغد المرتقب وإنما جعل الرؤوس العربية قاطبة تنحني في استسلام أمام هذا السيد الذي أمسى يمنح في سخاء المِنَح وغدا في بذلٍ عجيب ينعم ويعطي العطايا!

ولكن. أمام هذه العطايا «للمؤلفة قلوبهم» تغيرت نفوس الأنصار! تغيرت نفوس «الأخوال» لا فحسب لأنهم يرون محمداً يتألف «الأعمام» وإنما لأن من هذا المال لم ينالوا شيأً وهم الذين قد جنوه! ومن ثم بدأوا فيما بينهم يتهامسون ليتزعّم هذا التهامس زعيمهم سعد بن عُبادة ويلقيه مؤيداً قومه في مسمع محمد الذي ما التقطه إلاّ وراح يُردده دوياً لا يروح رجع صداه إلاّ ليعود مدوياً بأنه من مال لم يغنمه إلاّ بسبب نصرتهم له يمنح العطايا لهؤلاء القريشيين الذين ما زالت منهم القلوب، في حقيقة الواقع، غير مؤمنة به كرسول وأنهم لا يسايرونه إلاّ لمجرد مصلحتهم الشخصية وإلاّ منه خوفاً بينما هم، الأنصار، وهم الذين قد أخلصوا له منذ البداية وناصروه وله انتصروا لا ينالهم من هذه العطايا أي شيء إلاّ نصيبهم المعترف به من السلب والفيء!

ومن الأنصار إلى المهاجرين وإلى سائر أفراد الجيش المحمدي سرى التهامس يعلن التململ الذي ما لبث أن تفجرت بوادره عن شررٍ انطلق من أفواه رجال أحاطوا بمحمد من كل جانب يطالبونه بأن يقسم فيما بينهم من الأسلاب ما يساير العدل ويسير والعدالة وليشتد حصارهم له حتى ازدحموا من حوله ازدحاماً ألجأه إلى شجرة اختطفت عنه رداءه ولكن! السحر الأخاذ الذي تميزت به شخصية محمد وبه امتازت كان دائماً في كل ظرف ومناسبة العامل في قيادة الجماعات، فما من مرة جالت بين الجموع عيناه إلاّ وتراخت في استسلام لإرادته إرادة الجماعات.. وما جالت عيناه هذه المرة في هذه الجموع جولتها وما انطلق لسانه يقول بأن ليس له من «الفيء» إلاّ الخمس وأن الخمس مردود عليهم إلاّ ليجدوا أن وجدهم عليه إنما عن الصواب كان كل الانحراف!

وهكذا سكنت الضجة التي أثارها هؤلاء الذين كانت قد تغيرت منهم النفوس

وساورتهم الشكوك وارتأوا أن لهم في ذلك حجتهم. فلقد رأوا أن محمداً، وقد لقي قومه، قد صار في غنى عنهم واستمدوا على ذلك دليلهم من أنه قد أصبح يعطي قومه مما جاءوا به هم إليه وهذا بدوره إنما برهان على أنه لم يعد يحفل بهم ولا عاد يعنى بشؤونهم كما كان من قبل يفعل يوم ناصروه! ومن ثم فلئن كانت قد هدأت الضجة فليس إلاّ ليرتد مدّها ويقتصر على معقل الأنصار الذين راحوا في داخل هذا المعقل يُردِّد بعضهم لبعض بأن محمداً قد تركهم إلى قومه في نفس الوقت الذي راحوا فيه يتذاكرون بأن الدولة الإسلامية لم تقم إلاّ بسواعدهم، هم «أهل الدم والحرب» وليتزعم، أيضاً، هذا الرأي زعيمهم نفسه سعد بن عبادة الذي لمحمدٍ لم يصارح برأيه إلاّ ليطرق محمد إطراقة عمل فيها تفكيره الوميض سريعاً فراح يُصوِّر في لمحةٍ ما قد ارتسم على ملامح الأنصار من نيّات كانت حتماً أن تدفع بتفكيره إلى التساؤل: ماذا ترى ستكون النتيجة إذا :ما غضب الأنصار وهم إنما أهل الدم والحرب ومن ليس إلاّ بسواعدهم قد قام الصرح من الإسلام؟!

ومن ثم صدر الأمر المحمدي بأن يجمع الأنصار.. ووقف الأنصار أمام محمدٍ ووقف هو فيهم يناديهم:

«يا معشر الأنصار!... مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم! ألم آتكم ضُلالاً فهداكم اللّه وعالة فأغناكم اللّه؟... أما واللّه لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصُدِّقتم: آتيتنا مُكذَّباً فصدقناك! ومخذولاً فنصرناك! وطريداً فآويناك! وعائلاً فآسيناك!. أوجدتم يا معشر الأنصار في لماعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا **برسول اللّه** إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار! ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار!».

بلهب العواطف الحرار انطلق هذا الكَلِم فعمل عمل البلسم في القلب الكليم في الوقت نفسه الذي راح يلفح الحنايا الأنصارية بلفحة الندم المصحوب بلوافح الحنان ولفحات الحنين حتى تساجمت الدموع من المحاجر تساجماً أتى بالدليل الأوفى على أن محمداً كان بالنفس البشرية وعواملها ونوازعها وانفعالاتها الخبير والعارف حتى المدى الذي كان يُمكّنه من توجيهها كيفما شاء، فليس إلاّ على إثر ذلك كان أن أسدل الأنصار منهم الرأس لمحمد طاعة انصرفوا بعدها من الحضرة المحمدية واللسان منهم يقول: «رضينا برسول اللّه قِسْماً وحظاً!».

يقيناً إن للوجدان الأنصاري قد هزّت هذه الكلمة التي استدرّت العبرات من المآقي لما

جاءت تحمل من العبارات أدق أنواع الكياسة التي تتجلّى بها حسن السياسة المحمدية وقدرة محمد على اجتذاب النفوس إليه وتأليف القلوب من حوله ومهارته في إعداد سامعيه وتهيئتهم لا فحسب لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم وإنما التأثر به إلى أبعد حدود الطاعة!. فقد بيّن للأنصار ما أتى به إليهم من نعمة الثراء المادي وأنه أغناهم، بعد فقر، **بالمغزوات** وأن قلوبهم قد ائتلفت به، بعد الحروب فيما بينهما، **بالبيعة** ثم انعطف فذكر بالثناء تصديقهم إياه بأنه رسول اللّه وإيوائهم إياه ومؤاساتهم له ثم تحول فاتخذ من هذه النقطة الحساسة مدداً به عتب عليهم تطلعهم إلى هذا «الفيء» الذي فرّقه في نفر حديثي العهد بالطاعة لسلطانه تطييباً لنفوسهم على ما أصابهم من القتل والهزيمة وترغيباً لهم في الثبات على دين الدولة الجديدة ليتخذ من هذه النقطة أيضاً مدداً فيقول إنه في هذا معتمد على حسن ثقتهم به وصدق رغبتهم في نشر هذا الدين وإعلاء كلمة اللّه ثم انعطف ناحية العواطف فاستدرّها بأن لهم محبته إياهم وإيثارهم على قومه من قريش..

لا غرو من ثم أن تهز هذه الكلمة الوجدان الأنصاري هزاً انعطف به إلى محمد وتحول من الوجد عليه إلى الوجد إليه ليعود هذا الوجدان إلى نفسه مقتنعاً بأن هذه العطايا إنما حقاً الدليل الأكبر على بعد النظر وحسن السياسة في إذلال أعناق هذه الألوف من العرب فليس كمثل العطاء من المال وسيلة تمكّن المُعطي من المعطى إليه!

ولكن! بينما راح الأنصار وكل واحد منهم فيض من الحب لهذا السيد الذي أعزّوه وبه اعتزوا كان محمد قد أطرق يفكر ليستقر تفكيره عند الاقتناع بأن إلى ملازمة الأنصار تدعو راهن الظروف ومن ثم كان حتماً العودة مع الأنصار إلى المدينة موطن الأنصار.

للسبب، خرج محمد من «الجعرانة» معتمراً إلى مكة، فلما قضى عمرته نصب أميراً يقوم نيابة عنه بالحكم فيها ليرتحل بعد ذلك عائداً بالأنصار إلى المدينة ومن ورائه يد الزمن تجري وتسجل:

عودة السيد المطلق إلى العاصمة السياسية للدولة الجديدة

لعتّاب بن أسَيْد، هذا الفتى الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر ومَن في عهد نمو الدعوة المحمدية قد وُلد، استخلف محمد وعيّنه أميراً على مكة وأجرى له راتباً شأن الأمراء من قِبَل الحكّام. وقفل محمد يتبعه بقايا «الفيء» آفلاً إلى المدينة ليشنف فيها منه المسمع بأن اسمه قد أصاب كل مسمع وأن صيته قد طبق كل الأرجاء العربية!..

ويقيناً إن هذا الإخضاع لمكة وهذه الإدالة لدولة قريش وهذا الانتصار في حُنين وأخذ أموالها وهذا الحصار للطائف وضرب أسوارها بالمنجنيق والدبابات والضبُّور وهذه العطايا

للمؤلفة قلوبهم التي بسببها لانت له الرؤوس من العرب على اختلاف قبائلهم بالطاعة والإذعان؛ كل هذه الأشياء مجتمعة قد ثبّتت في نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قِبَل بمحمد في شبه الجزيرة العربية كلها وأن لم يبق للسان إلاّ أن ينطلق بالثناء عليه!...

ويقيناً لقد تركت كل هذه الانتصارات وخاصة النصر على مكة، الذي لم يعرف له في تاريخ العرب نظيراً، أثراً بالغاً في نفوس العرب جميعاً كما ترك أثره في نفوس الأشراف والسادة الذين ما كانوا يتوقعون مجيء يوم يدينون فيه لمحمد بالطاعة أو يرتضون الاعتراف به رسولاً إلهياً وما يترتب على هذا الاعتراف من التعديل في دينهم من سلخ التشفّع بالملائكة إلى اللّه واستبدالها التشفّع بمحمد كلا، ولا كان يدور بخاطر هذه القبائل البادية، التي لم تكن تعدل بحريتها شيئاً، أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص! والآن! الآن ماذا يجدي على هؤلاء الأشراف والسادة سطوتهم السياسية؟! وبالتالي ماذا يجدي على هذه القبائل احتفاظها بذاتيتها أمام هذه القوة الخارقة التي لا تجترىء قوة على الوقوف أمامها ولا يجسر أو يجرؤ على اعتراضها أو مصاولتها سلطان؟!

من ثم فلا خوف الآن من ترك مكة والعودة إلى العاصمة السياسية للدولة الجديدة التي ما بلغها محمد إلاّ وجابهته شؤونها العامة مجابهة عكف على إثرها يستعرض شأن رأس كل دولة ناشئة ازدادت أمامه الشؤون العامة، وازدياد الشؤون العامة يحتاج بطبيعته إلى مزيد في النفقات العامة، استعراضاً أعقبه:

فرض الضرائب: «زكاة العُشر» على المسلمين و«الخراج» على غير المسلمين

كسيد مطلق لهذه الدولة الناشئة فرض محمد على المسلمين **الزكاة**. إن على المسلمين أن يدفعوا إلى محمد: العُشر من مال الأرض التي تسقيها العيون والأمطار. ونصف العُشر من المال «ما سقى الغرب».

إن على المسلمين أن يسوقوا إلى الحظائر المحمدية مما لديهم من الأنعام: في كل أربعين من الإبل: ابنة لبون. في كل ثلاثين من الإبل: ابن لبون ذكر. في كل عشر من الإبل: شاتان. في كل خمس من الإبل: شاة. في كل أربعين من البقر: بقرة. في كل ثلاثين من البقر: جذع أو جذعة. في كل أربعين من الغنم: سائمة وحدها شاة.

على المسلمين ضرب محمد هذه الضرائب التي دعمها القول: إنها فريضة اللّه التي فرض على المؤمنين فمن زاد خيراً فهو خير له.

وكسيدٍ مطلق فرض محمد على غير المسلمين: **الخراج** إن على غير المسلمين أن يدفعوا إلى محمد:

على كل حالم، ذكر أو أنثى حر أو عبد: «دينار» أما إذا لم يدفع كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد: «الدينار» فإن عليه أن يؤدي عوض هذا الدينار ما قيمته: **ثياباً**[1].

لا ثمة شك في أن في فرض الضرائب يستقيم الدليل على أن الإسلام قد غدا دولة كما بالتالي يجيء فرض الضرائب بالبرهان على أن هذه الدولة قد استقامت قوية وليس على ذلك من دليل أوفى من أن محمداً بنفسه قد عيّن: «العاشرين» أو الجباة.

وأوفد محمد عاشريه، بعد قليل من عوده إلى عاصمة دولته، ليجمعوا له هذه الضرائب من سائر القبائل... وذهب كل «عاشر» وجهته التي له قد عُينت..

ولكن!.. سرعان ما سَرَى تهامس الامتعاض في أرجاء المضر، فقد بدأت قبائل تزعم أن ذلك إنما إتاوة يفرضها عليهم محمد!.. إلاّ أن في رضوخ صامت بدأت القبائل من المسلمين تدفع «الزكاة» أو عُشر إيرادها كما في استسلام صاغر بدأت القبائل من غير المسلمين تدفع «الخراج» لم يشذ عن هذه القاعدة غير فخذ من بني تميم شمخ في إباءٍ، لا زاعماً أنها إتاوة تُدفع إلى محمد وإنما لأن لهذا الفخذ من بني تميم كان هناك ثأر قديم، ومن ثم بينما كان عاشر محمد يقتضي قبائل في جوار بني تميم زكاة العُشر وفيما كانوا يدفعونها له من إبلهم وأموالهم كان قد سارع إلى هذا «الصيرف» بنو العنبر، الفخذ من بني تميم، وقبل أن يطالبهم بزكاتهم طاردوه من أرضهم وطردوه ليأتي محمداً لا يقص عليه ما قد حدث إلاّ وينادي محمد إليه عُيينة بن حصِن نداءً سجّلت به يد الزمن:

غزوة عُيينة بن حصن بني العنبر

على بني العنبر وفي سرٍّ منهم انقض، على رأس خمسين فارساً، رسول محمد فأصاب من أصاب ممّن لم يستطع الفرار وأما مَن قد تبقى من الأسرى، من الرجال والسبايا من النساء ومن الأطفال فقد عاد بهم إلى محمد وقد شُدّت أيديهم بالحبال.

وهنا تتولى أنفاس التاريخ الإسلامي الحديث فتقول بأن محمداً قد حبس[2] هؤلاء الأسرى. وأما السبايا فقد حبسهن، كالعادة، في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تُحبس فيها[3].

بيد أن أمام هذه النازلة التي نزلت ببني العنبر جُنّ جنون تميم حتى تجاوبت صيحات

(١) **حياة محمد**، للدكتور حسين هيكل، ص ٤٢٧.

(٢) **حياة محمد**، للدكتور حسين هيكل، ص ٤٧٢.

(٣) **حياة محمد**، للدكتور حسين هيكل، ص ٤٧٢.

أشرافهم في أرجاء المضر تُردّد ما صنع عُيينة بأهلهم وتذكر ما أصاب بني العنبر من هوان وهم إنما هذا الفرع من تميم أو بالأحرى هذا الفخذ من هذه القبيلة التي تقف في الذِروة من الشمم ومكارم الأخلاق التي اكسبتها مكانة بين العرب تدعو إلى الفخر وتنادي بمفاخرة كل من بها يستخف! ليس إلاّ بدافع هذه اللّوافح من مراجل هذه الحمية سجّل الزمن:

قدوم وفدِ بني تميم على محمد

للمفاخرة، في وفد من الأشراف على رأسهم عُطارِد بن حاجب وشاعرهم الزِّبرِقان بن بدر وفد على محمد وفد تميم ومن وراء حجراته نادوه: «اخرج إلينا يا محمد!».

«محمد»؟!... ألا يعلم وفد تميم أن الزمن قد تغير وأن محمداً قد أمسى باسمه لا يُنادى؟!. أم لا يعلم وفد تميم أن نداءً كالنداء قد غدا يستمجه المسمع من محمد ويؤذي منه النفس لتنافيه وما قد أصبح له من المكانة السياسية التي لا تسمح لأحد قط أن يناديه إلاّ بالنعت الذي تضفيه عليه مكانته الدينية كرسول اللّه وأن بذلك قد ورد تنبيه، من قبل، يقول:

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾!؟..

الآية ٦٣ من «سورة النور»

ومن ثم فما كان لمحمد أن يخرج إليهم لولا أن أُذّن لصلاة الظهر ولولا ذلك ما كان لهم أن يروه ويقبلوا عليه قائلين: «إنا جئنا نفاخرك!» ولولا ذلك لما استطاع شاعرهم أن يرفع صوته بالمفاخرة التي ما فرغ من إفراغها إلاّ وأشار محمد إلى شاعره، حسان بن ثابت، بأن يرد المفاخرة التي ما انتهى حسان منها بدوره ليطرق مسمع محمد صوت تميم بلسان عُطارد يقول: «الحمد للّه الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف!» وإلاّ لتستقر العين من محمد على أخواله من الخزرج ليأمر ثابت ابن قيس بأن يجيب وفد تميم وليقول:

«الحمد للّه الذي السموات والأرض خلقه... ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً!... فنحن أنصار اللّه **ووزراء رسوله** نُقاتل الناس حتى يؤمنوا!. فمن آمن باللّه **ورسوله** منع منّا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في اللّه أبداً **وكان قتله علينا يسيراً**!».

لا ثمة شك أن في كلمة ثابت قد مُزج الوعد بالوعيد بل بصريح التوعّد بأن دور تميم، إذا شمخت، في الغد لا محالة آتٍ... من ثم لا غرو أن تدور المعاني من هذه الكلمة في الرؤوس التميمية دورة تفهم بها أنها إذا لم تستسلم وتعلن الطاعة الآن، وهي عزيزة الجانب موفورة الكرامة، فحتماً سيُذلّ هذا السلطان منها الجانب وسيهدر لها كرامة ودماً بعدهما

ستعلن صاغرة هذه الطاعة وهي ذليلة جاثية تحت وميض السيف المسلّط، وأنها إذا ما أرادت أن تُرد نساء وأطفال وأسرى بني العنبر فعليها أن ترفع صوتها، الآن، وتعلن الطاعة لمحمد[1].

وسريعة جرت اللّوالب الفكرية لهذا الوفد الذي وفد ينادي «يا محمد» حتى استقرت عند الاقتناع بأن الأصوب، إذا أراد أن يعود بنساء بني العنبر من السبايا وبرجاله وأطفاله من الأسرى، أن يُعلن من فوره الطاعة لهذه القوة الخارقة التي لا عهد للعرب بمثلها من قبل قط!.. وما استقرت هذه اللّوالب عند هذا اليقين إلاّ وارتفع الصوت التميمي يعلن هذه الطاعة لينصرف إثر ذلك إلى دياره عائداً والشفاه منه تنادي السيد الجديد لشبه الجزيرة العربية بـ «رسول اللّه» بينما في مسامعه يتردد صوت محمد وهو يقول إن اللّه قد أنزل عليه فيهم:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقدموا بين يدي اللّه ورسوله واتّقوا اللّه إن اللّه سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه أولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تَخرُج إليهم لكان خيراً لهم واللّه غفور رحيم﴾!..

الآي ١ إلى ٥ من «سورة الحجرات»

يقيناً إن هذا «الكَلِم» الذي كان وفد تميم له مادة إنما يصوِّر لنا تمام التصوير ما قد أصبحت عليه صورة محمد في داخل الإطار العربي كما، بالتالي يُسطِّر صفحة أخرى من الحياة المحمدية هي في سجل التاريخ السياسي جديدة نُشرت بسبب هذا الوفد الذي هزّ حدث إسلامه الأرجاء القبلية قاطبة هزاً جاء إليها اليقين بأن على كل فردٍ أن يدفع ما قد فُرض عليه من مال وإلاّ فإن السيف المصلّت يتهدده في كل لحظةٍ بالهوي والانقضاض والنتيجة الحتمية إنما قتل الرجال أو أسرهم، وسبي النساء.

ويقيناً... لقد بلغ أثر إسلام تميم في نفوس العرب بليغاً وخاصة في بني العنبر، فلقد بلغ هذا الأثر من نفسهم أن خافوا عاقبة أمرهم وأوفدوا إلى محمد من ذكر له أن الخوف في غير محلٍ له هو الذي أدّى إلى ما قد حدث، وصنوهم سارت سائر القبائل العربية مدفوعة بما بدأت به تحس من عظمة هذا الخطر المتضاعف لهذه الناشئة ولا سيما وقد غدا البيت الحرام محكوماً بيد هذه الدولة التي لم تحاول قبيلة أن تقاومها إلاّ وبعث إليها محمد قوة

(١) سيرة ابن هشام، ج٣.

تحملها على الإذعان إما بدفع الخراج أو دفع الزكاة وليس إلاّ للسبب بدأت رؤوس القبائل التي ما زالت على دينها القديم تفكر في مستقبلها تفكيراً جدياً خلاله راحت تستعرض أحداث الماضي القريب وتوازن بين ما آلت إليه هوازن وبين ما آلت إليه تميم لتخرج أثر هذا التفكير باليقين بأن من الخير لها أن تنظِّم وفودها لتقدم على محمد تعلن لسلطانه الطاعة قبل أن يغير عليها بسيفه فيجبرها، مثل هوازن من قبل، على تقديم الطاعة، فإنما من الأفضل لكرامتها أن تفعل مثل تميم فتقدم إليه، وهي بعد عزيزة الجانب، وتعلن اعترافها لسلطانه وقيام الدولة الجديدة، وهذا لن يضيرها في صميم تفكيرها الإلهي ومعتقدها الديني لضرر، ما دام لن يكلفها إلاّ أن تضيف إلى شهادتها بألا إله إلاّ اللّه القول بأن محمداً رسول اللّه وتستبدل التشفع بالملائكة إلى اللّه بالتشفع بمحمد.

هذه هي الفترة الزمنية التي بلغ فيها الأثر من نفوس العرب أن كتب يُجيِّر بن زهير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن محمداً قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه وأن من بقي من الشعراء قد فرّوا في كل وجه وينصح إليه أن يُسرع إلى محمد بالمدينة فإنه لا يقتل أحداً جاءه مؤمناً أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض. فإنها هذه هي الفترة الزمنية التي أسرع خلالها كعب إلى المدينة وغدا إلى محمد وهو في المسجد ووقف أمامه يعلن له الولاء عبْر تلك القصيدة التي استهلّ مطلعها بنغم: «**بانت سعاد**».

وهذه هي الفترة الزمنية التي صفا فيها لمحمد الأفق السياسي من الدنيا ومرح بين جانبيه المرح... وكيف لا يمرح بين جانبيه المرح والتيار الزمني في صفِّه قد سار وارتفع الهدير منه قوياً يضاعف بين جانبيه الشعور بالسعادة، فالزمن إنما في هذه الفترة يسجل:

«مولد إبراهيم»

من بيت مارية سرت البشرى في أنحاء عاصمة الدولة الجديدة بأن السيد المطلق قد رزق بغلام... وتهلّلت جوانب المدينة فرحاً وهلّلت احتفالاً بولادة إبراهيم مُعبّرة عن مُشاركتها أفراح سيّدها الذي تصدّق على كل مسكين في المدينة بوزن شعر الوليد ورقاً!..

للفكر أن يُقدِّر مدى غبطة محمد بمولد إبراهيم وهو الذي قد شارف الآن مشارف الستين من العمر وكان يتمنّى الولد بعد سنين مجدبة مع أكثر من سرية والكثير من الزوجات وكلهنّ، إلاّ واحدة، شباب!. للفكر أن يقدّر مدى هذه الغبطة التي فجّرت ينبوع الأماني بين جوانب محمد وهو الذي تزوج بعد وفاة خديجة عشر زوجات وما جاءت واحدة منهن بولدٍ بعدما تخطّف الموت أبناءه وبناته من خديجة ولم يدع له سوى فاطمة الزهراء!... فلقد تخطف الموت، من قبل دعوته، القاسم والطاهر والطيب كما تخطّف، من

بعد دعوته، أم كلثوم ورقية ثم زينب التي حزن محمد لفقدها حزناً أوجع منه الضلوع لما كانت عليه تشتمل من رقة شمائل وجميل وفاء تمثل في عهدها لزوجها أبي العاص بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها، وقد أسره ببدر، بقلادة أمها خديجة..

ومن ثم فإذا كان الموت قد أصابه بالوجيعة في زينب بعدما أصابه بالمواجع من قبل في أختيها وفي إخوتها، وإذا كان الألم قد حزّ منه الفؤاد وفراه وعلى زينب اشتد به للحزن جوى فإن انتظاره لم يطل التأساء فها هي ذي مارية، التي كانت إلى يومئذٍ في مرتبة السراري ولم يكن لها من أجل ذلك منزل بجوار المسجد كما كان للأزواج من «أمهات المؤمنين»، بل أنزلها محمد بالعالية من ضواحي المدينة بعيداً عن منازل «أمهات المؤمنين» وكان يختلف إليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه.. ها هي ذي الآن تجود بولدٍ فلا غرو أن تعترم بمولده نفس محمد بالسعادة وأن ترتفع مارية في عينه إلى مكانة سمت بها من مقام السراري إلى مقام أزواجه، بل وزاد مارية بمولد إبراهيم عند محمد حظوة ومنه قُرباً فقد غدا يمضي في بيتها أكثر وقته فرحاً بالوليد.. ولكن!. أي شيء أشد من هذا إثارة للغيرة في نفوس أزواج لم يلدن؟.. من ثم كان حتماً أن يُشعل إبراهيم في نفوس سائر الزوجات نيران الغيرة وخاصة في نفس أشدهنّ غيرة على محمدٍ واستئثاراً بحبه، عائشة صاحبة «محنة الإفك»، تلك التي كانت تعلم أنه وإن كان لها أحب فإنه لمارية أهوى!. وما لبثت هذه النيران أن حفحفت واندلع اللّهب منها حتى المدى الذي دفعت الغيرة بعائشة إليه وبذلك بلغ الحدّ الذي اعتكرت بسببه الحياة الخاصة لمحمد وسجلُّها:

«محنة الغيرة»

ليس إلاّ غداة حمل محمد إبراهيم يُريه لعائشة ويشير إلى ما بين الوليد وبينه من الشبه الكبير كان أن اشتعلت نيران هذه الغيرة واندلع من الصدر المحروم من البنوة لها لهيب تمثّل في ذلك الجواب الجاف بأنها لا ترى بينهما شبهاً!.. وكان طبيعياً أن تُحدث هذه الإجابة أثرها الذي تعداها إلى أكثر منها وترك في تاريخ محمد وفي تاريخ الإسلام من الأثر ما انشغل به «الوحي» لردحٍ من الزمن غير قصير، فليس إلاّ على أثر ذلك كان أن لاكت الألسن سيرة مارية وقيل عنها نفسَ ما قد قيل من قبل عن عائشة وصفوان... ولكن لم تكن مارية بحاجة إلى آية تشهد ببراءتها وإنما جاء الرد على نفي هذا القول يُردِّد نفس الكلمة التي انطلقت من بيت عائشة يوم اتهمت بصفوان بأن من به قد اتهمت مارية إنما أيضاً لا يصلح للنساء!...

وكفّت الألسن عن اللّسن! إلاّ أن الجمر المتقد قد ظلّ ثاوياً يتلظّى تحت رماد المداراة حتى ذلك اليوم الذي اندلع فيه، من جديد، اللّهب منه سعيراً يحيط بدائرة الحريم المحمدي

ويكاد يذرو ببيوت «أمهات المؤمنين» هشيماً حتى لهيباً انشغل به محمد وانشغل معه «الوحي» عن الحياة السياسية لفترة هي هذه التي سجّل غضونها الزمن:

«ثورة الحريم»

يحدثنا تاريخ السيرة بأن من عادة محمد أنه إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن وأنه قد عدل بين الأزواج فجعل لكل امرأة منهن ليلة حتى كانت تلك الليلة التي كان الدور فيها دور حفصة، وذهب محمد إلى بيت حفصة ينتظر عودتها من زيارة أبيها عمر ولكن! حدث أن جاءته مارية تلتمس لقاءه في شأن عاجل لها فخلا بها محمد في بيت حفصة التي عادت لتجد الستر، مسدلاً ولتعلم أن مارية هناك... وكان طبيعياً أن تعتمل في صدر حفصة عوامل شتى تستمد مددها من الشعور بالهوان وأن تتقاذفها أنواء القلق وهي تنتظر إزاحة الستر، بل ومن الطبيعي كان أن تتفجّر بين ضلوعها مراجل الإحساس بالكرامة المهدورة كلما طال بها الانتظار ليستقر بها اليقين عند الاقتناع بما صارحت به محمداً حين خرج: «والله لقد سببتني!. وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك!.» وأدرك محمد في هذه اللحظة أن الغيرة قد تدفع بحفصة إلى إذاعة استهانته بها وهوانها عليه والتحدث بهذه السُّبة التي ألحقها بها بسبب هواه لهذه «الأمَة القبطية» وهذا إنما أمر له خطورته فإن حفصة إنما ابنة عُمر... وعمر، إنما هو «مَن أعزّ الله به الإسلام»!..

أدرك محمد هذا فأقبل على حفصة يترضاها ويسألها أن تتناسى ما قد كان ويوصيها بكتمانه ويُقسم لها، إذا هي لم تذكر شيئاً مما رأت، أن مارية عليه حرام...

ولكن... الصدر الكظيم لم يُطق كتمان ما به فأسرّه إلى عائشة، وقد كانتا تُكونان جبهة واحدة ضد سائر الزوجات، وما وقعت عائشة على الخبر إلاّ لتجد أن الفرصة أمامها قد سنحت لتنال من غريمتها «الأمَة القبطية» فحوّلت هذا الحدث إلى جذوة سرعان ما حملتها وراحت تشعل بها نار الثورة في دائرة الحريم فقد جمعت ضرائرها في مظاهرة تطالب محمداً وتصر على ألا يبقي لمارية في مدينته مكاناً!

وغضب محمد غضبة عارمة تصبّبت حمماً على جميع نسائه، فهو ليس خلياً حتى يُشغل وقته بمثل هذا اللّجاج وأن يدع نفسه لعبث نساءٍ لجت بهن الغيرة أعظم لجاج حتى بلغت بهن إلى أبعد حدود الشطط مُستمرئات عطفه عليهن وحبه لهن ومن ثم فلا بدّ لهن جميعاً من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور إلى نصابها ويدع له طمأنينة التفكير في أمور الدولة وليكن هذا الدرس هجرهن شهراً كاملاً والتهديد بطلاقهن إن لم يهدأن ويثبن إلى رشدهن...

واعتزل محمد زوجاته ولهن كل الهجر هجر وأحاط نفسه بعزلة ذاتية دفعت به إلى مارية، ومن ثم وإلى بيت مارية ذهب وله لزم ومن الطبيعي كان أن يكون ذلك كنتيجةٍ حتمية لما من شفتيه كان قد تحدّر مِن «الكَلِم» الذي تدفق يعفيه مما كان من قسم قد أقسم:

﴿يا أيها النبي لم تُحرِّم ما أحلّ اللّه لك تبتغي مرضاة أزواجك﴾؟!

الآية الأولى من «سورة التحريم»

كلا! فإنما: **﴿... اللّه غفور رحيم قد فرض اللّه لكم تحلّة أيمانكم﴾!**

الآية ٢ من «سورة التحريم»

وكانت تحلة القسم إعتاق رقبة... وراحت الأيام بعد ذلك تتوالى وفي ركاب الزمن تسير لتصل بنا ذلك اليوم الذي أوفى فيه الشهر، الذي انقطع خلاله محمد عن معاشرة أزواجه، على التمام لينتشر لنا به صفحة جديدة في تاريخ صاحب هذا الدين، ففي هذا اليوم جاء عُمر محمداً وكانت بينهما تلك الجلسة التي خرج عمر على إثرها إلى المسجد ينادي بأعلى صوته أن محمداً لن يطلّق أزواجه وأنه إلى وصلهن عائد.

وأعاد محمد ابنة عُمر وإلى سائر الزوجات عاد. ولكن... إلى حفصة اتجه «الكَلِمُ» يقول:

﴿وإذا أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبَّأت به وأظهره اللّه عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض﴾.

الآية ٣ من «سورة التحريم»

وإلى عائشة وحفصة معاً اتجه «الكَلِمُ» يقول:

﴿إن تتوبا إلى اللّه فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن اللّه هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾!.

الآية ٤ من «سورة التحريم»

ثم إلى سائر الزوجات، جمعاً، فقد اتجه «الكَلِم» يقول:

«عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن... ثيِّبات وأبكارا﴾.

الآية ٥ من «سورة التحريم»

وهكذا هدأت «ثورة الحريم» وخمدت للحريم ثائرة وهكذا تبدّد الإضراب وتلاشى الاضطراب وعادت إلى محمد، في حياته الخاصة، السكينة التي كان في أشد الحاجة إليها الآن لا سيما وأمور الدولة الناشئة قد بدأ يتضاعف خطرها تضاعفاً يتطلّب مزيداً في

النفقات الخاصة والعامة أضعاف ما به تأتي ضريبة «الزكاة» و«الخراج» إلى الخزينة الإسلامية من مال، لا وليس هذا فحسب وإنما يُعوِّض في نفس الوقت المال الذي كان قد غُنم في «حُنين» وضاع في الإنفاق على «المؤلفة قلوبهم» ولكن! ها هي ذي أرجاء شبه الجزيرة كلها تدفع الضريبة المفروضة وعن دفعها لا يتأخر فيها أحد!.

وهنا... هنا تنتشر لنا صفحة جديدة أخرى من تاريخ هذا الدين والعين منّا ترقب تحركات العين من محمد والفكر منّا يُلاحق ما على الجبين منه من فِكَرٍ تدور ليعود القلب منا باليقين بأنه كان حتماً أن تمتد العين من محمد إلى ما وراء شبه الجزيرة وأن يتبلور في المخيلة منه ذلك الحلم القديم بامتلاك «كنوز كسرى وأموال قيصر..» وإلى تحقيق هذا الحلم وإبرازه من حيز الإمكان إلى حيز الواقع إنما تمهِّد من هذه الفترة الزمنية الأحداث السياسية في الخارج.

إن على الإمبراطورية الفارسية، وإن كان الظل منها قد طوى سوريا واليهودية وفي امتداد امتد ناحية البوسفور، قد ظهرت معالم الانحلال السياسي وإن على الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وإن كان قد امتد الظل منها غامراً البحر الأدرياتيكي وضفاف الدجلة في امتدادٍ إلى أعالي بلاد التتر منتهياً عند الحبشة، قد ظهرت أيضاً معالم الانحلال السياسي على هاتين الإمبراطوريتين وضحت معالم هذا الانحلال السياسي ومبعثه تجدّد الحروب بينهما وتواصلها حتى فاضت حكومتاهما بالفوضى التي جعلتهما أشد في هذه الفترة عُرضة لامتداد العين السياسية إلى احتلال الأراضي التي ينتشر عليها لهما ظلال والوقوع بالتالي على ما في خزائنهما من كنوز وأموال...

بين هاتين الإمبراطوريتين جالت العين من محمد جولة استقرّت بها على: **الروم**.

يقيناً... لقد تغيّر الزمن، والأيام الآن تقترب من ختام «الدعوة» عمّا عليه كانت عند البداية، بل ويقيناً لقد غاير هذا الزمن ذاك الزمن الذي غُلبت فيه الروم فحزنت لهزيمتهم آنذاك نفوس «المؤمنين» حزناً قذف إلى الأفئدة منهم بشعور الامتعاض لانتصار الفرس حتى قيل يومذاك:

﴿غُلِبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين... ويومئذٍ يفرح المؤمنون﴾!.

الآي ٢ و٣ و٤ من «سورة الروم»

ومن ثم فيقيناً إن عن ذلك الزمن قد تغيّر هذا الزمن الذي استقرت فيه العين من محمد على البيزنطيين أو بالأحرى كما عرفهم اللسان العربي بالروم، ولهذه العين كان حتماً أن تستقر على الروم لأن صاحبها إنما بشؤون الأمم التي من حوله لا فحسب كان غير جاهل

وإنما كان العارف والخبير كنتيجة حتمية للون الحياة التي خبرها ويخبرها وظروفها التي مارسها ويمارسها. فلقد أتاحت له حياته السياسية في الحاضر وحياته التجارية من قبل، التي لم ينقطع عن ممارستها إلاّ في يثرب وانشغاله فيها بالغزوات، الاطلاع على الأحوال السياسية لما وراء شبه الجزيرة ووزن شؤونها بميزان البحث الدقيق والتفكير العميق، ومن ثم فامتداد البصر منه في هذه الفترة الزمنية إلى الشام أملاً أن يُتاخم سلطانه هناك سلطان الروم في غسّان وسلطان فارس في الحيرة تمهيداً للزحف صوب هاتين الإمبراطوريتين...

ولكن!... الشُقة من المدينة إلى الشام شاقة وطويلة تحتاج إلى الجلد احتياجها إلى المال ومن ثم فالظرف الراهن لا يُحتِّم فحسب مخالفة العادة في سابق الغزوات حين كان محمد، في كثير من الأحيان، يتجه بجيشه إلى غير الناحية التي إليها يقصد تضليلاً لمن يريد أن ينقض عليهم بغتة وإنما يحتِّم على محمد أن يطالع الناس بعزمه السير إلى الروم وقتالهم ويُرسل في القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ كما تعد أكبر جيش يمكن إعداده ويرسل إلى سراة المسلمين حتى يتولوا الإنفاق على هذا الجيش العرم...

وكانت إطراقة هبّ على إثرها محمد ينادي الناس أن يتجهزوا لحرب الروم ويعيِّن لهذا القتال مكاناً تلك البقعة الواقعة في طريق الحج والمنتصفة المسافة بين مكة والشام والتي بينما اتجهت نحوها سبابته إليها للناس تشير راح الصوت منه يعلمهم بأن الخروج إلى الروم إنما أمر لا مفر منه وإليه يدعو سبب هو أن به قد اتصل نبأ من بلاد الروم بأنها تهيىء جيوشاً لغزو حدود العرب الشمالية يحد من سلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليتاخم سلطان الروم في الشام وسلطان فارس في الحيرة...

وكالنار في الهشيم سرى هذا النداء ولكن بمطارق أنغام شتّى طرق الهصيص منه مسامع المسلمين! فإن «المؤمنين» إنما فِرَق متباينة!.. إلى جانب المهَاجرين والأنصار، هؤلاء الذين كانوا قد أقبلوا على الدعوة بقلوبٍ خالصة، يُوجد الكثيرون من القبائل ممن دخلوا تحت ظلال الدعوة خوفاً ورهباً ورغباً، **خوفاً** من السيف المصلت بعد أن رأت ألاّ مفر أمام الغزو إلاّ أن تسلم وتستسلم **ورهباً** من هذه القوة التي أمست تضطرب أمامها كل قوة ويخشى إمرتها كل أمير **ورغباً** في مغانم الحرب فيمَ عسى أن يستقبل المؤمنون، على اختلاف تباينهم، هذا النداء إلى مقاتلة قوم لا فحسب أنهم بعد هزيمةٍ من الفرس قد غلبوا الفرس وإنما قد غلبوهم هم أيضاً من قبل في «مؤتة» وهذه إنما هزيمة ما زالت الذكرى منها عالقة بالأذهان؟!

أي حافز من ثم يحفز «المؤمنين» على الاستعداد ليقطعوا فيافي مجدبة وصحارى محرقة قليلة الماء؟!

ثم.. أي حافز يُحفز الأنصار ويدعوهم الآن إلى الإنفاق وما زال في أعماق بعض الطوايا منهم أثر بعد لم يبهت من ذكرى ذاك التقسيم الذي رموه بغير العدال في مال حنين؟.. فكر عن المسلمين، حتماً قد دارت بفكر محمد وعزمه على المسير.. قد تقرر... فنحن نراه يُرسل في القبائل يدعوها للتهيؤ كيما تعد أكبر جيش يمكن إعداده ونحن نراه يرسل إلى سراة المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش بما أتاهم اللّه من فضله ونحن نسمعه يدعو المقرّبين وليحرّضوا الناس على الانضمام إلى هذا الجيش حتى يكون من الأهبة بما يُدخل الرَّوع في روع الروم!...

لا ثمة شك في أن هذا النداء القائل بأن قوة بيزنطية هائلة تتجمّع في تلك البقعة التي أشهر نحوها محمد سبابته وقيل إنها يؤازرها حلفاؤها من مسيحية العرب من قبائل لخم وجذام وغسان قد جاء بأثره في «المؤمنين» الأُوَل الذين إلى محمد كانوا قد اجتذبهم «الكَلِم» الذي اتجه منه إليهم يقول:

﴿... ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

الآية ١٥٩ من «سورة آل عمران»

من ثم هؤلاء المؤمنون الأُوَل لم يسمعوا هذا النداء حتى تسارعوا مدرّعين بسلاحهم دافعين إبلهم وأموالهم مُرددين ما قد توالى من «كَلِم» في هذا الصدد يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم... تؤمنون باللّه ورسوله وتجاهدون في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾!

الآي من ١٠ إلى ١٢ من «سورة الصف»

للسبب هبّ «الأولون» من المهاجرين فهبوا خفافاً مسرعين يلبون النداء وينتظمون صفوفاً وعن محمد، في هذا المضمار، يُرددون:

﴿إن اللّه يُحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾!.

الآية ٤ من «سورة الصف»

وأما «الآخرون» من الأنصار فتثاقلوا وتراجعوا وتقاعسوا وبدأوا يلتمسون الأعذار ويلمسونه في كل صورة، بعضهم بالمرض والإجهاد وبعضهم بالتحجج بشدة القيظ وقطع صحارى قاحلة عزيزة الماء، وفي هذا التحجج كانت لهم وجيه حُجّة، فقد كان الوقت في

أوائل الخريف والقيظ في هذه الصحارى يشتد في هذه الآونة إرهاقاً!...

ولكن، الواقع في الحقيقة كان غير ذلك فإنهم قد أظهروا عدم الرغبة في الخروج إلى غزوةٍ قد تُفرغ أسلابها، إذا نجحت، في أيدي غيرهم كما حدث في أسلاب «حنين»!... ومن ثم انتهزت تلك الطبقة من المؤمنين الذين أسماهم محمد «بالمنافقين» الفرصة فرفعوا رأسهم وراحوا ينفرون من دعوة محمد إياهم لهذا الغزو النائي في هذا الوقت والطقس المحرق ليتجه إليهم محمد يقول:

﴿.. وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾!

الآية ٨١ من «سورة التوبة»

كلا... **﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللّه اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا عن الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل، إلاّ تنفروا يعذبكم اللّه عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً﴾!**

الآي ٣٨ و٣٩ من «سورة التوبة»

ما لكم متقاعسين؟! انفروا!!... **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللّه ذلكم خير لكم﴾!**

الآية ٤١ من «سورة التوبة»

يقيناً إنه: **﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾!**

الآية ٤٢ من «سورة التوبة»

﴿ولكن بُعدت عليهم الشّقة وسيحلفون باللّه لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم واللّه يعلم إنهم لكاذبون﴾!.

الآية ٤٢ من «سورة التوبة»

إلا أن التحريض على التخلّف عن القتال كان قد جاء بأثره وكان منزل «سويلم» مقراً لهذا الأمر، ومن ثم قوية ارتفعت يد محمد تعلن معاملة الأخذ بالشدة فما نُمي إليه أنهم هناك في بيت «سويلم» يجتمعون يثبطون عزائم بعضهم بعضاً عن هذه الغزوة الوشيكة الوقوع إلاّ وبعث إليهم طلحة بن عبد اللّه في بضعة من أصحابه مزوداً بأمره بأن يحرق عليهم البيت[1]... وحرق عليهم بيت سويلم واندلعت من هذا البيت لهب النيران عالقة

(١) الناسخ والمنسوخ، للصقار.

بأذيال الذين اقتحموها منها فارين التي لمرآها تراجع «المنافقون» فزعاً وعلى رأسهم زعيمهم عبد اللّه ليسرعوا، وكل يخاف أن يصيبه ما قد أصاب سويلم، يؤلفون ذلك من الجيش الذي في مسامعه راح يتردد بما قد تحدّر من شفتي محمد من «كلم» يقول إن اللّه له يقول:

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾!

الآية ٩ من «سورة التحريم»

ولكن!. في اللحظة الأخيرة صدر الأمر المحمدي بالاستغناء عن هذا القسم من الجيش وهذا إنما تصرف قدير ينمّ عن نظرة سياسية صائبة، فقد حسب محمد حساب ما قد يلاقيه جيشه من الحر والظمأ والمسغبة وهو في نفس الوقت يخشى تأليب هؤلاء على هذا الجيش الذي كان للشدة التي أخذ بها هؤلاء «المنافقين» أثرها في تكوينه إذ ليس إلاّ غداة ذلك كان أن أقبل ذوو اليسار وفي مقدمتهم عثمان بن عفان، فأنفقوا نفقة سخية لتجهيزه والذي ما بدأ ينتظم له صفوف عدد المحاربين فيه ثلاثون ألفاً، منهم عشرة آلاف فارس، إلاّ ودوّى فيهم صوت محمد بالمسير، وإلاّ وامتدت يد الزمن تُسجِّل:

غزوة تبوك «رجب ٩ هـ ٦٣٠ ـ ٦٣١ م»

بقيادة محمد نفسه، تاركاً وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا عدم الخروج، تحرك صوب الشام هذا الجيش الذي أسماه محمد بجيش «العسرة» لشدة ما لاقى في تكوينه من الجهد والعسر حتى يُلْقي في روع السيادتين المتاخمتين روعة السيادة الطالعة من قلب الصحراء!

بهذا الجيش العرم سار محمد ماراً في طريقه إلى الشام بتلك البقعة التي انتشرت عليها لعاد وثمود آثار ليست هي أطلال منازلهم وإنما في حقيقة الأمر بقايا مقابرهم منقورة في الصخور والتي تسمى: «الحِجْر» بهذه الديار التي كوّنت عنها القصص آي من «سورة الأعراف» مرّ محمد بجيشه الذي ما كاد يرى هذه الأنقاض حتى تذكر ما قد تلى محمد من قبل من آي في هذه الديار التي بها يمر الآن.. والتي لم يرها مقفرة موحشة خالية الأرجاء من الحياة إلاّ، خشية أن يصيبه ما قد أصاب عاداً وثمود، ازداد بمحمد التصاقاً ليشتد من حوله منه الالتفاف وهو به منطلق قاصداً تلك المدينة القائمة على حدود الإمبراطورية البيزنطية للروم المسيحية والتي إليها كان بسبابته قد أشار: «**تبوك**».

ولكن!... في تبوك لم يجد جيش محمد أحداً من الروم!... وتلفت الجيش المحمدي حائراً يتساءل، ولكن!. ليملأه زهواً القول الذي انطلق من قائده يحد من حيرته ويُدوي بين صفوفه برجْع النشوة يقول بأن الروم المسيحية قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته فآثرت الانسحاب بجيشها داخل بلاد الشام كيما تتحصّن في حصونها هناك وأن محمداً لا يرى

محلاً لتتبع الروم المسيحية داخل بلادها، بيد أن إذا كان من العسير الآن الولوج إلى داخل بلاد الروم فإن من غير العسير التمهيد إلى بلوغ الهدف بوسائل شتى!

وهنا!... هنا تنتشر لنا صفحة أخرى جديدة من تاريخ هذا الدين كما تسطرها هذه الفترة من حياة هذه الشخصية الفذة العجيبة، فنحن نرى محمداً قد أقام في تبوك وسكن عند الحدود يناجز وينازل ويُقاوم واحداً بعد واحد من الأمراء المسيحيين أمراء المقاطعات المجاورة المقيمين على الحدود يُرسل إليهم رُسُله ويخيرهم بين أمرين... إمّا الانضواء تحت سلطانه بأن يسلموا وإمّا أن يدفعوا إليه: **الجزية**.

يقيناً لقد جاء الآن، بعد أن انتهى دور «أهل التوراة» دور «أهل الإنجيل» فإنه:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾!

الآية ٩ من «سورة الصف»

يقيناً لقد تغيرت الآن الحال وطوى هذا الحاضر ذاك الماضي فغاب زمن كان فيه أنساب، ولما كان قد انقضى على إقامة محمد في المدينة إلاّ القليل، من شفتي محمد ذلك «الكَلِم» الذي جاء آنذاك يقول إن اللّه لابن مريم قد قال:

﴿... وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾.

الآية ٥٥ من «سورة آل عمران»

وإن اللّه، أيضاً، عن أتباع ابن مريم قد قال:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الفاسقون﴾!

الآية ٤٧ من «سورة المائدة»

بل وإنه عن أتباع ابن مريم قد تحدث قائلاً:

﴿... وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾.

الآية ٢٧ من «سورة الحديد»

يقيناً لقد غابت هذه الآيات الآن بمغيب زمن كان غضونه محمد في المدينة حديث عهد وحتماً كان لهذه الآيات أن تغيب، فالآن إنما آن قد تطورت فيه سياسة وتطورت بتطورها الآيات، فما كانت لتأتي الآيات إلاّ في المناسبات وإلاّ لتناسب كل مناسبة، ومن ثم ومحمد قد غدا الآن السيد المطلق فليس إلاّ لينطلق من شفتيه «الكَلِم» يحمل إلى الأتباع من حوله القول الصريح يصم أتباع ابن مريم بوصمة الكفر المبين ويقول بأن كفرهم إنما

يضاهي كفر قريش فإنهم مثلهم لا يدينون الدين الحق المتلخص في الإيمان بأن محمداً رسول اللّه.. فإنما هؤلاء لا يؤمنون بأن محمداً رسول اللّه بينما هم يؤمنون بأن المسيح ابن اللّه!

﴿قالت النصارى المسيح ابن اللّه، ذلك قولهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم اللّه﴾!

الآية ٣٠ من «سورة التوبة»

من ثمّ: **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلظة﴾!**

الآية ١٢٣ من «سورة التوبة»

أجل... **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر ولا يُحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾!**

الآية ٢٩ من «سورة التوبة»

ومن ثم... أمام هذا «الكَلِم» المدوي في مسامع أهل الحدود من الأمراء المسيحيين يحمل دويُّه صليل السيف المسلّط والتخيير بين دفع الجزية أو الغزو فالقتل سجّل الزمن:

معاهدة الصلح بين محمد وأهل الحدود على دفع الجزية

بثمارها جاءت هذه الخطة التي أراد بها محمد تدعيم الطريق إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية، فإلى محمد أقبل «أهل الحدود» يتقرّبون إليه بالهدايا وعلى دفع الجزية للدولة الناشئة في المدينة دلفوا صاغرين يُصالحوه...

لا ثمة شك في أن دفع الجزية إنما سُنة كان قد استنها الملوك المنتصرون على مَن انتصروا عليهم من الشعوب الذين يعيشون داخل حدود بلادهم ومن ثم كرأسٍ للدولة التي كوّنها استنّ محمد دفع الجزية على هؤلاء الذين كانوا يعيشون داخل حدود شبه الجزيرة من أهل الكتاب الذين لا يدينون بالدين القائم للدولة الناشئة!...

من **آيلة** هذه المدينة الواقعة بالقرب من البحر الأحمر، أقبل بنفسه أميرها، يوحنا بن رؤبة، يحمل على صدره الصليب ويحمل إلى محمد الهدايا ويقدم أمامه الطاعة ويصالحه على أن يدفع إليه الجزية التي عليه قد فرضها ويتناول لقاء ذلك من يد محمد كتاب أمن هذا نصّه:

«هذه أمنَةٌ من اللّه ومحمد النبي رسول اللّه ليوحنا بن رؤبة وأهل آيلة: سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحر لهم ذمة اللّه ومحمد النبي ومَن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل

البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه. وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس. وأنه لا يحل أن يُمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر».

ومن **الجرباء** هذه القرية من أعمال عُمان بالبلقاء من أرض الشام أقبل على محمد ساداتها يقدمون الطاعة ويصالحونه على دفع: الجزية.

ومن **أذْرُح** أقبلت أيضاً الوفود تصالح السيد المنتصر وتدفع إليه صاغرة: الجزية!..

هذا هو **الهدف** من غزوة تبوك... يقيناً من ثم أن بثمرها قد أتت هذه الخطة التي أراد بها محمد تدعيم الطريق إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية، فهذه المعاهدات البحت سياسية التي لا دخل فيها قط للدين وبهذا الحلف السياسي الذي لا دخل فيه قط للدين والنَّاصّ على أنه لا يحلّ لأهل الحدود أن يمنعوا ماءً يَرِدَه محمد برجاله ولا أن يقفوا حائلاً بينه وأي طريق يريد وأن يدفعوا له، بحكم مكانته السياسية كرأس الحكومة القائمة للدولة الناشئة في المدينة، جزية تتراوح باختلاف أقدارهم ومقدرتهم منها التقدير ويؤدونها أداء آيلة التي فرضت عليها جزية قدرها ثلاثمائة دينار كل عام، دعَّم رأس الدولة الناشئة الطريق إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية...

والآن.. الآن لم يعد لمحمد حاجة إلى البقاء على الحدود... ولكن!... عود محمد على رأس هذه الألوف من «جيش العُسرة» من حدود الشام إلى المدينة لم يكن بالأمر الهيّن!... فلقد رأى هذا الجيش أن محمداً قد قطع به هذه الشقة الشاقة وتحمل أفراده في قطعها ما تحملوا من الجهد ثم عادوا ولم يغنموا ولم أمير آيلة والبلاد المجاورة له وليس لهذا تُقطع الصحراء في شدة القيظ!... لم يلم أفراد الجيش بالمغزى منهذه الغزوة ومن ثم جعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ونقل المقرّبون نبأهم إليه فأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ولكن ليقدح هذا الاستهزاء زناد التفكير منه فيطوي اليوم إلى الغد مُفكراً في ماذا سيقول، أيضاً، مَن في المدينة إذا ما عاد من غير أن يغنم أو يأسر؟.

ودارت اللّوالب الفكرية من محمد دورة سريعة عمل خلالها منه التفكير فرأى أن إلى جانب هذه الإمارات المسيحية التي صالحته على دفع الجزية ما زالت هناك تلك الإمارة المسيحية الواقعة على سبع مراحل من دمشق بينها والمدينة... وكانت إطراقة ما هبّ على إثرها محمد إلاّ وسجلت يد الزمن:

بعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل

إلى أكيدر بن عبد الملك أمير هذه الدويلة المسيحية بعث محمد خالداً في حملةٍ قوامها خمسمائة فارس بينما انقلب هو، بعد شهرين من الزمن في تبوك، بجيشه راجعاً إلى عاصمة

الدولة الناشئة.. وبينما كان محمد قد شارف مشارف عاصمته كان خالد قد أسرع بالانقضاض على «دومة الجندل» في غفلة من مليكها الذي كان قد خرج في تلك الليلة الصافية القمر ومعه أخ له يسمى حسّان في الصيد، ولذلك لم يلق خالد مقاومة فانقض على حسّان الذي هوى قتيلاً وعليه قباء من ديباجٍ مخوّص بالذهب استلبه خالد وبعث به إلى محمد بينما أخذ أُكيدِرَ أسيراً.

وهدد خالد أمير دومة بالقتل إن لم تفتح دومة للغزو المحمدي أبوابها... وفتحت دومة أبوابها فداء لأميرها ومنها ساق خالد أربعمائة درع وألفي بعير وثمانمائة شاة ومغانم أخرى كثيرة وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بمحمد في عاصمته يُلقي بين يديه بالمغانم الممثلة سقوط «دومة الجندل المسيحية» في يد دولة الإسلام!.

وبين يدي سيد شبه الجزيرة العربية وقف أمير هذه المقاطعة الصغيرة القائمة على الحدود صاغراً ذليلاً... وقف في رسف الأسر وعليه، كما كان على أخيه، قباء من ديباج مخوّص بالذهب مما جعل «المؤمنين» من حوله يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه ولكن ليلتفت إليهم محمد فيرسل قولاً لوقعه كان عميق المغزى في مسمع أُكيدِر إذ يقول:

«أتعجبون من هذا؟! والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن مُعاذ في الجنة أحسن منه!».

ولذكر سعد بن مُعاذ كان حتماً أن تتخاذل من أُكيدر الأوصال فلذكر هذا الاسم إنما تهب من مضجعها عن «قريظة» الذكريات!.. ومن ثم طأطأ أُكيدِر منه الرأس رضوخاً فحقن محمد دمه على أن يدفع الجزية ويمسي له حليفاً ليس إلاّ على إثر ذلك خلى محمد سبيل أُكيدر الذي عاد إلى إمارته التي أمست كسائر الإمارات المسيحية تدفع ما قد ضرب عليها من جزية والتي أصبحت حليفة لهذه الدولة الناشئة التي غدا الظلُّ منها يُظل الإمارات.

وهنا... هنا ندرك المغزى من بعث خالد إلى دومة الجندل فإن محمداً إذ سار قافلاً من تبوك إلى المدينة بمن كان قد أخذهم بالشدة تارة وباللين تارات من المستهزئين، فإنما هو لم ينته إلى المدينة إلاّ وابن الوليد قد لحقه بها ومعه أُكيدِر أسيراً وما حمل من دومة من مغانم. هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن الخروج اضطراباً ردّ المستهزئين إلى الإعجاب بهذه الشخصية التي استطاعت أن تأتي بالأمراء أسرى!.. ليس إلاّ حينذاك فهم الذين كانوا قد استهزءوا بهذا الخروج المغزى من هذه المعاهدات التي فرض بها محمد «الجزية» على «أهل الإنجيل» والتي جاءت بها آخر الغزوات..

ولكن!. منذ ذلك اليوم اشتدّ محمد في معاملة «المنافقين» شدة لم يألفوها من قبل، لقد

كان الإسلام من قبل محصوراً في المدينة وما حولها وأما وقد انتشر الآن في أنحاء شبه الجزيرة وغمر بلاد العرب جميعاً وها هو ذا يشارف الانتقال منها فكل تهاون مع «المنافقين» شر يجب تلافيه وخطر ما أسرع ما يستشري إذا لم تُجتث جرثومته، ومن ثم فكما قد حُرق من قبل «بيت سويلم» ليُحرق الآن ذلك المسجد الذي قد بنوه!...

وسجّل الزمن:

«حرق مسجد الضرار»

إلى محمد، قبيل خروجه إلى تبوك، كان قد أتى بُناة مسجد الضرار وهم اثنا عشر رجلاً أحدهم معتب بن قشير، ذاك الذي كان قد قال في «واقعة أُحد» «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط» طالبين منه أن يفتتحه بالصلاة فيه ولكن... لما كان هذا المسجد يقوم «بذي أوان» وبينه والمدينة ساعة من نهار فقد استمهلهم حتى يعود قائلاً: «لو قدمنا إن شاء اللّه لأتيناكم فصلينا لكم فيه» وعاد محمد من «تبوك».. ولكن ما لبث أن دعا إليه بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه واحرقاه!».

وانطلقا فأخذا سعفاً من النخل وأشعلا فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه وكاللهب اللافح راح القول في أرجاء المدينة يسري بأن محمداً قد أمر هذا الأمر لأن إليه قد نما أن إلى هذا المسجد يأوي جماعة من «المنافقين» يحاولون أن يُفرّقوا بين المؤمنين ضِراراً!..

ويقيناً!. يقيناً إن محمداً بإحراقه هذا المسجد قد ضرب مثلاً ارتعدت له فرائص «المنافقين» لأن بعد ذلك بدأ تلاشيهم من سجل التاريخ... فليس إلاّ بعد هذا الحدث خافوا وانزووا وانعقد لهم لسان عن أن ينطلق بالكلام عن هذه الغزوة التي عاد منها محمد بغير أن يصيب مدائن قيصر... بل ولم يبق لهؤلاء من يحميهم إلاّ عبد اللّه وهذا بدوره لم يعمّر بعد تبوك غير شهرين من الزمن.. ومن ثم تهافتت على تهافت قوى «المنافقين» وخفتت لهم أصوات بل اختنقت أمام أصوات «المؤمنين» التي انطلقت من كل جانب تمجّد هذه المعاهدات التي فرضت «الجزية» على «أهل الإنجيل» والتي جاءت بها هذه الغزوة التي لئن تجلّت على صفحات التاريخ السياسي الإسلامي كمناورة وجسّ نبض سياسي فإنما لما تحمل من مغزى قدرت تمام التقدير الرؤوس العربية وأيقنت أن لمحمد قد استتب الآن الأمر وأنه، يقيناً، قد أمن كل عادية!

ويقيناً... إذا كان استسلام «حنين» الإعلان الصارخ في أرجاء بلاد العرب بأن لمحمد قد

دان ملك الصحراء فإنما بهذه المعاهدات السياسية مع أمراء الحدود قد استتب تماماً له الأمر مدعماً بهذه الرواية التي ما سرت في أنحاء شبه الجزيرة تقول بأن الروم قد انسحبوا إلى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها خوفاً من الجيش الإسلامي إلاّ وترك ذلك في أنفس قبائل العرب التي كانت ولم تزل محتفظة بكليتها وبعقيدتها الدينية أثراً عميقاً هزّ بعنف منها الأعماق وراح رجع صداه بهذا السؤال: أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردوا منهم الصليب وجاءوا به إلى «بيت المقدس» في حفل عظيم!؟. من ثم.. إذا كان الروم قد غلبوا فارس وفارس كانت صاحبة السلطان الأعلى على اليمن من البلاد العربية زمناً غير قصير، قد انسحبوا خوفاً من محمد فما أجدر هذه القبائل أن تتضام كلها في هذه الوحدة التي تستظل بلواء الإسلام لتكون بمنجاة من تحكم الروم وحكم الفرس؟ بل وماذا يضر أبناء القبائل من حضر ومضر أن يفعلوا ذلك وهم يرون محمداً يثبت من جاءه معلناً الطاعة في إمارته وعلى قبيلته؟!.

بدافع هذا اليقين الذي انعقد عليه القلب القبلي هبّت القبائل من أرجاء شبه الجزيرة تجهز وفودها للخروج إلى المدينة كيما تقدم الطاعة وتعلن لمحمد الدخول في دينه وكانت ثقيف أول من هبّ فقد سجّل الزمن:

استسلام ثقيف للسلطان المحمدي

كانت الطائف أول من أسرع إلى إعلان الطاعة بعد «غزوة تبوك»... فقد أرسلت ثقيف وفدها لمصالحة سيد الدولة الناشئة متناسية ما قد كان في أعقاب واقعة حنين قد وقع، ولهذا كان الجوهري من السبب... فقد كان عروة بن مسعود، الرأس المفكرة في ثقيف وأحد سادتها، غائباً باليمن أثناء غزو محمد بلاده ضد موقعة حنين، فلما عاد إلى موطنه ورأى محمداً قد انتصر كان حتماً أن يطرق مفكراً في المصير الذي ينتظر بلاده أمام هذه الانتصارات التي تتالت وتتوالى وتمتد مجترفة مكتسحة كل العوائق لا سيما وعروة لم يكن ليجهل محمداً، وقد كان أحد الذين تفاوضوا معه عن قريش في معاهدة الحديبية، ومن ثم أسفر واضحاً أمام عروة المصير...

أجل.. لقد صمدت ثقيف أمام حصار محمد ومنها دون أن ينال شيئاً عاد ولكن!.. ها هي ذي الآن لا تتلفت فيما حولها إلاّ لترى القبائل المجاورة لها قد أعلنت للدولة الناشئة ولاءً بسببه ناصبتها هذه القبائل عداء اعتبرت به نفسها في حالة حرب معها وهذه إنما جفوة أصبحت بها ثقيف منعزلة عن سائر العرب حولها ومن ثم أسرع عروة إلى المدينة يعلن لمحمد إسلامه.. ولكن!.. لئن أهدرت ثقيف دم عروة فإنما دمه لم يذهب هدراً وهذه القبائل التي

تحيط بالطائف كانت، كلها، قد أسلمت!. وليس هذا فحسب وإنما أهل ثقيف لم يعد يأمن لهم سرب ولا يخرج منهم رجل إلاّ اقتطع حتى أيقنوا أنهم إن لم يجدوا سبيلاً إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فأمرهم لا ريب إلى الفناء!. وليس إلاّ عند ذاك بدأت تراود ثقيف عن التسليم لسيد شبه الجزيرة الفكر كي لا يصيبها ما قد أصاب قبائل غيرها من العرب، فقد شمخ الرأس الثقفي أنفاً مما قد يصيب رجال ثقيف من رقٍ أو أسر أو ضرب أعناق وتعالت الأنفة الثقفية آنفة مما قد يصيبها من سبي عقائل لها ونساء.. ومن ثم، راضخة، أرسلت ثقيف وفدها على رأسه كبيرها «عبد ياليل» يقدم طاعتها ويعلن استسلام الطائف لسلطان سيد العرب!!

وباستسلام ثقيف تمّ لمحمد صحيح الانتصار، فقد كان الحجاز كله قد أسلم وكانت سطوة محمد قد امتدت من الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب حتى غدا حيثما هبّ الريح في أرجاء شبه الجزيرة فليس إلاّ ليدوي بهذا الانتصار وليس إلاّ ليهيىء انسيابه من قلب الصحراء إلى عالم ما وراء الصحراء، هذه الصحراء التي تتلفت الآن لترى أن عليها ينتشر ظل سيد واحد مطلق السيادة!. سيد لا ككل سيد فالسيد يحمل من المؤهلات «الرسالة الإلهية» ومن الألقاب لقب «رسول اللّه»..

إذن لا غرابة أن نرى أن باستسلام ثقيف وإسلامها قد دان لمحمد ملك الشمال من شبه الجزيرة لا ولا بالغريب كأثر لذلك، أن نرى البلاد الباقية في جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلها لتنضم إلى الدين الجديد تجهز وفودها وتسير من جهات مختلفة قاصدة كلها إلى المدينة كيما تعلن الولاء للواء صاحب هذا الدين الجديد..

هذه هي الفترة الزمنية التي مكث فيها محمد في المدينة مغتبطاً بما قد أحرز من انتصارات لم يكدر عليه خلالها إلاّ وفاة ابنه إبراهيم...

ولكن.. هذه الفترة الزمنية إنما نفسها الفترة التي اشتد محمد فيها في المعاملة شدة أعلنها ما توالى من آي يكون من القرآن السور المتأخرة من القسم اليثربي الذي ما أتي إلاّ ونسخ ما قد أتي من قبل من آي[1] كوّن من القرآن بعض سور القسم المكي وبعض السور المتقدمة من القسم اليثربي الخاصة بالتسامح الديني والحرية العقيدية فقد أعلن الجديد من الآي:

إلغاء التسامح الديني وإبطال الحرية العقيدية

لا ثمة شك في أن الزمن، في هذه الفترة الزمنية، قد تغير، فالآن إنما آن فيه على صفحة

---

(١) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس.

شبه الجزيرة العربية قد أمسى يترامى في امتداد، طاوياً بقعة بعد بقعة مجترفاً قبيلة بعد قبيلة، ظلّ محمد بن عبد اللّه. ليقف هذا الفرد من فرع عبد مناف وبيت هاشم سيداً مطلقاً من شفتيه ينطلق «الكَلِم» عالياً وصريحاً يدوي يعلن نسخ بعض القديم من الآي بالجديد من الآي لاغياً آيات السلم بآيات القتال معلناً:

نسخ سياسة السلم بسياسة القتال

يقيناً ليس لامرىء، الآن أن يعترض اعتراضه من قبل على «كلم» تحدّر من شفتي محمد أو يتحدّر، فالآن إنما آن فيه تحول محمد من فرد يرمي بالافتراء على اللّه ولا يؤازره سوى القليل من رجال لا يكونون إلاّ حفنة ضئيلة من أتباع ينعتهم سادة قريش بالسفهاء ولا قوة لهم ولا حول ولا منعة بين أهل الحول والقوة والمنعة، إلى سيد مطلق يترامى على صفحة شبه الجزيرة في امتداد إلى خارجها منه الظل.

ومن ثم كان حتماً، وما كانت الآيات لتجيء إلاّ لتناسب كل مناسبة، أن تنسخ بعض آيات القسم المكي المصطبغة بصبغة السلم والمنادية بأن محمداً لم يأت إلاّ بشيراً ونذيراً وأنه لا يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بآيات تعلن سياسة السيف وقتل كل من أبى الإسلام وكره أن يكون من المسلمين.. يقيناً لقد قيل من قبل: **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**؟..

الآية ٩٩ من «سورة يونس»

ولقد قيل من قبل:

﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾!

الآية ١١٨ من «سورة يونس»

بل ولقد قيل من قبل إن الأمر الإلهي إلى محمد قد أتى ناهياً عن جدال الناس في أمر معتقداتهم الدينية وعدم إكراههم على قبول أمره:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن اللّه يفصل بينهم يوم القيامة﴾.

الآية ١٧ من «سورة الحج»

فإنه: **﴿لا إكراه في الدين﴾**!.

الآية ٢٥٦ من «سورة البقرة»

كل هذا قد قيل من قبل كما به أتت آيات لم تأت إلاّ مؤيدة لما حدّدته السياسة عهد ذاك من أهداف ترسمها بوضوح تلك الفترة الباكرة من الحياة المحمدية في يثرب ومن قبل يثرب في مكة، ولذا جاءت عهد ذاك مصطبغة بصبغة التسامح الديني موصية الناس بالدخول في السلم كافة:

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.

الآية ٢٠٨ من «سورة البقرة»

ولما كان لا شيء يكتسب القلوب ويمسح أوجاع القلب الكليم ببلسم السكون مثل الصفح الجميل فقد قيل عهد ذاك:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام...﴾.

الآية ٨٩ من «سورة الزخرف»

ولكن.. كل هذه الآي المكونة لجزء مما يتلى من القرآن، حتى الآن، إنما قد نسخت[1]!. نسختها آيات تعاقبت في هذه الفترة الأخيرة من المقام في المدينة جاءت تحث على الانتقام وتعلن القتال كما سيلتقطها منا المسمع بوضوح، بعد قليل، لحظة ارتفع الصوت من محمد جهيراً يقول:

﴿.. فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾!

الآية ٥ من «سورة التوبة»

﴿قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾.

الآية ١٤ من «سورة التوبة»

كلا!.. لا تأخذنكم الآن بمن لم يؤمنوا بدعوة محمد شفقة، فالآن إنما الآن الذي آن فيه أن يعلن جهارة ما قد ضاقت بكتمه الضلوع، فالآن ينطلق من شفتي محمد الصوت الجهير يدوي:

﴿.. واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾!

الآية ٨٩ من «سورة النساء»

---

(١) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس.

لا ثمة شك في أن هذه الآيات الحاثة على القتال قد تتابعت في أواخر العهد اليثربي وجاءت تترى لا تكل أمر الهداية إلاّ إلى السيف ومن ثم فتعارض آي الصفح الجميل والسلام بآي الانتقام والقتال تعارضاً كان السبب في اختلاف القسم اليثربي المتأخر من القرآن عن القسم المتقدم منه وعن القسم المكي في ألوان السياسة وفي صور الأحكام. ولكن هذا التعارض لا اعتراض عليه قط لأنه لا يعود بأسبابه إلاّ إلى تطور السياسة المحمدية خلال فترة من الزمن طويلة تغيرت في غضونها للسياسة ألوان وتبدلت لها أحوال وتغير في غضونها محمد من فرد مهيض الحكم ينتشر منه الجناح إلى سيد مطلق الجناح على بلاد العرب ويظلها، قاصيها ودانيها وشمالها وجنوبها، وإلى يده قد أسلمت في استسلام منها المقاليد!.. هذا هو السبب في ما يسفر من تعارض الآي... ومن ثم فلئن تعارضت الآي وخالف في السياسة بعضها بعضاً فليس ذلك إلاّ لأن «الوحي» كان في مختلف المناسبات للمناسبات غير مخالف وليس ذلك إلاّ لأن كلام «اللّه» كان في كل الحالات لمحمد يعضد ويؤازر وليس ذلك إلاّ لأن اللّه لم يرسل في كل المناسبات «الكلم» إلاّ ما كان للمناسبات مناسب، ومن ثم فإذا ناقضت آيات القتال آيات السلم وإذا كانت آيات الانتقام قد نسخت للصفح آيات فليس ذلك إلاّ لأن أواخر العهد في يثرب كان غير أوائله فيها كما كان غيره في مكة، ولذا نسخت بعض اليثربيات بعض المكيات بل ونسخت بعض اليثربيات حتى ليغدو غير القليل مما يقرأ من القرآن، الآن، ليس إلاّ المنسوخ من الآي[1] ومن أبرز هذه الآي التي نسخت إنما هذه التي جاءت في الفترة الباكرة من المقام بيثرب ومن أهمها هذه الآية:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن باللّه واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذه الآية التي تضمها «سورة البقرة» إما آية منسوخة ـ نسخت ـ كما نسخت أيضاً تلك التي تضمها نفس السورة والتي تقول:

﴿لا إكراه في الدين﴾.

نسخت هذه الآية وتلك بآي أُخر انطلق من شفتي محمد مدوياً في الآفاق العربية وراح يرج الأرجاء منها رجاً يقول:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

الآية ٨٥ من «سورة آل عمران»

(١) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس.

فإنما:

﴿الدين عند الله الإسلام﴾!

الآية ١٩ من «سورة آل عمران»

يقيناً إن هذا التطور في معاني الآي ليس إلاّ انعكاسات للتطور الهائل الذي بلغه محمد في حياته السياسية وليس، بالتالي، إلاّ النتيجة الحتمية لتوالي انتصاراته حتى المدى الذي أدّى استسلام ثقيف هذا الاستسلام الذي كان إليه قد مهّد مالك بن عوف والذي ليس إلاّ على إثره كان أن بدأت من جهات مختلفة خاصة من أقاصي الجنوب تطلع طلائع الوفود من العرب تترى قاصدة كلها إلى المدينة كيما تبايع مؤسس الدولة الجديدة عليها سيداً تحت صورة اعترافها برسالته الإلهية واعتناقها الدين الجديد ـ فإنه إذا كان استسلام ثقيف، بالإضافة إلى معاهدات أهل الحدود ـ قد ترك في أفق القبائل التي كانت ما تزال محتفظة بدينها القديم وفي كيانها أثراً عميقاً فإنه قد ترك في نفوس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت وعمان أثراً أعمق لأن هذه القبائل العربية كانت تتربص أمر هذا الحي من قريش وأمر محمد معه، ومن ثم فليس إلاّ باستسلام ثقيف عرفت هذه الأحياء من العرب أن لا طاقة لهم بعد ذلك بحرب محمد ولا عداوته وليس إلاّ تحت ضغط من هذا اليقين صحت من كل هذه البلاد الواقعة في جنوب شبه الجزيرة عزيمة الانضمام إلى الدولة الناشئة ذات الدين الجديد. ومن أوائل هذه الوفود التي تسارعت إلى إعلان الطاعة كان:

«وفد همدان»

قدم هذا الوفد وعلى رأسه «مالك بن سمط» يقدم الطاعة ويعلن ارتباطه بحبائل الإسلام فكتب محمد كتاب أمن: «لمالك بن سمط، من أسلم من قومه.. لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله...» وتبع هذا:

«قدوم رسول ملوك حمير»

إلى محمد أرسل ملوك حمير كتابهم يعلن إسلامهم واستظلال دويلاتهم بحمى الدولة الناشئة ويقدمون على ذلك البرهان القاطع بأنهم قد قتلوا من وجدوه من قومهم على غير الإسلام.. وإلى هؤلاء، الحرث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان. قيل ذي رعين ومعافر وهمدان أرسل منشىء الدولة الجديدة كتاباً حمله إليهم العشارون يقول:

«.. أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم.. فبلّغ ما أرسلتم به.. وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بهداه وإن أسلمتم، أطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي.. فمن أدى ذلك إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم فإن له ذمة اللّه وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو للّه ولرسوله.. إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً.. وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلاّ رضياً»!

ولكن!!.. بينما كانت القبائل الأخرى من أرجاء شبه الجزيرة تتهيأ لترسل وفودها إلى عاصمة الدولة الجديدة كي تقدم الطاعة للواء الخافق ثم تتمهل ويحتجزها التردد كانت الأشهر تتوالى ويتلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج الأكبر من السنة التاسعة للهجرة ليجيء هذا الموسم بأهم حدث في تاريخ «الدعوة» لم يكن مصدره إلاّ ومضة لاهبة من ومضات هذا التفكير الفذ العجيب، فقد أطرق محمد والعين منه قد لحظت هذا التردّد، إطراقة هبّ على إثرها لتسجل يد الزمن:

«حج أبي بكر بالمسلمين»

لأول مرة يخرج حجيج إسلامي يرأسه مسلم بصفة رسمية، فقد أرسل محمد أبا بكر أميراً على المسلمين في حجهم الأكبر وخرج أبو بكر في ثلاثمائة مسلم قاصداً إلى مكة ليؤدي بهؤلاء فريضة الحج في غير تعرض لأحد، فقد كان الناس ممن على دينهم القديم يحجون وبينهم وبين محمد عهد عام ينص على ألاّ يصد عن «بيت اللّه» أحد جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام مما جعل الوفود من الحجيج تجيء أفواجاً من كل فج عميق..

ولكن هذا «العهد» القائم بين محمد وهذه القبائل من العرب يجعل لا قبل لمحمد بصدّ أحد عن حجه، فإن الحج إنما موسم خلاله تتدافع القبائل إلى «بيت اللّه» والسيف الإسلامي وإن كان قد أخضع الكثير من القبائل فما زال في البعيد والشاسع من الأرجاء الكثير أيضاً من القبائل من أصحاب الدين القديم وهؤلاء ما زالوا يحجون وعن الحج لا يمنعهم مانع ما دام هذا «العهد» يقوم فإنما العرب من هذه القبائل ورغم تحطيم تماثيل الشفعاء، تزور «بيت اللّه» لأنها في الواقع لا تُقبل في حجها إلاّ إلى اللّه!

من ثم فيقيناً إن هذا الاجتماع أمر لا فحسب لا ترتضيه السياسة المحمدية وإنما لا يتفق قط وما إليه قد رسمت هذه السياسة من غاية!.

ولكن! أي حائل يمكن أن يحول بين الناس وهذا الاجتماع وموسم الحج كان قد بدأ وممن على دينه القديم كان قد أتى منهم من أتى ساعياً من كل الأطراف إلى هذا القلب النابض ليقضي مناسك حجه... من ثم فليكن هذا الاجتماع أوان بتبليغهم قيام الدين الإسلامي ولتكن أداة ذلك نقض هذا «العهد»..

فكرة، تمخص عنها التفكير من محمد وعليها في دقة جرت اللّوالب الفكرية منه سريعة فأسرعت الأقلام تسطر كتاباً دفعه محمد إلى «علي بن أبي طالب» وعلى جناح السرعة أطلقه كي يلحق بأبي بكر وكيما يعلن للناس حين الحج بيوم «عرفة» ما قد حوى من أمر سيد العرب. فأسرعت يد الزمن تسجل:

نقض العهد «٩ هـ»

تحريم دخول مكة إلاّ على كل مسلم... قيام الدولة الإسلامية وإعلان دستورها وإعلان الإسلام: الدين الرسمي للدولة، الدين الحق.

يستعيد الخيال مشهد هذا اليوم الذي اجتمع الناس فيه على أرض «منى» يؤدون مناسك الحج وقد جمعتهم وحدة المعتقد إلى اللّه وفرّقتهم من حول الاتجاه إلى هذا المحور عقيدة شطرتهم إلى قسمين: قسم يعبد اللّه ويتخذ محمداً إلى اللّه شفيعاً، وقسم يعبد اللّه ويتخذ الملائكة إلى اللّه شفعاء، وكل قد انصرف إلى تأدية مناسك الحج الأكبر وشعائره مستغرقاً في طقوس هذا التعبد إلى ما انتهى الناس منها إلاّ وتوقفوا في جموع أمام صوت عليّ الذي ارتفع يشق الفضاء معلناً:

﴿براءة من اللّه ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾!

الآية الأولى من «سورة التوبة»

يقيناً لقد قيل من قبل:

﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾..

الآية ٧ من «سورة التوبة»

ولكن!.. كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله؟!

بيد أن مهلاً!.. مهلاً! فقد ضرب للناس أجل هو هذه الأشهر الأربعة الحرم ليرجع خلالها كل قوم إلى بلادهم ومن ثم:

﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي اللّه﴾، ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾!

الآي ٢ و٥ من «سورة التوبة»

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا إيمانهم﴾؟!

الآية ١٣ من «سورة التوبة»

﴿أتخشونهم... قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾!

الآي ١٣ و١٤ من «سورة التوبة»

فيقيناً: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه﴾!**

الآية ١٧ من «سورة التوبة»

من ثم: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾!**

الآية ٣٨ من «سورة التوبة»

هذا هو في إطار التاريخ الديني الدستور الذي وضع الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية كما به أتت هذه الآيات الحاثة على القتل والقتال والانتقام التي نسخت آيات الصفح والسلام والذي بسببه أضحى كل من لا يؤمن بسلطان محمد ويأبى الاعتراف بأنه رسول اللّه يعتبر كافراً عقابه القتل!..

ولكن.! بهذا الدستور الجديد تنشر لنا صفحة هي في سجل حياة محمد كل الجدة جديدة، فقد أدركت العرب قاطبة أن «البيت الحرام» قد أمسى محرّماً إلاّ على أتباع محمد... وما أدركت العرب من أصحاب الدين القديم هذا الإدراك إلاّ لتدرك، بهذا اليوم الذي حُرمت فيه مكة إلاّ على كل مسلم والذي لم يحج بعده إلاّ المسلم، أن الآية قد انعكست، وأن ما قد اتهمت به محمداً وأتباعه من وصمة الكفر إنما به الآن هي قد وصمت!

إذن! ماذا ستفعل القبائل التي ما زالت محتفظة بكليتها والحج الأكبر إنما موسم تعتمد عليه مواردها الاقتصادية وبه حياتها تنتعش؟!

حتماً، لم يبق أمام هذه القبائل إلاّ أحد أمرين: إما الطاعة أو القتل!

وهكذا يسفر تحت أضواء التاريخ هذا الدستور ويتجلّي إنما خطة سياسية... بارعة غاية في الدقة وبعد النظر إذ أنه قد جاء، بعد أن أصبح الحجاز كله ومعه تهامة ونجد منضوياً تحت اللواء المحمدي وبعد أن أذعن الكثير من قبائل الجنوب في شبه الجزيرة للسلطان المحمدي، لينتظم للدولة الأساس المعنوي!

جاء لأن الدولة لن تكون قوية ما لم تكن لها عقيدة معنوية عامة يؤمن بها أهلوها وعنها بكل ما أوتوا من قوة يزودون، وهذه العقيدة العامة التي يجب أن تكون الأساس المعنوي

للدولة الناشئة تنحصر في **الإيمان بمحمد كرسول اللّه**، من ثم فإذا وجد الذين يعترضون على هذه العقيدة فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الذين يجب أن تقتلهم الدولة!

لا غرو من ثم أن تتجاوب في أرجاء الصحراء النصوص من هذا الدستور دوياً ويروح في آفاقها رجع صداه يرجّع:

إن السيد المطلق قد أعلن أن القتل إنما جزاء من إلى سلطانه لا يستسلم ويأبى الشهادة بأنه رسول اللّه. فإنه إنما يردّد:

﴿.. من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾!

الآية ٨٥ من «سورة آل عمران»

وأن **﴿الدين عند اللّه الإسلام﴾**.

الآية ١٩ من «سورة آل عمران»

وأنه يحدث: **«لا يَجتمعن بجزيرة العرب دينان»**.

وأمام السيف المسلول وهدير آيات رنّتها الانتقام مبطلة كل نغمة للسلام معلنة أن الكفر إنما صفة تلحق بمن كان على غير الإسلام وأن «بيت اللّه» حرام على غير المسلمين وأن مجرد دخول قبيلة في الإسلام أمان لها من السلب والسبي والأسر والقتل أو سمل أعين[1]، ارتجت أرجاء شبه الجزيرة بالرهباء وتجمعت من كل حدب وصوب تتدافع صوب المدينة وإلى محمد يدفعها خوفها من الحرمان من دخول مكة وزيارة بيت إلهها هذا البيت الذي، في نفس الوقت، يمثل بالمحور من حياتها الاقتصادية التي هددها «نقض العهد» بالفناء!

وهكذا، أزال «نقض العهد» كل تردد من نفوس القبائل التي كانت ما تزال متباطئة في الانضواء تحت لواء الحكم الجديد!.

من ثم فيقيناً إن هذا الدستور قد أثمر وبثمره المرتقب أتى في صورة هذه السفارات الجدية التي بدأت من جهات مختلفة تترى قاصدة كلها إلى المدينة يحثها على الحثيث من الخطى يدفعها الاهتمام بمصلحتها الذاتية إلى مصالحة الحاكم المطلق لبلاد العرب، فأمراء الدويلات الصغرى ورؤساء القبائل المتوغلة في أعماق الصحارى يتدافعون إلى المدينة، تحت ضغط من الاهتمام بمصالحهم الاقتصادية والسياسية، يريدون تثبيت حقوقهم وأمن بلادهم والناس من ورائهم كافة لهم تؤيد وتناصر في سعيهم إلى عيشة آمنة ليس إليها من وسيلة إلاّ قبول هذا الوضع الجديد، فقد راحت القبائل قاطبة تحرق البخور على مذبح النجاح، وتلهب

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣.

نحو المدينة لرؤسائها خطى بمنطقه لها انطلق على جناح اليقين يبرر هذا التدافع إلى قبول الانضواء تحت لواء واحد بحكم جديد، فقد صار هذا المنطق يقول بألاّ اعتراض يمكن أن يعترض به على الوضع الجديد طالما أن محمداً من قريش وهذه قد عرفت خلال تاريخها الطويل بأنها سيدة العرب قاطبة و«أهل اللّه»!..

ويقيناً، أي اعتراض يمكن أن يعترض به على الحكم الجديد لفرد من قريش وقريش إنما قد كانت سيدة العرب ولها على كل عربي لا فحسب حق الاعتراف بالسلطان بل والخضوع له، فما كانت قبيلة لتجرؤ أن تدانيها في مكانتها وما كان فرد ليجسر على أن يجوس فيافي الصحراء إلاّ بصحبتها!..

أي اعتراض من ثم يمكن أن يعترض به على الحكم الجديد لفرد واحد من صميم قريش بعد أن كان الحكم في قريش موزعاً ومنذ قصيّ كان مثار العداوة بين بيوتها وفروعها!؟..

بل وأي اعتراض يمكن أن يعترض به على الحكم الجديد ولكل قبيلة كيان ذاتي لن يذوب واستقلال شخصي لن يفنى إذا سارعت بإعلان الطاعة والانضواء تحت لواء هذا الحكم الجديد الذي لن يعود عليها الانضواء تحت ظله إلاّ بالمنفعة طالما أنه سيجعل منها أمة متضامنة قوية تضمها، على نمط الوحدات السياسية للإمبراطوريات المتاخمة وعلى غرارها، وحدة سياسية قبضت على المقاليد منها، شأن هذه الإمبراطوريات المتاخمة أيضاً، قبضة واحدة لها من القوة السياسية ما لكسرى وقيصر ومن القدرة ما يعيد إلى الأذهان ذكرى «ذي القرنين» من قبلهما!..

على دعائم هذا اليقين استقام المنطق العربي وبلغ حد الاقتناع، فقد رأى في محمد صورة فيها قد تحققت أماني شتى... فيها قد بعث قصي وفيها قد انعكس مجد كسرى وسطعت عزة قيصر وفيها قد هبّت عارمة قوة «ذي القرنين» وليس إلاّ بدافع من هذا اليقين راحت القبائل قاطبة تتواثب إلى الخروج وتضرب من كل صوب ومتجه وجهتها المدينة، عاصمة الدولة الإسلامية، كي تعلن بين يدي محمد طاعتها لسلطانه السياسي واعترافها بدعوته الدينية وإلى هذا الاعتراف يحث بها فتور الإحساس بالدين القديم، فقد بدأ الدين القديم يزايل العقل العربي ويبهت من أفقه في زوال نتيجة حتمية لمجريات الأحداث التي ولدت فيه اليقين بأن التشفّع بالشفعاء إلى اللّه لم يعد يجدي بجدوى، فلقد حطّم محمد تماثيلهم وسلخ لهم شفاعة ومع ذلك لم يحرك شفيع من هؤلاء الشفعاء ساكناً، وليس ذلك فحسب وإنما على النقيض كان اللّه يرعاه ولولا ذلك لما كانت هذه الانتصارات الساحقة ولما كانت قد توالت وتتالت حتى دانت له قريش نفسها وهي التي قد رمته من قبل بالافتراء

على اللّه!.. أي شيء بعد يقف البرهان القاطع على أنه، ليس هناك شفعاء وبالتالي على أن محمداً، حقاً، رسول اللّه!؟..

وامتدت يد الزمن تسجّل:

سنة الوفود «٩ ـ ١٠هـ ٦٣٠ ـ ٦٣١م»

مبايعة شبه الجزيرة لمحمد سيداً مطلقاً

اغتمار الظل الإسلامي أرجاء شبه الجزيرة، سلخ الوحدة القبلية بوحدة سياسية لحمتها وحدة دينية تضم «الطبقات الكبرى» لابن سعد خمسين صفحة كبيرة تنتشر عليها أسماء وفادات العرب التي تأتينا بالدليل على أنه لم يبق في شبه الجزيرة بطن ولا فخذ في قبيلة حتى أسلم وبذلك أسلم الحجاز كله وما والاه شمالاً وجنوباً.

للحظة يطرق الفكر، وللصحراء ريح يخفق ويتجاوب دوياً وفي جنباتها يردد بأن الإسلام قد أصبح دولة وحكومة رسمية وأمسى الدين الرسمي لشبه الجزيرة العربية، ويستعرض هذه الوفود استعراضاً عابراً لا يتمهّل إلاّ عند:

«وفد بني سعد بن بكر»

للمحة، يتمهل الفكر هنا ويستعرض هذا الوفد الذي قدم وعلى رأسه ضمام بن ثعلبة، فقد أقبل ضمام على محمد يسأله سؤالاً يلقي أضواء ساطعة على العقيدة الإلهية التي كانت عليها العرب قبل الإسلام:

«يا بن عبد المطلب!.. أنشدك اللّه! إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، اللّه بعثك إلينا رسولاً[1]!؟..».

سؤال، ألقته شفتا ضمام وبعينيه قد التقت العين من محمد وهو بالإجابة يجيب، وسرعان ما أعلنت شفتا ضمام، ومن ورائه سائر الوفد، ألا اعتراف لمحمد بالرسالة الإلهية..

وللمحة أخرى يتمهّل الفكر عند:

«وفد عبد القيس»

على محمد قدم هذا الوفد وعلى رأسه الجارود بن عمرو، وكان مسيحياً، ليقول:

«يا محمد إني قد كنت على دين وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟».

---

(١) **أسد الغابة**، لابن الأثير.

وانفرجت شفتا محمد عن جواب يكوّن جملة لها دقيق معناها وبليغ خطرها وعميق مغزاها في تاريخ التفكير الديني:

«نعم! أنا ضامن لك أن قد هداك اللّه إلى ما هو خير منه!»[1].

وعبر السؤال والجواب التقت عينا محمد بعيني الجارود وسرعان ما أعلنت شفتا الجارود، ومن ورائه سائر الوفد، الاعتراف لمحمد بالرسالة الإلهية..

عن ألوان من السجايا تكشفت الطبائع من هذه الوفود التي إلى الشمس المشرقة تحولت منها الرؤوس ولم يشمخ من بينها إلاّ الرأس من:

«وفد بني عامر»

أقبل هذا الوفد، يرأسه عامر بن الطفيل وفيه أربد بن قيس، ليقف أمام محمد يلقي هذه الصيغة التقليدية: «أشهد أنك رسول اللّه..» إلاّ أن رأس الوفد امتنع ولم يسلم وخرج وهو يصيح: «واللّه لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً!».

وشيعه محمد بنظرة عبرها انساب من شفتيه الهمس: «اللّهم اكفني عامر بن الطفيل»!

وبعامر لحقت دعوة محمد فأصابته.. فقد قضى وهو عائد في الطريق إلى قومه وعلم الناس أن اللّه قد أصابه في عنقه فقتله.

وأما أربد بن قيس فقد أبى هو الآخر أن يسلم وعاد إلى قومه وهو عن محمد لهم يقول: «واللّه لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فارميه بالنبل حتى اقتله»!

بيد أن بأربد لم يطل المقام أكثر من يومين فقد قضى هو حرقاً وعلم الناس أن السبب إنما صاعقة عليه قد انقضت ولكن بينما كانت آفاق تدوي بصوت لبيد يبكيه وعنه تردّد:

أخشى على أربد الحتوف ولا ... أرهب نوء السماك والأسد
أشجع من ليث غاية لحم ... ذو فهمة في العلا ومنتقد
ألا ذهب المحافظ والمحامي ... ومانع ضيمها يوم الخصام
وكنت إمامنا ولنا نظاماً ... وكان الجزع يحفظ بالنظام
واربد فارس الهيجا إذا ... ما تغمرت المشاجر بالفئام

كانت آفاق أخرى تردد ما قد سرى في المدينة من القول بأن ابن قيس وابن الطفيل كانا قد قدما للغدر بمحمد وللسبب أصابهما ما قد أصابهما ومن ثم لم يمنع إباء عامر وأربد قومهما من أن يسلموا...

---

(١) معجم البلدان، لياقوت الحموي.

ويقيناً، لئن شذت بعض الرؤوس وجنحت وبعد أن قدمت كي تقدم الطاعة جمحت وعن إعلانها تعالت فإنما هذا لم يمنع قومهم من أن يسلموا نتيجة حتمية لإعلان «نقض العهد» فقد جاء نقض العهد بأثره في إسلام القبائل لأن الناس قد أيقنوا أنهم إن لم يفعلوا فليأذنوا بحرب من سيد العرب وقد كان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه الجزيرة حيث اليمن وحضرموت، لأن أهل الحجاز وما والاه شمالاً كانوا قد أسلموا، وكان الأمر في الجنوب مقسّماً بين المسيحية وأهل الدين القديم الذين سارعوا يبعثون وفودهم إلى المدينة ومن أبرز هذه الوفود كان ذلك الوفد الذي قدم فيه وائل بن حجر الكندي مع الأشعث وكان أمير بلاد الشاطىء من حضرموت، فقد أسلم وأقره محمد في إمارته على أن يجمع «العشر» من أهل بلاده ليرده إلى جباة سيد العرب.

وكذلك كان مقدم صرد بن عبد اللّه الأزدي في وفد من الأزد فنصبه محمد أميراً على قومه وأمره أن يجاهد من كان يليه من أهل الدين القديم هؤلاء الذين، كما تحدثنا كتب السيرة، انعطف عليهم فقتلهم قتالاً شديداً.

الشأن كان الشأن من أصحاب الدين القديم من أهل الجنوب، والصنو كان صنو الأرجاء المسيحية في هذا الجنوب فقد اهتزت هذه الأرجاء والأنباء فيها تسري أن بلاد اليمن ومهرة والبحرين واليمامة قد دخلت في الإسلام وأن من الأمراء المسيحيين من قد سارع إلى المدينة يقدم الطاعة ويسلم ومن هؤلاء: فروة بن عمرو أمير معان وما حولها من أرض الشام، وكان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وعدي بن حاتم الطائي، وكان ملكاً في قومه بالمرباع ولكن لئن سارعت بعض قبائل إلى اعتناق الإسلام فإنما أكثر القبائل المسيحية في هذه الأرجاء من الجنوب قد شمخت وخاصة قبيلة بني الحرث بنجران...

ومن ثم فليسجل الزمن:

إخضاع نجران المسيحية إلى الإسلام

إلى هذه القبيلة المسيحية من بني الحرث بن كعب أرسل محمد خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، كي يسلموا من مهاجمته، ويوصيه: «وإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فاقتلهم»!

ومؤتمراً بأمر سيد العرب خرج ابن الوليد إلى بني الحرث بهم يصيح: «أيها الناس أسلموا تسلموا»!

وللصيحة المنطلقة من شفتي خالد راح «الكلم» المتحدّر من شفتي محمد يؤيد وهو في

رجاله ينادي:

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾!..

الآية ٢٩ من «سورة التوبة»

وتحت وميض سيف «سيف الله» أعلنت الشفاه المسيحية اعتناقها الإسلام.. إلاّ أن هذا لم ينجهم من مذلة هزّت منهم الكيان إذ بالرؤوس من القوم، وفيهم يزيد بن عبد المدان، قدم خالد على سيد العرب لنرى على صفحة التاريخ مشهداً آخر عجيباً وهم يقفون أمامه يلقون هذه الصيغة التقليدية: «نشهد أنك رسول الله»، فقد نظر إليهم محمد نظرة زاجرة قائلاً:

«أنتم الذين إذا زجروا استقدموا!». قالها محمد مرة ثانية وثالثة ولم يراجعه أحد ثم أعادها الرابعة حينذاك قال يزيد: «نعم... نحن الذين إذا زجروا استقدموا!» وقالها أربع مرار لم يكفه إلاّ عندما أتى من محمد الجواب الذي أصمت منهم الشفاه:

«لو أن خالداً لم يكتب إليّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم»!

لا ثمة شك أن في هذا الجواب البرهان القاطع على معاملة الشدة التي اتسمت بها سياسة محمد في معاملة المسيحيين، وللسبب يقف كثير من المؤرخين أمام هذه الشدة في المعاملة التي جاءت بعد أن اغتمر سلطان محمد أرجاء شبه الجزيرة وتسجلها سورة التوبة، اختتام ما أتى من «الكلم»، يتساءلون: هل أمر محمد في شأن «أهل الكتاب» بغير ما أمر به من قبل أثناء سني دعوته؟...

بل ويذهب هؤلاء إلى أبعد من هذا المدى فيقولون: إن محمداً وقد ظفر بالدين القديم في شبه الجزيرة بعد أن استعان عليه باليهودية والمسيحية معلناً خلال الأعوام الأولى لدعوته أنه إنما جاء مبشراً بدين عيسى وموسى وإبراهيم، قد جعل وجهته إلى اليهود فظل بهم حتى أباد منهم من أباد وحتى أجلى منهم من أجلى عن شبه الجزيرة وأثناء ذلك كان يتودّد إلى المسيحيين ويجيء بالآيات التي تشيد بحسن إيمانهم وجميل مودتهم، يقول:

﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾.

الآية ٨٢ من «سورة المائدة»

والآن... ها هو ذا الآن يجعل وجهته المسيحية يريد بهم ما أراد باليهود من قبل، وهو

يصل إلى ذلك بعد أن أجار النصارى من اتبعه من المسلمين حين ذهبوا للحبشة مهاجرين يستظلون بعدل النجاشي وبعد أن كتب، نفسه، لأهل نجران وغيرهم من النصارى يقرهم على دينهم..

ولكن.! هذا الرأي الذي يرتئيه بعض المؤرخين ويتخذون تغير المعاملة المحمدية لأهل الكتاب دليلاً على التناقض في السياسة إنما رأي لا يقوم عاى أساس من المنطق السليم إذ ليس هذا التغير في المعاملة بالتناقض وإنما هو التدور في السياسة لأننا إذا استعرضنا السياسة المحمدية استعراضاً شاملاً لوجدنا أنها منذ البداية لا تهدف إلاّ إلى هدف واحد وهو إعلاء الإسلام على كل دين ولوجدنا بالتالي، أن إلى هذا الهدف قد اتخذت وسائل شتى تغيرت مظاهرها تبعاً لتغير الظروف ومن هنا كانت ظاهرة التغير في المعاملة... ومن ثم فإذا كان محمد قد أرسل إلى المسيحيين من يخضعهم فإنما شأنهم في نظره كان شأن أهل الدين القديم ولذلك شأنه معهم كان شأنه أيضاً مع أهل الدين القديم من أهل اليمن، فقد ساوى بينهم وبين تلك الجماعة من اليمن الذين عزّ عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام لأن الإسلام ظهر بالحجاز ولأن اليمن اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبل أبداً إلى هؤلاء أرسل محمد من يخضعهم فكانت:

«غزوة علي بن أبي طالب إلى اليمن»

في ثلاثمائة فارس انطلق علي إلى اليمن فأوقع في صفوف من قصدهم الرعب حتى لم يجدوا من التسليم بدأ فأسلموا وسلموا ـ وفي استسلام صاغر أقبل وفدهم يعلن الطاعة لسيد العرب ـ وكان آخر وفد استقبله محمد بالمدينة فلم يعد هناك بعد من لم يسلم فأرجاء شبه الجزيرة حضرها ومضرها لا يروح الريح فيها ولا يخفق إلاّ ليرجع أصداء الشهادة المنطلقة من الشفاه العربية بأن محمداً رسول اللّه!.

حقاً!... لقد دانت دنيا العرب، الآن، لمحمد فلقد امتد المدّ الزمني ودفع بكل ما تمور به شبه الجزيرة من قبائل إلى المدينة تبايع عليها سيداً هذا الفرد من بيت هاشم وهذا الغصن من فرع عبد مناف وتدين كلها بدين واحد هو هذا الدين الذي ينافر كل التنافر لا فحسب الدين القديم وإنما كل دين بنقطة جوهرية عنه بها يفترق وهي الاعتراف بأن اللّه قد بعث محمداً نبياً رسولاً وأنزل عليه القرآن!.

من ثم حقاً لقد انتصر محمد وأصبح، بهذه الرسالة الإلهية، سيد العرب لا غرو من ثم وها هو ذا قد تتابع دخول القبائل وتتابع مقدم الوفود منها أفواجاً أن تنفرج الشفاه من سيد العرب عن:

﴿إذا جاء نصر اللّه والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾!

«سورة النصر»

والآن!... الآن ولمحمد قد دانت دنيا العرب بهذه «الرِسالة الإلهية» فليس إلاّ لتومض في أكثر من ناحية من التفكير العربي عن هذه «الرسالة» الفِكْر وليس إلاّ لتجيء بظاهرة تعد من أخطر الظواهر في تاريخ التفكير الديني، كما تطلع علينا جلية بعد عودة هذه الوفود إلى ديارها ـ وهي ـ :

بدعة انتحال النبوة وادّعاء الرسالة الإلهية

إلى تلك الوفود التي قدم على محمد منها الرؤوس فخاطبوه وخاطبهم تعود بأسبابها هذه البدعة التي ما تمخض عنها جانب من التفكير العربي إلاّ وبدأت تتفشّى في أرجاء شبه الجزيرة وتنتشر، فإن أولئك الذين وفدوا على محمد ورأوا ما قد صار له من شأن مصدره «النبوة» وسببه «الرسالة الإلهية» لم يعودوا إلى ديارهم إلاّ وقد استحوذت عليهم هذه الفكرة وإلاّ واتخذوها أداة لأنفسهم، ومن أبرز هؤلاء كان:

طليحة بن خويلد

في وفد أسد بن خزيمة، الذي قدم على محمد سنة تسع، جاء طليحة بن خويلد كاهن أسد وزعيمها والذي يصفه التاريخ العربي بالشجاع... وما قدّم الوفد مراسم الطاعة وعاد إلى بلاده إلاّ ليطرق كاهن أسد إطراقة استعرض فيها ما قد مضى حتى هذا الحاضر من الأحداث لينتهي من هذا الاستعراض باليقين أن النبوة إنما ضرب من الكهانة وهذا هو كلام الكهان إنما البرهان والدليل فليس كلامهم إلاّ.. النثر المرسل والسجع!.

وهبّ كاهن أسد ينتحل النبوة ويدّعي الرسالة الإلهية ويؤيد دعوته بكلم تناقله عنه له أتباع راحوا يرددون أن ما يتحدّر من شفتيه إنما كلم إلهي عليه يتنزل عن طريق «جبريل»... وعظم أمر طليحة في قومه ودعوا إليه أحلافهم من طيىء وغوث... ولكن! سرعان ما أسرع إليه السيف الإسلامي وعليه، وقد تزمل في كساء ينتظر الوحي، هوى كما هوى على أتباعه ولم يدفعه عنهم إلاّ استسلامهم إلى الإسلام[1].

بيد أن السيف الإسلامي وإن كان قد هوى على هذا الذي زعم أن جبريل يتنزل عليه بالكلم الإلهي حتى عظم أمره وامتد حتى عهد حكم أول خليفة لمحمد، وبذلك تبعه قومه

---

(١) **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن.

من أسد وأحلافهم من طيىء وغوث والتفوا من حوله يؤمنون به نبياً رسولاً، فإنما هذا السيف نفسه قد ارتفع أيضاً ليهوي على آخرين ادعوا نفس هذه البدعة التي لئن بدأت تنتشر في أعقاب هذه الوفادات فإنما مصدرها ما قد كان لأصحابها من أصالة النسب ـ ومن القدح المعلى في البيان ـ فالبدعة إنما بدعة لها لم يدع رجال هم من السخف بحيث لا يقدرون للأمور نتائجها ولا هم من الجهل بمعاني الكلام وسوء البصر بمواضعه وإنما انتحلها الفصحاء منهم وادعاها أهل الخطابة والشعر والنسب ولكنهم تناولوها وقد انبسط سلطان الإسلام على ربوع شبه الجزيرة من شمالها إلى جنوبها وقالوا بها وقد علت كلمة محمد وأمسى جيشه تؤلفه الآن القبائل العربية ومن ثم غاضت دعواتهم ومادت في كهوف النسيان...

ومن هؤلاء الذين عرفوا بالفصاحة والبلاغة وبالسجع والخطابة والشعر:

عبهلة بن كعب

لقد انتحل هذا الذي نعرفه على صفحات التاريخ الإسلامي تحت نعت «الأسود العنسي» النبوة وادعى الرسالة الإلهية وتابعه قومه يترعهم الإيمان به نبياً رسولاً... لا يطرق إطراقة ويرفع بعدها رأسه ليقول: «يقول لي...»، ثم يرسل الكلم سجعاً إلاّ ويخشع من حوله له أتباع اشتد بسواعدهم منه الساعد اشتداداً بهم بدأ حياة الغزو... غزا الأسود بلاد نجران فدانت له ثم مذحج فدانت له مذحج ولكن!.. للحظة يطرق الفكر مفكراً في أمر هذه الجماعات التي اتبعت هذا المدعي وصرفها الإيمان بشخصيته عن التفكير في أعماله حتى أنها إلى الضعف في ناحيته الخلقية لا فحسب لم تلتفت وإنما لم تتنبّه وكأنما على عينيها كانت من سحره غشاوة، فليس إلاّ تحت تأثيرها راحت تبرّر كل ما يأتيه من فسق وموبقات بمختلف التفاسير!.. فمن مظاهر هذا الفسق الذي يقف المثل الصارخ في الضعف الأخلاقي تعدّى هذا المدّعي على صاحب صنعاء بأن قتله وتزوج امرأته.

لا ثمة شك في أن المثل إنما مثل ينقض القيم الأخلاقية من أساسها وعلى انتفاء الصفاء النفسي من طبيعة هذا المدعي يقف أو في دليل به ينتفي بالتالي اتصاف عبهلة مما يدّعيه من نبوة ورسالة!.

ويقيناً!.. يقيناً لو تنبّه المؤمنون بهذا المدعي إلى ما اشتملت عليه طبيعته من انحلال خلقي ووهن نفسي واستخفاف بالغ بالمشاعر وأزاحوا عن أعينهم هذه الغشاوة فتنبّهوا إلى ما تقتضيه صفة «الرسالة» من شروط وما يجب أن تشتمل عليه صفة «النبوة» من قيم لكانوا قد كفوا عن تصديق هذا المدعي الذي جنحت به المخيلة وإلى أقصى حدود الشطط شطحت!.

فإن «للنبوة» شروطاً أهمها القصد في كل شيء وفي الملذات الجسدية قبل كل شيء!. وإن «للرسالة الإلهية» أيضاً نفس الشروط بالإضافة إلى شروط أخرى جوهرية أهمها مجافاة عيش الأهواء والترفّع عن أحاسيس الجسد ورفعة نفسية تصلها صلة دائمة بالكون في أرقى صور الحياة وأدق أسرار الكون!. لو تنبّه المؤمنون إلى هذه الشروط الأساسية بصفة «النبوة» و«الرسالة» لانفضوا من حول عبهلة منه يبرأون ولكن! لسحره النفاذ فيهم كان الأثر العميق وإلى حياة الغزو التي كانوا يحيونها يعود السبب في انصراف تفكيرهم عنه، فقد استغرقهم التفكير في ما يأتي به الغزو من ثمار حتى أنهم راحوا يضربون في هذه الحياة حتى دانت لهم نجران ومذحج وحتى بدأ يزحف لعبهلة مدّ راح يغمر الجنوب من شبه الجزيرة ويزاحم سلطانه فيها سلطان محمد... الأمر الذي ألقى الرعب في قلوب الولاة من المسلمين على اليمن ومن ثم كان كتابهم إلى محمد وبالتالي ائتمارهم بأمره حتى توصلوا، قبل وفاة محمد بيوم وليلة، إلى قتل «نبي صنعاء» غيلة..

لا ثمة شك في أن التصرف إنما التصرف الحكيم للحد من خطورة هؤلاء الذين حسبوا أن النبوة إنما الطريق إلى الحكم وأن «الرسالة» إنما الأداة للحكم كأثر لما رأوا في المدينة من أثر النبوة والرسالة من امتداد السلطة المطلقة غداة وفدوا إليها يرأسون الوفادات القبلية، ومن أخطر هؤلاء شأناً كان:

مُسَيْلِمَةُ بن حبيب

في وفد بني حنيفة من ربيعة، من أهل اليمامة، كان قد قدم مسيلمة بن حبيب.. وقدّم الوفد مراسم المبايعة وأعلن الطاعة وعاد إلى بلاده ولكن! إلى بلاده عاد مُسَيْلِمَة بعد أن رأى أثر النبوة وثمار الرسالة التي كانت السبب الجوهري في هذه السيادة المطلقة التي أصبحت من حق محمد فترك هذا في نفس مسيلمة أثراً حسب به، كما حسبت من قبل قريش، أن النبوة ليست إلاّ الوسيلة إلى الملك وأن الرسالة إنما العرش الثابت لحكم مطلق يستمد سلطته التنفيذية من القول بأن الكَلِم الإلهي يتنزّل عن طريق «الوحي الهابط»!.. ومن ثم فما عاد مسيلمة إلى قومه إلاّ ليرسل صوته يناديهم بأن إذا كان اللّه قد أرسل محمداً من قريش فإنما من بني حنيفة قد أرسل اللّه مُسيلمة رسولاً! وأنه كمحمد، تماماً، يتنزّل عليه الكلم الإلهي، أيضاً، قرآناً!...

وللصوت المرتفع من ربيعة استجابت من أهل اليمامة الجماعات وإلى ما ادعاه مسيلمة وحياً إلهياً وراح يطلقه من شفتيه سجعاً لاهباً بقِصَر الجُمَل وكِثرة الفواصل يمتاز تلتفت في إيمان الأفئدة من بني حنيفة قاطبة وانتفضت بقبائلها تُكوِّن تحت إمرته جيشاً!

إلى سِحْر في السجع أخّاذ نظّم الفصول مما ادعاه من قرآن عليه يتنزّل من السماء ويأتيه به ملكٍ يسمى «رحمن» اجتذب مسيلمة القلوب من قومه وإلى ذلك كانت قد هيأتهم الأحداث إلى جانب عامل آخر مهم وهو أنه لما كان قد مضى للعرب على أن يسمعوا للكهان ويطيعوا ووقر ذلك في أنفسهم واستناموا إليه فقد اتبعت الجماعات من بني حنيفة وبطون ربيعة واليمامة مُسَيْلمة حتى المدى الذي راحت تحت تأثيره لا تأبه إذا قيل لها إنه كاذب، فقد كان دائماً ردُّها: «كذاب ربيعة خير من صادق مضر!»، بل وراحت تتخذ على صدقه حجتها فتقول: إذا كان على «نبي مضر» قد نزلت «الكوثر» فإنما على «بني ربيعة قد نزلت الكواثر» فإنما اللّه له يقول: «إنّا أعطيناك الكواثر، فصلِّ لربك وجاهر..» وأنه لا يدعو إلاّ إلى إعلاء قومه وحثّهم على الخير فهو يقول: «لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر... المعتر فآووه، والباغي فناوئوه».

هذا اللون من السجع بالإضافة إلى ما قد تقدم ذكره من عامل هام، هو الذي جعل القبائل من بني حنيفة تتبع مسيلمة وتؤمن به نبياً رسولاً في غير تنبُّهٍ إلى حب الغلبة والتحمُّد في الناس التي اشتمل عليها كيانه لا ولا إلى كدر الغطرة وغِلَظ الإحساس التي تكوّنت منها كينونته لا ولا إلى الخطل في كلامه الذي يُكوِّن نفسه البرهان على الإفك والزور والافتراء على اللّه!... كلا.. عن مسيلمة لم تصرف القبائل من بني حنيفة إلاّ الصولة القوية لنبي مضر التي هبّت تحارب مُسيلمة حتى استحرّ بين الجبهتين لهب الحرب وحتى استعر بينهما لها لظى!... ويقيناً لقد استبسل المسيلميون في الدفاع عن «نبيهم» حتى كاد أن يتم النصر لهم ولو كان قد تمّ لانتشر، بجانب المسلمين، المسيلميون أتباع هذا المفتري على اللّه، إلاّ أن السلطان المحمدي كان في أرجاء شبه الجزيرة قد انتشر واغتمر شرقها وغربها وشمالها وجنوبها وحيثما من أعماق هذه الصحارى هبّ الريح وإلى أطرافها راح فليس إلاّ ليدوي بأن ليس إلاّ: «نبي مضر» هو النبيّ وليس هناك من نبيّ بعده آتٍ لأن محمداً إنما: خاتم الأنبياء!.

إلى هذا السلطان الذي استقر وطاده في ربوع الصحراء يعود السبب في ما قد أنزع كل هؤلاء الذين ادّعوا النبوة من الضعف أمام الصولة القوية لنبي مضر التي هبّت تنثال عليهم واحداً بعد آخر بالقتل، فقتلتهم وأرخت عليهم سجف النسيان!. وتماماً كما انثال السيف على «نبي أسد» و«نبي صنعاء» انثال على «نبي ربيعة» بضربة قضت عليه وساقت أتباعه أذلة إلى حظيرة الإسلام!...

أمام هذه الأحداث التي جرت على صفحة الزمن يُطرق الفكر مفكّراً في أمر هؤلاء

الذين تعالوا إلى مصاولة صولة نبي مضر، وكأنما كانوا لا يعلمون بأن ليس هناك أي سلطان يستطيع أن يصاول هذا السلطان لهذه الوحدة السياسية التي أصبحت بها العرب أمة واحدة يظلها لواء واحد هو لواء هذا الفرد من بيت هاشم ومن فرع عبد مناف وكلها تدين بدين واحد هو الإسلام!

ويقيناً أي سلطان يستطيع أن يناوىء هذا السلطان الذي طوى الجناح منه العرب كافة وجعلها أمة واحدة يطويها حكمه بوحدة سياسية اتخذت مسانده من وحدة الدين؟!.

ولكن!... أمام هذه الوحدة السياسية القائمة على وحدة الدين يُطرق الفكر مرة أخرى مفكراً وملياً يتأمل محمداً فتسطع أضواء التاريخ من حول هذه الشخصية سطوعاً يراه في بهرتها جلياً فيتجلى:

الفكرة الواقعية للحلم الحنيفي والصور المتحققة للهدف الهاشمي

في إطار التاريخ يقف محمد صورة متحققة للهدف الهاشمي تُمثّل الفكرة الواقعية للحلم الحنيفي بينما على صفحة التفكير يرتسم، بصوره وأحداثه، ذلك الماضي البعيد من الزمن الذي اشتد خلاله سعير التطاحن بين فرعي قريش وبيتي هاشم على سيادة العرب اشتداداً دفع بالتفكير الحنيفي إلى أن يهدف إلى وحدة سياسية تسلخ الوحدة القبلية ويكون بها للعرب بين الأمم السائدة مركزاً سيداً في نفس الوقت الذي رأى فيه هذا التفكير أن إلى الوحدة السياسية كهدف، لن يُعبّد الطريق إلاّ بوحدة دينية...

والآن. الآن بعد كل هذه السنين التي مرت بأحداثها والتي سجّلت غضونها مراحل الحياة المحمدية مرحلة بعد مرحلة وحتى انتهت إلى سلطة مطلقة اغتمرت شبه الجزيرة العربية اغتماراً وراحت القبائل في غمرتها تعلن اعترافها بأن محمداً حقاً رسول اللّه للدين الحنيف فليس إلاّ ليعترف الزمن بأن محمداً يقف فذاً وفريداً في أفق التاريخ العربي!. ويقيناً!. فذاً وفريداً يقف في أفق هذا التاريخ محمد، إذ ليس إلاّ بهذه الرحدة الدينية قامت هذه الوحدة السياسية التي استحال بها الحلم الحنيفي إلى فكرة واقعية حققت، بالتالي، الهدف الهاشمي على أتم صُوره!. لأنها وحدة سياسية قاعدتها حكومة دينية تعتمد في سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس في أن محمداً قد بعثه اللّه رسولاً وأنه لا يصدر في أحكامه وتصرفاته إلاّ عن أمر اللّه أو هذا «الوحي الهابط» الذي ما انتهى بعد «نقض العهد» وكفّ إلاّ ليسفر الدور الجوهري من حياة محمد التي تنتشر تمام الانتشار على صفحات القرآن أو هذا الكتاب الذي كانت آياته العضد الأساسي المعضّد له في أحكامه وتصرفاته كمفكرٍ استطاع أن يسلخ الوحدة القبلية ويضم أطراف شبه الجزيرة بوحدة دينية بها دانت له أرجاء الصحراء

فدان له بذلك هذا المُلك العريض الذي يضمّ القبائل طراً دانيها وقاصيها بوحدة سياسية أصبحت بها العرب أمة واحدة وغدا الإسلام دولة!.

والآن... الآن وقد أصبحت العرب أمة واحدة يظلها لواء محمد بن عبد اللّه وغدا الإسلام دولة فليس إلاّ ليطرق من محمد الفكر في أمر هذه الدولة التي أنشأها وأصبح سيدها المطلق إطراقة عملت خلالها اللّوالب الفكرية منه سريعة لتستقر عند اليقين بأن الوضع الجديد يقتضي أن ترى هذه الدولة سيدها وأنه ليس من مكان أنسب من مكة وليس من وقت أصلح من موسم الحج، بل وإلى هذا يهيىء المدُّ الزمني فإنما أشهر السنة قد استدارت وأقبل ذو القعدة وأوشك يُولّي مؤذناً بأن الآن قد آن للحج الأكبر...

من ثم فليسجّل الزمن:

خروج سيد العرب إلى الحج الأكبر «١٠ هـ ـ ٦٣١ م»

إرساء قواعد الإسلام وأصول الدين

إلى كل طرف من أطراف هذه الصحراء المترامية الأطراف إلى كل المدائن والبوادي وكل ناحية من أعماق الحضر والمضر راح الخبر وفيها ذاع بأن سيد العرب يدعو الناس للحج معه، وما انتشر الخبر في كل ناحية في شبه الجزيرة حتى أقبل مَن أقبل على المدينة وحتى من كل صوب وحدب انسابت إلى مكة الجحافل البشرية تريد رؤية سيدها..

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة سار سيد العرب وأخذ نساءه جميعاً معه، كلٌ في محفتها، يتبعه جمع زاخر ليشهده الحجيج يدخل مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة ويدخلها بما يزيد عن المائة ألف من المسلمين... شهد الحجيج هذا المشهد ليشهد مشهداً آخر بعث في قلبه إلى محمد الاطمئنان، فقد رأى محمداً يحتفظ بالمناسك ويستمسك بالطقوس الدينية العربية القديمة من شعائر التعبّد في العصر القريشي رأى الحجيج محمداً يقدِّس ما قد قدّس الآباء ويُجلّ ما قد أجلّ السلف، فإن محمداً يسير يتبعه هذا الجمع الزاخر، مسرعاً إلى «بيت اللّه» فيستلم «الحجر الأسود»، ومُقْبلاً عليه له يُقبّل.. ثم يطوف سبعاً، مهرولاً في الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل في الحج الأصغر من قبل في «عمرة القضاء» ثم صلّى عند مُقام إبراهيم وبعد ذلك عاد إلى «الحجر الأسود» فقبّله كرة أخرى ثم خرج من «المسجد الحرام» إلى ربوة «الصّفا» بادئاً «السعي» السعي القديم بين الصفا والمروة.

ثم... ثم رأى الحجيج محمداً يخرج في اليوم الثامن من ذي الحجة، يوم التروية، فيذهب إلى «مِنى» حيث انحسرت عنه ليلة طلع في مطلع صبحها ممتطياً «القصواء» ناقته

ميمماً، والناس من ورائه، جبل عرفات، فلما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته حتى بلغ «نمرة»، قرية بشرق عرفات، وهناك ظلّ حتى توهّج الأفق بلهب الغسق وحينذاك هبّ فامتطى من جديد «القصواء» وسار حتى بطن الوادي من «عُرنة» هناك نادى في الناس بصوت راح رَجْعُ صداه من شفتي ربيعة بن أمية بن خلف يُردّد نداءً يعتبره التاريخ الديني دستور الإسلام، إذ أن به قد قامت قواعد الدين وأرسيت أصول الإسلام، فقد وقف سيد العرب ينادي:

«أيها الناس: اسمعوا قولي.. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا...

وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم..

وإن كل رِباً موضوع[1].. قضى اللّه أنه لا رِباً، وأن رِبا عباس بن عبد المطلب موضوع كله!

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع...

أما بعد أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً... فاحذروه على دينكم!...

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويُحرمونه عاماً...

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض وإن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية ورجب مُفرد...

وأما بعد أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فإن اللّه قد أَذِن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ـ واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ـ وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة اللّه واستحللتم فروجهن بكلمات اللّه.

فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلّغت... وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيّناً: **كتاب اللّه وسُنّة رسوله!.**»

بهذه الجملة الأخيرة التي اختتم بها محمد كلمته أدرك الحجيج أن محمداً قد أرسى

---

(١) أي مهدر.

للإسلام قواعد ووضع عليها للإسلام دستوراً ليس لأي مسلم أن يتعداه وهو العودة في كل أمر إلى «مصدر العقيدة» أو هذا «الكتاب المنزّل» الذي لا يجعله محمد وسُنّته مرجعاً إلاّ ويسير ومن ورائه هذا الجمع الزاخر حتى بلغ «الصّخرات» وهناك هناك خشعت هذه الجموع وهي ترى سيدها، هذا السيد الذي قد دانت له دنياه واكتملت له عليها السيادة فتمّت بذلك عليه النعمة وبلغ الهدف فهنأت منه النفس ورضيت، تنفرج منه الشفاه مؤكدة في المسمع منهم ما كان من قبل قد قيل:

﴿... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً...﴾!

الآية ٣ من «سورة المائدة»

والآن... الآن وقد اطمأن الفؤاد من سيّد العرب إلى أنه قد أودع في كل مسمع من مسامع سامعيه هذا الدستور الذي وضعه لهذا الدين الذي فرض على شبه الجزيرة اعتناقه وقادها إلى الاعتراف برسالته الإلهية، فليس إلاّ ليترك «عرفة» ويقضي ليله في «المُزْدلفة» ويقوم في الصباح فيهبط «المشعر الحرام» ثم يعود إلى «منى» ويلقي في طريقه إليها «الجمرات».. حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثاً وستين ناقة، واحدة عن كل سنة من سني حياته ثم حلق رأسه وأتمّ حجه فأتمّ بذلك حِجّة يسميها بعضهم «حِجّة الوداع» وآخرون «حِجة البلاغ» وغيرهم «حجة الإسلام»، وهي في الواقع ذلك كله، فلقد كانت حجة الوداع إذ رأى محمد فيها مكة للمرة الأخيرة وحجة البلاغ لأن فيها قد أودع محمد «كتاب اللّه وسنة رسوله» في الصدور وحِجة الإسلام لأن فيها قد استقر بين الجوانح الإيمان بأن الإسلام هو الدين الحق...

والآن.. الآن قد أتمّ سيد العرب فريضة الحج الأكبر وآن لعشرات الألوف ممّن صحبوه أن يعودوا إلى ديارهم، فأنجد منهم أهل نجد وأتهم أهل تهامة وانحدر إلى الجنوب أهل اليمن وحضرموت وما حاذاها، فليس إلاّ ليسير سيد العرب عائداً إلى عاصمة الدولة الإسلامية ليقيم بها في أمنٍ من ناحية شبه الجزيرة كلها... فها هي شبه الجزيرة جمعاء قد أسلست إلى يده منها العنان وبعد أن كانت الوفود تترى إلى المدينة تعلن الطاعة وتتفيأ تحت لوائه ظلالها انحاز العرب جميعاً إليه في الحج الأكبر حتى ملوك العرب استساغوا الإخلاص في ولائهم له ولدينه بما أبقاه لهم من سلطانٍ واستقلالٍ ذاتي لا يخضع إلاّ إلى سلطانه ولا لحكم إلاّ حكمه..

ولكن!... الآن وقد استسلمت أركان شبه الجزيرة إلى الإسلام واستقرّت في أحضان

هذا الدين القائم على أسس الاعتراف لمحمد برسالته الإلهية، وليس هناك في أنحائها من حركات تُشبه الانتقاض وليس هناك مما يثير في النفس شيئاً من المخاوف بعد أن انبسط سلطان هذا الدين الجديد على كل الأنحاء، فليس إلاّ ليطرق سيد العرب إطراقة استغرقه فيها التفكير في أمر التخوم الخاضعة للروم والفرس ومصر والعراق..

ومن ثم اتجه التفكير من محمد ناحية الشمال...

منذ «غزوة مؤتة» ومنذ عاد المسلمون مكتفين من الغنيمة بما أبدى خالد بن الوليد من مهارة في الانسحاب كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها ويرى ضرورة توطيد سلطانه على حدود الشام حتى لا يعود إلى شبه الجزيرة الذين أجلاهم عنها واستقروا في فلسطين وليس إلاّ لذلك كان قد جهّز ذلك الجيش العرم حين سار هو على رأسه حتى بلغ «تبوك»..

يقيناً إن إلى المنتهى من الإرهاف السياسي قد انتهى محمد!.. فهو بالرغم من إخضاعه الأمراء المسيحيين من أهل الحدود فإنه ظلّ يُقدِّر لناحية **الشمال** خطرها مخافة أن تثور الذكريات بُحماة المسيحية من أهل الإمبراطورية البيزنطية، وهم أصحاب الغَلَب في ذلك العصر، فيعلنوا الحرب على كل مَن أجلوا عن نجران وغير نجران من بلاد العرب للسبب، لم يَطُل المُقام بالمسلمين في المدينة بعد عودهم من الحج الأكبر حتى أمر سيد العرب بتجهيز جيش عرم للخروج إلى تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، على مقربة من مؤتة.. وتجهز الجيش للخروج وتلفت كبار الصحابة من مُهاجرين وأنصار حيارى يتساءلون: ترى مَن منهم سيكون لهذا الجيش قائداً عليه، بالتالي، أميراً؟

بهذه الحيرة التي ارتسمت أسئلة على شفاه كبار الصحابة من مهاجرين وأنصار ندخل على حدث يُعدّ من أخطر الأحداث في تاريخ «الدعوة» هو هذا الذي جاء نتيجة لصدمةٍ أصابت الجبهتين معاً وارتجت بها منهما النفس. فقد أمّر محمد على الجيش أُسامة بن زيد ابن حارثة فأثار بذلك دهشة ما لبثت أن تفتقت عن تذمر اعتكرت به الآفاق بعد النفوس، فقد كان أسامة يومئذٍ حدثاً لا يكاد يعدو العشرين سنة من سنه، ومن ثم كان لإمارته على المتقدمين الأولين من المهاجرين ومن كبار الصحابة من الأنصار ما أثار هذا الاعتكار في النفوس حتى بتذمرهم صرّح الأولون وأبدوا الغضب من بعث حدث كأسامة على رأس جيش يضم جلة المهاجرين، ومنهم أبو بكر وعمر وجلّة الأنصار!.

ولكن لو تنبّه هؤلاء الذين أشعل محمد في صدورهم لِهب الدهشة فالتهبوا بحمى التذمّر إلى الهدف الذي إليه كان محمد يهدف من تأمير أُسامة لكانت قد هدأت منهم الجائشة واستطاعوا بذلك أن يتبينوا أن في تعيين أسامة عليهم أميراً إنما المنتهى من الحكمة في

السياسة والذروة في تقدير الظروف فليس هناك بينهم أحد تتلظى جوانحه بما تتلظى به جوانح أسامة من وقدة الانتقام!. فأسامة إنما موتور القلب متأجج النفس للانتقام من الروم «قتلة أبيه» وهو بعد إنما فتى فوّار الشباب تلفحه لهب الظمأ إلى الثأر!. ومن ثم ففي شخصه قد توفرت شروط القيادة المنحصرة في الاستبسال عن طريق إلهاب النفوس، فليس هناك من يصلح لقيادة هذا الجيش إلى هذا المكان سوى هذا الذي يثلج فؤاده اليقين بأنه إنما يقوده إلى هناك للثأر من «قَتَلة أبيه»!..

هذا هو الهدف الذي قصد إليه محمد بإرسال أسامة بن زيد إلى أرض فيها كان زيد قد قُتل!.. من ثم فليتذمّر المتذمرون ما شاء لهم التذمر فإنما تجهيز الجيش قد تمّ ويد الزمن قد امتدت تُسجّل:

«بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين»

امتطى أسامة صهوة فرسه ليقود جيشه لغزو الروم...

ولكن!. في نفس المكان الذي كان يتجهز فيه هذا الجيش للخروج إلى تخوم البلقاء من أرض فلسطين، توقف ولم يتحرك!...

في «الجُرْف»، على مقربة من المدينة حيث المكان الذي كان الجيش فيه يتجهز، توقف هذا الجيش وأبى أن يتحرك فقد حال عاملان في عدم تحركه الأول تذمّر الكثيرين والآخر الخبر الذي سرعان ما شاع بأن سيد العرب قد وقع مريضاً!...

ومن منافذ الأعين انطلقت الأسئلة الصامتة تجول من عين إلى عين وبين عين وبينما صمتت الشفاه وعن الخوض في الكلام احتجزتها رعدة سرت في جوانب المدينة من أمر هذا المرض وهي التي لم تعرف قط من قبل أن سيدها شكا مرضاً ذا بال!...

وهنا كان حتماً أن يُحوِّل هذا الجيش أعنة جياده نحو المدينة إليها من «الجُرْف» عائداً فكيف يسيرون إلى فلسطين وهم لا يدرون ما سيكون من أمر هذا المرض بل وكيف يترك الأنصار والمهاجرون المدينة والعنق من كل فئةٍ منهما على حدة يشرئب إلى الإمارة على «المؤمنين» ويُترع صدره الأمل أن يخلف سيد العرب فتكون له من بعد محمد الخلافة؟!...

ولكن... بينما كان الجيش قد تحوّل عن «الجُرْف» إلى المدينة كان محمد قد أدرك، بدقة إدراكه الأمور، اقتراب ساعته وأن راحة الزمن قد انبسطت لتطويه، فجفاه الوسن!. أحسّ محمد بدبيب الوهن فأرق وطال أرقه لتعود إليه ذكريات الماضي وتُحوِّم من حوله أطياف أصحابه الأول الذين افتدوه بأنفسهم ويرقدون الآن في بقيع «الغرقد» حتى استشعر حاجته إلى أن يخرج إليهم يبثهم نجواه ويحدثهم... استشعر إليهم افتقاراً ولهم افتقاداً فخرج إلى

هذا المكان فيما حول المدينة مستصحباً معه مولاه أبا مُويهة ووقف بين هذه المقابر يخاطب أهلها خطاباً يلقي على مجريات الحاضر ضوءاً نستبين تحته الحال النفسية التي كان محمد لها يجتاز وهو يخاطب الصحاب الضّجع قائلاً:

«السلام عليكم يا أهل المقابر! ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه! أقبلت الفِتَن كقِطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها! الآخرة شرّ من الأولى!».

وازداد الوهن بعد هذه الليلة وتضاعف الضعف فليس إلاّ غداة هذه الليلة التي زار فيها سيد العرب بقيع «الغرقد» بدأ يشكو وطأة الوهن وإن لم يمنعه هذا من التحامل على نفسه حتى خرج إلى المسجد ونادى المتذمرين قائلاً:

«أيها الناس: انفذوا بعث أسامة! فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله! وإنه لخليق للإمارة!...».

ولكن!. خيّم الصمت على الناس!. وسكت محمد بدوره برهة ثم أدار دفة الحديث إلى وجهة أخرى عبرها يتجلّى حسن التصرّف العجيب الذي تميزت به شخصيته في أدق الأمور وأحرج المواقف فهو، وهو الذي يعلم أن مركب الحياة قد اتجه به نحو الغروب، يتجه إلى هؤلاء الذين تذمّروا بقولٍ تلفحهم به لوافح الندم ولفحات الحنين إذ استرسل قائلاً:

«أيها الناس... إن عبداً من عباد اللّه خيّره اللّه بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند اللّه!».

وكرة أخرى سكت محمد وكرة أخرى خيّم الصمت على الناس ولكن رفّ على المسجد من السكون وجومٌ عجيب لم يشقه إلاّ صوت أبي بكر الذي انطلق باكياً يقول:

«بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا!».

ولكن!... كأنما الصمت كان قد قُدّ على الشفاه وكأنما عدوى التأثر لم تسر من أبي بكر إلى الناس، فقد انعقدت الألسن وطأطأت الرؤوس وجثم على المكان مُطبق السكون ومن ثم أمر محمد أن تُقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلاّ باب أبي بكر...

وبطيئة متثاقلة راحت تمر من عمر الزمن أيام قلائل تزايدت خلالها في جسم محمد الحمى مما يشكو حتى أيقن أن الموت إنما منه بخطى حثيثة يدنو وفيما هو في هذه الشدة التفت إلى مَن كان في البيت مِن رجال وقال:

«ائتوني بدواةٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً».

ولكن!... هذا المطلب لم يجب!.. فلم يجىء إليه بدواة وليس هذا فحسب بل

واختصم الحاضرون أمامه حتى هبّ يقول: «قوموا! ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف!.» وحتى تحامل كرة أخرى على نفسه وخرج إلى المسجد يرفع صوته، حتى سمعه مَن كان في الخارج، مُنادياً:

«أيها الناس: سُعّرت النار! وأقبلت الفِتن كقِطَع الليل المظلم! وإني واللّه ما تمسكون عليّ بشيء! إني واللّه لم أحل إلاّ ما أحلّ القرآن ولم أحرّم إلا ما حرّم القرآن!».

يقيناً لقد سُعّرت النار وأقبلت الفِتَن كقِطع الليل المظلم حتى دفعت أسامة إلى أن يهبط والجيش معه المدينة بينما في أوصال سيد العرب كان قد اشتد دبيب الوهن حتى لم يبق هناك ريب في أنه لم يبق له في الحياة إلاّ سويعات من هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة «الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة (١٢هـ ـ ٨ يونيه ٦٣٢م) يوم ذاع في أرجاء الجزيرة الخبر وشاع أن راحة الزمن قد طوت محمداً!..

والآن... الآن وقد ثوى محمد يُجابه الفكر السؤال بعد السؤال:

أي أثر قد ترك محمد؟!. وأي أثر في نفوس أصحابه من المهاجرين الأول وكبار الأنصار قد ترك محمد وهو الذي قد تعجله الموت ولم يُوص بهذا الملك العريض الذي قد بناه إلى أحدٍ؟!..

سؤال، تأتي عنه الإجابة من الأحداث التي أعقبت وفاة محمد فما عُرف خبر وفاته وبين كبار الصحابة شاع إلاّ واختلف هؤلاء اختلافاً كاد يثير بينهم الفتنة ويؤدي إلى ما تؤدي إليه الفتنة من حرب أهلية وليس على ذلك أدلّ من أنهم تركوه جدثاً لم يُدفن بعد وراحوا يتنازعون الأمر كل يريد أن يكون خليفة محمد في هذا الملك فيكون بذلك «الخليفة» وبذلك تعدو له على المؤمنين «الإمارة»!..

على صفحات «كتب السيرة» مُسجلة أحداث ذلك اليوم الذي ترك فيه كبار الصحابة مشيّد هذا الملك مسجّى على فراش موته جثماناً لم يُفرغ من أمره بعد، وقد أغلق دونه الباب، وتفرّقوا يتنازعون هذه الإمارة. انحاز حيٌّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة في «سقيفة بني ساعدة» واعتزل عليّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوام وطلحة بن عبيد اللّه في «بيت فاطمة» وانحاز المهاجرون ومنهم أُسَيْد بن حُضير من بني عبد الأشهل إلى أبي بكر.. وراحوا يتنازعون حتى كثر بينهم اللغط وحتى احتدت أصواتهم وهي تكيل لبعضهم بعضاً الاتهام. كل يتهم الآخر بأنه يريد اغتصاب الأمر!. بيد أن لما كان لا بد لفئة أن تنتصر على أخرى فقد تمّت «البيعة» للمهاجرين في شخصية أبي بكر..

ليس إلاّ بعد أن تمّت البيعة بالخلافة لأبي بكر تنبّه المسلمون إلى أنهم قد تركوا محمداً

يرقد على سريره جثماناً ينتظر التجهيز والتشييع فأقبلوا على جهازه ودفنه...

والآن.. الآن يُجابه الفكر، أيضاً، سؤال آخر: أي أثر قد ترك خبر وفاة محمد في نفوس العرب من أهل شبه الجزيرة كافة وهو الذي عن طريق الغزوات قد أجبرهم، قبيلة بعد قبيلة، على الاعتراف بدعوته، وهو الذي تحت وميض السيف المسلّط قد ساقهم إلى اعتناق دينه؟...

سؤال، تأتي عنه الإجابة أيضاً من الأحداث التي أعقبت وفاة محمد فما ترامى خبر هذه الوفاة إلى قبائل العرب المحيطة بالمدينة ومنها إلى أرجاء شبه الجزيرة راح، إلاّ ورواح الريح فيها راح فقد حسبت قبيلة بعد قبيلة أنه الانطلاق من قيود الأسار ومن ثم نجمت «الرّدة» وفشت وتفشّت حتى همّ أهل مكة نفسها بالارتداد عن الإسلام وسلخ سلطان محمد...

ولكن!... الأمر كان قد استتب وقبضة المهاجرين الأول كانت قد قبضت على ناصية الحكم في البلاد وإذا كان محمد قد ثوى فإنما قد قام يحكم البلاد مَن لم يسترشد محمد إلاّ برأيه ومَن لم تقم قوة محمد إلاّ على عاتقه، فالخليفة إنما هو، نفسه، عتيق بن أبي قحافة!..

ومن ثم ارتفع السيف من جديد وليعيد المُرتدين إلى الحظيرة الإسلامية عليهم هوى!. وحتماً كان لهذا السيف أن يرتفع وعلى المرتدين يهوي وليس إلاّ على إسلام إنما «الخلافة» تقوم.

ويقيناً... ليس إلاّ لحكم المهاجرين يعود بأسبابه استتباب الإسلام في شبه الجزيرة العربية وتوطيد أركانه في أرجائها، بل وامتداده إلى خارجها وتحدّره على العصور حتى الحاضر من عصرنا، فإنما هؤلاء هم خلفاء محمد في الحكم والإمارة على المؤمنين والذين انتظم ملكهم نظام «الإمامة» ومن ثم ترسّموا خطى محمد ومن ثم كان انطلاقهم إلى ما وراء شبه الجزيرة يحملون السيف وينشرون له سياسة ما لبثت أن تداعت بسببها أرجاء شاسعة من الدنيا القديمة رقعة فرقعة، فليس إلاّ تحت ظلال هذا السيف كانت أن زادت الدولة الإسلامية في رقعة أملاكها على حساب الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية..

لا ثمة شك في أن مما سهّل على حكّام الدولة الإسلامية فتح ولايات الإمبراطورية الرومانية، وخاصة مصر، ما كان قد أصاب هذه الإمبراطورية من تصدّع، على أثر قيام الفتن والثورات في أواخر عهد جستانيان إلى وفاة هرقل، إلاّ أن إلى الهدف المرسوم قد بلغ الإسلام فقد امتلكت يده: «أموال قيصر»..

وممّا لا ثمة شك فيه أيضاً أن نفس الأسباب قد سهّلت فتح ولايات الإمبراطورية الفارسية على أثر تزعزع صرح هذه الإمبراطورية باختلال نظام آل ساسان غداة اعتلى عرشها يزدجرد الثالث، آخر أباطرة ساسان، مَن في عهده اضطربت أمور الفرس اضطراباً سنح به للإسلام غزوها فغزاها، إلاّ أن إلى الهدف المرسوم أيضاً قد بلغ الإسلام فقد امتلكت يده: «كنوز كسرى».

وبانهيار ولايات هاتين الإمبراطوريتين توالت الفتوح... وبعد أن كان الإسلام دولة أصبح إمبراطورية رسخ بأمرها أمر الإسلام رسوخاً يعود بأسبابه إلى سعي حكّام هذه الإمبراطورية إلى صيانته صوناً حتّمته عليهم، في دائرة السياسة، أسباب الحكم لأن حكمهم لا يقوم إلاّ على أس الخلافة عن محمد في حكم المؤمنين ومن هنا كان حرصهم، وملكهم إنما يقوم على الإيمان بصحة الدعوة المحمدية، على توطيد أمر الدعوة وإرساخها في النفوس بوسائل شتى، ستطالعنا بعد صفحات، كانت السبب في توارث الأجيال هذا الدين الذي يظلّ من عصرنا الحاضر رقعة كبرى من الأرض ويحكم أممها وشعوبها وأفرادها في كافة مرافق حياتهم العامة والخاصة بشريعة صاغها بعض ما قد تدفق من شفتي محمد من «كَلِم» يستمد صدقه من عصمة محمد وسجله هذا «الكتاب» الذي تحدّر عبر الأجيال منزلاً والذي جمع بعد وفاة محمد بفترةٍ غير قصيرة من الزمن غداة لجمعه أدّت الشتى من الأسباب، فلقد حكم ملك الصحراء أول خليفة وثان وثالث وتوالت خلال عهودهم «حروب الرّدة» وحروب «الفتوح» وبذلك احتك المسلمون بأصحاب الديانات الأخرى احتكاكاً أضعف في نفوسهم روح الإيمان بالإسلام كدينٍ، الأمر الذي خشي خلفاء محمد له عاقبة ستتداعى بأسبابها لهم خلافة لا تستند إلاّ إلى الإسلام كدين وهذا إنما صرح لم يبنه إلاّ «الكَلِم» الذي تحدّر من شفتي محمد خلال مرحلة زمنية استغرقت غير القليل من السنين.. بدافع هذه الخشية التي اشتدت في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، ونفسه كان من كُتّاب «الوحي»، جُمع هذا «الكلم» الذي كان ما يزالِ في صدور «الحفّاظ» ومُسجلاً على العظام وعلى الجلود في مصحفٍ ضمّه ضمّاً متناثراً ومن ثم لم ينتظم الترتيب التاريخي الفقرات منه أو الآي ومن ثم حوى المنسوخ وغير المنسوخ من الآي ومن ثم امتزج القسم المكي بالقسم المدني في هذا الكتاب الذي يرى فيه العالم الإسلامي دستوره وقانونه وشريعته ويعتبره التاريخ الديني المصدر الوحيد للعقيدة الإسلامية!.

ومن ثم فليس إلاّ من القرآن ليس إلاّ من هذا «الكتاب» الذي له قد تناولنا ولصفحاته نشرت اليد منا بينما كان الفكر بين سطوره بالسبر يسير عاجماً المعنى ومستشفاً الغاية حتى استحالت الصفحات إلى إطار تحددت في داخله وبرزت واضحة جلية صورة أروع شخصية

وأقدر عبقرية عرفتها دنيا العرب، نعرف تماماً ما هو الإسلام، فلن نضع يدنا على المادة التي شُيِّد منها الصرح من الإسلام إلاّ عن طريق دراستنا دراسة شاملة هذا «الكَلِم» الذي جاء منجماً فاستوعب قدراً غير قليل من السنين من عمر هذه الشخصية التي ازدحمت حياتها بشتى المناسبات ومختلف الأحداث فإنما الآي منه بكليتها، بناسخها ومنسوخها، تُمثِّل الحجارة التي بني بها صرح هذه الوحدة السياسية التي جعلت العرب أمة مترابطة بهذه الوحدة الدينية التي سجّل بها الزمن في سجلّ الديانات الكبرى:

الدين الإسلامي

يقيناً ما الإسلام إلاّ القرآن وما القرآن إلاّ الإسلام فليس إلاّ عبر القرآن نلج إلى الأعماق من هذا الصرح ونقف على الأساس الذي استقام عليه منه البناء والذي يُمثِّل القواعد منه والأصول...

القواعد من الإسلام تقوم على أُسس إيمان مكانه:

مكة أو «البيت» كعبة الدين الإسلامي

قاعدة للإيمان الإسلامي تقف كبلدة مقدسة: «مكة» وكصورة مُجسّمة لهذا الإيمان يقوم على أرضها التي غدت منذ فجر تاريخه تبعاً لقدسيتها أرضاً حراماً: «بيت اللّه».

يقيناً لقد احتفظ الإسلام بما قد كان لمكة في العصور الأول لجرهم وخزاعة وقريش من حرمةٍ ومن تقديس وتماماً كما قد كانت خلال كل هذه العصور السابقة على الإسلام قاعدة للإيمان العربي القديم ظلّت في الإسلام قاعدة للإيمان العربي الجديد، بل وتماماً كما قد قام «بيت اللّه» خلال كل تلك العصور صورة مجسّمة للإيمان العربي القديم ظلّ صورة مجسّمة للإيمان العربي الجديد حتى ليبدو أن الإسلام لم يأت بأي مستحدث في هذا المضمار جديد ولكن، الحقيقة أن الإسلام قد أتى بأهمّ مستحدث في هذا الصدد وهو إفراغ قلب «المسجد الحرام» من صورة كل شفيع في نفس الوقت الذي ملأه بطيف محمد الذي غدا لكل مؤمن به هو، وحده، الشفيع. الشفيع الذي جاء بهذا الدين المنقسمة منه الأصول إلى:

عقائد وأعمال

الأصل الجوهري الأول من أُصول الدين الإسلامي:

الاعتقاد باللّه

إله العصر الجُرْهُمي والخُزاعي والقُريشي إنما هو للإسلام نفس الإله فإنما إله الإسلام هو نفس الإله الذي عرفته العرب في غضون ما قد عرفت من عصور والقرآن إنما سجّل هذه

الحقيقة... من ثنايا هذا السجل يأتينا هذا اليقين غداة، بين قبائل تلتقي كلها رغم تفرقها السياسي عند عقيدة واحدة مشتركة محورها ألوهة «اللّه»، ارتفع الصوت من محمد قائلاً إن الرسالة التي يقوم بالدعوة إلى نفسه بها داعياً إنما من الإله المعترفة به هذه القبائل العربية، قاطبة، صابئها وحنيفها!...

على صفحات «مصدر العقيدة» منتشرة هذه الحقيقة كما يُسجّلها نوع ذلك الجدل الذي قام بين محمد وقومه عندما إلى الطبقة المفكرة، بما تضمه هذه الطبقة من أشراف قريش ومن سادة العرب، اتجه الصوت منه يؤكد وحدانية اللّه كإله به هذه الطبقة تؤمن وتعترف وعندما إلى الطبقة المتمثلة فيها العقل الجماعي المجمع على الإيمان بوحدانية اللّه واتخاذ الوسطاء إليه من الملائكة شفعاء، رضوخاً لاعتقاده بأن الملائكة لقربهم الشديد من اللّه تستغفر لمن في الأرض ولهم عنده تتشفّع، اتجه من محمد الوجه بينما راح «الكَلِم» من شفتيه يتساءل في تعجب:

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنّ اللّه﴾.

الآية ٨٧ من «سورة الزخرف»

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ اللّه قل أفرأيتم ما تدعون من دون اللّه﴾؟

الآية ٣٨ من «سورة الزمر»

يقيناً إنهم يجيبون محمداً ويقولون:

﴿إننا ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى اللّه زلفى﴾!

ويقيناً إن محمداً يرد عليهم مؤكداً أن:

﴿... إن الملائكة يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾.

الآية ٥ من «سورة الشورى»

ولكن!... **﴿وكم من مَلكٍ في السموات لا تُغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن اللّه لمن يشاء﴾!**

الآية ٢٥ من «سورة النجم»

وهكذا يستبين لنا الدليل أن أهم أصل من أُصول الدين الإسلامي إنما الاعتقاد بأُلوهة مَن عن القِدَم توارثه الإسلام ومَن مِن حول تفرّده بالأُلوهية لم يقم بين محمد وبين قومه أي جدل، كلا ولا هناك كان شبه جدل فإنما الجدل قد انحصر في ماهية هذه

الرسالة التي جاء بها محمد إلى نفسه يدعو وفي مدى نصيبها من العصمة والحق، ومن هنا كان أن رماها البعض بالافتراء على اللّه بينما آمن بها البعض الآخر وراح يتبع التوحيد المطلق الذي نهج الإسلام فيها نَهْج الأحناف من قبله رامياً إلى وحدة سياسية تستمد أواصرها من وحدة المعتقد باستهلاله «الدعوة» بالدعوة إلى دين، بعودته إلى إبراهيم، يجمع الأديان طراً عندما إلى النواحي المسيحية انطلق منه الصوت: وهو بعد في مكة، جهيراً ينادي:

﴿.. إلهنا وإلهكم واحد﴾!

الآية ٤٦ من «سورة العنكبوت»

يقيناً إن الإسلام في فجر تاريخه في مكة يوافق المسيحية في الجوهر من عقيدتها الإلهية ولكنه عن المسيحية في صورتها اليعقوبية قد ابتعد ونأى بقدر ما من المسيحية في صورتها النسطورية اقترب ودنا، حتى ليمكن القول بأن «الكلم» قد نحا المنحى النسطوري الذي يتفق بدوره والعقيدة الحنيفية ويسجل هذا الوفاق «مصدر العقيدة» نفسه غداة تناول مشكلة الطبيعة اليسوعية نافياً تأليه مريم وأُلوهية ابن مريم، فهو يوافق النسطورية في المعتقد بأن ابن مريم لم يكن إلاّ نفخة من «الروح القدس» وأنه «كلمة اللّه» التي حملت بها مريم وهي بعد عذراء... سبحانه:

﴿بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾!

الآية ١٠٠ من «سورة الأنعام»

من ثم فللصوت المسيحي الهاتف مِن على «الصفا»:

«هو اللّه الواحد المعبود وليس بوالد ولا مولود».

قس بن ساعدة

من على «الصفا» أجاب الصوت من الإسلام باليقين بأنه:

﴿... هو اللّه أحد اللّه الصمد لم يلد ولم يولد﴾.

«سورة الصمد»

كل هذه إنما أدلّة تأتينا باليقين على أن الإسلام قد وافق عصره في معتقده الإلهي ومن حول هذا المعتقد لم يقم بين محمد وبين من عاصره جدل لا فحسب بينه وقومه ولا فحسب بينه و«أهل الإنجيل» وإنما وحتى بينه وبين «أهل التوراة» لم يستعر أي لون من ألوان الجدل غداة إلى النواحي الموسوية اتجه منه الصوت، ولما يزل في مكة، وراح في مسمع

يثرب ينساب هامساً أن ما عليه يتنزّل إنما يوافق ما لديهم من كَلِم هو لعقيدتها يؤيِّد لأنه صادر من نفس الإله الذي كان:

﴿.. عرشه على الماء﴾.

الآية ٧ من «سورة هود»

والذي بعد ذلك: **﴿.. على العرش استوى﴾.**

الآية ٥ من «سورة طه»

فإنه هو، نفسه: **﴿... اللّه الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾.**

الآية ٣ من «سورة يونس»

وإنه نفسه: **﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾.**

الآية ٤ من «سورة الحديد»

وإنه هو، نفسه، مَن في النار لموسى قد تجلّى:

﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نُودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى... وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى إنني أنا اللّه﴾!

الآي ٩ إلى ١٤ من «سورة طه»

فإنه هو، يقيناً، الذي كلّم موسى قائلاً:

﴿.. بُورِكَ مَن في النار ومَن حولها وسبحان اللّه رب العالمين يا موسى إنه أنا اللّه﴾.

الآي ٨ و٩ من «سورة النمل»

من ثم فيقيناً إن الإسلام قد وافق عصره في تفكيره الإلهي وهادن له معتقدات فإنما من حول تفرّد «اللّه» بالألوهية لم يقم بينه وبين الديانات الأخرى أي جدل، وليس هذا فحسب وإنما أقرّ الإسلام صحة المعتقد الإلهي للعصر الذي جاء فيه بأن جمع في وحدة المعتقدات الشتى حتى المدى الذي وافق فيه ناحية هامة من عصره عندما انطلق الصوت منه يقول إن:

﴿اللّه نور﴾! ﴿اللّه نورُ السموات والأرض مثلُ نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح

في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريٌّ يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾!

الآية ٣٥ من «سورة النور»

ومن ثم، وهو إنما نور، يكون:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾.

الآية ٣ من «سورة الحديد»

وتبعاً لذلك يكون الإله «ليس كمثله شيء»! بل ويكون، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن: الروح المغتمرة الكون ومن ثم:

﴿... هو معكم أين ما كنتم﴾.

الآية ٤ من «سورة الحديد»

لهذه الفِكَر من ألوان التفكير الإلهي يُسجِّل القرآن فيُسجّل بذلك اللون الباهر من توحيد المعتقدات الإلهية وبهذه التعاريف يُعرّف الألوهة وسحياً يزيدنا بها تعريفاً واليد منها تطوي منه الصفحات والفكر بين سطوره يجول بين آية وآية ويجري من آي إلى آي لتجابهه أهم مشكلة من مشكلات التفكير الإلهي، هي أبداً النتيجة الحتمية التي تجابه العقل الإنساني في مضمار التفكير الإلهي ومن ثم كان طرقه لها بمطارق شتى من أبرزها وسائل المنطق والتفكير. ولكن!... في هذا المضمار ينبغي أن تقف اللّوالب الفكرية وتكف سلاسل المنطق فالمضمار إنما استعراض دين ولا ينبغي إلاّ أن ترهف منا في تنبّه المسامع إلى كلمته التي تأتينا تعفي العقل من جهد التفكير في إيجاد حلّ لهذه المشكلة بما يأتي به هو نفسه من حلول عبر آيات تُسجِّل ماهية:

الماهية الإلهية في القرآن

عن هذه المشكلة التي تُعد الأهم من مشكلات التفكير الإلهي إن لم تكن الأعقد، لما تثيره في الفكر من أصعب البحوث ولما تحتمه عليه من التعمّق في التفكير ووزن مقاييس الكلام بالدقيق من المعايير، يأتينا من مصدر العقيدة الإسلامية الحل بآي من حول «الماهية» تتجمع فتجمع، إلى جانب الوحدة والوحدانية، التجرّدية واللاتجردية، فإن إلى جانب الآي الجارية صريحة، صراحة لا تقبل التأويل أو التفسير، تقول بالتجردية وتصف الإله بالمطلقية واللاتناهي تجري آي، لا تقبل فحسب التأويل أيضاً بل وترفض رفضاً قاطعاً التفسير، تقول باللاتجردية بتسجيلها «المكانية» و«الجسدية» و«الزمانية» و«الكلامية»، فإن القرآن إذ يصف

الإله بأنه ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ويقول إنه ﴿**نور على نور**﴾ بل ويجعله روحاً غامراً الكون إذ يقول ﴿**هو معكم أين ما كنتم**﴾ فإنما في الوقت نفسه يصفه بأنه:

﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾.

الآية ٥ من «سورة طه»

يقيناً إن هذه الآية القائلة بالاستواء على العرش إنما آية تُعلن وجود عرش والعرش إنما مكان ومن ثم نتيجة حتمية للأخذ بهذه الآية يجب الإيمان بأن اللّه إنما في مكان يضمه ضماً بل ويحتويه احتواء وتؤكد ذلك آية أخرى تقول:

﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش**﴾.

الآية ٧٥ من «سورة الزمر»

هذه الآية التي تجعل العرش محفوفاً بالملائكة إنما تؤكد أن العرش في مكان بل وفي مكان يضمه مكان بدليل أن الملائكة من حوله تحف إذ لا بدّ للملائكة من مكان يحتويها حتى يمكنها فيه أن تحف من حولِ هذا المكان الآخر ألا وهو العرش وتؤكد ذلك هذه الآية الأخرى الجارية تقول:

﴿.. **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية**﴾.

الآية ١٧ من «سورة الحاقة»

هذه الآية التي تجعل العرش محمولاً بثمانية من الملائكة إنما آية تؤكد وجود هذا العرش في مكان بدليل اختصاصها لملائكة ثمانية بحمل العرش ومن ثم عملاً بهذه الآية ونتيجة حتمية لما قد سبقها من آي تنطبق على الإله: **المكانية**.

يقيناً إن «المكانية» تنطبق على الإله بدليل هذه الآي التي تأبى التأويل وترفض إلحاقها بالمجاز لاستنكافها أن يحدث بها ما قد حدث بها من قبل عندما أولت وبالمجاز ألحقت لحظة ارتجت الأرجاء الإسلامية بتلك الأسئلة التي أرسلت من الدوائر الفكرية فيها وترت عاصفة تتساءل: أو تتناقض الآي؟ للسبب لا تقبل قط التأويل بل ولا تقبله أيضاً والمجاز لسببين: أولاً لأنها لم تجيء وقت جاءت لتؤول لا ولا جاءت تحت صبغة المجاز وإنما جاءت صريحة تصف وتحدث ـ وبالتالي لأننا إذا أولناها وألحقناها بالمجاز لتحتّم علينا أن نلحق ما سواها بالمجاز وأن نتناوله أيضاً بالتأويل ـ ومن ثم علينا أن نأخذ جميع الآي بمدلولاتها الصريحة ومعانيها الواضحة وليس إلاّ نتيجة منطقية لذلك نجد أن على الإله بنصوص ما نحن في صدده من الآي تنطبق، والاستواء لا يكون إلاّ بالجسد: **الجسدية**.

من ثم فإن «الجثمانية» إنما للإله ماهية بدليل هذه الآي الصريحة القول بالاستواء والتي بعد أن وصفته بالمكانية والجسدية راحت تسلم نفسها إلى آي آخر تجيء صريحة تسجّل:

﴿... إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾.

الآية ٤٧ من «سورة الحج»

هذه الآية التي تجعل اليوم عند الإله كألف سنة مما نعد إنما آية تُصرّح بانطباق الزمان على الإله وتؤكد ذلك هذه الآية الأخرى الجارية تقول:

﴿... كل يوم هو في شأن﴾.

الآية ٣٩ من «سورة الرحمن»

هذه الآية التي تجعل الإله كل يوم في شأن فتجعل بذلك التغير من شأن إلى شأن طبيعة للإله إنما آية تؤكد انطباق الزمان على الإله، ومن ثم عملاً بهذه الآية ونتيجة حتمية للآية التي قد سبقت تنطبق على الإله: **الزمانية**.

من ثم فإن «الزمانية» إنما ماهية للإله بدليل هذه الآي الصريحة القول باختلاف اليوم عند الإله عنه على الأرض وبالتالي بتغير الشأن الإلهي في كل يوم عن الآخر والتي بعد أن وصفته بالزمانية إلى جانب المكانية والجسدية استرسلت تسلم نفسها إلى آي أُخر جاءت صريحة تُسجل ماهية أخرى للإله هي النتيجة المنطقية لما قد سبقها من مهايا، فقد راحت الآي تتتالى على منوال تمثله هذه الآية:

﴿.. وكلّم الله موسى تكليماً﴾.

الآية ١٦٤ من «سورة النساء»

هذه الآية الصريحة القول بأن اللّه قد كلّم موسى تكليماً، بالإضافة إلى تلك الآيات الأخرى التي بها منذ هنيهة قد مررنا وإليها أصغينا وهي تتحدث عن موسى قائلة إنه رأى ناراً وإن اللّه ناداه وكلّمه معرفاً إياه بنفسه بأنه هو اللّه، إنما آية تعلن انطباق الكلام على الإله ومن ثم عملاً بهذه الآية تنطبق على الإله: **الكلامية**.

وهكذا نستبين أن اللاتجردية إنما للإله ماهية كما تسجلها آي لا فحسب لا تقبل التأويل وإنما ترفضه والتفسير لوضوح القول فيها وصراحة المعنى منها وهي ولئن كانت تجري إلى جانب آي تصفه بالتجردية فإنما مُترع القرآن بهذه الآيات التي تصفه باللاتجردية الأمر الذي أثير في الدوائر الفكرية من بعد واثار في أرجاء العالم الإسلامي من حول «الماهية» أدق المشكلات والذي يقودنا بالتالي إلى استطلاع:

الصفات الإلهية في القرآن

إن للإله في «مصدر العقيدة» تأتي صفات تجليها الآي التي تجري تنعته بأنه: الخالق والهالك والهادي والمضلّ والمنتقم والغفور والرازق الذي يرزق من يشاء ويُحرم من يشاء والمانح المنح والمرسل المحن، فمترع إنما القرآن بهذه الصفات التي تُكوِّن الماهية الإلهية والتي تجيء في مقدمتها صفة الخلق كدعامة عليها ترتكز كل هذه الصفات، فإن القرآن يحدثنا ويقول:

﴿الله خالق كلّ شيء﴾.

الآية ٦٢ من «سورة الزمر»

القرآن إذ يسجل للإله هذه الصفة صفة الخلق فليس إلاّ ليصف الإله بما تحتمه هذه الصفة من صفات...

من ثم يكون الإله، كخالق الوجود بكل ما يشتمل عليه من موجودات، إنما القادر الفعّال لما يُريد. وكمريد، تكون إرادته هي نفسها لكل ما يشتمل عليه هذا الوجود من موجودات وما تشتمل عليه هذه الموجودات من سجايا وطباع إنما السبب.

وأما الصفة الأخرى التي تُقابل صفة الخلق فهي تلك التي تنحصر في صفة الإهلاك، فإنه كخالق، أراد للشيء أن يكون من عدم فكان، إنما القادر على إعادة ما قد خلق إلى عدم:

﴿... إن ربك فعّال لِمَا يريد﴾!

الآية ١٠٧ من «سورة هود»

﴿... إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلق جديد﴾.

الآية ١٩ من «سورة إبراهيم»

﴿أوَلم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾؟

الآية ٣١ من «سورة يس»

﴿وإن نشأ نُغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم يُنقذون﴾.

الآية ٤٣ من «سورة يس»

ثم.. إذا كانت صفة الخلق قد حتمت اتصاف الإله بالصفة التي تُقابلها فإنما نفس صفة الخلق تُحتِّم اتصاف الإله بصفات أخرى تسم الإله بالمسؤولية التامة نحو من قد خلق فإنه، كخالق، يكون حتماً المسؤول عن كل ما تحتمه هذه الصفة من المسؤولية نحو الكون والكائنات، ومن ثم كان اتصافه بصفة الهداية وبتلك الصفة الأخرى التي تقابلها فالآي في «مصدر العقيدة» متعاقبة تجري تعلن:

﴿فيضلّ اللّه مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء﴾.

الآية ٤ من «سورة إبراهيم»

وتُردّد: **﴿.. فإن اللّه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾.**

الآية ٨ من «سورة فاطر»

وتُؤكد: **﴿... قل إنّ اللّه يضلّ من يشاء﴾.**

الآية ٢٧ من «سورة الرعد»

كلا... لا تسألنّ ما السبب فإنما بذلك قد شاءت «المشيئة» كما، تؤكده، تسترسل الآي وتسجّل:

﴿ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها﴾.

الآية ١٣ من «سورة السجدة»

وأما إذا أردنا أن نعرف ما السبب فهذا إنما سؤال يأتي عنه الجواب بأن:

﴿من يهد اللّه فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾.

الآية ١٧٨ من «سورة الأعراف»

﴿ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً﴾.

الآية ٩٩ من «سورة يونس»

﴿أن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعاً﴾.

الآية ٣١ من «سورة الرعد»

ثم... إذا كان أمر الهدى والضلال رهين مشيئة اللّه وهذا إنما أمر حتّمه اتصاف الإله بصفة الخلق فإنما صفة الخلق نفسها تُحتّم، أيضاً، اتصاف الإله بصفات أخرى فإنه، كخالق، لا يترك مَن قد خلق يعبث في الأرض ويطغى دون ما أدنى عقاب، كما، بالتالي، لا يترك المحسن دون ما أدنى ثواب ـ ومن ثم فرهين أمره إنما أمر الجزاء وله، وحده، مُعاقبة من ضلّ وإثابة من قد عمل سوءاً هدى فعمل حسناً ـ فإن:

﴿مَن جاء بالحسنة فله خير منها... ومن جاء بالسيئة فكُبّت وجوههم في النار، هل تُجزون إلاّ ما كنتم تعملون﴾؟

الآي ٨٩ و٩٠ من «سورة النمل»

إن للضالين النار مثوى ونهاية مطاف ـ فيقيناً ـ :

﴿إن جهنم لموعدهم أجمعين﴾.

الآية ٤٣ من «سورة الحجر»

﴿... ليجزي اللّه كل نفس ما كسبت﴾.

الآية ٥١ من «سورة إبراهيم»

ولكن... في جهنم ستُلقي الجماعات على رؤوسائها المسؤولية التي آلت بالجميع إلى هذا المصير فلا يأتيهم من هؤلاء إلاّ الحجة بأنهم هم أنفسهم لم يهدهم اللّه... و:

﴿... قالوا لو هدانا اللّه لهديناكم﴾!.

الآية ٢١ من «سورة إبراهيم»

وأما إذا ارتسم على الشفاه سؤال لا يتردد عن أن يسأل لماذا؟.. فالجواب بهذا الحكم بأن قد سبق حكم «المشيئة» فإنما اللّه:

﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً﴾.

الآية ٢١ من «سورة الإنسان»

ثم.. إذا كانت صفة الخلق قد حتّمت ما تقدم للإله من صفات فإنما نفس هذه الصفة تحتّم، أيضاً اتصاف الإله بصفات أخرى فإنه، كخالق، يكون هو الذي يمنح المنح وهو الذي يُنزل المحن:

﴿... وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند اللّه وإن تصبهم سيئة يقولوا هذا من عندك، قل كل من عند اللّه﴾!.

الآية ٧٨ من «سورة النساء»

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء اللّه﴾!.

الآية ١٨٨ من «سورة الأعراف»

﴿وإن يمسسك اللّه بضر فلا كاشف له إلاّ هو وإن يردك برحمته فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده﴾.

الآية ١٠٧ من «سورة يونس»

﴿وإن يمسسك اللّه بضر فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾.

الآية ١٧ من «سورة الأنعام»

يقيناً:

﴿... إن أرادني اللّه بضرٍّ هل هنّ كاشفات ضُرّه، أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته﴾؟

الآية ٣٨ من «سورة الزمر»

من ثم قل:

﴿من ذا الذي يعصمكم من اللّه إذا أراد بكم سوءاً﴾؟!..

الآية ١٧ من «سورة الأحزاب»

ثم... إذا كانت صفة الخلق قد حتمت للإله ما قد تقدم من صفات فإنما نفس هذه الصفة أيضاً وقد جاءت للإله بصفة أخرى هامة هي التي تحمل الحلّ لمشكلة تمثل، في الدوائر الاقتصادية، الأدق من المشكلات الاجتماعية إذ تجعل الإله، وحده المسؤول عن الرزق والحرمان والتفاوت بين الطبقات:

﴿.. إن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾.

الآية ٥٢ من «سورة الزمر»

﴿واللّه فضّل بعضكم على بعض في الرزق﴾.

الآية ٧١ من «سورة النحل»

﴿... نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾.

الآية ٢٢ من «سورة الزخرف»

هذه هي الصفات الإلهية، التي حتّمتها صفة الخلق، كما ترتسم واضحة جلية على الصفحات من «مصدر العقيدة» بمداد «الكَلِم» الذي تدفق من شفتي محمد بن عبد اللّه يصوّر الإله صورة الإيمان بها يُمثّل الأصل الأول من أصول الدين الإسلامي الذي تطالعنا فيه إلى جانب هذا الأصل الأول والأهم قواعد جوهرية أخرى تتمثّل في الإيمان بوجود: الملائكة والجان والسحر والكتب المقدسة والوحي الهابط والإيمان بالرسل والبعث الجسدي والإيمان بمحمد كرسول اللّه وبالقرآن ككتاب مُنزّل

ركن من أركان الإيمان الإسلامي إنما الركن العربي القديم المُتمثّل في الإيمان بوجود الملائكة، فالإسلام لم يسلخ في النهاية للملائكة وجوداً عندما سلخ لهم في مستهل «الدعوة» شفاعة، بل إنه لم يسلخها كاملة وإنما جعلها مرهونة بإذن اللّه:

﴿وكم من مَلَك في السموات لا تُغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن اللّه لمن يشاء ويرضى﴾.

الآية ٢٦ من «سورة النجم»

ومن ثم فالإسلام إنما بوجود الملائكة يعترف اعترافه بها كجنود أو حاشية للمستوي على عرش السماء بل إلى مراتب يقسمها تقسيمه الطوائف منها إلى طبقات فمنها من للعرش يحمل ومنها من بالعرش يحف ومنها مَن إلى مَن يختار اللّه من الناس يُرسل حاملاً رسالة إلهية حملها إلى الرسل إنما من اختصاص مَن يختصه القرآن بالمكانة الأولى من بين مَن ميّزهم عن سائر الملائكة من الأربعة الحاملين إلى المسمع نغمة فيها رجع الصدى للكلداني من الأسماء: ميكائيل وإسرافيل وعِزرائيل وجبرائيل فليس إلاّ من اختصاص هذا الأخير الذي يجعله الإسلام «الروح» حمل الكَلِم الإلهي أو هابط الوحي من السماء إلى الأرض.

وهكذا نرى أن الإسلام يُحتِّم الاعتقاد بوجود الملائكة ككائنات هي، تبعاً لجبلتها السماوية نورية العنصر وذوات مراتب مختلفة تحتّم أمكنتها في أقطار السموات التي خلقها اللّه:

﴿.. سَبْع سموات طباقا﴾.

الآية ١٥ من «سورة نوح»

ثم: **﴿جعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا﴾.**

الآية ١٦ من «سورة نوح»

وجعل المسافة بين عرشه وبين الأرض بينما كان:

﴿يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يُعرج إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾.

الآية ٥ من «سورة السجدة»

ثم:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾.

الآية ٤ من «سورة المعارج»

ومن ثم فأصل جوهري من أصول الإسلام كدين إنما الإيمان بوجود هذه الكائنات النورية العنصر والتي منها مَن يُرسل إلى الأرض رسلاً من لدن المستوي على العرش ومَن عنه مِن شفتي محمد جاء القول إنه عنها يقول:

﴿.. وجاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾.

الآية الأولى من «سورة فاطر»

بهذه الطيوف المجنحة تعج أقطار السموات حيث هناك تقف تُسبّح بحمد ربها وتستغفر لمن في الأرض فإن:

﴿... الملائكة يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾.

الآية ٥ من «سورة الشورى»

ثم.. إذا كان الاعتقاد بوجود الملائكة ككائنات نورية العنصر مُجنّحة الطيوف يُمثِّل ركناً من أركان الإيمان في الإسلام فإنما هناك أصل جوهري آخر من أصول الإسلام يُمثِّل قاعدة أخرى من قواعد الإيمان ألا وهو الإيمان بوجود الجان ككائنات نارية العنصر فقد:

﴿... خلق الجان من مارج من نار﴾.

الآية ١٥ من «سورة الرحمن»

﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾.

الآية ٢٧ من «سورة الحجرات»

ومن ثم فالإسلام إنما بوجود هذه الكائنات النارية العنصر التي تختلف منها الطبيعة اختلافاً جوهرياً عن الطبيعة الملائكية يعترف اعترافاً بيّناً يهدينا بالتالي إلى أن مكان الجان إنما البعيد عن أقطار السموات... مكانها الأقطار الموحشة عن الأرض ومرتعها الغياض والقفار ومراحها قمم الجبال النائية بل سحيق الأودية وقصيها كوادي نخلة حيث من هناك إلى مكة عاد محمد مرة يقول إن نفراً منهم زاروه وبه آمنوا مما كان السبب في انقسام هذه الكائنات النارية العنصر إلى فريقين يأتينا عنهما الذكر من شفتي محمد وهو يقول إنهم، بعد زيارتهم له، قد قالوا:

﴿وأنّا لما سمعنا الهدى آمنا به.. وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون[1] فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾!

الآي ١٢ إلى ١٥ من «سورة الجن»

وهكذا يستقيم الدليل على أن الإيمان بوجود الجان كمسلمين، وهؤلاء هم الذين قد تحروا رشداً وبالتالي ككافرين، وهؤلاء هم الذين سيكونون لجهنم حطباً فتحرق النار هذه

(١) **القاسطون**: الكافرون

الكائنات المخلوقة من النار إنما قاعدة من قواعد الإيمان تعتمد على ما قد جاء من شفتي محمد عنهم من ذكر كان السبب في تكوّن سورة كاملة من القرآن هي إن كانت لاسمهم تحمل فليس إلاّ لتحمل في نفس الوقت قاعدة أخرى من قواعد الإيمان في الإسلام كدين يُحتِّم، تبعاً للإيمان بالجان، الإيمان بالسحر... فلقد ورد في «مصدر العقيدة» عن السحر الذكر تحت صورة النفث في العقد واستعانة الإنسان بهذه الكائنات النارية العنصر التي شطرها مجيء الإسلام إلى جماعتين: فالمسلم منها هو المؤمن والقاسط منها هو الكافر ومن ثم كان من هؤلاء المارد والشيطان وهؤلاء هم من كانت طوائف منهم تُحلّق صاعدة إلى أبواب السماء الأولى تُحاول استراق السمع من أفواه الملائكة فيما به يتحدثون عن ما يجري به «القلم» في «اللوح المحفوظ» من أقدار الكون والكائنات فلا تختطف بعضه إلاّ وتقذف من كل جانب بالشهب التي رُصدت لإحراقها وليس إلاّ لذلك:

﴿... زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾!

الآي ٦ إلى ١٠ من «سورة الصافات»

وليس إلاّ لذلك هم يقولون:

﴿... إنّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهباً وإنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾.

الآي ٨ و٩ من «سورة الجن»

وأما من يُفلت من هذه القذائف وينجو من الاحتراق بالنار من هذه الكائنات النارية فهو الذي يأتي إلى صاحبه من الناس بما قد اختطفه من الخبر الذي يصدق حيناً ويكذب أحياناً لاختلافه اختلافاً بيّناً عن الخبر الآتي عن طريق ملك لصدوره مباشرة عن الإله... فالخبر الآتي من «الرئي» إنما غير الآتي من ملك إذ أن الأخير إنما الرسالة من الإله.. فالأخير إنما الكَلِم المنزّل أو:

«الوحي الهابط»

بالوحي الهابط نقف على قاعدة أخرى من قواعد الإيمان في الإسلام، فالدين الإسلامي لم يقم الصرح منه مكيناً وعلى تربة الأجيال يستقيم إلاّ على دعائم اليقين الوجداني بأن الدعوة المحمدية إنما رسالة إلهية وإن عصمة هذه الرسالة مصدرها الوحي الهابط وهذا اليقين هو الذي فصل فصلاً غير مباشر الإسلام، كدين منزّل وفي نفس الآن فطري إليه جاء يدعو

محمد، عن الدين الحنيف الذي إليه جاء يدعو من قبل الأحناف كدين فطري غير منزّل والبون بيّن بين الدينين، فالقول بالفطرة غير القول بالتنزيل أو الإيمان بهذا الوحي الهابط الذي يؤلف قاعدة من أهم قواعد الإيمان في الإسلام ألا وهي الإيمان بالقرآن كـ «كتاب منزّل». بل إن القرآن يستند في تصديقه بأنه منزّل على أنه وحي تابع لوحي متصل مستمر وأنه يؤلف وما قد سبقه من «كتب مقدسة» وحدة وبذلك يضاف إلى المعتقدات الإسلامية الإيمان بما يذكره «مصدر العقيدة» من هذه «الكتب» التي يعتبرها منزلة:

التوراة والإنجيل والزبور

يُصرِّح «مصدر العقيدة» بأن، كما على محمد أنزل القرآن، على موسى أنزلت «التوراة» وعلى عيسى أنزل «الإنجيل» وعلى داود أنزل «الزبور» وبجانب ذلك يذكر القرآن قدسية «...صحف إبراهيم»...

ولكن... القرآن إذ يعتمد في تصديقه على أنه تابع لوحي متصل مستمر بعض حلقاته التوارة والإنجيل والزبور، فليس إلاّ ليبتعث في الذاكرة الذكرى عن هذه الكتب التي لا تطفو على صفحة المخيلة إلاّ وتعود إلى الانتشار بالعصور التي كانت قد كتبت خلالها.. وليس إلاّ لتعود إلى الذاكرة الذكرى عن موسى وابن مريم وعن داود وعن إبراهيم... وليس إلاّ ليجد التفكير أن الزبور، هذه الكلمة التي تعني الصفحات المكتوبة، إنما نفسه نفس «المزامير» وهذه إنما، من قبل، عنها قد تحدثنا[١]، وأما «صحف إبراهيم» فإليها بوضوح لا يشير القرآن إشارته إلى أن كل هذه «الكتب» تعود بسطورها إلى ما قد سُطر في:

«أم الكتاب»

يجعل القرآن «أم الكتاب» مصدراً لكل كتاب خصّبت بالقدسية منه السطور... وعن «أم الكتاب» يجيء من المراجع الإسلامية التعريف بأنه «اللوح المحفوظ» والمحفوظ في «السماء السابعة» والذي فيه قد سطّر اللّه بـ «القلم»، كما قد قدّر، أقدار الكون والكائنات وإنه يحتفظ به كتاباً يُرسل منه، حسب الظرف والمناسبة ووقت اللزوم، الوحي فليس إلاّ من هذا «اللوح» يُملّي جبريل إملاء هو بدوره يمليه على من يرسله اللّه إليه ممن اختار من البشر رسولاً...

ولكن!... هنا يجب التنبّه إلى عقيدة جوهرية درءاً لكل لبس أو التباس وهي أن «القلم الإلهي» إذ يجري في هذا «اللوح» مسجلاً إرادة للإله فإنما في هذا «اللوح»، أيضاً، يجري

(١) انظر لكتاب **الدين عند العبريين** من هذه السلسلة.

هذا «القلم الإلهي» **بالتثبيت وبالمحو** فإن اللّه و﴿**... كل يوم هو في شأن**﴾[1] يمحو ويثبت في «أم الكتاب» ما يشاء، وليس إلاّ للسبب نسخت آية بآية وبدلت بآية آية كانت من الأسباب التي رمت محمداً بالافتراء في دعوته على اللّه بتبديله آية بآية ونسخه آية بآية حتى المدى الذي غايرت به آية آية تغير بتغايرها به معنى آيات بآيات... ليس الصدد بالمكان الذي يتناول بحثها فالصدد إنما الكلام عن القواعد التي تمثل الصرح من الإسلام والتي تنطوي تحت تعريف واحد ألا وهو **الإيمان**، هذا الإيمان الذي وجدناه يتمثل في الإيمان باللّه والملائكة والجان والوحي الهابط والكتب المقدسة حتى وصلنا إلى القرآن أو هذا الكتاب الذي يمثل بدوره لا فحسب قاعدة جوهرية من قواعد الإيمان في الإسلام وإنما القاعدة الجوهرية التي يقوم بها الإسلام وعليها الإسلام كدين يستند لما تحتمه من الإيمان بأنه إنما كلام اللّه وأنه من بين المعجزات المعجزة الكبرى أو معجزة المعجزات، وأما البرهان الذي يقدمه الإسلام على صدق حجته فيخلّصه القول المنتزع من نفس القرآن، فالقرآن إنما بنفسه عن نفسه يتحدث بأن لا الإنس وحدهم بل والجان معهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله:

﴿**... لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله**﴾.

الآية ٨٨ من «سورة الإسراء»

ولكن... القرآن إذ يعتمد في تصديقه على هذه الحجة ويستند على أنه «منزّل» قوله هذا وبالتالي على قوله بأنه تابع لوحي هابط مستمر ومتصل فإنما هو صريح القول بأنه آخر الوحي. آخر الوحي لأن محمداً خاتم الأنبياء أو بالأحرى لأن محمداً آخر حلقة في سلسلة الرسل والذي أقام الدين الحق القائم بدوره على هذه الأصول المقررة نظرياً والتي تقودنا، بالتالي، إلى قاعدة أخرى من قواعد الإيمان في الإسلام هي لا فحسب أساسية وإنما نفسها الأساس الذي يقوم عليه صرح الإسلام كدين، إذ أنها الشرط الأول لكمال الإيمان ألا وهي هذه التي تتمثل في الإيمان الكامل بأن محمداً كان حقيقة من اللّه رسولاً إيماناً لا يقف عند هذا الحد وإنما يمتد إلى اليقين التام بأنه المصطفى من اللّه من بين سائر الرسل والمختار منه من بين جميع الأنبياء وليستقر هذا اليقين عند الإيمان الكلي بأنه آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذي لا فحسب لم ينطق عن الهوى وإنما كل «الكلم» الذي تدفق من شفتيه كان كلام اللّه وأما البرهان، البرهان على عصمته في التبليغ، فإنما يتمثل في هذه المعجزة التي قدّمها معلناً بأن لا فحسب الإنس وإنما لا يستطيع الجن أن يأتوا بمثلها ألا وهي القرآن.

---

(٢) القرآن الكريم، الآية ٣٩ من سورة الرحمن

وهنا... هنا ننتهي من سرد قواعد الإيمان النظري في الإسلام ما عدا آخر قاعدة من قواعد هذا النوع من الإيمان ألاّ وهي القاعدة المتمثلة في الإيمان بالبعث الجسدي والتي سنقف عليها متفهمين منها الأساس بعد أن نتحسس الأركان من قواعد الإيمان العملي أو بالأحرى الأركان العملية التي يستقيم بها صرح الإسلام أو هذا الدين الذي جاء به هذا الفرد من بيت هاشم وبه جعل الصلة بين اللّه والإنسان وبين الإنسان واللّه موصولة عن طريق الإيمان به وبذلك جنّب المؤمن به من التطرق إلى عُجْم أعوص مسألة تجابه العقل في رحاب العقليات ألا وهي المشكلة الثالثة من مشكلات التفكير الإلهي التي طرقها العقل الإنساني في آفاقه الفكرية بمطارق شتى أهمها وسائل المنطق، فإنما المشكلة تذوب على صفحات القرآن ذوباً بما يأتي به، نفسه، من عقائد نظرية وعملية تفسر:

مشكلة الصلة في القرآن

الصلة بين الإله والإنسان وبالتالي بين الإنسان والإله في الإسلام تتخذ مظهرين مختلفين فأما صلة الإله بالكون وبالكائنات فصلة تصورها أتم تصوير ما قد قدّم من آي في مشكلتي الماهية والصفات، وأما صلة الإنسان بالإله فصلة تقوم على أسس عقائد عملية وعقائد نظرية... فأما الأصول النظرية فهي التي قد تقدم عرضها ولا يزيد عليها إلاّ ما يحتّمه مبدأ الإيمان بالبعث الجسدي.. وأما الأصول المقررة عملياً فهي التي تنطوي تحت كلمة «أعمال» وتتلخص في كلمة «العبادات» وهذه إنما تُمثِّل العقائد العملية وتأتي كأعمال دينية هي كالعقائد أساسية وعلى المسلم يجب بها القيام، وهذه «الأعمال » هي التي تُكوّن القواعد الخمس أو الأركان الخمسة التي يقوم عليها صرح الإسلام بينما تقف في ذروتها شهادة تتكون من جملة هي أول شيء يسمعها الوليد في أحضان هذا الدين وآخر شيء يستطيع أن تهمهم بها منه الشفاه وهو يفارق هذه الدنيا، وليس هذا فحسب وإنما هي أكثر جملة تتردّد في أرجاء العالم الإسلامي على الشفاه، فما من جملة تتردّد في هذا العالم أكثر من هذه الجملة التي تنطلق من المآذن مرات خمس في اليوم الواحد ساحرة الرناء شجية الرنين لوقعها في النفس سحر وفي الوجدان تأثير وهي في أنغام إيقاعية تنساب روعة تنصاب تشق الفضاء شاهدة لمحمد بأنه رسول اللّه!..

هذه الشهادة الغيبية أول ركن من أركان الإسلام وبالأحرى أول عمل من أعمال العبادات لتأتي بعد ذلك، بجانب الزكاة أو هذا الركن الذي تناوله في عصرنا الحاضر الكثير من الإهمال، الأركان الأخرى من ألوان العبادات المتمثلة في:

الحج والصلاة والصوم

الحج بصورتيه، الأكبر والأصغر أو العمرة، إنما سنّة احتفظ بها الإسلام عن القِدم وجعلها فريضة مرعية، والحج بمناسكه القديمة وشعائره العتيقة والقيام به في مواقيت معلومات أزمانها أشهر حرم إنما عادة دينية توارثها الإسلام وأدخلها في نطاق الإرث الذي آل إليه من عصور جرهم وخزاعة وخاصة العصر القريشي وليس هذا فحسب وإنما بلغ من تقديسه لها حرصه على الاحتفاظ بها حتى المدى الذي شرّعها فريضة دينية وإن كان لم يُحتِّم القيام بها إلاّ على كل من استطاع إليها سبيلاً...

والصلاة صلوات خمس تُؤدى في اليوم والليلة فرضها الإسلام وجعل تأديتها على كل مسلم حتمية كما حتّم عليه القيام بها مولياً وجهه، بعد تطهّر وجهه وجهة الكعبة ليتخذ هذا «البيت العتيق» الذي كان قد اتخذ خلال كل ما قد سبق الإسلام من عصور كقبلة في الصلاة إلى اللّه، في الصلاة إلى قبلة فلقد ظلّت للإسلام قبلة ما قبل وقبيل الإسلام نفس القبلة إذ كان: «للصائبة خمس صلوات في اليوم والليلة على نحو صلوات المسلمين الخمس... ويستقبلون في صلواتهم الكعبة»[1] هذه الكعبة التي ما تحول عنها صاحب الدين الإسلامي إلاّ لفترة خلالها كان القلب قد اشتد نحو قريش منه الفتور حتى وجهر اللسان بما يعتلج بين الضلوع لأسباب بها تحولت دفة السياسة في يثرب من مجرى إلى مجرى...

والصوم فَرَضَ الإسلام القديم فريضة وليس إلاّ وحرصاً على الاحتفاظ به جعله فريضة حتمية فلقد:

﴿... كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم﴾.

الآية ١٨٣ من «سورة البقرة»

ثم... منعاً لكل لُبْس حدّد الإسلام ما قد اختار من ألوان هذا الصوم القديم باختياره شهر رمضان للقيام بهذه الفريضة فليس إلاّ باختيار الإسلام للصوم هذا الشهر من كل سنة غدا هذا اللون من الصوم فريضة حتمية بعد أن كان سُنّة مرعية عند القدامى فلقد كان: «للصائبة خمس صلوات... ويصومون ثلاثين يوماً شهراً هلالياً وابتداء صومهم من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس وطوائف منهم يصومون شهر رمضان»[2].

---

(١) بلوغ الأرب في أحوال العرب، جـ٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

(٢) بلوغ الأرب في أحوال العرب، جـ٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

يقيناً... لقد اتخذ محمد عن اليهود اليوم العاشر من المحرم «عاشوراء» يوم صيام واستنّه سنّة مرعية إلاّ أنه منعاً لكل لبس حدّد للصوم شهر رمضان وإن كان هذا الشهر لم يذكر إلاّ مرة واحدة في القرآن[1] أما لماذا اختير شهر رمضان بالذات فليس إلاّ لأن أول ما قيل من القرآن كان فيه عندما كان محمد يتحدث في حراء جرياً على تقليد قديم عُرف خلال العصر القريشي وكان بين أهل الزهاد متّبعاً فقد كان من عادة قريش إذا أرادت التهجّد أن تمضي في هذا المكان شهراً كاملاً للتحنث.

هذه هي الأركان التي يقوم عليها صرح الإسلام والتي تُمثّل الوسائل العملية التي تمكّن الإنسان من الاتصال بالإله. بل إن كل واحدة من هذه القواعد العملية من ألوان العبادات إنما في الواقع تمثّل حلقة من حلقات الاتصال التي تصل الإنسان بالإله والتي تكوّن، بجانب تلك الحلقات التي تمثّلها، العقائد النظرية، الأصول من الإسلام كدين لئن ترابط تحت ظلّه المسلم بالمسلم بما يضمه من طقوس ومن شعائر تمثّل منه القواعد والأركان فإنما تربط فيه المسلم بالمسلم:

الشريعة

الدين الإسلامي، ككل دين سواه سواء أصبغته الفطرة أم خالف الفطري فوسمته سمة التنزيل، لا يحكم الحياة اليومية لمن يعيش في نطاقه فحسب وإنما يسيطر بأحكامه على كل مرافق هذه الحياة بألوانها السياسية والاقتصادية والمدنية والدينية والحربية والاجتماعية والأخلاقية، وبالرغم من أنه لم يرد في القرآن أي تشريع خاص بالحكم أو أي تحديد يفصل بين القانون المدني والديني، لأن أمر الحكم كان محصوراً في شخصية واحدة هي محمد، فإنما من القرآن نستمد كل تشريع لأن محمداً وإن كان قد أنشأ حكومة سياسية ودينية حكمها بحكم فردي انتظم السياسة الداخلية والخارجية لم يكن يصدر في حكمه إلاّ عن آية كانت وليدة الظرف والمناسبة، فأية مشكلة كانت تعرض أو تعترض وأي إشكال كان يعرض أو يعترض لم يكن الحل إلاّ آية أو آيات هي التي، بمجموعها، تكوّن في الإسلام الشريعة.

ومن ثم فالشريعة الإسلامية، وإن كانت كلمة الشريعة لم ترد في القرآن إلاّ مرة واحدة، إنما شريعة منزلة والوصايا فيها والأوامر والقوانين، سواء في الأمور المدنية والجنائية والأحوال الشخصية، وإن كانت قد جاءت مفرقة موزعة فإنما هي التي وجب بمقتضى أحكامها العمل

---

(٢) القرآن الكريم، الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

منذ أصبحت العرب بالدولة المحمدية حكومة منظمة وأضحى قانونها المدوّن القرآن وأمست قوتها التنفيذية منه مستمدة.

والآن... الآن آن لنا أن نلقي نظرة عامة على أهم القوانين في مرور عابر على أخطر الأحكام التي شرّعتها الشريعة الإسلامية فنرى أن:

في «الأمور الجنائية» جاء القانون الجنائي الإسلامي مؤيداً لقانونين قديمين. أولاً القانون العبري إذ شرّع: **الرجم لمقترفي الفاحشة**. وبالتالي السُنّة العربية القديمة إذ شرّع: **قطع يد السارق**.

وفي «الأمور المدنية» جاء القانون الإسلامي مؤيداً الشريعة العبرية المُستوحاة من الشريعة الشرقية القديمة، تلك التي شرّعها حمورابي وحفرها على الألواح وتركها في معرض الزمان مُعلّقة تعلن بأنه قد أقامها شريعة ورفعها إلى ساكن السماء[1] إذ شرّع: «شريعة المِثل بالمِثل».

﴿... إن النفس بالنفسِ والعين بالعين والأنف بالأنفِ والأذن بالأذن والسنّ بالسنِّ والجروح قصاص﴾!

الآية ٤٥ من «سورة المائدة»

﴿... فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

الآية ١٩٤ من «سورة البقرة»

وفي «الأمور الشخصية» جاء القانون الاجتماعي الإسلامي مؤيداً الشريعة العربية القديمة الخاصة بالزواجَ والطلاق... فلقد شرّع الإسلام من ألوان الارتباط الجنسي ما قد كان لدى قريش رسمياً وشرعياً ولكن!. إذا كان القُريشيون «يحرّمون من القرابات في الزواج ما يحرّمه المسلمون»[2] وإذا كانت العرب «تُحرّم أشياء نزّل بتحريمها القرآن كانوا لا ينكحون الأمهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمّات»[3] فإنما الإسلام قد استحدث مستحدثاً في هذه الرابطة جديداً له لم تعرف العرب قط من قبل وهو هذا المبدأ الذي أقرّ زواج المُتبنِّي بزوج المتبنّى غَداة ألغي التبنّي وتزوج محمد زينب بنت جحش...

وأمّا الطلاق فقد حرص الإسلام على إبقاء ما قد كان للعرب في العصر القريشي من

---

(١) انظر: كتاب **الدين عند الكلدان**، من هذه السلسلة.

(٢) **بلوغ الأرب في أحوال العرب**، جـ٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

(٣) **الملل والنحل**، للشهرستاني، جـ٣، ص ٣١٧.

عادة عنها تحدثنا المصادر الإسلامية قائلة بأنهم كانوا «يطلقون ثلاثاً على المتفرقة فيطلقها واحدة وهو أحق الناس بها حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها»[١].

وهكذا نرى أن الإسلام قد حرص على أن يستبقي من الشرائع السباقة عليه كل ما قد وافق منه الطبيعة وليس إلاّ للسبب نجده قد اتخذ أيضاً عن أصحاب الدين الحنيف ما قد وافقه إذ جاء مُحرّماً ما قد حرّمته من قبل «الحنيفية» من عادات وخاصة تلك العادة التي لم تكن شائعة إلاّ في قبيلتين من العرب، أسد وتميم، ومقصورة على الطبقة الدهماء فيهما فأقر تحريم «الوأد»...

ولكن.. لنظام الرّق أقرّ الدين الإسلامي فالعبد إنما لصاحبه ملك والأمة إنما لصاحبها متعة وله أن يتصل بها اتصالاً جنسياً متى شاء وأن يستولدها إذا أراد فذلك إنما أمر في حدود الشريعة الإسلامية مباح..

وتناولت الشريعة الإسلامية في هذا المضمار، أيضاً الطعام والشراب بتشريع جاء مؤيداً مذهب الأحناف في تحريمهم: الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير اللّه، وأما الخمر فقد وقف منها «الكَلِم» موقفاً وسطاً فلم يحرّمها على المسلمين تحريم مَن قد حرّموها على أنفسهم في العصر القريشي كرأس الحنيفية عبد اللّه بن الصلت الثقفي[٢] لا ولا كعامر بن الظرب العدواني[٣] ولا كقيس بن عاصم التميمي[٤] ولا كصفوان بن أمية الكناني وعفيف ابن معدي الكندي والأسلوم اليامي ومقيس بن قيس السهمي[٥] كلا، لهذا اللون من التحريم الكلي للخمر لم يُحرّم «الكلم» فإنما منه قد ورد عنها النهي لا التحريم... بل إن «الكَلِم» عن الخمر لم ينه إلاّ بعد فترة طويلة من المقام بيثرب وبسبب ذلك التصادم بين الأنصار والمهاجرين الذي جاء في أعقاب «غزوة المُصْطَلق».

وأما في «القانون الأخلاقي» فقد سجّل الإسلام لنفسه كل ما قد فرضته على العربي طبيعة السجية العربية وسائر ما قد سطّرته العرب على نفسها من قبل في قاموس الأخلاق من المبادىء التي تجيء تحت لائحة الكرم ومكارم الأخلاق والمتمثلة في الصدق والوفاء بالعهد والرحمة بالفقير واليتيم والرحمة بالنفوس والرحمة بالنفس عبر آيات جاءت في

(١) الملل والنحل، للشهرستاني، جـ٣، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٢) الملل والنحل، جـ٣: ٢٩٨.

(٣) الملل والنحل، جـ٣: ٣٠٦.

(٤) الملل والنحل، جـ٣: ٣٠٧.

(٥) الملل والنحل، جـ٣: ٣٠٧.

القسم المكي من القرآن وفي الفترة الباكرة من حياة «الدعوة» حارة النغم ملتهبة العاطفة تحث على الاستمساك بهذه الخلال في نفس الوقت الذي جاءت فيه مُعبّرة عمّا قد ذاقه محمد في طفولته وقاساه في شبابه بعد صباه من مرارة الفقر ومرير ألم اليتم والحرمان.

هذه هي في إطار الشريعة الإسلامية الخطوط الرئيسية التي ترسم أهم ما قد جاءت به هذه الشريعة وما قد أقرّته من تشاريع تُمثّل نفسها الوسائل التي يمكن بها الإنسان أن يشق طريقه بمعول الأمن في رحلة الحياة حتى المرحلة الأخيرة من هذه الرحلة التي تنتهي إلى نهاية محتومة يبتعث ذكرها في الذهن أعمق المشكلات العقلية التي جابهت الفكر الإنساني وتشابكت أمامه منها السبل وتكاثفت حتى طرقها بمطارق الملكات النفسية، بيد أن لما كان المجال إنما هذا الدين والصدد إنما إرهاف المسمع إلى كلمته فليس علينا إلى أن نرهف منا الأذن ونستمع إذ أن القرآن يُعفي الفكر من جهد التفكير في محاولة شق سجف الغيب إلى المجهول بما به يأتي نفسه من شروح عبر آيات تُوضح:

ماهية النفس في القرآن

يقيناً إن بالكثيف من السجف محتجبة في القرآن من النفس الماهية فليس من آية تُلقي ولو البصيص من الضوء على هذه الماهية في نفس الوقت الذي تستفيض فيه في الحديث عن مشكلات الطبيعة وما بعد الطبيعة بل وعن علم الهيئة، كلا لا تتحدث هذه الآي إلاّ عن كيفية خلق الإنسان إذ تتجمع ومن حول عقيدة الخلق تستدير وسخية تتعاقب مستهلة القول بأنه هو:

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾.

الآية ٧ من «سورة السجدة»

وأنه هو الذي قال:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾.

الآية ٢٦ من «سورة الحجر»

و: **﴿... من صلصال كالفخار﴾.**

الآية ١٤ من «سورة الرحمن»

إلى صلصال من حمأ مسنون، والحمأ إنما الطين الأسود المُتغير والمسنون إنما المصبوب ومن ثم كان كالفخار، يُعيد القرآن للإنسان نشأة هو إذ يعيدها نفسها إلى الخلق فليس إلاّ ليحدثنا بأن هذا الإنسان الذي خُلق من الصلصال إنما الإنسان الأول ويسميه: «آدم» وعن

«آدم» يحدثنا القرآن عبْر سطور تجري وبقصته تُحدِّث:

﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.

الآي ٧١ و٧٢ من «سورة ص»

واضحة من ثم تمام الوضوح وفي غير احتياج إلى تفسير تأتينا هذه الآي التي منها نفهم أن هذا الإنسان الأول قد خُلق من طين وأن الروح منه إنما نفخة من روح اللّه لنفهم بالتالي أن هذه «النفخة» مقصورة على «آدم» باستثناء «ابن مريم» مَن عنه قد تحدث «الكلم» قائلاً: **﴿... إن مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم...﴾**[1] كل منهما إنما نفخة من روح اللّه. أما لماذا كان هذا السجود وما منه المعنى؟. فسؤال يتصدّر «مصدر العقيدة» الرّد عليه وهو في توضيح يسترسل قائلاً:

﴿... قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾.

الآية ٣٠ من «سورة البقرة»

ثم... ثم في استرسال يواصل القرآن الحديث قائلاً: إن اللّه قد كلّم من قد خلق ليجعله في الأرض خليفة قائلاً:

﴿.. يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

الآية ٣٥ من «سورة البقرة»

ولكن!: **﴿فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نَهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لَمِنْ الناصحين، فدلاّهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾.**

الآي ٢٠ إلى ٢٥ من «سورة الأعراف»

بسبب هذه «الخطيئة» هبط آدم وزوجه، من الجنة، الأرض حيث أنسلا نسلاً به بدأت

---

(١) القرآن الكريم، الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

للبشر حياة على الأرض هي الغاية التي إليها كان «الكَلِمُ» قد هدف وبهذه «الخطيئة» قد بلغ وأصاب كما تأتينا واضحة من خلال هذه الآي تمام الوضوح وهي أن «آدم» قد خُلِق ليكون في الأرض خليفة ثم أُسكن وزوجه الجنة... هذه الجنة التي لو لم يوجد فيها «الشيطان» لما كان قد زلّ «آدم» ولكان قد ظلّ فيها خالداً ولما كان قد هبط الأرض.

يقيناً إن من هذه النقطة التي تقول بهبوط «آدم» من الجنة حيث الخلود إلى الأرض حيث الموت يأتينا عبر صفحات القرآن عن النفس من هذا الإنسان الأول تعريف إذ يُصوره مكوناً مِنْ: **روح الجسم**.

ولكن... إلى الروح من سائر الكائنات لا يشير القرآن إشارته إلى أن الروح من آدم وابن مريم إنما نفخة من روح اللّه كلا، إلى أي مصدر تعود بصدورها الروح من الكائنات لا يشير القرآن في الوقت الذي يجعلنا نفهم من مضمون الآي أن كل إنسان إنما مكوّن من جسم هو من طين الأرض جبلة وروح يجعلها القرآن، وإن كان إلى ماهيتها لا يشير الجوهر من الإنسان مكتفياً عند هذا الحد بالإشارة إلى أن بهذا التكوين يحيا الإنسان على الأرض حتى النهاية الطبيعية لكل كائن حي أو بالأحرى حتى حدوث هذه الظاهرة المسماة الموت والتي يعيد «مصدر العقيدة» يوم حلولها إلى أجل محتوم... بيد أن على أسس هذه النقطة نفسها القائلة بهبوط «آدم» تقوم القاعدة الأخيرة من قواعد الإيمان النظري في الإسلام، وعليها يستقيم الركن الأخير من تلك القواعد التي مررنا بها من قبل، قبل القليل من الصفحات، فليس إلاّ على هذه العقيدة القائلة بهبوط «آدم» الأرض وتشييع اللّه له بالقول: ﴿... **فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ تقوم:

عقيدة البعث الجسدي

تُمثّل هذه العقيدة، التي تقف في آخر قائمة الإيمان النظري في الإسلام، حجر الإيمان بالإسلام لا فحسب لأنها عقيدة تجيء تابعة للإيمان باللّه والملائكة والجان والرسل والكتب المنزلة كلا، وإنما لأنها عقيدة مرتبطة أشد الارتباط بدعوة محمد والإيمان به كرسول جاء نذيراً بأن مَن لم يؤمن بدعوته ويتبع دينه فسيكون عذابه «يوم البعث» شديداً لما كان قد وقّر في نفوس العرب غضون العصر القريشي من الإيمان بالبعث الجسدي واليقين بوقوعه ليلقى الإنسان الجزاء من اللّه على كل ما قد أتى من أعمال في دنياه، فإنما من العصر القريشي تنساب إلينا، من كل صوب وناحية، أصوات تُسجِّل هذا الإيمان بالبعث الجسدي قائلة:

«... ورب الكعبة! ليعودنّ ما باد، ولأن ذهب ليعودنّ يوماً»[١].

قس بن ساعدة الأيادي

إن الإله الواحد الذي:

«... ليس بمولود ولا والد: أعاد وأبدى، وإليه المآب غداً»[٢].

قس

من ثم لا تقلقنّ البال وألق عنه بلبال التفكير في الموتى:

«دعهم! فإن لهم يوماً يُصاح بهم كما ينبّه من نوماته الصعق»[٣].

قس

يقيناً:

«إني أرى أموراً شتى حتى!.. حتى يرجع الميت حياً ويعود اللاّ شيء شيئاً ولذلك خُلقت السموات والأرض».

عامر بن الظرب العدواني

ولكن... هذه الأصوات التي تنساب إلينا من صدور المراجع الإسلامية كرجْع الصدى المتهافت المتخافت إنما في الواقع، وإن كانت تُمثّل الإيمان العربي القديم بيوم البعث الجسدي، لا تعطينا فكرة واضحة عن كيفية هذا البعث لا ولا تصوّر هذا البعث التصوير الذي يمكننا من أن نتخيل لهذا «اليوم» صورة. كلا!. ليس إلاّ «مصدر العقيدة» وحده هو الذي يجيئنا بصورة جلية عن كيفية هذا البعث الذي استهلت شفتا محمد، في أعقاب «واقعة أحد»، عنه الحديث بأن بالموت تنفصل الروح من الإنسان عن الجسد وتنطلق على شكل: «طير يُحلّق في شجرة الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة».

وأما الجسد، الجسد الذي قد ثوى واعتصرته التربة فذاب وإلى رميم استحالت منه العظام، فسيظل ثاوياً حتى:

يوم القيامة

ويوم القيامة هو: يوم **يُبعث الإنسان جسداً!...**

---

(١) **الملل والنحل**، جـ٣: ٣٠٣.

(٢) **الملل والنحل**، جـ٣: ٣٠٣.

(٣) في الموطأ والسنن.

من جديد سيهب من مضجعه الجسد ومن ضجعته سيقوم معافى قوياً في هذا «اليوم» الذي كان قد آمن به أصحاب الدين الحنيف حتى المدى الذي قال فيه ألمعهم:

كل دين يوم **القيامة** عند اللّه إلاّ دين الحنيفية[1].

عبد اللّه بن الصلت

في هذا «اليوم» **سيعود الجسد**، بعد فنائه، حياً وستجمع من جديد **رميم العظام** وكما من قبل قد كانت من جديد ستكون ـ يقيناً ـ :

﴿أيَحْسب الإنسان ألّن نجمع عظامه﴾؟

الآية ٣ من «سورة القيامة»

بلى...:**﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾**!..

الآية ٤ من «سورة القيامة»

أوشك!.. أنّى يمكن الشك ومن «الكَلِم» إنما قد جاء الكلام بأن كما من الأرض قد خُلقتم وإليها كانت عودتكم منها ستخرجون فإنما:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نُخرجكم تارة أخرى﴾!..

الآية ٥٥ من «سورة طه»

أوَ يُعجز اللّه إحياء الموتى؟! يقيناً إنهم:

﴿أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يُبعثون﴾.

الآية ٢١ من «سورة النحل»

ويقيناً:

﴿.. ما يَستوي الأحياء ولا الأموات﴾.

الآية ٢٢ من «سورة فاطر»

ولكن! أليس اللّه بقادر على إحياء الموتى؟!

﴿أوَ لم يروا أن اللّه الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾؟!

الآية ٣٣ من «سورة الأحقاف»

---

(١) الملل والنحل، جـ ٣: ٣٠١

من ثم كيف يتطاول من الإنسان الفكر وفي تعالٍ يستنكر أن تُجمع العظام ومن رميم إلى الحياة من جديد تعود؟! ثم كيف يحسب الإنسان أنه إلى الجسد من جديد، بعد ذَوْب اللحم وفناء العظام، لن يعود؟!..

ألا يعلم الإنسان أن على اللّه الإعادة:

﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾؟

الآية ٤٧ من «سورة النجم»

بلى: **﴿.. بلى وربي لتبعثنّ﴾!**

الآية ٧ من «سورة التغابن»

فإنه: **﴿... إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.**

الآية ٢٥ من «سورة الروم»

كالنبات، مثل الإنسان!. فإنما الذي:

﴿يُخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾.

الآية ١٩ من «سورة الروم»

أوَ تتساءلون: كيف يخرج الموتى من الأرض؟... إليكم:

﴿... يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر﴾!.

الآية ٧ من «سورة القمر»

أمّا أيّان هذا الخروج؟... فإنه:

﴿... يوم يُناد المناد من مكان قريب، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾!

الآي ٤١ و٤٢ من «سورة ق»

ليس إلاّ لذلك كان قد قال، من قبل، قس:

«دعهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم!..».. فإن هي إلاّ:

﴿... صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾!

الآية ٥٣ من «سورة يس»

فالصيحة إنما الإعلان بأن اليوم:

﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾.

الآية ٤٤ من «سورة ق»

فاليوم إنما يوم الحشر:

يقيناً إن العرب في العصر القريشي قد عرفوا الإيمان بهذا المعتقد القائل بيوم «الحشر» كما على ذلك تأتينا الأدلة من خلال عادة لهم تحمل الدليل الأوفى على مدى تغلغل هذه العقيدة في صدورهم. فقد بلغ الإيمان بهذا «الحشر» عند بعضهم أن كان إذا حضره الموت يقول لولده «ادفنوا راحلتي معي حتى أحشر عليها» وأبرز مثل على ذلك يجيء قول عمرو ابن زيد المتمنِّي وهو عند موته يوصي ابنه قائلاً:

أبُنــي زودنــي إذا فــارقــتني ... فـي الـقـبـر راحـلـة بـرحـل فـاتـر
لـلـبـعـث أركـبـهـا إذا قـيـل اظـعـنـوا ... مـسـتـوثـقـين مـعـاً لحشـر الحاشـر[1]

ولكن!.. كل ما يأتينا من العصر القريشي عن هذا «الحشر» لا يلقي ضوءاً ينير لنا منه الصورة، كلا. ليس إلاّ من «مصدر العقيدة» يجيئنا عن صورة هذا الحشر الشرح عبر آيٍ تسترسل قائلة إن اليوم هو:

﴿يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً، وفُتحت السماء فكانت أبواباً﴾.

الآية ١٨ و١٩ من «سورة النبأ»

يقيناً إن «اليوم» إنما:

﴿يوم يُنفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرُقاً﴾!

الآية ١٠٢ من «سورة طه»

﴿يوم يُنفخ في الصور ففزع مَن في السموات ومَن في الأرض إلاّ من شاء اللّه﴾!

الآية ٨٧ من «سورة النمل»

﴿ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾!.

الآية ٥١ من «سورة يس»

فإنما هم: ﴿يومئذٍ يتبعون الداعي﴾.

الآية ١٠٨ من «سورة طه»

وأما مَنْ الداعي؟ فسؤال، عنه يأتي من المصادر الإسلامية[2] الجواب قائلاً:

---

(١) الملل والنحل، جـ٣: ٣٢٥.

(٢) «النسفي» تفسير.

«يقف إسرافيل نافخاً في القرن منادياً من بيت المقدس: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة، هلمي إلى عرش الرحمن!».

فاليوم إنما: ﴿... **يوم تشقّق السماء بالغمام وتُنزّل الملائكة تنزيلا**﴾!.

الآية ٢٥ من «سورة الفرقان»

﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلاّ مَنْ أذن له الرحمن وقال صوابا**﴾.

الآية ٣٨ من «سورة النبأ»

فقد: ﴿... **انشقت السماء فهي يومئذٍ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية**﴾.

الآي ١٦ و١٧ من «سورة الحاقة»

بهذه الألوان الحارة يُصوِّر القرآن يوم البعث الجسدي فيأتي بصورة واضحة لهذا «اليوم» الذي لا يُسميه «يوم القيامة» إلاّ لتحمل صورة كاملة من القرآن اسمه، وإن كان يُسمي تارة «يوم البعث» وتارات «الساعة» و«التغابن» و«اليوم» والذي على حدوثه يُقسم «الكَلِم» مسجلاً:

﴿**والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل وما هو بالهزل**﴾.

الآي ١١ إلى ١٤ من «سورة الطارق»

بل إن على وقوعه يأتي من «الكَلِم» الوعد:

﴿.. **كما بدأنا أول الخلق نُعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾!

الآية ١٠٤ من «سورة الأنبياء»

كلا! بالمجاز ليس هذا القول من القرآن لا ولا إلى المجاز تنتسب هذه الآي. لا لأن الفقرات منها فحسب صريحة في تحدثها عن بعث للجسد بعد فناء للجسد تام صراحة مطلقة لا تقبل التأويل وإنما لأنه ليس إلاّ عملاً بصراحة هذه الآي قد أمسى الإيمان ببعثٍ للجسد المادي ولخلود جسدي الركن الثابت والأخير من أركان الدين الإسلامي!..

ولكن!. ثمة سؤال، هنا يعترضنا: لماذا سيكون هذا «البعث»؟!

سؤال، جوابه:

عقيدة الثواب والعقاب في القرآن

يتولّى «مصدر العقيدة» حلّ هذه المشكلة التي تُعد الأدق من مشكلات التفكير الديني

عبر آيات تترى تنير الهدف من وراء هذا «البعث» مُفصحة بأنه ليس إلاّ ليحاسب الإنسان على ما قد صنع في دنياه وما قد أتى به من أعمال هي النتيجة الحتمية لما كان قد اشتمل عليه نصيبه من قسط في الهدى أو في الضلال، ففي هذا «اليوم» سيلقى الإنسان كل ما قد عمل حاضراً فيدرك أن «اليوم» إنما يوم:

الحساب

يقيناً، لقد عرفت العرب في العصر القريشي «يوم القيامة» وعلى الإيمان بأنه سيكون للحساب الأخير قد توافرت لدينا من أقوالهم الأدلة كما بذلك تنساب إلينا من ذلك العصر أصوات تترى قائلة:

فلن تكون لنفسي منك واقية   يوم الحساب إذا ما يُجمع البشر[1]

زيد بن عمرو

ثم:

وعلمت أن اللّه جاز عبده   يوم الحساب بأحسن الأعمال[2]

علاف بن شهاب التميمي

ولكن!. هذه الأصوات إنما مفتقرة إلى ذلك اللّهب الحار الذي تتوهّج به الآي من مصدر العقيدة!... ليس إلاّ القرآن وحده هو الذي يلهب المشاعر الحرار يُصوّر يوم الحساب وليس إلاّ الوحيد هو، الذي يُعرّف هذا «اليوم» بأنه يوم المعاد، يوم الحق، يوم يعلم الإنسان أعماله فإنما:

﴿... إذا القبور بُعثرت، علمت نفس ما قدّمت وأخرت﴾.

الآي ٤ و٥ من «سورة الانفطار»

إلى الحساب لا محالة سيدلف الإنسان، ومن الحساب ليس له مفرّ! إلى المحاكمة في المحكمة الإلهية سيُساق كل إنسان ليجد أن هناك قد نصب:

الميزان

بهذا «الميزان» ستتجلّى أمام كل امرىء العدالة الإلهية على أتمها فاليوم إنما «يوم الفَصل»، والميزان إنما «ميزان العدالة» وفي كفتيه ستوضع الأعمال حتى يُوضع في نصابه: الحق.

---

(٢) الملل والنحل، جـ٣: ٣١٣.

(١) الملل والنحل، جـ٣: ٣١١ - ٣١٢.

إلى «الميزان» قادت الإنسان كل ما قد أتى من أعمال وأمام الميزان سيعلم الإنسان أن كل ما مِنْ أعمال قد أتى، مهما دقت، عليها سَيُحاسب لا فحسب دقيق حساب وإنما عسير حساب، فاليوم لن يستطيع كذباً لأن لسانه سينطق شاهداً عليه بما كان يفعل بل وعليه ستشهد له أعضاء. فاليوم إنما:

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾!

الآية ٢٤ من «سورة النور»

كلا!... لن يستطيع الإنسان «اليوم» كذباً لا فحسب لأن لسانه وأعضاءه عليه شاهدة ستنطلق وإنما لأنه سيواجه بكتاب كونت منه السطور كل ما قد أتى من أعمال سجلتها عليه أو له ملائكة كانت به موكلة تحصي له سيئات وحسنات. ليس إلاّ حينذاك سيرى الإنسان عمله حاضراً وستعود به الذاكرة إلى ما قد جاء عن هذا «الكتاب» مِن الإخبار الذي انطلق عبر أكثر من صوت غير إسلامي إذ قد ورد عنه الذكر في العصر القريشي من خلال شعر زهير، مَن يسميه تاريخ الأدب العربي «شاعر الجاهلية» لأنه لم يقل شعراً بعد ظهور الإسلام، بقوله وهو يناجي اللّه ويصفه بأنه إزاء تصرفات الإنسان قد:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم أو يعجل فينقم[1]

بهذا «الكتاب» سيؤتى عند الحساب، فيحط الملك المُكلّف بوزن الأعمال الحسنات في الكفة الواحدة من الميزان وفي الكفة الأخرى السيئات، وليس إلاّ بناءً على هبوط كفة وصعود كفة أو تساوي كفة بكفة يصدر الحكم!...

وإثر صدور الحكم سيناول الإنسان هذا «الكتاب» ليكون جواز طريقه إلى لون الجزاء الذي لم يحدده له إلاّ ما قد كان له في دنياه من حظٍ في الهدى أو نصيب في الضلال **﴿فأما مَن أوتيَ كتابه بيمينه»﴾** على حدّ التعبير القرآني، فسيكون من **﴿أصحاب اليمين﴾**، **﴿وأما مَن أوتي كتابه بشماله﴾** فسيكون، أيضاً على حد التعبير القرآني، من **﴿أصحاب الشمال﴾**. ولكل من الفريقين عيشة خالدة يختلف اللون من الواحدة عن الأخرى اختلافاً جوهرياً يستهلها الإنسان لحظة يتجه بهذا الجواز إلى الطريق الذي لا بد له حتماً من السير فيه لملاقاة الجزاء فإنما أثر الحكم سيؤمر المحاسب بالمرور فوق:

الصراط

إن الصراط إنما مد قد مدّ مؤدياً إلى أبواب النعيم ولكنه أيضاً قد مدّ فوق هاوية الجحيم

---

(١) **في غريب القرآن**، للسجستاني.

ومن ثم كان على كل إنسان، حتماً، المرور فوق هذه الهاوية:

﴿وإن منكم إلاّ واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾.

الآية ٧١ من «سورة مريم»

فوق هذا المدّ سيسير الإنسان إثر الحساب وتبعاً لأعماله سيكون من هذا المدّ الاتساع فأما مَنْ كان من أهل الضلال وحقت عليه الشقْوة فرجحت سيئاته حسناته فسيكون أرفع من الشعرة وأحدّ من السيف، وأما لمن كان من أهل الهدى فرجحت حسناته سيئاته فسيكون عريضاً سهل المجاز إلى:

جنات عدن

عن هذه «الجنّات» وعن ما قد حوته لمن شاء اللّه لهم الهدى فكتبهم من المهتدين ومن ثم المؤمنين الصالحين المتقين يستفيض القرآن في الوصف استفاضة تُصوّر صورة واضحة ألوان النعماء التي تموج بها هذه الجنات وبها تعجّ واليد تُقلّب من «مصدر العقيدة» الصفحات والعين تجول بين الآي والآي التي دفاقة تترى وتسجل:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نُضيّع أجر من أحسن عملاً أولئك لهم جنّات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نِعْمَ الثواب﴾!

الآي ٣٠ و٣١ من «سورة الكهف»

فيقيناً:

﴿إن اللّه يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

الآية ٢٣ من «سورة الحج»

فإنها:

﴿جنّاتُ عدن يدخلونها يُحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾.

الآية ٣٣ من «سورة فاطر»

وأنهم فيها:

﴿... على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾.

الآي ٥٦ و٥٧ من «سورة يس»

ففيها:

﴿يَطوف عليهم ولدان مُخلّدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها

ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيّرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون﴾.

الآي ١٧ إلى ٢٤ من «سورة الواقعة»

يقيناً: ﴿**إن المتقين في جنّات ونعيم فاكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون**﴾!

الآي ١٧ و١٨ و١٩ من «سورة الطور»

فلقد: ﴿**... أمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون**﴾!.

الآي ٣٢ و٣٣ و٣٤ من «سورة الطور»

فإنهم: ﴿**في جنّات النعيم، على سُرُر متقابلين، يُطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذةٍ للشاربين، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون**﴾!.

الآي ٤٣ إلى ٤٩ من «سورة الصافات»

يقيناً: ﴿**.. إن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مُفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب**﴾!

الآي ٤٩ إلى ٥٢ من «سورة ص»

وفيها: ﴿**يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون**﴾!.

الآي ٧١ إلى ٧٣ من «سورة الزخرف»

هادرة كشلال دفّاق وعلى هذا المنوال تتوالى في انصباب الآي وتصب على المتقين كل ألوان اللذائذ الحسيّة في جنة يترعها الولدان وتترعها قاصرات الطرف من الحور وتجري على صفحتها شتى الأنهر فإنما هذه هي:

﴿**... الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين**﴾!

الآية ١٥ من «سورة محمد»

ولكن! لئن كانت «جنة عدن» جزاء المتقين فإنما:

﴿... لمن خاف مقام ربه جنتان... ذواتا أفنان... فيهما عينان تجريان... فيهما من كل فاكهة زوجان... متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان... فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾!

الآي ٤٦ إلى ٥٦ من «سورة الرحمن»

بين قاصرات الطرف ممن لم يطمثهن من قبل، والطمث هو النكاح بالتدمية[1]، إنس ولا جان إنما في شغل الأتقياء فيقيناً:

﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾!.

الآية ٥٥ من «سورة يس»

فإنهم:

«فاكهون في شغل عنه يُقال شغل في افتضاض الأبكار»[2]..

يقيناً أنهنّ من عناهن «الكلم» وعنهن يقول:

﴿إنا أنشأناهن إنشاءً، فجعلناهن أبكاراً، عرباً أتراباً، لأصحاب اليمين﴾!

الآي ٣٥ إلى ٣٨ من «سورة الواقعة»

﴿حور مقصورات في الخيام... لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾!.

الآي ٧٢ إلى ٧٥ من «سورة الرحمن»

بين حور مقصورات في الخيام «كأنهن الياقوت والمرَجان» وبين «... حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون» سيطيب لمن خاف مقام ربه، المقام في جنة:

﴿متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ودانية عليهم ظلالها وذُللت قطوفها تذليلاً ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير، قوارير من فضة قدروها تقديراً، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً! ويطوّف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾!.

الآي ١٣ إلى ١٩ من «سورة الإنسان»

---

(١) غريب القرآن، للسجستاني.

(٢) النسفي.

من هذه العين المسماة سلسبيلاً والمتفجرة بالزنجبيل، والعرب تستلذ الزنجبيل وله تستطيب، سيُمزج ما في الكأس من الراح بل وغير مزيج الزنجبيل فإن:

﴿... الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد اللّه يفجّرونها تفجيراً﴾.

الآي ٥ و٦ من «سورة الإنسان»

من هذه العين المسماة كافوراً سيشرب عباد اللّه ـ يقيناً ـ :

﴿إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً وكأساً دهاقاً﴾!

الآي ٣١ إلى ٣٤ من «سورة النبأ»

فإنما: **﴿... الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك﴾!..**

الآي ٢٢ إلى ٢٦ من «سورة المطففين»

إنه: **﴿... رحيق مختوم ختامه مسك... ومزاجه من تسنيم، عيناً يشرب بها المقرّبون﴾!**

الآي ٢٥ إلى ٢٨ من «سورة المطففين»

من هذه العين الأخرى المتفجرة على أرض الجنان والمسماة تسنيماً سيمزج المقرّبون ما قد أعدّ لهم من رحيق مختوم بمسكٍ في هذه الجنة التي قد جاء من شفتي محمد عنها الوعد بأنها أعدت لمن برسالته يُؤمن ولدعوته يتبع مُصدقاً بأنه رسول اللّه وأن ما يتحدّر من شفتيه من كَلِمٍ إنما كلام اللّه، ومن ثم كان أن جاء حينذاك عنها التعريف بأنها:

﴿تلك الجنة التي نُورث من عبادنا مَنْ كان تقياً﴾!

الآية ٦٣ من «سورة مريم»

المكان، مكان الأتقياء والأبرار واللذات الحسية اللذات جزاءً لمن عن الدنايا في دنياه كان قد كفّ وبين أبكار من حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون وبين قاصرات الطرف في الخيام وكأنهن الياقوت والمرجان وبين ولدان كأنهم اللؤلؤ المنثور جعلهم اللّه سخرة للأتقياء وبين العيون المتفجرة وبجانب الأنهار المتدفقة في جنة لا مكان فيها للفجرة سيجلس «مَن كان تقياً» على الأريكة بحليّ وحلل وعليه ثياب حرير من سندس واستبرق في يديه الأساور من اللؤلؤ والفضة والذهب وعليه يطاف بصحاف بعد صحاف كُدِسَت بالفاكهة وباللحم وبالكؤوس التي أترعت بما أراد من شراب يأكل

اللحم وينهل ما شاء من الخمر التي ستترع الكؤوس من رحيق ختامه مسك والتي بها تتدفق من الجنان الأنهر!...

إلى جنة فيها اللذات الجسدية أو بالأحرى الحسية جزاء إنما مصير كل من في «الميزان» سترجح حسناته ويعطى بعد الحساب كتابه بيمينه ويكون من «أصحاب اليمين». فحقاً:

﴿إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾!

الآي ٥٤ و٥٥ من «سورة القمر»

بيد أن أمام هذا الوصف السخي المترع الذي يأتينا من «مصدر العقيدة» في وصف هذه الجنان وما قد حوته من لذائذ حسية وأهمها تلك الناتجة عن توفر وفير الخمر ووفرة الحور قد يعترض مَن يقف خارج نطاق الإسلام ويقول: كيف تكون أم الفواحش في الدنيا للمتقين، في الآخرة، الجزاء؟

كلا!. من صدور المراجع الإسلامية تهب الأصوات تصرخ حذار!... «خمر الجنة ليس به رجس كخمر الدنيا لأنه كونه رجساً إنما بالشرع لا بالعقل ولأن هناك ديار متعة وليست، كهنا، ديار تكليف»[١].

والشأن إنما، نفسه، الشأن الذي يتعلق بالحور وبما سيكون لأصحاب اليمين من اللذات الحسية الكاملة لأن كل حاسة جسدية ستنال ما تتوق إليه دون ما أدنى كلال كما عن ذلك جاء التعريف من شفتي محمد محدثاً:

«يُعطى المؤمن قوة كذا وكذا في الجماع.

قيل: يا رسول اللّه أوَ يطيق ذلك؟

قال: يعطى قوة مائة!»[٢].

من ثم فإذا ما اعترض معترض وقال بأن كل ما في الجنة من جزاء إنما ينحصر في قوت الحواس فالرد على هذا الاعتراض يأتي عبر سؤال وهو: متى أنكر الإسلام أن قوت الحواس ليس في الجنة الجزاء؟!

ثم... إن السؤال يولِّد السؤال: أو تخرج هذه الوعود عن المنطق في شيء؟

يقيناً إن بالسلب يأتي الجواب لأن طالما أن هناك بعثاً جسدياً وللجسد الطبيعي عودة، والجسد المادي إنما يحمل حواسه معه وبأحاسيس هذه الحواس يضطرم وينفعل، فمن البدهي

---

(١) عن أنس أخرجه الترمذي.

(٢) صهيب أخرجه مسلم والترمذي.

أن تكون اللذائذ الحسية هي الجزاء!. طالما أن هناك حواساً فلا بد لهذه الحواس من ارتواء ومن إشباع وليس إلاّ للسبب قد توفّر في الجنة قوت الحواس:

من ثم فالإسلام إنما منطقي كل المنطق في وعوده هذه، أولاً لهذا السبب، وبالتالي، لأسباب أخرى لها اعتباراتها وتتخذ مصدرها من عاملين جوهريين هما: طبيعة أهل الإسلام الأول عامة وطبيعة البيئة التي عاشوا فيها خاصة، فأما طبيعة أهل الإسلام الأول فطبيعة محض عربية، والطبيعة العربية إنما طبيعة لا يختلف أمامها اثنان في أنها طبيعة مشبوبة العاطفة متقدة بوقدة الحواس وبلظى هذه الوقدة هي أبداً متأججة وأبداً أبداً هي عطشى إلى ألوان العيش الرهيف ثم هي، بعد، كأهل الشرق عامة، مولعة بالأبكار دون الثيبات.

إذا وضعنا هذه الاعتبارات أمامنا بالإضافة إلى العامل الآخر وهو طبيعة البيئة التي عاش فيها أهل الإسلام الأوَل وما طبعتهم به هذه البيئة من شظف في العيش اعتصرهم بالجفاف والإدقاع والحرمان أدركنا أن لا شيء يمكن أن يُعوض هذا اللون من الحياة الدنيوية إلاّ هذا اللون من الجزاء في حياة أخروية وعيشة أبدية لم يكن ليحول بينهم والوصول إليها إلاّ هذا المعبر المسمّى الموت وإلاّ القضاء على ساحة الاستشهاد في سبيل نصرة صاحب الإسلام.

من ثم فلتصمت الشفاه عن الاعتراض ولتكف الأقلام عن الاغتماس في مداد الانتقاد فإن الإسلام إنما منطقي في هذا الجزاء الذي صوّره «الكَلِم» الذي تحدّر من شفتي محمد وجاء وعداً لمن سكن الصدور منهم الإيمان رسول الله وإن هذا «الكلم» إنما بأنه كلام الله.

ولكن... ثمة سؤال آخر يعترضنا هنا وهو: أين مكان هذه الجنة؟.

عن هذه السؤال يأتي من «مصدر العقيدة» الجواب:

﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾.

الآية ٧٤ من «سورة الزمر»

عبر هذا الجواب الذي يعيد إلى الذهن منا تلك الفقرة التي جاءت في «العهد القديم» تحدد مكان «جنة عدن» نفهم أن على هذه الأرض، ليتبوأ من الجنة حيث شاء، سيعيش الإنسان بجسده الأرضي تبعاً لوعد أتى يقول:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾.

الآية ١٠٥ من «سورة الأنبياء»

ويقيناً إن الأمر لا يخرج عن الوضع الطبيعي في شيء بل إن هذا إنما أمر يحتمه المنطق. فما دام الإنسان سَيُبعث من الأرض وإلى الحياة سيعود جسده الأرضي من جديد كرة

أخرى فحتماً ليس هناك من مكان تلائم طبيعته طبيعة هذا الجسد الطبيعي إلى هذه الأرض التي للفكر وحده أن يتخيل كيف ستكون عليه من حال وهي تعج «يوم الحشر» بكل من قد عاش عليها ويعيش وسيعيش...

وهكذا نستبين مما تقدم من آيتين أن هذه الأرض إنما مكان لهذه الجنة التي جاء عنها التعريف عبر آية أخرى تصفها بأنها:

﴿... جنة عرضُها كعرض السماء والأرض أعدّت للذين آمنوا﴾.

الآية ٣١ من «سورة الحديد»

وإن من فيها سيكون خالداً:

﴿... خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾.

الآية ١٠٨ من «سورة هود»

وإنها ستبرز:

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾.

الآية ١٠٨ من «سورة إبراهيم»

غداة:

﴿... نُفخ في الصور.. وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾!

الآية ١٣ و١٤ من «سورة الحاقة»

الآن.. والآن قد استدللنا تمام الاستدلال على هذه الجنة التي فيها سيعيش الإنسان هذه الكرة الأخرى **خالداً** يتقلب أبداً بين هذه اللذائذ الحسية التي تحدّر عنها الوصف بعد الوصف هادراً هديراً يجعلنا نتساءل:

أليس إلى جانب هذه اللّذات الحسيّة لذة وجدانية؟

وأين، وقد توفر قوت الحواس قوت القلوب؟

سؤال، عنه يأتينا من شفتي محمد الجواب بالإيجاب بأن المؤمن سيعيش في هذه الجنة مكرماً بالنظر إلى وجه اللّه غدوة وعشية وأن هذا هو المعنى من القول:

﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾.

الآي ٢٢ و٢٣ من «سورة القيامة»

فإنما: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول اللّه تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة، ألم تنجنا من النار؟... فيُكَف الحجاب!... فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى!...»[١].

محمد

ومن ثم ندرك أن في جنة الاستلذاذ الحسي فيها الجزاء تجيء بصورة واضحة مادية هذه اللّذة الروحية... فلقد كُفَّ الحجاب وتجلّى الرب للعيان ليستمتع أولئك الذين شاء اللّه لهم الهدى و﴿... **كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه**﴾[٢] بالنظر إلى ربهم في هذه الجنة التي يأتينا عنها أيضاً التعريف بأنها قد قُسمت إلى مراتب ودرجات أعلاها ذلك المكان الحامل من الأسماء الاسم الذي إلى الفارسية بنغمه يعود:

الفردوس

إن: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، **والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة** ومن فوقها عرش الرحمن!..»[٣].

محمد

فيقيناً: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً**﴾.

الآية ١٠٧ من «سورة الكهف»

والآن... الآن وقد بلغنا الفردوس فبلغنا أقصى درجات النعيم فليس إلاّ لنترك من أراد اللّه له الهدى وشاء له هذا المصير ونسأل: وإلى أين سيكون المصير إذا رجحت السيئات الحسنات وأعطي المحاسب كتابه بشماله وأدرك بذلك أنه ممّن قد ضلّ وغدا على حدّ التعبير القرآن، من ﴿**أصحاب الشمال**﴾؟

من «مصدر العقيدة» يأتي عن هذا السؤال الجواب: ﴿**وأما من أوتي كتابه بشماله**﴾[٤] وكان من ﴿**أصحاب الشمال**﴾ فالمصير إنما سيحدده ذاك المعبر الذي عليه بعد الحساب كان قد أمر بالمسير والذي قد ضاق به حتى غدا أرفع من الشعرة وأحد من السيف!... ومن ثم فالمصير ليس إلاّ الهُوِي إلى ما تحت هذا المدّ من هاوية لاهبة للهبها زفير وشهيق ونحوه تندلع ألسنتها فتطويه بين عويل وصريخ!. فهذه إنما:

---

(١) عن عبادة بن الصامت.

(٢) **القرآن الكريم**، الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) عن عبادة بن الصامت

(٤) **القرآن الكريم**، الآية ٢٥ من سورة الحاقة.

جهنم

وعن «جهنم» يأتي من «مصدر العقيدة» التعريف بأنها:

نار موقدة وقودها الناس والجن والحجارة أعدت لِمَن عليه كُتبت الشقْوة فشقي!. بل وظلام يغتمر دركات أعدت لِمَن عليه كُتب الضلال فضلْ! فإنما جهنم ظلام داج ولافح سعيرا!... سعير مُسْتعر تحصره لها أبواب وظلام يرفُ على ما تنقسم إليه من أجزاء، فإنما:

﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾.

الآية ٤٤ من «سورة الحجر»

لكل باب من أبواب جهنم جزء مقسوم عليه زبانية غلاظ يفعلون ما يؤمرون! فليس إلاّ حينذاك سيدعو اللّه الزبانية إلى العمل كما إلى ذلك قد أشار «الكَلِـم» قائلاً: **﴿سندعو الزبانية﴾** وليس إلاّ حينذاك سيهبون فيصبون على من عليهم كتبت الضلالة فحقت الشقوة الشتى من ألوان التعذيب والعذاب تحدّدها أمكنتهم في جهنم... فإن لكل درك اللون الخاص به من العذاب وكلها، حتى الدرك الأسفل، ذات هوات مظلمة أترعتها الأفاعي والشياطين واللهب فيها لوافح والنيران فيها لظية وإلى زمرتها ستضم مَن قد أُلقي فيها الشياطين!

بالصارخ من الألوان يُصوّر «مصدر العقيدة» لجهنم هذه الصورة التي يندلع من أعماقها دَفْق التعذيب يعلنها:

﴿... نار حامية! تُسقى من عين آنية!...﴾.

الآي ٤ و٥ من «سورة الغاشية»

﴿... وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب﴾!

الآية ٢٩ من «سورة الكهف»

فيقيناً:

﴿إنا اعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً﴾!.

الآية ٤ من «سورة الإنسان»

إن للضالين، ممن قد كفروا وأتوا بالسيئة فكانوا مجرمين، تأبى العدالة إلا أن يكون:

﴿المجرمون يومئذٍ مُقرنين في الأصفاد، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾.

الآي ٤٩ و٥٠ من «سورة إبراهيم»

ففي جهنم قد:

﴿... قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾!.

الآي ١٩ و٢٢ من «سورة الحج»

بل و:

﴿... كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾!

الآية ٥٦ من «سورة النساء»

وهم فيها:

﴿... يضربون وجوههم وأدبارهم﴾!.

الآية ٥٠ من «سورة الأنفال»

ولكل واحد فيها سيقال:

﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾!

الآي ٣٠ إلى ٣٢ من «سورة الحاقة»

وفي هذا العذاب سيخلد لأنه كان ممن بأمر اللّه ورسوله لم يأتمر:

﴿ومن يَعْص اللّه ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾!.

الآية ١٤ من «سورة النساء»

إنه من «أصحاب الشمال»:

﴿.. أصحاب الشمال ما أصحاب الشمال، في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم، إنهم كانوا قبل ذلك مُترفين﴾!.

الآي ٤١ إلى ٤٥ من «سورة الواقعة»

هذا هو العقاب لهؤلاء الذين كانوا من قبل مُترفين!... هذا هو العقاب لهؤلاء الذين كانوا قد رموا محمداً بالافتراء على اللّه، فهؤلاء إنما سادة العرب وأشراف قريش الذين كانوا يجلسون على الأرائك وفي آذانهم الأقراط وفي أيديهم الأساور من الفضة والذهب واللؤلؤ وعليهم الحلل من الحرير بينما يطوف عليهم الغلمان بصحاف من الفضة والذهب مترعة بما يشتهون من اللحم وبكؤوس أترعها ما يصبون إليه من الخمر والزنجبيل بينما قد فاح منها فوح الكافور بين كاعب وناهد وناعس وحوراء الطرف أن هؤلاء من كانوا الأعزة والكرام:

﴿لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نُزلهم يوم الدين﴾!.

الآي ٥٢ إلى ٥٦ من «سورة الواقعة»

أما ما شجرة الزقوم؟. فإن:

﴿.. شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم! خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾!.

الآي ٤٣ إلى ٤٩ من «سورة الدخان»

بل إن فيها:

﴿ليس لهم طعام إلاّ من ضريع لا يُسمن ولا يُغني من جوع﴾!

الآي ٦ و٧ من «سورة الغاشية»

وكل واحد منهم إنما:

﴿... يُسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يُسيغه﴾.

الآي ١٦ و١٧ من «سورة إبراهيم»

بين الحرمان التام من اللذات الحسية، وفي قيد السلاسل وعلى ضرب الزبانية وسخرية الشياطين وتمزيق الجلد وكسوه من جديد، سيعيش في جهنم من كان برسالة محمد لم يؤمن وبين قومه عاش مُترفعاً مُترفاً وكان عزيزاً لديهم كريماً. ففي جهنم سيقال له ولمن عيشته كان قد عاش:

﴿... أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجزون عذاب الهون﴾!

الآية ٢٠ من «سورة الأحقاف»

فأولئك قد حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

الآية ٢١٧ من «سورة البقرة»

فإن: **﴿... الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾!**

الآي ١٠٦ و١٠٧ من «سورة هود»

هذه هي الغاية من «البعث».

يقيناً ليس إلاّ بغية الجزاء من ثواب وعقاب سيُبعث بجسده الطبيعي الإنسان وسيعود من جديد، كما كان، في هذا «اليوم» الذي عنه قد جاءت من محمد النُذُر عندما انفرجت منه الشفاه عن:

﴿... هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾!.

الآي ٢٩ و٣٠ من «سورة الإنسان»

يقيناً ما تشاءون إلاّ أن يشاء الله فإنما بذلك قد سبق «الكَلِم» قائلاً:

﴿... لو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾.

الآية ١٣ من «سورة السجدة»

فإنما: **﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾**!.

الآية ١٧٨ من «سورة الأعراف»

فيقيناً: **﴿... مَن يهد الله فهو المهتد ومَن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾**!

الآية ٩٧ من «سورة الإسراء»

وهكذا تنتهي مشكلة الثواب والعقاب بهذا «اليوم» الذي لن يكون إلاّ:

﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾.

الآية ٥١ من «سورة إبراهيم»

ليس إلاّ ليجزي الله كل نفس ما كسبت سيكون هذا «اليوم» الذي فيه، امتلاء الجنة بمن لهم قد شاء الله الهدى، ستمتلىء جهنم بمن لهم قد شاء الله الضلال من الإنس والجن تبعاً لمشيئته:

﴿ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾!.

الآية ١٣ من «سورة السجدة»

ويقيناً ما القول إلاّ النتيجة الحتمية لهذا «الكَلِم» الذي يقول:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾!..

الآية ١٧٩ من «سورة الأعراف»

ويقيناً كيف لا يكونون كالأنعام وكل واحد منهم كان إذا قُرئت عليه آية من القرآن أو قرأها عليه محمد:

﴿... وَلَّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً﴾!

الآية ٧ من «سورة لقمان»

بيد أن حذار!... إن هذا التصرف لم يكن إلاّ تبعاً لمشيئة اللّه لأنه إذا كان قد ولّى فليس ذلك إلاّ لأنه ممن حقّ عليه القول:

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾!

الآي ٤٥ و٤٦ من «سورة الإسراء»

فإن: **﴿... من يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئاً. أولئك الذين لم يرد اللّه أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾!**

الآية ٤١ من «سورة المائدة»

لكل واحد من هؤلاء الذين أراد اللّه فتنتهم فضلوا ولم يرد بالتالي أن يُطهر قلوبهم فاستكبروا وعن الاستماع إلى القرآن ولّوا تبعاً لمشيئته التي وضعت في آذانهم وقراً، جاء «الكَلِم» يقول إن مَن:

﴿ولّى مستكبراً... فبشّره بعذاب أليم﴾!

الآية ٧ من «سورة لقمان»

هذ هي العقيدة الصحيحة للدين الإسلامي عن النفس والمصير الأخير للإنسان ومشكلة الثواب والعقاب والتي تطالعنا عبر آي من القرآن تتّسم بالصراحة التامة التي لا تحتاج بها إلى تفسير أو تأويل، فالقول ببعث للأجساد والأجساد نشر في يوم حشر إنما واضح وصريح... وليس إلاّ تبعاً لجسدٍ عاد في الآخرة مادياً صرفاً كما كان في حياته الدنيوية نرى أن الجزاء سيتخذ صورة مادية صرفة ناتجة، نفسها، عمّا قد أتى الإنسان في حياته من السيىء أو الحسن من الأعمال التي بدورها تنشطر إلى شطرين مستقلين يكونان صفة: الخير والشر، ومن ثم فمشكلة النفس أو عقيدة الخلود في الإسلام وعقيدة الثواب والعقاب إنما تؤلّف مشكلة أخرى تقودنا إلى سبر أصول:

الخير والشر في الإسلام

من القرآن، وحده، نستقي العقيدة الإسلامية في مشكلة الخير والشر، فليس إلاّ من

القرآن نستطيع أن نتفهمها صحيحة كما كانت، لا كما تناولتها من بعد الأجيال فحجبتها «المتكلمة»[١] بالتأويل واقتربت منها الفلسفة في صورتها الإسلامية فلجت بها إلى متاهات المعاني وتيه التهاوير بعده قذفت بها إلى خضم متلاطم الأمواج بمتنافر التفاسير!.

كلا!.. إلى لجج التفاسير، رضوخاً لمقتضيات الظرف واستجابة لوحي البيئة، لا ينبغي بنا أن نلج بالآي فنفسرها، لا فحسب حسبما نشاء وإنما كما يقتضي الظرف وتحتّم البيئة، كما قد حدث في البيئات الإسلامية المختلفة خلال ما قد تعاقب على الإسلام من عصور حتى الآن، وكانت نتيجتها أن فقدت الآي صحيح معناها، كلا!. وإنما الواجب علينا، ونحن نتوخى الحقيقة وإلى الحق نهدف، أن نضع كل آية لا فحسب تحت ضوء السبب الذي تسبّب في مجيئها وليس إلاّ حينذاك نفهم الآي بنفس المعنى الذي جاءت تحمله وتعنيه وهذا إنما قول يشمل الآي التي تشتمل على توضيح المشكلة التي نحن في صدد الحديث عنها. ولكن إلى تفهم الرأي الصحيح للإسلام في هذه المشكلة التي كانت مثار بحوث العقل الإنساني وحيرته، تعترضنا مشكلة أخرى لا يمكن لنا بحال تجاهلها أو تجاوزها وإن كنا نستطيع أن نمرّ عليها بإيجاز إذ أنها مفتاح الحل إلى هذه المشكلة التي نحن بصددها، ومن ثم فلا بدّ لنا أن نمرّ على مشكلة إيجاد الوجود في القرآن مروراً به يتحتّم علينا أن نعود إلى تلك اللحظة التي تدفق فيها من شفتي محمد «الكلِم» يتحدث عن:

نشأة الوجود وأصل الكائنات

عَبْر آي لا تقبل قط، بصراحتها، التأويل لا ولا تقبل، بوضوحها، وضعها في قوالب المعاني والتفاسير يأتي «الكلم» وعن نشأة الوجود يحدثنا قائلاً بأن في البدء لم يكن إلاّ الله بينما:

﴿.. كان عرشه على الماء﴾.

الآية ٧ من «سورة هود»

من ثم هذه الآية القائلة إن عرش الإله كان على الماء إنما آية متداخلة في مشكلة منشأ الكون وأصل الكائنات إذ أنها تسجل، بجانب أزلية الإله، أزلية الماء!

من هذا «الماء الأزلي» يجعل «مصدر العقيدة» المنشأ والمبدأ إذ يقول:

﴿... وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

الآية ٣٠ من «سورة الأنبياء»

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني، جـ٣: ٣٠٠.

من ثم فالقرآن يقول بأن من هذا «الماء الأزلي» قد أنشأ اللّه **كل شيء حي**، وهو إذ يقول القول فإنما هو بهذا القول لا فحسب يؤكد أزلية هذا الماء وإنما يؤكد بذلك شيئاً آخر، فهو إذ يجعل العرش الإلهي فوق هذا الماء إنما يقول بالوجود «الطبيعي المخلوق» و«الخلق في الأزل» والبرهان على ذلك يأتي من نفس القرآن إذ أنه لا يقول بالخلق في الماء وإنما خلق من الماء ومن ثم، استناداً إلى هاتين الآيتين وعملاً بهما، تكون العقيدة الصحيحة في الإسلام، لنشأة الحياة إنما العقيدة القائلة بالوجود الطبيعي المخلوق أو «**الخلق في الأزل**»!

ولكن!.. إذا كان القرآن يُصرح بأن من «الماء الأزلي» قد أنشأ هذه الحياة التي تكوّن هيكلها من الطين فإنما هو صريح أيضاً عبر آيٍ أخرى تُصرح بالخلق من العدم، فنحن إذا ما أعدنا السؤال وسألناه عن نشأة هذه الطبيعة أو بالأحرى عن هذا الوجود فليس إلاّ ليأتينا من هذا المرجع الوحيد والصحيح للعقيدة الإسلامية الجواب الذي يتلخص في أنه قد أتى عن طريق «**الخلق من العدم**».

فإنما: ﴿**اللّه خالق كل شيء**﴾!.

الآية ٦٢ من «سورة الزمر»

وهو الذي عن نفسه قد قال:

﴿**إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كُن فيكون**﴾!

الآية ٤٠ من «سورة النحل»

فإنما: ﴿... **اللّه يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾!

الآية ٤٧ من «سورة آل عمران»

يقيناً إنه: ﴿... **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾!

الآية ١١٧ من «سورة البقرة»

وهكذا تتهادن على صفحات «مصدر العقيدة» عقيدتان: عقيدة تقول بالخلق في الأزل، في وجود طبيعي أزلي تبعاً لوجود الماء الأزلي فيه، وعقيدة تقول بالخلق من العدم عن طريق الإرادة التي أرادت أن يكون هذا الشيء فكان في هذا الوجود الذي ترسم سطور من القرآن صورة له هي هذه التي تطالعنا في إطارها قصة التكوين التي تبدأ بهذا الاستهلال:

﴿**إن ربكم اللّه الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾.

الآية ٣ من «سورة يونس»

فيقيناً إنه قد:

﴿.. خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾!

الآية ٤ من «سورة الحديد»

بل: **﴿.. لقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾!**

الآية ٣٨ من «سورة ق»

ثم... من عند هذه النقطة ينعطف المرجع الصحيح للعقيدة الإسلامية ويعطينا صورة أخرى أوضح من سابقتها وبها يصوّر نشأة الوجود وخلق الأشياء شارحاً:

﴿.. خلق الأرض في يومين... وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾.

الآي ٩ و١٠ من «سورة فصلت»

ثم...: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين﴾.**

الآي ١١ و١٢ من «سورة فصلت»

بلى...: **﴿فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾.**

الآية ١٢ من سورة فصلت»

من هذا التصوير القرآني لنشأة الوجود، سواء عن طريق العدم أو طريق الأزل، تتضح لنا تمام الوضوح الصور التي ترتسم للكون على صفحات «مصدر العقيدة» والتي في إطارها نرى النجوم إنما بعد الأرض قد خلقت وعلقت مصابيح في سماء هي واحدة من سموات سبع، بعد الأرض أيضاً، قد خلقت ولنرى، بالتالي، أن الزمن الذي استغرق خلقهن كان مقداره نفس مقدار الزمن الذي استغرق خلق الأرض.

وهنا... حتماً نجد أنفسنا حيارى نتساءل عن المقدار الزمني لهذه «الأيام» التي خُلقت خلالها السموات والأنجم والأرض بيد أن عن هذا السؤال لا يأتينا الجواب الشافي إلاّ إذا عادت بنا الذاكرة إلى تلك الآية التي سبقت إليها الإشارة والقائلة:

﴿إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾.

الآية ٤٧ من «سورة الحج»

ومن ثم نفهم، فهماً مصدره الصراحة التي يتسم بها «مصدر العقيدة» في تحديد مقدار اليوم عند الإله بألف سنة مما نعد، كم كان المقدار الزمني الذي استغرق خلق الأرض وبالتالي كم كان المقدار الزمني الذي استغرق خلق السموات والنجوم...

ثم... ثم في استرسال يستطرد «مصدر العقيدة» وينعطف فيتناول بالشرح «السماء الأولى» قائلاً:

﴿... السماء بناها رفع سمكها فسوّاها﴾.

الآي ٢٧ و٢٨ من «سورة النازعات»

وهكذا نعلم أن الفضاء الذي نرى إنما السماء التي يعنيها «مصدر العقيدة» بهذه الآية وهو عنها يتحدث بأنه، بعد أن كانت دخاناً وبعد أن استوى إليها، قد بناها شيئاً سميكاً كما عن ذلك، أيضاً تفصح الآية التالية:

﴿... ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾.

الآية ٦٥ من «سورة الحج»

لا ثمة شك في أن الشيء الذي يمكنه أن يقع لا يكون إلاّ الصلب البنيان كما عن ذلك تفصح، أيضاً، الآي التالية التي تُصرح بأن:

﴿... السماء سقفاً محفوظاً﴾.

الآية ٣٢ من «سورة الأنبياء»

قيناً إن من مصادر الأدب العربي يأتينا اليقين بأن على العصر القريشيُ قد رفّ الاعتقاد بأن هناك سموات سبع كما يأتينا ذلك من شعر عبد اللّه بن الصلت:

ألا كل شيء هالك غير ربنا ولله ميراث الذي كان فانيا
له ما رأت عين البصير وفوقه سماء الإله فوق سبع سمائيا[1]

ولكن!. ليس هناك، في هذا الصدد، من شرح وافٍ يأتينا إلاّ من «مصدر العقيدة» بآي تجري شارحة تكوين الكون وعن نشأته، في إفصاح، تتحدث قائلة بأن:

﴿... خلق اللّه سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾.

الآي ١٥ و١٦ من «سورة نوح»

من ثم، استناداً إلى هذه الآية، يغدو من الإيمان الصحيح في الإسلام الاعتقاد بأن اللّه قد

(١) الملل والنحل، جـ٣ مرجع سبق ذكره.

خلق سبع سموات طباقاً وأن القمر يقف في هذه «السموات السبع» نوراً كما، بالتالي، يجب الاعتقاد بأن الشمس تقف فيهن سراجاً... بيد أن هنا يجب أن نتنبّه إلى أن القرآن حين يحدثنا عن هذه السموات السبع، لا يعني قط أنهن أراضٍ، كما إلى ذلك جنحت أقلام نحو المنهج التأويلي جرت، فالنص إنما صريح لا يحتاج إلى تأويل إذ هو يفرّق تفريقاً واضحاً بين السماء والأرض، وليس هذا فحسب وإنما حتى ولو افترضنا إمكان التأويل فقلنا إن «الكَلِم» يعني المجموعة الشمسية فالتأويل لا يتماشى والواقع وهو أن المجموعة الشمسية تتكون من أجرام ليست هي فحسب أكثر من هذا العدد وإنما لأن لكل جرم من هذه المجموعة أكثر من قمر!... ومن هنا تتضح لنا الحقيقة ونعلم أن «مصدر العقيدة» لم يقصد بهذه السموات إلاّ «سبع سموات طباقاً» وأن كل واحدة منهن تعلو الأخرى في البناء وأن أدناهن إلى الأرض إنما هذه التي يعنيها بقوله:

﴿ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح﴾.

الآية ٥ من «سورة الملك»

وعن هذه السماء الدنيا يزيدنا «مصدر العقيدة» تعريفاً إذ يذكر المسافة الزمنية التي تفصلها عن الدنيا وهو يقول إن اللّه:

﴿يُدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾.

الآية ٥ من «سورة السجدة»

بل وعلى إيضاح يزيدنا «مصدر العقيدة» إيضاحاً إذ بذكر المسافة الزمنية الواقعة بين السماء الأولى وبين السماء السابعة وهو إلى اللّه يشير قائلاً:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾.

الآية ٤ من «سورة المعارج»

ثم... على استرسال يزداد «مصدر العقيدة» استرسالاً ويأتينا بالشرح يقفو الشرح عن ما ينتشر في آفاق الليل من أضواء وهو لماهيتها يُعرّف قائلاً:

﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلاّ الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب﴾.

الآي ٦ و٧ و٨ من «سورة الصافات»

﴿... جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلاّ

مَن استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾!.

الآية ٧١ من «سورة الحج»

فيقيناً: ﴿... لقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾!

الآية ٥ من «سورة الملك»

الارتسام ترتسم على صفحات القرآن للكون صورة تصوّر الأرض المحور من هذا الكون بينما تعلوها سماء مبنية تحجب ما يعلوها من سموات جُعل قمر الأرض قمراً وفيهن نوره يشع. وأما السماء الدنيا فقد رصّعت بهذه الأنجم التي بخلقهن قد قصد اللّه أكثر من غاية أولاً زينة للأرض لتهدي الناس ليلاً وبالتالي حفظاً للسماء من كل شيطان مارد لا يخترق السمع إلى ما يجري في هذه السماء إلاّ ويُقذف من كل جانب بنجم وإلاّ بشهاب بعد شهاب يُرجم!...

وهنا.. هنا تنعطف الآي نحو المشكلة التي أدّت بنا إلى هذا الاستعراض انعطافاً يستمد قوته من هذا الشرح فليس إلاّ بمدد منه تتوالى الآي في تفسير ظاهرة الخير وتحليل ظاهرة الشر إذ يسترسل «مصدر العقيدة» مُعرِّفاً الإنسان كيفية الأصل من نشأته قائلاً:

﴿... قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونُقدِّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون... وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

الآي ٢٠ إلى ٢٥ من «سورة البقرة»

ولكن!... حدث في الجنة أن غُرِّر بآدم وزوجه فقد أغواهما:

﴿... فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾!

الآية ٣٦ من «سورة البقرة»

يقيناً!... ليس إلاّ بسبب وجود الشيطان في الجنة، والشيطان إنما روح الشر، كان أن ازلّ آدم وزوجه زلّة ما كانا ليزلاها لولا وجود الشيطان في الجنة، ولولا هذه الزلة لما كان قد قيل لهما:

﴿... اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

الآية ٣٦ من «سورة البقرة»

وهكذا من إيضاح مستفيض إلى إيضاح أفيض يسير بنا «مصدر العقيدة» شارحاً كيف

أن لولا هذه الزلة، التي ما كانت لتكون لولا وجود الشيطان في الجنة، لكان قد ظلّ في الجنة أبداً مَن لم يُخلق إلاّ ليكون في الأرض خليفة لولا هذه الزلة لما كان قد خرج آدم من الجنة وهبط الأرض وزوجه إلى حيث أصبح بعضهم لبعض عدواً وبذلك رفّ على الأرض:

الشر

إلى هذا الحدث يُعيد «مصدر العقيدة» السبب في ظاهرة الشر التي تُترع صورها المختلفة جوانب الأرض.. بل إن «مصدر العقيدة» يزيدنا إيضاحاً على إيضاح في تفسيره هذه الظاهرة وهو يسترسل عبر الآي يحدثنا:

﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾.

الآي ٧١ إلى ٧٤ من «سورة ص»

يقيناً لقد: **﴿... قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾!**

الآية ٣٤ من «سورة البقرة»

يقيناً لقد: **﴿... قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾.**

الآي ٢٨ إلى ٣١ من «سورة الحجر»

لا!. لا يمكننا هنا أن نسأل «مصدر العقيدة» كيف استطاع «إبليس» أن يستكبر وأن يكون من الكافرين وهو أحد الملائكة بدليل أن الخطاب إنما موجه من اللّه إلى الملائكة؟. لا!. لا نستطيع أن نسأل السؤال لسببٍ مصدره «مصدر العقيدة» نفسه لأنه هو الذي قد أفهمنا من قبل أن أمر الهداية والضلال إنما رهين مشيئة اللّه ـ لا، لا نستطيع أن نسأل وإنما نستطيع أن نفهم أن إبليس قد كفر بأمر اللّه وبالتالي قد عصا اللّه بأمر اللّه ـ وأما ما الغاية من ذلك فتلك التي تتجلّى من خلال المحادثة التي جرت بين اللّه وبين إبليس بسؤال استهله اللّه إذ:

﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي...، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وأن عليك لعنتي إلى يوم الدين، قال

رب فأنظرني إلى يوم يُبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين، إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾.

الآي ٧٥ إلى ٨٣ من «سورة ص»

يقيناً.. لقد كلّم اللّه «إبليس» وله:

﴿قال يا إبليس ما لك ألاّ تكون مع الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمأٍ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين، قال فأنظرني إلى يوم يُبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾.

الآي ٣١ إلى ٣٨ من «سورة الحجر»

من هذه المحادثة الجدلية التي جرى بها، كما يقول «مصدر العقيدة» الكلام بين اللّه وبين «إبليس» نفهم أن السبب في ظهور ظاهرة الشر على الأرض ينطوي في تلك اللحظة التي قال اللّه فيها لآدم وزوجه ولإبليس:

﴿... اهبطوا منها جميعا﴾!

الآية ٣٨ من «سورة البقرة»

يقيناً لقد: **﴿... قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ﴾!**

الآية ٣٦ من «سورة البقرة»

من الجنة إلى الأرض وتحت هذه الصورة من صور الانحدار ينحدر على صفحات «مصدر العقيدة» آدم وزوجه ومعهما «إبليس» بينما كان هذا الأخير يخاطب اللّه وبه يُقسم مُتوعداً إذ:

﴿قال رب بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾!

الآية ٣٩ من «سورة الحجر»

بهذا القسم الذي لا نستوعبه تمام الاستيعاب إلاّ وعلى صفحات القرآن يبدأ الكون في الارتسام كساحة نضال بين قوتين متضادتين يتمثلان في الخير والشر. فالإسلام إنما يعترف، اعترافه بوجود الخير، بوجود الشر ولا يعيده إلى اللون التجرّدي وإنما يجعله والخير النتيجة الواقعية لحزبين متضادين تكوّنا بأفواج من الملائكة وطوائف من الشياطين بينما يجعل على رأس الملائكة «اللّه» كخير مطلق في نفس الوقت الذي يجعل على رأس الشياطين «إبليس» كشر مطلق.

من ثم يغدو من الأركان الإسلامية الإيمان بأن الكون إنما ساحة نزاع بين قوتين تمثّل

الواحدة الخير المطلق والأخرى الشر المطلق، وإن على هذه الساحة إنما النزاع سجال بين هذين الحزبين حزب تُؤلفه الملائكة ورأسه **اللّه** وحزب تؤلفه الشياطين ورأسه **إبليس** مَن كان أحد الملائكة بدليل القول:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس﴾!.

الآية ٣٤ من «سورة البقرة»

ولكن!. هنا يعترضنا دقيق سؤال وهو: كيف أمكن لهذا الملك، وهو الذي كان قد خوطب من اللّه في أمره الموجه إلى الملائكة، أن يعارض الأمر الإلهي بالإباء وعليه بالعصيان يتمرد ويعترض؟...

ليس إلاّ من «مصدر العقيدة» يأتي عن هذا السؤال الجواب قائلاً إن هذا العصيان لم يكن إلاّ لأن:

﴿... إبليس كان من الجن﴾.

الآية ٥٠ من «سورة الكهف»

بهذه الآية، التي تقول بأن «إبليس» كان من الجن ثم بالرجوع إلى ما قبل هذه الآية من آية تقول بأنه قد خُلق من نارٍ، تتحدّد تمام التحديد صورة الوجود في الإسلام ويتجلّى ساحة يجري عليها الزمن وعليها، في استمرار يميد في المديد من الآماد، يجري مستعر النضال بين عنصري: **نور ونار**

في ناحية يقف الإله وفي ناحية أخرى ولكن أدنى من الأولى مرتبة يقف إبليس. وبإله، النور، تحيط الكائنات النورية العنصر أو الملائكة وبإبليس، النار، تحيط الكائنات النارية العنصر أو الشياطين بينما لكل من الفريقين تتباعد الغاية تباعداً هو الذي ينقسم بهما إلى حزبين مختلفين:

حزب الإله وحزب الشيطان

حزبان يُكوِّنان: بالتالي، حزب الخير وحزب الشر والصلة بين هذين الحزبين إنما مُتقطعة الأسباب إلاّ من صلة نضال بدأ منذ أمر اللّه آدم وزوجه وإبليس بالخروج من الجنة، فليس إلاّ منذ تلك اللحظة التي هبط فيها هذا الثلاثي الإنسان الأول الأرض والأرض ساحة نضال بين «حزب اللّه» و«حزب الشيطان» والنزاع بينهما دائر الرحى من حول محور واحد يمثل الأداة من هذا النضال ألاّ وهو: الإنسان!..

يقيناً إننا لن نفهم ذلك إلاّ إذا فهمنا أن إلى الإنسان يُرسل اللّه جنوده من الملائكة يدعوه إلى حزبه عن طريق القذف في القلب بطيب الإيحاء وأن الإنسان يُسرع بجنوده الشيطان

وبينه وبين هذا الإيحاء الخيّر يحول بتيار آخر له مضاد عن طريق الوسوسة في الصدر وخبيث الإيحاء.. وبين حث على الخير وتحريض على الشر سيظل هذا النزاع بين الحزبين يتنازع الإنسان حتى يوم البعث!. فليس إلاّ حينما يُنصب الميزان ويمتد الصراط فوق هاوية النار مؤدياً إلى الجنة في انتهاء إلى الفردوس تتم للإله الغلبة على الشيطان!. ليس إلاّ حينذاك يتلاشى سلطان الشر ويتحقق السلام العام!.

هذه هي «عقيدة الخير والشر» في الإسلام كدين كما تُسفر عنها أي تُصوِّر الإنسان كائناً يقتطع مراحل حياته على الأرض محوراً لنضال بين الإله والشيطان بينما إلى كل حزب تجتذبه عدة عوامل ونحوه تدفعه الشتى من الانفعالات التي لا تتخذ مصدرها إلاّ من هذا النزاع الذي له يتنازع من الحزبين. فليس إلاّ بسبب هذا التنازع للإنسان بين تيارين متضادين تعتلج في الإنسان عواطف متباينة بمتنافر الميول بسببها يزخر عالمه الداخلي ويتلاطم بمتعارض التيارات التي تجعله عرضة المد والجزر، فليس الإنسان في الواقع إلاّ أداة تتقاذفها أنواء الحيرة بين هدى اللّه وغواية الشيطان وبين حث على الخير تارة بجنود من الملائكة غايتهم دفعه ناحية الصراط المستقيم، وتحريض على الشر تارة أخرى بجنود من الشياطين دأبهم الإغواء والإضلال لإبعاده عن الطريق السوي أو الصراط المستقيم وكل هذه العوامل، مجتمعة، تتمثّل في النفس من الإنسان كنوازع تعتلج بمتنافر ميول وتعتمل بمتباين أحاسيس تمور بها مراحل لحياته على الأرض لتنتهي عن أعمال عليها سيحاسب ويجازى إما بثواب وإما بعقاب...

ولكن!... هنا يجب علينا، ونحن نذكر الجزاء الأخروي، أن نتذكر بأن كل عمل يأتيه الإنسان من خير أو شر لا يكون قط إلا خضوعاً لإرادة اللّه، لا فحسب تبعاً لما قد ورد من الآيات التي تلقي بأسباب الهداية والضلال إلى اللّه وإنما لأن هناك غاية إلهية هي التي أرادت أن يُعمر الأرض مَن يُفسد فيها ويسفك الدماء بدليل ما ورد من آي تشير إلى هذه الغاية التي كانت في تفكير اللّه مرسومة وإن الوسيلة إليها كان «آدم» الذي لم يخلقه اللّه ويسكنه الجنة إلاّ ليكون في الأرض خليفة.

من ثم عملاً بهذا القول القرآني، ويُعزره الاستناد إلى الصفة الإلهية التي جاءت في نفس القرآن عن اللّه، كخالق، يكون إبليس قد عصى اللّه بأمر اللّه وتكون المشيئة الإلهية هي التي قد شاءت إيجاد حياة على الأرض يشيع فيها بين الإنسان والإنسان العداء فيفسد فيها ويسفك الدماء حتى تنقضي مراحل هذه الحياة عن أعمال لئن وصم بعضها الشر ووسم الخير بعضها الآخر وعليها، وفقاً لمقتضيات العدالة، سيحاسب ويجازى إما بثواب وإما

بعقاب، فليس ذلك إلاّ تماشياً والمشيئة الإلهية التي شاءت أن يكون للإنسان هذا اللون من الحياة من ثم فالخير والشر يرجعان في **النهاية إلى اللّه**!

البارز، إن لم يكن الفريد بين أديان الشرق القديم، يقف الإسلام بإعادته الشر والخير إلى **اللّه** فالآي في «مصدر العقيدة» تتالى ومُتلاحقة تُفرغ نفسها في آية واحدة هي هذه التي تُعلن أن:

﴿... **كلٌ مِن عند اللّه**﴾!

الآية ٧٨ من «سورة النساء»

والآن... الآن وقد انتهى بنا المطاف إلى أن نقف أمام هذه الصورة، التي ارتسمت واضحة جلية عن نشأة الكون ومنشأ الكائنات بألوان آي جرت على الصفحات من «مصدر العقيدة» متعاقبة تُصوِّر الكون، منذ بدايته حتى منتهاه، مرسوماً بريشة اللّه وتُصوِّر أقدار الكائنات بل وكل كائن على حدة، منذ ولادته حتى نهايته، خاضعة لإرادة اللّه فليس إلاّ لتجابهنا مشكلة فكرية تُعد الأخطر من المشكلات الدينية لارتباطها المباشر بتصرفات الإنسان وبالمسؤولية الناتجة عن هذه التصرفات، بيد أن ليس للفكر منا أن يستعمل في هذا الصدد لوالبه ولا أن يعمل لنفسه هنا لا، ولا للمنطق أن يجري على سلاسله عاجماً في هذا المضمار لنفسه هذه المشكلة وسابراً منها الحقيقة. كلا... وإنما كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتمهّل للمحة وأن نقف، بهذا المطاف، عند:

عقيدة الجبرية والاختيار في القرآن

مُنذ القِدَم، في نطاق الدين وفي رحاب الفلسفة على سواء، ومشكلة الجبر والاختيار إنما المشكلة التي تعقدت منافذها أمام العقل البشري حتى المدى الذي ادلهمّت بها أمام بحوثه منها الآفاق لا فحسب لمساسها المباشر بتصرفات الإنسان وبالمسؤولية الناتجة عن هذه التصرفات وإنما لما تثيره من بحوث جدلية تلقي بالعقل الإنساني إلى تيه الحيرة وبه إلى متاهاتها تقذف بما تُلقيه إليه من سؤال لا يتفتق إلاّ عن سؤال: من المسؤول عن الأعمال اللّه أم الإنسان؟!.

وعمّن تُلقى عليه تبعة هذه الأعمال: اللّه أم الإنسان؟!.

يقيناً إن للقول بالجبر نتائج لا بدّ من الأخذ بها إذا ما اتخذت الجبرية عقيدة. والصنو إنما القول بالاختيار. ولكن، هذه البحوث إذا كانت تُناقش في الدوائر الفكرية وبها إلى آفاق الفلسفة يستطيع الفكر على أجنحة المنطق أن ينطلق ويأتي بحججه وجهيراً يطلق الصوت يقول: إذا كانت الجبرية تحكم الكون والكائنات فاللّه هو، وحده، المسؤول عن تصرفات

الإنسان وتبعاً لذلك، والإنسان قد غدا غير مسؤول عن تصرفاته، يبطل الجزاء الذي يكون من حق الإنسان وهو حر الاختيار، كلا. هذه البحوث التي تناقش في ذلك المضمار قط لا يمكن أن تناقش في هذا المضمار فنحن إنما في نطاق دين وإلى كلمته في هذا الصدد لا بدّ أن ترهف منا المسامع.

تستهل مشكلة الجبر والاختيار تاريخها على صفحات «مصدر العقيدة» مُسفرة عن عقيدتين يمتزجان تمام الامتزاج ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، التفريق بين الواحدة منهما والأخرى على حدة فمزيج باللون الجبري الذي جاء في ختام «الدعوة» إنما اللون الاختياري الذي جاء في مستهل «الدعوة» بآيٍ تتشابك وسريعة تجري في استرسالٍ... فإذ تُعلن آية:

﴿وما أصابكم مِن مُصيبة فبما كسبت أيديكم﴾.

الآية ٣٠ من «سورة الشورى»

تُعلن آيات: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها﴾!**

الآية ٢٢ من «سورة الحديد»

﴿ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن اللّه﴾!

الآية ١١ من «سورة التغابن»

من ثم: **﴿قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا﴾!**

الآية ٥١ من «سورة التوبة»

ثم.. ثم... إذ تُعلن آية:

﴿... فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

الآية ٢٩ من «سورة الكهف»

تُعلن آيات: **﴿ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً﴾!**

الآية ٩٩ من «سورة يونس»

﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾!

الآية ١٣ من «سورة السجدة»

يقيناً..: **﴿ليس عليك هداهم ولكن اللّه يهدي من يشاء﴾!**

الآية ٢٧٢ من «سورة البقرة»

فإنما: ﴿... اللّه يُضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾.

الآية ٨ من «سورة فاطر»

﴿فمن يُرد اللّه أن يهديه يشرح صدره... ومن يُرِد أن يُضله يجعل صدره ضيّقاً حرجاً﴾!

الآية ١٢٥ من «سورة الأنعام»

ثم.. ثم... إذ تُعلن آية:

﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها﴾.

الآية ١٥ من «سورة الإسراء»

تعلن آيات:

﴿ومن يهد اللّه فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾.

الآية ٩٧ من «سورة الإسراء»

﴿... من يشاء اللّه يضلله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم﴾.

الآية ٣٩ من «سورة الأنعام»

﴿... مَن يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئاً أولئك الذين لم يرد اللّه أن يطهِّر قلوبهم﴾!

الآية ٤١ من «سورة المائدة»

﴿... ولو شاء اللّه لجمعهم على الهدى﴾.

الآية ٣٥ من «سورة الأنعام»

ثم.. ثم.. إذ تُعلن آية:

﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم...﴾!

الآي ٢٧ و٢٨ من «سورة التكوير»

تلحقها آية أخرى تقول:

﴿... وما تشاءون إلاّ أن يشاء اللّه﴾.

الآية ٢٩ من «سورة التكوير»

ثم.. ثم... إذ تستهل آية الحديث قائلة بأن هناك مَن كان إذا قرأ محمد عليه القرآن تولّى عنه و:

﴿... ولّى مُستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً﴾!

الآية ٧ من «سورة لقمان»

تُكمل هذه الآية نفسها مُتوعدة هذا الذي قد ولّى بعقاب أخروي أليم ومن ثم:

﴿... فبشره بعذاب أليم﴾!

الآية ٧ من «سورة لقمان»

ولكن!. هذا التولي إنما بأسبابه يعود إلى مشيئة اللّه، لأنه هو الذي، كما يسجّل «مصدر العقيدة» القائل:

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، وفي آذانهم وقراً﴾!

الآي ٤٥ و٤٦ من «سورة الإسراء»

ثم... ثم... إذ تعلن آية:

﴿.. ما أصابك من حسنة فمن اللّه، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

الآية ٧٩ من «سورة النساء»

تُعلن آية أخرى: **﴿... وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند اللّه﴾!**

الآية ٧٨ من «سورة النساء»

بهذا المزيج من اللّونين، الجبري والاختياري، الذي يأتينا عبر مختلف الآي ومن خلال المستقل بعضه عن البعض الآخر من الآي مُترع إنما «مصدر العقيدة» إلاّ أن اللونين يزدادان في نفس الآية الواحدة امتزاجاً فإنما في نفس الآية الواحدة تأتي الجبرية والاختيار والواحدة بالأخرى في تداخل تمتزج إذ بينما تستهل آية القول:

﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾.

تسترسل نفس هذه الصورة وتكمل المعنى المراد به من هذا القول قائلة:

﴿... وما تشاءون إلاّ أن يشاء اللّه﴾!

الآي ٢٩ و٣٠ من «سورة الإنسان»

والصنو تجيء، بين الكثير من الآيات، آية أخرى لا تستهل القول قائلة:

﴿سيقول الذين أشركوا؛ لو شاء اللّه ما أشركنا..﴾.

إلاّ وتُكمل نفسها قائلة:

﴿... كذّب الذين من قبلهم... فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾.

الآي ١٤٨ و١٤٩ من «سورة الأنعام»

يقيناً..: **﴿... لو يشاء اللّه ما أشركوا﴾.**

الآية ١٠٧ من «سورة الأنعام»

والصنو، يأتي آية أخرى لا تستهل القول قائلة إن:

﴿... مَن يهد اللّه فهو المهتد، ومَنْ يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه...﴾.

إلاّ تكمل نفسها قائلة:

﴿... ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم، كلما خبت زدناهم سعيراً﴾!

الآية ٩٧ من «سورة الإسراء»

وهكذا يأتينا من ثنايا القرآن، نفسه، اليقين بامتزاج آي الجبر بآي الاختيار بل وليس هذا فحسب وإنما القول بالجبر والقول بالاختيار يندغم بعضه ببعض اندغاماً حتى ليبدو أن من الصعب التفريق بين العقيدتين... ولكن!... إذا كان هذا اللون من المزيج والاندغام قد أترع الصفحات من «مصدر العقيدة» فليس إلاّ ليبهت اللون الاختياري شيئاً فشيئاً بينما يزداد اللون الجبري باستتباب الدعوة المحمدية سطوعاً بالآيات التي تتتالى سخية تُعلن الجبرية المطلقة وهي تترى في تدافع مُسجلة:

﴿... إن اللّه يفعل ما يريد﴾.

الآية ١٤ من «سورة الحج»

﴿.. إن اللّه يفعل ما يشاء﴾!

الآية ١٨ من «سورة الحج»

وإنه هو الذي:

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾.

الآية ٣١ من «سورة الإنسان»

وإنه هو الذي:

﴿... يغفر لمن يشاء ويُعذِّب من يشاء﴾.

الآية ١٨ من «سورة المائدة»

وإنه هو الذي:

﴿**يُعذّب من يشاء ويرحم مَن يشاء**﴾!

الآية ٢١ من «سورة العنكبوت»

فإنما اللّه: ﴿**يختص برحمته من يشاء**﴾!

الآية ٧٤ من «سورة آل عمران»

﴿**... يهدي اللّه لنوره من يشاء**﴾.

الآية ٣٥ من «سورة النور»

﴿**... ومن لم يجعل اللّه له نوراً فما له من نور**﴾!

الآية ٤٠ من «سورة النور»

﴿**ولا يحسبن الذين كفروا إنما نُملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين**﴾؟!

الآية ١٧٨ من «سورة آل عمران»

﴿**... فأمليت للكافرين ثم أخذتهم، فكيف كان نكير**﴾؟!

الآية ٤٤ من «سورة الحج»

يقيناً..: ﴿**... إنما يريد الشيطان أن يُوقع بينكم العداوة والبغضاء**﴾.

الآية ٩١ من «سورة المائدة»

ولكن... ﴿**... كذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زُخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾.

الآية ١١٢ من «سورة الأنعام»

من ثم قل: ﴿**... إن أرادني اللّه بضرٍّ هل هنّ كاشفات ضُرّه، أو أرادني برحمة هل هُنّ ممسكات رحمته**﴾؟

الآية ٣٨ من «سورة الزمر»

فإنما: ﴿**.. فضل اللّه يُؤتيه من يشاء**﴾.

الآية ٢١ من «سورة الحديد»

يقيناً: ﴿**... إن الفضل بيد اللّه يؤتيه مَن يشاء**﴾!

الآية ٣٩ من «سورة الحديد»

فيقيناً: **﴿ما يفتح اللّه للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مُرسل له من بعده﴾**!

الآية ٢ من «سورة فاطر»

فإنما هو الذي شاء لكل فردٍ ما هو عليه من درجة اجتماعية في الحياة:

﴿... نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾.

الآية ٣٢ من «سورة الزخرف»

فإنما: **﴿... هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾**!

الآية ١٦٥ من «سورة الأنعام»

ثم.. إنه هو الذي قد قدّر الأرزاق.. فإنما:

﴿اللّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾.

الآية ٦٢ من «سورة العنكبوت»

بل: **﴿... إن اللّه يرزق من يشاء بغير حساب﴾**.

الآية ٣٧ من «سورة آل عمران»

ثم... إنه هو الذي إذا ما أراد إهلاك قرية اتخذ إلى ذلك الوسائل التي يحدثنا عنها قائلاً:

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا﴾.

الآية ١٦ من «سورة الإسراء»

بل وحتى القتال لا يحدث إلاّ تبعاً لإرادته..:

﴿... ولو شاء اللّه ما اقتتلوا ولكن اللّه يفعل ما يُريد﴾!

الآية ٢٠٣ من «سورة البقرة»

﴿وما أهلكنا من قرية إلاّ ولها كتاب معلوم﴾.

الآية ٤ من «سورة الحجر»

﴿وما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾!.

الآية ٥ من «سورة الحجر»

إلى ألوهية من صفاتها في القرآن صفة المطلقية وطبيعتها مُطلق الإطلاق إنما تستند هذه الآي القائلة بالجبرية المطلقة وتفرغ نفسها في آي تتخذ مساند عقيدة الخلق وبمددٍ منها متعاقبة تجري تُصور أحداث الكون وأحداث الكائنات خاضعة لإرادة «تقدير العزيز الحكيم» وليس إلاّ لذلك كان قد قيل:

﴿ولو شئنا لأتينا كلّ نفس هداها ولكن حقّ القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾!

الآية ١٣ من «سورة السجدة»

ومن ثمّ... عبر هذه الآيات التي تصوّر الإله خالقاً مطلق التصرف في الكون والكائنات يأتينا اليقين بأن الكائنات والكون إنما أداة تحكمه جبرية تمتد من الكون إلى الكائنات وفيها تتحكم متحكمة في حياة الإنسان من المهد إلى اللحد. فالإله هو الذي يرفع درجات من يشاء ويُعز من يشاء ويذل من يشاء والإله هو الذي يرزق منٍ يشاء ويحرم من يشاء والإله هو الذي يهدي من يشاء ويضل مِن يشاء والإله هو الذي يُعذب من يشاء ويرحم من يشاء فإنما هو الذي يمنح المِنَح ويُنزل المِحَن.

وهنا... هنا يستقرّ بنا المطاف عند اليقين بأن اللون الجبري إنما اللون الثابت لاغتماره الصفحات من «مصدر العقيدة» اغتماراً تاماً كنتيجة حتمية لذلك المعتقد الذي اغتمر العقلية الإسلامية في الفترة الأخيرة من حياة صاحب الدعوة الإسلامية لأسباب كانت المقدمة الحتمية لواقعة «أُحد» كما كانت بالتالي النتيجة الحتمية لهذه الواقعة، ومن ثم فالجبرية إنما العقيدة الإسلامية الصحيحة المدعمة بدعامة واحدة جوهرية تقوم على أسس «عقيدة الخلق» ومن حولها يروح رجع الصدى معلناً بأن:

﴿...كل من عند الله﴾!

الآية ٨٧ من «سورة النساء»

هذا هو الإسلام...

هذا هو الإسلام بما يشتمل عليه من عقائد وأعمال تمثّل منه القواعد والأصول والأركان للإيمانين النظري والعملي وكل هذه مجتمعة، تمثل حجارة البناء منه كصرح يقوم على أسس الإيمان بصدق محمد وبعصمة ما قد تحدّر من شفتيه من كلام سجّله القرآن أو هذا الكتاب المقدس لهذا الدين الذي بناه هذا الفرد القُرشي من بيت هاشم ومن فرع عبد مناف وبه أقام دولة ما قام هو على رأسها سيداً يطوي الجناح منه الأرجاء من شبه الجزيرة العربية إلاّ وامتدت يد الزمن تُسطّر في سجل التاريخ الجديد من الأحداث التي لم تكن في الواقع إلاّ

الآثار التي ترتبت من جراء قيام هذه الدولة التي لئن كان قيامها أكثر من أثر، فإنما قد جاء قيامها بأكثر من أثر فليس إلاّ بقيام هذه الدولة قد وضع حدّ للنزاع الذي كان، منذ ثوى قُصيّ، قد استعر بين فرعي عبد الدار وعبد مناف على أي الفرعين إنما من الآخر الأحق باستخلاف قُصي على مُلك مكة وليس إلاّ بقيام هذه الدولة قد أخمد لظى التنافس الذي كان قد لفح فرع عبد مناف غداة بين بيتي هاشم وعبد شمس كان النزاع قد استحر لا فحسب على الاستئثار بالحكم السياسي في مكة وإنما على سيادة على العرب هي لئن تراجعت في مظهرها الرسمي، منذ أقسموا عند الكعبة على ألاّ يكون أي ملك بمكة قط، عن أن تكون ذات صبغة ملكية فإنما هي سيادة لها نفس ما قد كان لأصحاب العروش الرسمية عهد ذاك من نفوذ وسلطان. ومن هنا نرى كيف جاء قيام هذه الدولة بأثره في التاريخ السياسي لشبه الجزيرة فليس إلاّ بقيام هذه الدولة قد وحّدت القبائل التي كانت تمور بها أرض شبه الجزيرة بوحدة سياسية لئن كان قد عمل على تكوينها أكثر من عامل جوهري يقف في مقدمتها توالي الانتصارات التي ألهبتها حرارة الإيمان بالجبرية وبالتالي تتالى هوي السيف على بعض الرؤوس التي كنت تشمخ في عزة حتى المدى الذي شُلت به الأوصال من القبائل وحتى ذليلة سيقت إلى الحظيرة الإسلامية تحت وميض السيف المسلّط والناهل، فإنما على تثبيتها لم يعمل إلاّ ذلك المال الذي كان قد أغدق بسخاء على الرؤوس الأخرى حتى أمست بعد أن كانت لمحمد تأبى الانحناء له تستسلم في خضوع صاغر استسلاماً كلياً بينما نحو الإسلام كانت قد تحجّرت منها القلوب!.. ليس إلاّ بهذا المال الذي لم يعد إليه محمد في حاجة، وخاصة بعد أن أصبحت أرض «فدك» بعينها الغوّارة ونخيلها الكثير له ملكاً خاصاً بالإضافة إلى الخمس من أموال المسلمين، الذي كان من نصيب اللّه ونصيبه بجانب نصيبه الآخر من الخراج، قد استتبت الأوطاد من هذه الدولة وتوطّدت منها الأركان. ليس إلاّ بهذا المال الذي لم يعد إليه محمد في حاجة، بعد أن أصبحت أموال شبه الجزيرة مُلقاة تحت قدميه، والذي نثره على هذه الرؤوس نثراً ليجتذب نحوه منها القلوب كان أن انحنت في استسلام ظاهري الهامة من هذه الرؤوس وراحت، تحت ثقل الاستشعار بالجميل، تسلم الزمام إلى حكم هذه الدولة استسلاماً به بلغ محمد الهدف المرسوم. فليس إلاّ بهذه الوسيلة الآسرة للنفوس كان أن أمن محمد غولة النكوص من جانب هذه الرؤوس في نفس الوقت الذي حدّ به سلطانهم من تأليب القبائل التي كان يطويها منهم الجناح. ومن ثم رسخ على تربة الزمن الصرح من هذا الدين واستتبت الأسس من هذه الوحدة السياسية التي استقر بها لهذه الدولة ملك يتضاءل أمامه ملك العروش!.

ويقيناً!... يقيناً إنه لمُلك يتضاءل بجانبه حتى الاضمحلال، ملك العروش!. وإلاّ فأي

مُلك يُمكن أن يُقارن بهذه «الرسالة الإلهية» التي قورنت طاعة صاحبها بطاعة اللّه ومعصية صاحبها بمعصية اللّه وصاحبها الاعتقاد بأن أمر صاحبها إنما أمر اللّه؟!...

هذا هو في سجلّ التاريخ الديني تاريخ الدين الذي لا يصل بنا عبر مراحل تطوره إلى دولة إلاّ ويتجلّى صاحبه في أفق هذا التاريخ سيداً لا يغتمر منه الظل أرجاء شبه الجزيرة قاطبة إلاّ ليمتد على رقاع شاسعة من دنيا ذلك العصر في تحدّر عبر العصور حتى العصر الحاضر بسيادة مطلقة استمدت مطلقيتها من الإيمان بأن ما قد تحدّر من شفتيه إنما كلام اللّه وإنه لم يكن ممّن جاء على لسانه عنهم الوصف بأنهم:

﴿... يقولون هو من عند اللّه وما هو من عند اللّه ويقولون على اللّه الكذب وهم يعلمون﴾!

الآية ٧٨ من «سورة آل عمران»

ويقيناً...: **﴿أفلا يتدبّرون القرآن، ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**!

الآية ٨٢ من «سورة النساء»

يقيناً.. يقيناً إنه لو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً أم أليس:

﴿... لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾!.

الآية ٤٦ من «سورة الحج»

من ثم فيقيناً بأن الإسلام لم يسد الأرجاء من دنياه إلاّ بالمعاول التي عمل بها محمد في حفر أسسه وإلاّ بالضريم الذي أضرم به في النفوس وقدة الإيمان به التي سرى لهبها من جيل إلى جيل، فليس إلاّ تحت دافع لاهب من حرارة الإيمان بأن القرآن كلام اللّه ساد الإسلام كدين الأرجاء من دنياه وتحدّر حتى ساد الأرجاء من دنيانا سيادة بها تملأُ الآفاق الإسلامية من مُنشئه الصورة وتترع روعتها الأعماق من هذه الآفاق حتى المدى الذي لا يسع الفكر إلاّ أن يقف أمامها ذاهلاً تغتمره لجج الذهول بل وله من كل جانب تكتنف وهو يطيل التأمل فيها صورة صاغت السيوف لها إطاراً وفي يد صاحبها قضيب من الفضة نقش عليه: «محمد رسول اللّه» ليعود الفكر إلى نفسه ويُعاود التفكير مُفكراً في هذه القوة الخارقة التي اشتملت عليها طبيعة هذه الشخصية الفذة العجيبة التي لم تكن فحسب أعظم شخصية سياسية عرفتها دنيا شبه الجزيرة كلا ولا أقدر شخصية عرفها تاريخ العالم العربي كلا ولا أروع شخصية أشرقت على الشرق قاطبة كلا!.. وإنما شخصية لم يُوجد لها سبق مثال ولم

ير الشرق لها شبيهاً بما نفثته فيه من روح الإيمان بالإيمان بها عبر ذلك العبير الذي تمثل في ذلك السحر الفاغم الأخاذ الذي تأرجت به تأرجاً لم يعبق في جيلها فحسب وإنما تغلغل في ما قد تعاقب بعدها من الأجيال، فلقد تضوع منها الأرج النفاذ نافذاً من جيل إلى جيل كإرث توارثه الخلف عن السلف وعن الآباء الأبناء!.

ويقيناً... يقيناً منذ أشرقت هذه الشخصية على دنيا التاريخ الديني السياسي والسياسي الديني والعبير منها يتضوّع عبر الأجيال فالسحر منها لا فحسب لم يزايل الأرجاء وإنما عبقه به ما زالت الأرجاء يملأ آفاق العالم الإسلامي بأرج فاغم أخاذ يتركه أمام سحر هذه الشخصية المتأرجحة بشذى الألوهية مسحوراً!... عالم، لا تردّد حناجره أصداء الشهادة التي تنطلق من المآذن مرات خمس في اليوم الواحد، في بهير الليل وبهرة النهار وتهافته وفي الأصابيح الأضحاء إلاّ ومن جديد تهبّ في أرجاء الفكر عن صاحبها الذكريات وإلاّ ومن جديد ليطرق المسمع هدير الأصوات وصليل السيوف بل وليتسارع في أفق المخيلة لهذه السيوف التماع يُنير وميضه المعالم من هذه الصورة التي يقف في إطارها هذا السيد من بيت هاشم وسليل فرع عبد مناف ومن تحت قدميه ترتسم بقعة من الأرض يغمرها منه الظل ويغتمرها بينما بيد ينثر المال معاول تُفتّت ما قد تحجر نحوه من القلوب وبالأخرى يحمل من علامات الإمارة والملك ذلك القضيب من الفضة الذي نقش عليه مركزه الديني ويُقدّم للأجيال، برهان صدقه، القرآن!

صورة... صورة تعهدها بالصون إيمانٌ توارثه عن السلف الخلف وأحاطها بالنفس منه حتى المدى الذي درأ به عنها العواصف التي هبّت من حولها عاصفة في نفس داخل الصرح الإسلامي غداة امتدت من أعماق شبه الجزيرة الموجات من هذه الدولة هادرة يقفو بعضها بعضاً تغتمر الشرق والغرب القديم بينما في اكتساح جارف راحت تُديل الدول وتقوض الإمبراطوريات وتلقي في خزائنها ما قد اختزنته خزائن هذه الدول والإمبراطوريات من أموال وخاصة «كنوز كسرى وأموال قيصر» وتقيم على أنقاض هذه الإمبراطوريات الهاوية إمبراطورية لها تستند عروش الخلفاء منها على دعامة واحدة هي خلافة محمد في حكم المؤمنين بمحمد وتقوم منها القوائم على صدق ما قد تناولته منه من كتاب هو هذا الذي لا نقرأه بحسب الترتيب التاريخي لسُوَره وفي ضوء الأحداث التي كانت السبب في تكوّن آياته إلاّ وتزداد شخصية محمد سطوعاً على سطوع وإلاّ وتنحسر الأسس التي يقوم عليها الصرح من هذا الدين الذي غدا، منذ غدا دولة، ديناً رسمياً يورثه الآباء للأبناء ديناً منزلاً ويتوارثه عن السلف خلف نمت في أعماقه بذرة الإيمان به وأثمرت عن اليقين بأنه الوحيد، من بين الديانات العالمية قاطبة، الدين الحق استناداً إلى الفقرة الخطيرة من «الكَلِم»

التي جاءت في ختام الدعوة تقول:

﴿... الدين عند اللّه الإسلام﴾.

ويقيناً.. ويقيناً ليس إلاّ عملاً بهذه الآية يقف الإسلام، منذ ذلك العهد حتى هذا العهد، ديناً عالمياً مُنِعَ منه الصرح وشمخت منه الذروة على حجر أساسي واحد هو الإيمان بأن هذا القول الذي تحدّر من شفتي محمد ليس إلاّ ترجيعاً لوحي الإله الذي استغرق من حياة محمد فترات النضوج الذهني لعهد الكهولة وجاء مسجلاً في هذا «السجلّ» الذي له قد تناولنا وهدير الأجيال من حولنا به تحف مُدوية بقدسيته كتاباً تنزّل عبر الأجيال مُنزلاً لأكثر من ألف وثلاثمائة دورة للقمر حول الأرض!..

خلال كل هذه الدورات للقمر حول الأرض وللأرض حول الشمس والقرآن سجلّ يؤمن به العالم الإسلامي منزلاً من لدن الإله وأن الآي منه كَلِم الإله وأنه منبع للبلاغة اللفظية والإعجاز بآيه التي تكونت خلال تلك السنوات التي شُحنت بالخطير من الأحداث التي أدّت لا فحسب إلى انقلاب سياسي شامل شمل أرجاء شبه الجزيرة قاطبة وإنما إلى انقلاب فكري وديني وعقيدي هز أرجاء شاسعة من الدنيا القديمة وترك على الحياة الفكرية والسياسية والعقيدية في دنيا الشرق الراهن طابعه الذي لا يعود بأسبابه إلاّ إلى المراحل التي قطع محمد أشواطها عبر حياة تاريخها ما قد مررنا به من تاريخ رسخ في نهايتها عنه الاعتقاد بأنه رسول آخر الزمان وخاتم الأنبياء وأن من مكة على متن دابة مُجنّحة به أسري إلى «الروح» إلى «بيت المقدس» ومنه به عرج إلى «السماء» حتى لجّ به «السماء السابعة» التي يقوم فيها «عرش الرحمن» ثم عاد بعد ذلك إلى الأرض دافعاً إلى الناس هذا «الكتاب»، هذا «الكتاب» الذي لم تعجز قط بلاغته اللفظية العرب وهم أهل البيان واللسن والفصاحة والفطن كلا، ولا أعجزهم ما فيه من بيان فهم الذين وقعوا على مواقع البلاغ واستدلوا على مواضع البراعة وتوغلوا إلى حيازة المحاسن اللغوية وجمعوا رصانة الكلام إلى سلاسته ومتانته إلى عذوبته والاقتصاد في معناه إلى تحسين لهجته كلا ولم تعجز البلاغة اللفظية للقرآن العرب وهم إنما الذين أبدعوا البديع وأحدثوا التشبيه وأوجدوا التمليح والتصرف الكثير في الوجوه التي ينقسم إليها الكلام من صناعة وصياغة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة. فلقد كان فيهم القُرشي ذو اللفظ الجذل والمنزع القوي والحضري ذو البلاغة والتصرف في القول القليل والمضري ذو الكلم الرسين والبدوي الرقيق الحاشية الملتهب عبارات التعبير للسبب، لم تعجز البلاغة اللفظية للقرآن العرب وإنما أعجزهم منه البرهان الذي يُقدمه، نفسه، دلالة على إعجازه وهو قوله بأن لا الإنس وحدهم وإنما الجان لا يمكنهم أن يأتوا بمثل آية واحدةٍ من

هذا «الكتاب» الذي تجاهه وقف البعض، ممّن لم يضمهم نطاقه ولم يسحرهم سحره، فرموه في غير تحرج بالخيال السقيم والعوز في المنطق والفقر المدقع في الأفكار والاضطراب والنبو وعدم الاتساق وأن صاحبه كان لا يتحرج في اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان فيه خيالياً لا سلطان له على عواطفه كان بدوره السبب الذي أودع في يديه سُلطة خارقة على عقول كانت لم تنبثق فيها مخابل الذكاء بعد في الوقت الذي كانت تثب على قلوبهم روعة ذلك الوصف الذي جاء سخي القول بذكر عاد وثمود والجنة والنار وتفعل أفاعيلها في نفوسهم لا سيما وأنهم ما كانوا يسمعون إلاّ لبعض آي قلقة مضطربة في وقت واحد وآنٍ واحد صرفهم عن التنبّه إلى تناقضها لا فحسب لأنهم كانوا ضعيفي الفهم قليلي الإدراك لم تشرق عقولهم بنور الفكر بعد وإنما لانصرافهم إلى حياة الغزو التي قادهم إليها هذا السيد من بيت هاشم الذي أنشأ أُمة وأقام مملكة وجاء بديانة بها وضعت عبقريته أساس نظام ديني سياسي وسياسي ديني ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة والذي جاء نجاحه كمشرّع بين أقدم الأمم الآسيوية وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في سائر نواحي الهيكل الاجتماعي دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كوّنه مزيج خصب من كفايات مجموعة من العباقرة نادرة برهانها هذا «الكتاب» الذي تعلّق به أنفاس المسلمين رهبة وخشوعاً وترتاع نفوسهم لذكر ما فيه بينما تثب على قلوبهم روعة ما فيه من وصفٍ وتفعل أفاعيلها في نفوسهم والذي عليه، وحده، تستند عصمة الدعوة المحمدية كرسالة إلهية ويقوم عليه صرح الإسلام كدين!...

* * *



الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين

«نحو آفاق أوسع» لأبكار السقاف في أجزائه الأربعة صودر عام ١٩٦٢ لجرأته العقلية والعلمية ، وظلت كتاباتها مطمورة كالكنوز تحت ركام النسيان والتجاهل ، إلا أن شقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» ظلت حارسة لهذا الكنز محافظة عليه ، حتى يخرج إلى النور ، كما أرادت له صاحبته ، وكما تمنت أن يكون بستاناً عظيماً يقطف منه العقل الإنساني . وسيذهل العقل العربي عندما يطلع على كتابات هذه السيدة المنسية .

إننا بنشرنا كتابات أبكار السقاف نحاول أن نضع أفكارها كما هي ، حيث حرية الإنسان والبحث عن العقل في عالم متماوج ومتغير ، في عالم تحده أمراض التكفير والقتل المجاني والموت العبثي .

تتألف سلسلة «نحو آفاق أوسع» من أربعة أجزاء هي :

- الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين
- الدين في الهند والصين وإيران
- الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين
- الدين في شبه الجزيرة العربية